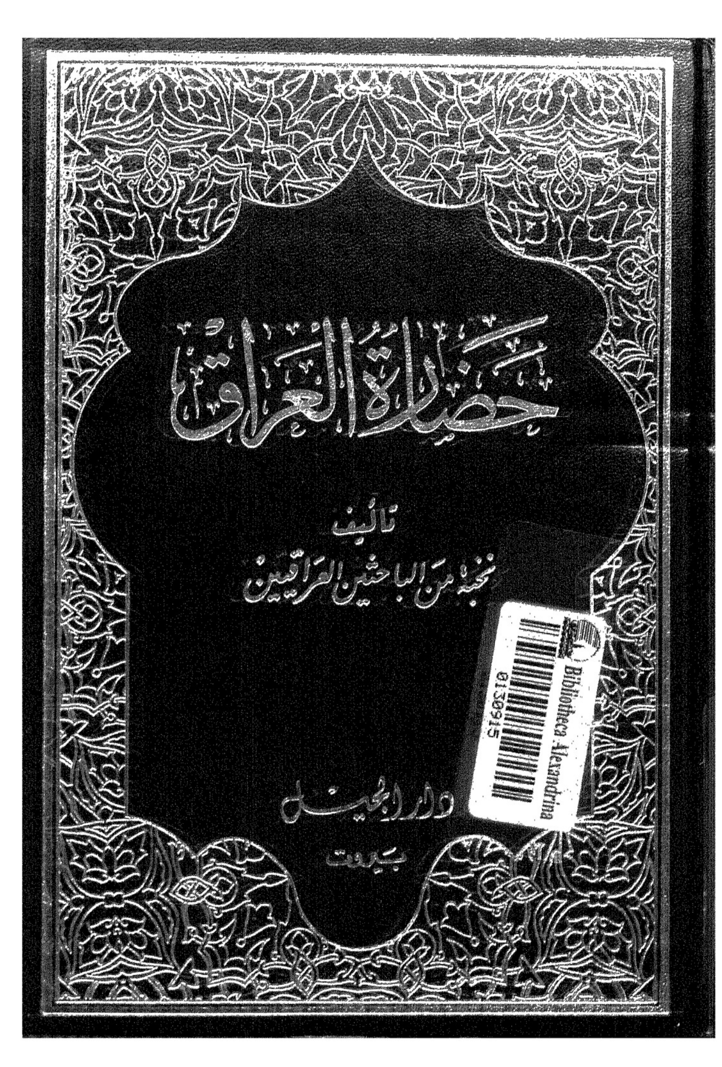

حضارة العراق
تأليف
نخبة من الباحثين العراقيين
دار الجيل
بيروت
Bibliotheca Alexandrina
0130915



تأليف

نخبة من الباحثين العراقيين

الجزء السابع

بغداد ١٩٨٥

العصور العربية الإسلامية

(٣)

العلوم الدينية واللغوية

الفصل الأول

علوم القرآن الكريم

د . احمد نصيف الجنابي
كلية الاداب ـ الجامعة المستنصرية

القرآن الكريم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وقد اختار الله سبحانه نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم من بين سائر العرب، ليكون حامل لواء الدعوة الى هذا الكتاب العزيز رحمةً للعالمين .

فقال عَزَّ مِنْ قائل : (وما أرسلناكَ إلا رحمةً للعالمين) ، (سورة الانبياء آية ١٠٧) وجعل العرب المؤمنين حملةهذه الرسالة الىالناس كافة .وقد ساهم كل العرب المؤمنين برسالة الاسلام في خدمة القرآن الكريم والتأليف في علومه المختلفة وتلك منزلة ما بعدها منزلة .

وكذلك فعل المسلمون من غير العرب لان رسالة الاسلام رسالة عالمية. لكن الذى لفت نظري وانا اسجل هذه العلوم القرآنية ان اهل العراق ساهموا مساهمة فعالة في هذه العلوم .. وكان لهم القدح المُعَلّى في قسم منها ولا سيما (نقط المصاحف) و (القراءات) والتفسير ولا سيما في مراحله الاولى . وان اول مدرسة للتجويد نشأت في العراق اسسها الصحابي الجليل

عبدالله بن مسعود (المتوفى ٣٢ هـ ,٦٥٢ م) وساهموا كذلك في بقية علوم القرآن اذ لا يخلو علم من تلك العلوم من مساهماتهم الجليلة .

ومهمتي في هذا الفصل من كتاب (حضارة العراق) ان ابين مساهمات علماء العراق في ميدان علوم القرآن مرتبة ترتيبا زمنيا ..

ومنهجي في البحث انني تتبعت كل علم منذ نشأته حتى سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م ولم اتجاوز هذا التاريخ الا للضرورة الموضوعية . وكان البحث يقتصر على ذكر علماء العراق في كل علم من علوم القرآن شاركوا فيه ، ولم اذكر غيرهم الا في حالات نادرة يقتضيها تكامل الموضوع ..

وقد جعلت الفصل في احد عشر مبحثاً :

المبحث الاول : نزول القرآن وجمعه وتدوينه (وهو مبحث تمهيدي للدخول في الموضوع)

المبحث الثاني : في علم العدد (آَيْ° : عدد آي القرآن وكلماته وحروفه)

المبحث الثالث : علم نقط المصاحف .

المبحث الرابع : علم رسم المصاحف (هجاء المصاحف) .

المبحث الخامس : علم القراءات .

المبحث السادس : علم التجويد .

المبحث السابع : علم الوقف والابتداء .

المبحث الثامن : علم متشابه القرآن .

المبحث التاسع : علم التفسير .

المبحث العاشر : علم أسباب النزول .

المبحث الحادى عشر : علم الناسخ والمنسوخ .

(١)

نزول القرآن الكريم وجمعه وتدوينه

لو ألقى الباحث نظرة فاحصة الى وضع الانسانية وعقائدها قبيل نزول القرآن بيوم واحد .. لرأى ركاماً هائلاً من العقائد والتصورات والفلسفات والاساطير والافكار والاوهام والشعائر والتقاليد يختلط فيها الحق بالباطل والصحيح بالزائف والدين بالخرافة والفلسفة بالاسطورة .. والضمير البشري تحت هذا الركام الهائل يتخبط في ظلمات وظنون لا يستقر منها على يقين ، والحياة الانسانية بتأثير هذا الركام الهائل تتخبط في فساد وانحلال وفي ظلم وذل وفي شقاء وتعاسة لا تليق بالانسان .

وكان التيه الذى لا دليل فيه ولا هدى ولا نور ولا قرار ولا يقين .. هو ذلك التيه الذى يحيط بتصور البشرية لالهها وصفاته وعلاقته بالكون وعلاقة الكون به ، وحقيقة الانسان ومركزه في هذا الكون وغاية وجوده الانساني ومنهج تحقيقه لهذه الغاية ونوع الصلة بين الله والانسان على وجه الخصوص ..

ومن هذا التيه ومن ذلك الركام كان ينبعث الشر كله في حياة البشرية ومن الانظمة التي تقوم عليها حياتها .

ولم يكن مستطاعاً أنْ يستقر الضمير البشرى على قرار في امر هذا الكون وفي امر نفسه وفي غاية وجوده وفي منهج حياته وفي الارتباطات التي تقوم بين الانسان والكون والتي تقوم بين افراده هو وتجمعاته .. لم يكن مستطاعاً ان يستقر الضمير البشري على قرار في شيء من هذا كله قبل ان يستقر على قرار في امر عقيدته وفي امر تصور الهه وقبل ان ينتهي الى يقين

واضح من وسط هذا العماء الطاغي وهذا التيه المضل وهذا الركام الثقيل ..
في هذه اللحظات نزل القرآن الكريم :

(إنّا أنزلناه في ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر تنزّل الملائكة والروح فيها باذن ربّهم من كلّ أمر سلام هي حتى مطلع الفجر) .

انزل على محمدالنبي الكريم عليه الصلاة والسلام ان :
(اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربّك الاكرم الذى علّم بالقلم علّم الانسان ما لم يعلم) .
في هذه اللحظة بدأ عهد جديد في حياة الانسان ..

أما آثار هذا الحادث الهائل في حياة البشرية فقد بدأت منذ اللحظة الاولى بدأت في تحويل خط التاريخ منذ أن بدأت في تحويل خط الضمير الانساني منذ ان تحددت الجهة التي يتطلع اليها الانسان ويتلقى عنها تصوراته وقيمه وموازينه . إنها ليست الارض وليس الهوى انما هي السماء والوحي الالهي لقد ولد الانسان من جديد باستمداد قيمه من السماء لا من الارض واستمداد شريعته من الوحي لا من الهوى .

ومنذ تلك اللحظة عاش اهل الارض الذين استقرت في أرواحهم هذه الخقيقة في كنف الله ورعايته المباشرة الظاهرة عاشوا يتطلعون الى الله مباشرة في كل امر من امورهم يحسّون ويتحركون تحت عين الله ويتوقعون أن تمتد يده ـ سبحانه ـ فتنقل خطاهم في الطريق خطوة خطوة تردّهم عن الخطأ وتقودهم الى الصواب .

إنه الحادث الفذّ في تلك اللحظة الفريدة الحادث الكوني الذى ابتدأ به عهد في هذه الارض وانتهى عهد ، والذى كان فرقاناً في تاريخ البشرية لا في تاريخ أمّة ولا جيل .

ولقد ظلت آثار تلك اللحظة تعمل في حياة البشرية منذ اللحظة الاولى الى هذه اللحظة الى أنْ يَرِثَ اللهُ الارضَ ومَنْ عليها .

ومن لطف الله بامة محمد صلى الله عليه وسلم أنْ أَنزل كتابه العربيّ المبين وقد بلغت اللغة العربية غاية الكمال والجمال وبعدما تخلصت من انقسام اللهجات إلاّ في جزئيات قليلة ستأتي ، فتولدت اللغة المشتركـة التي كان يَنْظِمُ بها الشعراء قصائدهم ويقرأونها في اسواق العرب قبل الاسلام .

ووجه الحكمة في هذا أنّ اللغة العربية اصبحت قبيل نزول القرآن الكريم تُعَبِّرُ عن ظواهرَ عامةٍ وقواعدَ مُحْكَمَةٍ ولم تَعُدْ تعبّر عن فوارقَ لَهْجِية متعددة متضاربة وبهذا صارت أهلاً للتعبير عن أُمة وَحّدها رسولُ الله صَلى الله عليه وسلم بكتاب الله العزيز .

ومن معجزات القرآن الكريم ان الله سبحانه وتعالى قد اختار نبيه من اوسط العرب حسباً ونسباً ، ومن أعظم الناس خُلقاً ، وقد شهد له بذلك ربه عزوجل فقال : (وإنّكَ لعَلى خُلُقٍ عَظيمٍ) ، (سورة القلم آية ١٧) وكفى بالله شهيداً ..

ومن معجزات القرآن الكريم أنّ الله سبحانه وتعالى قد يَسَّرَ له من صحابة رسوله الكريم من يحفظه عن ظهر قلب ويتقنه ويعلم تفسيره ويفهم دقائقه وتفاصيله ومنهم الخليفتان عثمان وعلي رضي الله عنهما وأُبَيّ بن كعب وزيد بن ثابت وابن مسعود وابو الدرداء .

ومن لطف الله بعباده انه انزل الكتاب العزيز على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم مُنَجَّماً (اى : مجزأ) قد تنزل الآية او الآيات وغالبا مـا تكون عشر آيات كما ثبت من حديث عبدالله بن مسعود الذى رواه الكثيرون وقليلاً ما كانت تنزل السورة كاملة والسِرّ في ذلك تولاه الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم بقوله عزوجل (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه

القرآن جملة واحدة) . (سورة الفرقان آية ٣٢) يعنون : كما انـزل على مَنْ قَبْلَكَ من الرسل .

فاجابهم بقوله (كذلك لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتّلناه تَرتيلاً .

اى : انزلناه كذلك مفرقاً (لنثبت به فؤادك) اى لنقوى به قلبك فانّ الوحيَ اذا كان يتجدد في كل حادثة كان أَقوى وأشدَّ عناية بالمُرْسَلِ اليه ، ويستلزم ذلك كثرةَ نزول جبريل عليه السلام ، وتجديد العهـد معه ، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة .

وقيل معنى (لنثبت به فؤادك) لتحفظه على مهل ومُكْثٍ ففي تجزئة تنزيله يتيسر عليه حفظه . وكلاهما صحيح ومقصود بقوله تعالى (لنثبت به فؤادك) والله اعلم بمراده .

ومن معجزات هذا الكتاب العزيز أنّ الله سبحانه وتعالى هَيّأَ لـه من يجمعه على عهد رسـوله كأبَيّ بن كعب وعبدالله بن مسعود ، جمعاً تامـاً ويحفظه حفظاً كاملاً مع العلم والاتقان والدراية حتى قال ابن مسعود :

(كنا نَتَعلّمُ من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات فما نتعلّمُ العَشْرَ التي بَعْدَهُنّ حتى نتعلّمَ ما أَنزل الله في هذه العشـر من العمل .. والذي لا إله غيره لو أعلمُ أحداً أعلم بكتاب الله مِنّي تبلّغنيه الإبلُ لرحلتُ إليه) .

ومن معجزات هذا الكتاب ان الله سبحانه وتعالى هيأ له من يجمعه بين الدّفتين وهو ابو بكر الصديق رضى الله عنه . قال الامام الحارث بن اسد المُحاسبيّ في كتابه : (فَهْم السُّنَن) : (كتابة القرآن ليست محدثة فانه صلى الله عليه وسلم امر بكتابته ولكنه كان مفرقاً في الرقاع والاكتاف والعسب وانما امر الصديق بنسخها من مكان الى مكان وكان ذلك بمنزلـة اوراق وجدتْ في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها القرآن منتشر فجمعها جامع وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء) .

ثم هيأ له من يجمعه على حرف واحد وهو عثمان بن عفان الخليفة الراشد رضى الله عنه •

قال ابو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ/١٠١٢) في كتابه (الانتصار) :

(لم يقصد عثمان قصد ابي بكر في جمع المصحف بين لوحين وانما قصد جمعه على القراءة الثابتة المعروفة عن النبي صلى الله عليه وسلم والغاء ما ليس كذلك واخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير ولا تأويل) •

قال ابو عبدالرحمن السلمي : عبدالله بن حبيب بن ربيعة المتوفى سنة ٧٣هـ : (كانت قراءة ابي بكر وعمر وعثمان وزيد بن ثابت والمهاجرين والانصار واحدة كانوا يقرأون القراءة العامة وهي القراءة التي قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم على جبريل في العام الذى قُبِضَ فيه ، وكان زيد بن ثابت قد شهد العَرضة الاخيرة وكان يُقرىء الناس بها حتى مات ولذلك اعتمد عليه الصديق في جمعه وَوَلاّهُ عثمان كتابةَ المصحف) •

ويعد العمل الذى قام به عثمان بن عفان رضى الله عنه حين جمع المصحف الامام اعظم عمل يمكن ان يقوم به مسلم تجاه كتاب الله بشهادة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين شهد الله لهم سبحانه وتعالى في كتابه بالايمان والصدق واحبهم ووالاهم في كثير من الآيات قال تعالى في الآية ١٨ من سورة الفتح : (لقد رَضِيَ اللهُ عن المؤمنين إذْ يبايعونكَ تحت الشجرة ، فعَلِمَ ما في قلوبِهِمْ فأنْزلَ السَّكِينةَ عليهم وأثابَهُمْ فتحاً قريباً) •

وقال تعالى في آخر السورة (محمد رسول الله والذين معه أشِدّاءُ على الكُفّارِ رُحماءُ بينهم تراهُمْ رُكّعاً سُجّداً يبتغون فَضلاً من الله ورضواناً سِيماهُمْ في وُجُوهِهِمْ مِنْ أثَرِ السُّجود) •

وذكر المهاجرين ثم الانصار في الآيتين الثامنة والتاسعة من سورة الحشر فقال عز من قائل :

(للفقراء المهاجرين الذين أُخْرِجوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلاً من الله ورِضواناً وينصُرون الله ورسولَهُ اولئك هُمُ الصادقون) .

(والذين تبوءوا الدارَ والايمانَ من قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجر إليهِمْ ولا يَجِدون في صدورهم حاجةً مِمّا أُوتوا ، ويؤثرون على انفسِهِمْ ولو كان بهم خصاصةٌ ، ومَنْ يُوقَ شُحَّ نفسه فاولئكَ هُمُ المفلحون) .

(٢)

عدد آى القرآن وكلماته وحروفه (علم العدد)

لقد هَيّأ الله سبحانه وتعالى لكتابه العزيز أُناساً حفظوه عن ظهر قلب تحقيقاً لبعض المراد من الآية الكريمة : (إنّا نحن نَزّلْنا الذِكْرَ وإنّا لهُ لحافِظون) .

كما هيأ له من امة القرآن من يضبطه ضَبْطَ إعجام وضبط إعراب كما حدث على يد علمائنا الافذاذ : ابي الاسود الدؤلي ونَصْرِ بنِ عاصم ويحيى بنِ يَعْمَرَ ثم الخليل بن احمد الفراهيدى .. وهيأ له من بعد من احصى كلماته وحروفه وآياته وسوره ، وهيأ له من يضبط قراءته كما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم قُراء القرآن من السبعة والعشرة وغيرهم ممن يثبت قراءته بالتواتر لان القرآن الكريم لا يؤخذ بروايات الافراد والشواذ .

اما عدد كلمات القرآن الكريم فهي : سبع وسبعون الف كلمة واربعمائة وسبع وثلاثون كلمة (٧٧٤٣٧ كلمة) .

اما عدد حروفه فهي ثلاثمائة الف حرف واحد وعشرون الف حرف(٣٢١٠٠٠ حرف) . لكنهم اختلفوا في عدد الآيات وهذه مسألة واضحة وسبب الاختلاف

كما قال العلماء أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يقف عند رؤوس الآيات للتوقيف ، اذا علم محلها وصل للتمام فيحسب السامع انها ليست فاصلة .

ان المتتبع لاسانيد أهل العدد اختلفوا في عدد من الامصار العربية الاسلامية الخمسة التي وجه اليها الخليفة الراشد (عثمان) نسخ المصحف الذى كتبه باجماع الصحابة يجد انها ترجع الى الصحابة . فاسناد العدد عند اهل الشام يرجع الى الصحابي الجليل ابي الدرداء عويمر بن زيد بن غنم الانصارى الذي ولي قضاء دمشق وهو احد الذين جمعوا القرآن حفظا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعنه اخذ عبدالله بن عامر أحَدُ القرّاء السبعة (ت ١١٨ هـ/٧٣٦ م) وهو مقرىء اهل الشام . وروى القراءة عن الاخير يحيى بن الحارث الذِمَاريّ مؤلف كتاب (عدد اهل الشام) .

اما عدد اهل المدينة فقد الف فيه نافع بن ابي نُعيم المَدَنِيّ (المتوفى ١٦٩ هـ/٧٨٥م) وقد رواه عن استاذيه المدنيين شيبة بن نصاح (المتوفى ١٣٠هـ /٧٤٧م) وابي جعفر يزيد بن القعقاع المدني (ت ١٣٠هـ/٧٤٧م) وعرض القرآن يزيد بن القعقاع على الصحابي الجليل حبر الامة ابن عباس وعلى ابي هريرة . ولابن عباس (كتاب في العدد) ذكره (ابن النديم) في الفهرست .

وهكذا نستطيع ان نرجع كل اسانيد اهل العدد الى الصحابة رضوان الله عليهم .

اما منهج البحث الذى ارتضيته في ايراد مؤلفات اهل العدد فهو المنهج المقسم حسب الامصار الخمسة التي وُجّهَتْ اليها المصاحف مع الاخذ بالترتيب الزمني ضمن المِصْرِ الواحد . فهو منهج يجمع بين التقسيم القطري والترتيب الزمني وهو :

عدد اهل الكوفـــــه

ـــ كتاب العدد لخلف بن هشام البزار (المتوفى ١٢٩هـ/٧٤٦م) .

ـ كتاب العدد لحمزة بن حبيب الزيات (المتوفى ١٥٦ هـ/٧٧٢ م) •
ـ كتاب العدد لعلي بن حمزة الكسائي (ت ١٨٩هـ/٨٠٤م)•
ـ كتاب العدد لمحمد بن عيسى التميمي (ت٢٥٣هـ/٨٦٧م) • وهو تلميذ نصير بن يوسف والاخير تلميذ الكسائي •

عدد اهل البصـــــرة

ـ كتاب العدد للحسن بن ابي الحسن البصري (ت ١١٠هـ/٧٢٨م) •
ـ كتاب العدد لعاصم بن الحجاج الجحدري (ت ١٢٨هـ/٧٤٥م) وهو تلميذ نصر بن عاصم •

عدد اهل المدينـــــة

ـ كتاب عدد المدني الاول لنافع بن ابي نعيم (ت ١٦٩هـ/٧٨٥م) •
ـ كتاب العدد الثاني لنافع ايضا •
ـ كتاب عدد المدني الاخر لاسماعيل بن جعفر بن ابي كثير (ت ببغداد سنة ١٨٠ هـ/٧٩٦ م) •

عدد اهل مكـــــة

ـ كتاب العدد لعطاء بن يسار (ت ١٠٢هـ/٧٣٠م)
ـ كتاب حروف القرآن عن خلف بن هشام البزاز (ت ١٢٩هـ/٧٤٦م) •

عدد اهل الشـــــام

ـ كتاب العدد ليحيى بن الحارث الذماري (ت ١٤٥هـ/٧٦٢م) أشهر القرّاء في وقته ، بالشام •
ـ كتاب العدد لخالد بن معدان
ـ كتاب العدد لوكيع بن الجرّاح (ت ١٩٧هـ/٨١٢م)
وعنوان كتابه الكامل (كتاب اختلاف العدد على مذهب اهل الشام وغيرهم) •

وبعد .. فان هذه المؤلفات تعد الاساس الذى بنى عليه المؤلفون في (علم العدد) فيما بعد .. والا فمن اين يأتون بمثل هذا العلم الدقيق ؟

(٣)

علم نقط المصاحف

يعد علم نقط المصاحف تمهيدا لظهور الدراسات النحوية واللغوية في اعراب القرآن الكريم ومعانيه .

وتجمع الروايات التاريخية على ان اول من نقّط المصاحف تنقيط اعراب هو ابو الاسود الدؤلي (ظالم بن عمرو ت ٦٩هـ/٦٨٨م) اذ وضع نُقَطاً ترمز للحركات الثلاث الفتحة والضمة والكسرة وللتنوين . ويبدو منهج ابي الاسود الدؤلي واضحا من الخطاب الذى وجهه الى كاتبه اذ قال (اذا رأيتني لفَظْتُ بالحرف فَضَمَمْتُ شفتي فاجعل أمامَ الحرف نقطة فاذا ضممت شفتي بغُنّة ـ ويريد بالغنة التنوين ـ فاجعل نقطتين فاذا رأيتني قد كسرت شفتي فاجعل اسفل الحرف نقطة فاذا كسرت شفتي بغنة فاجعل نقطتين فاذا رأيتني قد فتحت شفتي فاجعل على الحرف نقطة فاذا فتحت شفتي بغنة فاجعل نقطتين) .

فهذه البداية .. او هي الخطوة الاولى ثم تلتها خطوات .

وقد اخذ عن ابي الاسود تلميذه نصر بن عاصم الليثي (ت سنة ٨٩ هـ/ ٧٠٧ م) ويحيى بن يعمر (المتوفى ٨٣ هـ /٧٠٢ م) .

ويذكر الجاحظ في « كتاب الامصار » أنّ نصر بن عاصم اول من نقط المصاحف وذكر ابو بكر الزبيدي (ت ٣٧٩ هـ/٩٨٩م)في كتابه«طبقات النحويين واللغويين » أنّ ابن سيرين كان له مصحف نقطه له يحيى بن يعمر . وهذا

كله محمول على انهما كان يعملان هذا العمل احترافاً متبعين في ذلك منهج استاذهما البصرى ابي الاسود الدؤلي ٠

ثم خطا الخليل بن احمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ/٧٩١م)الخطوة الثانية التي دفعت النقط الاعرابي الى الامام واعطته صورته النهائية في عالم العربية كلها وليس في عالم المصحف الكريم وحده ٠

ان العمل الذى قام به هذا الرجل الفذ انه اعطى الحركات المعروفة الآن (الفتحة والضمة والكسرة) الصورة النهائية ٠

ووضع رموزاً للشَدّة وللهمزة وهي قضايا تؤثر تأثيراً كبيرا في صحة النطق ٠٠

وهؤلاء الافذاذ العراقيون كلهم من أهل البصرة وتبعهم كل العالم ، الاسلامي باتفاق اهل العلم ٠قال ابو حاتم (سهل بن محمد المتوفى ٢٥٥هـ/٨٦٨م) (والنَّقْطُ لأهلِ البصرة أَخَذَهُ الناس كلهم عنهم حتى أهلُ المدينة وكانوا ينقطون على غير هذا النقط فتركوه ونقطوا نقط أهل البصرة) ٠

وعقب على ذلك ابو عمرو الداني (المتوفى ٤٤٤ هـ/١٠٥٢م) وهو من اوثق من ألف في النقط والشكل واكثرهم سعة بقوله : « هذا الذى قاله ابو حاتم من ان أهل المدينة أخذوا النقط عن أهل البصرة صحيح ثم اخذ عن اهل المدينة عامة أهل المغرب من الاندلسيين وغيرهم » ٠

واول من ألَّفَ كتاباً في النَّقْطِ والشَّكْلِ (الخليل بن احمد الفراهيدى) ثم صنف بعد ذلك جماعة من النحويين والمقرئين (وسلكوا فيه طريقه واتَّبَعُوا سنَّته واقتدَوا بمذاهبه)

ومن هؤلاء المتأثرين بمنهج الخليل وطريقته : ابو محمد يحيى بن المبارك اليزيدي (المتوفى ٢٠٢هـ/٨١٧م) وهو اشهر تلاميذ ابي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ/٧٠٧ م) في القراءات ٠ ومنهم ابناؤه الثلاثة ابراهيم بن يحيى (المتوفى ٢٢٥ هـ /٨٣٩ م) وعبدالله بن يحيى (المتوفى ٢٣٧ هـ/ ٨٥١ م)

ومحمد بن يحيى (٢٢٧هـ/ ٨٤١ م) وكل واحد من هؤلاء له كتاب في النقط .
ومنهم ابو اسحاق ابراهيم بن سفيان الزيادي (المتوفى ٢٤٩ هـ/٨٦٣ م) .

غير أنّ نفراً من المبدعين طوروا طريقة الخليل او حسنوها ومن هؤلاء : ابو حاتم السجستاني ، النحوي البصري . وهو مقرىء مشهور أيضا .. وقد وصف ابن النديم كتاب ابي حاتم في (النقط) بانه (يحتوى على جداول ودارات) .

ومن الذين ألّفوا في هذا الموضوع من علماء القرن الرابع الهجرى ابو بكر بن السراج البغدادي(المتوفى ٣١٦هـ/٩٢٨م)وهو تلميذ المبرد وصاحب كتاب(اصول النحو)وكذلك الف المقرىء البغدادي المشهور ابو بكر بن مجاهد صاحب كتاب السبعة (المتوفى ٣٢٤هـ/٩٣٥م) كتابا في النقط والشكل وقد نقل منه الداني في كتابه (المحكم في نقط المصاحف) نَصّاً يقول فيه :

(الشَّكْلُ سِمَةُ الكتاب ولولا الشكل لم تُعرفْ معاني الكتاب وليس على كل حرف يقع الشكل) . والف معاصره ابو بكر محمد بن القاسم الانباري (المتوفى ٣٢٨هـ/٩٣٩م) كتابا في النقط ايضا . والف ابن المنادى المقرىء البغدادي احمد بن جعفر (المتوفى ٣٣٦ هـ/٩٤٧ م) كتاباً في الموضوع نفسه .

ومن هذا العرض التاريخي للمؤلفات المتصلة بنقط المصحف يبدو أنّ النشاط العلمي في الموضوع قد انتقل في القرن الرابع الهجرى الى بغداد بعد أنْ كان في اول امره بالبصرة . ولا غرابة في الامر لان النشاط العلمي كله قد انتقل الى الحاضرة العباسية بعد تأسيسها وكيف لا ينتقل وهي مركز الدنيا وعاصمة الخلافة ؟؟

غير أنّ المنهج الذى اتبعه البغداديون في النقط والشكل كان منهجا خليليا ، وان لقى معارضة شديدة ، فهذا الامام مالك بن انس (المتوفى

١٧٩هـ/٧٩٥م) يُسأل:هل يكتب المصحف على ماأحدثه الناس من الهجاء (أي: الكتابة) فيجيب قائلا (لا) الا على الكتبة الاولى .. ولكنه اجاز ذلك في الاجزاء التي يتعلم بها الصبيان اما في أُمَّهات المصاحف فلا .

والغريب ان الامام المقرىء ابا عمرو الداني (المتوفى ٤٤٤هـ/١٠٥٢م) يقول في كتابه (المحكم في نقط المصاحف) : (وترْكُ استعمال الشكل الذى اخترعه الخليل في المصاحف الجامعة من الامهات وغيرها اولى وأَحَقّ اقتداءً بمن ابتدأ النقط من التابعين واتباعاً للائمة السالفين) .

وهو موقف بعيد عن الصواب فان فريقاً من أفذاذ العلماء المقرئين امثال عبدالرحمن بن ابي ليلى (ت ٨٣ هـ / ٧٠٢ م) والحسن البصري (ت ١١٠ هـ / ٧٢٨ م) ومحمد بن سيرين (ت ١١٠ هـ / ٧٢٨ م) والكسائي (ت ١٨٩ هـ / ٨٠٤ م) اجازوا الكتابة بالخط الذي استحدثه الخليل لانه (تنوير للقرآن) اى : توضيح لما غمض من حروفه المتشابهة واشكاله التي يقع فيها التصحيف والتحريف عادة وبذلك يزول الابهام الذى يقع في الاحرف المتشابهة ، وهنا تسقط حجة المانعين الذين ظنوا انّ النقطَ والشكلَ ذريعتا التحريف والتغيير، وهما وسيلتان للضبط والاتقان وتركهما يُوقِعُ فيما خاف منه المتمسكون بالمنع ، ولذلك رجع الدانى عن رأيه السالف فقال في كتابه (النقط والشكل) الذى الفه بعد (المحكم) : (والناس في جميع امصار المسلمين من لَدُنْ التابعين الى وقتنا هذا على الترخص في ذلك في الأُمَّهاتِ وغيرها) .

ولاشك في أنّ انتصار الخطوة التي خطاها الخليل انتصارٌ للمنهج الاقوم في كتابة المصحف اقدس ما عند هذه الامة واغلاه وابعده اثراً في حياتها .

وقد مر (نقط المصاحف) باربع خطوات : الاولى الاعراب الذى قام به ابو الاسود الدؤلي . والثانية : نقط الاعجام ويراد بالاعجام هنا ازالة

اللبس وقد قام بهذه الخطوة (نصر بن عاصم) تلميذ ابي الاسود اذ ميز (نصر) بين الاحرف المتشابهة في الرسم كالباء والتاء والثاء والعين والغين والسين والشين .. بوضع النقط . ولا يُقَدِّرُ قيمة هذه الخطوة الا مَنْ عَرَف ما يَجُرُّه الخلط بين هذه الاحرف من تصحيف وهو قرين الخطأ مما جعل علماء اللغة يفردون له بعض المؤلفات كابي احمد العسكري في كتابه : شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف وهو مطبوع ومعروف .

فالتصحيف هو الخلط الذى يقع بين الاحرف المتشابهة في الرسم : كالباء والتاء والثاء اما التحريف فهو الخلط الذى يقع بين الاحرف الاخرى : كاللام والميم والكاف والقاف وغيرها .

والخطوة الثالثة هي وضع الحركات الثلاث : الفتحة والضمة والكسرة بدلا من النُّقَطِ وقد قام بهذه الخطوة الخليل بن احمد الفراهيدى : عبقرى العراق (ت ١٧٥/٧٩١ م) وبذلك قلل الخليل من عدد النقط في الخط واستعاض عنها بصور او رموز يسهل تمييزها .

والخطوة الرابعة كانت بوضع علامات ورموز لضوابط القراءة وهي : الشدّة كما في مدّ ، النّهار والمدّة كما في آمنة ، آوى . وعلامة الوصل كما في الاستقلال والاستشهاد وهي اشارة صوتية مهمة لتمييز همزة الوصل من همزة القطع ، وأخيرا علامة السكون وكلها من وضع الخليل بن احمد : الرجل الفذ .. بحق .

(٤)

علم رسم المصحف او هجاء المصاحف

وتتصل قضية النقط بقضية اخرى تتصل بالمصحف الكريم وهي مسألة الهجاء او الرسم ويطلق عليها في الكتب المتخصصة بعلوم القرآن اسم (علم

مرسوم الخط) او رسم المصحف او رسوم خط التنزيل .. وكلها ذوات دلالة واحدة .

وقد عرّفه اهل الاختصاص بقولهم : (هو العلم بقواعد رسم خط المصحف الإمام الذى كتبه الصحابة بامر من الخليفة الراشد عثمان بن عفان) رضي الله عنهم اجمعين ..

وأهم العلماء العراقيين الذين ساهموا في هجاء المصاحف :

١ ــ الكسائي (ت ١٨٩ هـ/٨٠٤ م) في كتابيه (مقطوع القرآن وموصوله) و (مصاحف اهل المدينة واهل الكوفة واهل البصرة) .

٢ ــ الفرّاء (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م) وقد ساهم بكتابه الموسوم بـ (مصاحف اهل الكوفة والبصرة والشام) .

٣ ــ المدائني : علي بن محمد بن عبدالله (ت ٢١٥ هـ/٨٣٠ م) وقد ساهم بكتابه (المصاحف) .

٤ ــ خلف بن هشام البزار (ت ٢٢٩ هـ/٨٤٣م) وله كتاب (المصاحف) .

٥ ــ عبدالله بن سليمان الاشعث ابو بكر بن ابي داود السجستاني البغدادي (ت ٣١٦هـ/٩٢٨م) وساهم بكتابه (المصاحف)وهو مطبوع مشهور.وهو مقرىء معروف روى عنه القراءة (ابن مجاهد) صاحب كتاب (السبعة في القراءات) وغيره .

٦ ــ محمد بن عبدالرحمن الاصبهاني ثم البغدادى وقد ذكر ابن الجزرى انه من تلاميذ (ابن مجاهد) فهو من علماء القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وقد ساهم بكتابه (المصاحف) .

وكل هذه الكتب مفقودة الا كتاب عبدالله بن سليمان فانه مطبوع .ويمكن ان نعد الكتب المؤلفة في الهجاء متصلة بشكل من الاشكال بكتب هجاء المصاحف .

والسبب الذي دعاني الى عدها كذلك ان (طاش كبرى زادة) يعرف (الهجاء) في كتابه مفتاح السعادة ٢/٣٧٢ بقوله : « اصل معنى الهجاء رسم خط المصحف من الزيادة والحذف والهمز والبدل والفصل والوصل وما فيه قراءتان فكتب على احداهما » ٠ وهو تعريف مرسوم الخط نفسه ٠

فالكتب الآتية داخلة في هذا المفهوم :

كتاب الهجاء للكسائي وكتاب الهجاء لثعلب وكتاب الخط والهجاء للمبرد وكتاب الهجاء لابن الانبارى وكتاب الهجاء لابن كيسان وكتاب الهجاء لمحمد بن عثمان بن الجعد (وهو من اصحاب ابن كيسان ٠ فهو من علماء القرن الرابع الهجري توفي حوالي سنة ٣٢٠هـ/٩٣٢م)٠وكتاب الهجاء للرمّاني علي بن عيسى بن علي وكتاب الهجاء لابن دُرُسْتويه عبدالله بن جعفر بن محمد ٠

(٥)
علم القراءات

القرآن الكريم والقراءات حقيقتان متغايرتان فالقرآن هو الوحي المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠ اما القراءات فهي عِلمٌ بكيفية أداءِ كلماتِ القرآن واختلافها مَعْزُوّاً لناقِله ٠ وقد مرت القراءات بثلاث مراحل :

المرحلة الاولى : من نزول القرآن الكريم الى كتابة المصحف العثماني (المصحف الامام)٠

المرحلة الثانية : من كتابة المصحف الامام الى سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م (زمن تأليف ابن مجاهد لكتابه السبعة في القراءات) ٠

المرحلة الثالثة : ما بعد كتاب السبعة ٠

المرحلـة الاولـى

كانت قراءة النبي صلى الله عليه وسلم هي القراءة العامة وهي القراءة

التي قرأها على جبريل الامين وقد عرضها عليه في العام الذى توفي فيه مرتين وكانت قراءة الصحابة من المهاجرين والانصار هي القراءة العامة •

واباح النبي الكريم بعد ذلك لابناء العربية من المؤمنين ان يقرأوا القرآن الكريم بلهجاتهم ولم يقسرهم على قراءته لان للهجة الانسان ولاسيما اذا كان كبير السن سلطانا كبيرا عليه فاباحة الرسول الكريم القراءة بهذه الكيفية هي من باب التيسير ومعالجة الامور معالجة واقعية لان القسر هنا يؤدي الى ردود فعل تنفر الناس من الدخول في هذا الدين وتبعدهم عن هدايته وما خيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين امرين الا اختار ايسرهما •

وقد قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخارى ومسلم في صحيحيهما (أنزل القرآن على سبعة أحرف ، فاقرأوا منه ما تيَسَّر) •

اما السبعة الاحرف في الحديث الشريف فليس المقصود منها عددا محددا لان هذا العدد لم يثبت مع سورة واحدة من سور القرآن فكيف يثبت مع القرآن كله ؟ •

والعدد سبعة قد يطلق في العربية ولايراد به العدد المحدد بل يراد به السعة والكثرة التي تتجاوز هذا العدد •

واذا قرأنا فروق الجزئيات اللهجية التي جاءت في القرآن الكريم وجدناها تتوزع على اربعين جزئية (ذكرها ابو بكر الواسطي في كتابه الارشاد في القراءات العشر ونقلها السيوطي في (الاتقان ٢/١٠٢) •

وهذا العدد يفسر لنا السعة والكثرة المراد من السبعة الاحرف في الحديث الشريف وهذه الجزئيات قليلة لو قيست بسعة المعجم العربي والفاظه الهائلة ؟؟

اما في النحو فقد اضحت اللغة العربية عند نزول القرآن الكريم لغة ظواهر ولم تعد لغة لهجات ولذلك قال النحاة انطلاقا من هذه الحقيقة ان النحو قياس يتبع وان اللغة تؤخذ بالسماع ولا تؤخذ بالقياس •

فالغاية من اباحة القراءات المتعددة التيسير وجذب القلوب بسراعاة الواقع العملي للعرب الذين يقبلون على نور القرآن •

وهذه الاباحة جعلت بعض ابناء الصحابة من الحافظين للقرآن الكريم يجرد مصحفه على قراءة واحدة تتفق مع لهجته مثل عبدالله بن مسعود وكان من هُذيل أُمّاً وأباً • ولما وقع الحرج بين اتباع المصاحف من الصحابة وكادت الفتنة تقع بينهم جاء (حُذَيفةُ بنُ اليَمان) الصحابي الجليل الى الخليفة الراشد (عثمان بن عفـان) (٢٢ ــ ٣٥ هـ/٦٤٢ ــ ٦٥٥ م) فقال (أدْرِكْ هذه الامة) فجمع الخليفة الراشد المصاحف وكتب مصحفه الامام فصار اماماً لجميع الامة الى يوم الدين •

وهذه قضية اجمع علماء الامة عليها • قال الازهري في كتابه (القراءات وعلل النحويين فيها) : « فمن قرأ بحرف لا يخالف المصحف بزيادة او نقصان او تقديم او تأخير ، وقد قرأ به امام من أئمة القراء المشتهرين في الامصار ، فقد قرأ بحرف من الحروف السبعة التي نزل بها القرآن ومن قرأ بحرف شاذ يخالف المصحف وخالف بذلك جمهور القرأة المعروفين فهـو غـير معيب » وختمه بقوله :

(وهذا مَذْهَبُ أهل العلم الذين هم القُدوةُ ومذهبُ الراسخين في علم القرآن قديماً وحديثاً •• ولا يجوز عندي غير ما قالـوا •• والله يوفقنا للاتباع وتجنّب الابتداع انه خير موفق وخير معين » •

هذا رأي جِلّة القراء المتقدمين الذين يُعْتَدّ بهم ويعتمد عليهم ، وهو رأي الآخرين أيضاً • ويجب ان نشير هنا الى ان موافقة المصحف الامام لاتعني القراءة بأيّ وجه يوافقه حتى لو كان هذا الوجه غير مرويّ عن أحد من أئمة القراء •

واذا كان رسم المصحف الامام يحتمل في قسم من الكلمات أوجهاً من

القراءة (مثل : مالك يوم الدين ومَلِكِ ..) فيجب ان تكون تلك الاوجه صحيحة من حيث الرواية الى حد التواتر لئلا يعمد بعض القراء فيُصَحِّفُ او يُحَرِّفُ بِحُجَّةِ موافقة القراءة لخط المصحف الامام . ويؤيد هذا ما قاله الامام المقرىء عبدالواحد بن عمرو بن ابي هاشم(المتوفى ٣٤٩هـ/٩٦٠م) اشهر تلاميذ ابن مجاهد في كتابه (البيان في القراءات السبع) : (وقد نبغ في عصرنا هذا نابغ وزعم أنّ كلّ ما صَحّ عنده في العربية من القرآن يوافق خط المصحف فقراءته جائزة في الصلاة وغيرها وابتدع بدعة حاد بها عن قصد السبيل واورط نفسه في مزلّة عَظُمَتْ بها جِنايته على الاسلام واهله) .

فالقراءة المقبولة بعد موافقتها المصحف الامام بالرسم ، أنْ تكون موافقة لما قرأ به احد ائمة القراء المشهود لهم عند الامة بالضبط والاتقان والثقة في الرواية .

المرحلة الثانية

تتحدد هذه المرحلة من الناحية الزمنية بخلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه (٢٣-٣٥ هـ/٦٤٢-٦٥٥ م) وتنتهي بسنة ٣٠٠ هـ وتتحدث من حيث الموضوع بالمصحف الامام او بالمصاحف الخمسة التي بعث بها الخليفة الراشد الى الامصار الاسلامية مكة والشام والبصرة والكوفة وابقى عنده نسخة في المدينة .

وبعث مع كل مصحف شخصاً علماً ثِقة يُقرىء القرآن فبعث الى مكة: عبدالله ابن السائب المخزومي المتوفى في حدود سنة (٧٠هـ/٦٨٩م). قرأ عليه مجاهد بن جَبْر وقال (كنّا نفخر على الناس بقارئنا عبدالله بن السائب وبفقيهنا عبدالله بن عباس) . وبعث الى الشام : المغيرة بن ابي شهاب المخزومي (المتوفى سنة ٩١ هـ/٧٠٩ م) قرأ القرآن على عثمان بن عفان نفسه ، والى البصرة : عامر بن عبد قيس (توفي حوالي سنة ٥٥هـ/٦٧٤م) والى الكوفة عبدالله بن حبيب السلمي وظل يقرىء هناك اربعين سنة وتوفي سنة ٧٤ هـ/٦٩٣ م .

قـال ابن مجاهـد : (اول من أقـرأ النـاس بالكوفـة القـراءة المجمـع عليهـا عبداللـه بـن حبيب) • وابقـى زيـد بـن ثـابت في المدينـة (توفـي سـنة ٤٥ هـ / ٦٦٥ م وقيـل سـنة ٤٨ هـ / ٦٦٨ م) وكان يكتب القرآن عند رسول الله واحد الذين جمعوا القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أحد اعضاء اللجنة التي كتبت المصحف الامام •

وعن هؤلاء الخمسة اخذ قراء الامصار الاسلامية العربية المشار اليها كما اخذوا عن غيرهم من الصحابة الذين انتشروا في الامصار حتى تكونت اجيال من القراء الذين تمت على ايديهم جل المؤلفات التي سنشير اليها بعد حين •

واتصلت بجيل هؤلاء الصحابة ثلاثة اجيال ملأت هذه المـدة الزمنية موزعين على الامصار الاسلامية العربية • وسأقتصر على القراء منهم لانهم موضوع بحثنا •

ففي مكة كان عبيد بن عمير (ت ٧٤ هـ /٦٩٣ م) ومجاهد بـن جبر (ت ١٠٣ هـ / ٧٢١ م) وعكرمة مولى ابـن عباس (ت ١٠٥ هـ / ٧٢٣م) وطاووس بن كيسـان (ت ١٠٦ هـ / ٧٢٤ م) وعطـاء بن ابي ربـاح (١١٥ هـ /٧٣٣ م) وعبدالله بن ابي مليكة (ت ١١٧ هـ / ٧٣٥ م) •

وفي المدينة كان معاذ بن الحارث المعروف بمعاذ القارىء (ت ٦٣ هـ / ٦٨٢ م) وسعيد بـن المسيب (ت ٩٤ هـ / ٧١٢ م) وعـروة بن الزبـير (ت ٩٥ هـ / ٧١٣ م) وعمربن عبدالعزيز (ت ١٠١ هـ / ٧١٩ م) ، وعطاء ابن يسار (ت ١٠٣ هـ /٧٢١ م) وسالم بن عبدالله بن عمر (ت ١٠٦ هـ / ٧٢٤ م) وسليمان بن يسار (ت ١٠٧ هـ / ٧٢٥ م) ومسلم بن جندب (ت ١١٠ هـ /٧٢٨ م) وعبدالرحمن بن هرمز الاعرج (ت ١١٧ هـ/٧٣٥ م) ويزيد بن رومان (ت ١٢٠ هـ/٧٣٧ م) ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ / ٧٤١ م) وابو جعفر يزيد بن القعقاع (١٣٠ هـ / ٧٤٧ م)•

وفي الشام عبدالله بن عامر اليحصبي (ت ١١٨ هـ / ٧٣٦ م) وعطية ابن قيس الكلابي (ت ١٢١ هـ/٧٣٨ م) ويحيى بن الحارث الغسّاني الذِماري (ت ١٤٥ هـ/٧٦٢ م) وشريح بن يزيد الحضرمي (ت ٢٠٣ هـ / ٨١٨ م) .

وفي الكوفة : عمرو بر شرحبيل (ت بعد ٦٠ هـ /٦٧٩ م) وعلقمة بن قيس (ت ٦٢ هـ / ٦٨١ م) ومسروق بن الاجدع (ت ٦٣ هـ / ٦٨٢ م) وعُبيد بن عمرو السَلْماني (ت ٧٢ هـ / ٦٩١ م) والاسود بن يزيد النَّخَعي (ت ٧٥ هـ/٦٩٤ م) وعمرو بن ميمون (ت ٧٥ هـ / ٦٩٤ م) وعبيد بن نضلة (ت ٧٥ هـ) وزِرّ بن حُبَيش (ت ٨٢ هـ / ٧٠١ م) والربيع بن خثيم (ت قبل سنة ٩٠ هـ / ٧٠٨ م) وسعيد ابن جُبير (المقتول بيد الحجاج سنة ٩٥ هـ / ٧١٣ م) وابراهيم بن يزيد النخعي (ت ٩٦ هـ / ٧١٤ م) ويحيى بن وثّاب (ت ١٠٣ هـ /٧٢١م) وعامر بن شراحيل الشعبي (ت ١٠٥ هـ/٧٢٣ م) وعطاء بن السائب ابو زيد الثقفي (ت ١٣٠ هـ / ٧٤٧ م) .

وفي البصرة عامر بن عبد قيس (ت ٥٥ هـ/٦٧٤ م) وابو العالية رفيع بن مهران الرِياحي (ت ٩٠ هـ/٧٠٨ م) ونصر بن عاصم الليثي (ت ٩٠ هـ)، والحسن البصري (ت ١١٠ هـ /٧٢٨ م) ومحمد بن سيرين (ت١١٠ هـ) وقتادة بن دِعامة السَّدوسي (ت ١١٨ هـ/٧٣٦ م) ومُعاذ بن معاذ العَنبري (ت ١٩٦ هـ/٨١١ م) .

اتجاهات التاليف في القراءات في المرحلة الثانية

وقد برز في هذه المرحلة اتجاهان :

١ ــ الاتجاه الاول : القراءات المفردة وهي التي تتناول قراءة مقرىء واحد . واهم المؤلفات التي تسير في هذا الاتجاه : قراءة حمزة بن حبيب الزيات لحمزة نفسه (ت ١٥٦هـ/٧٧٢ م) وقراءة الكسائي لمحمد بن عمر

الواقدي (ت ٢٠٩ هـ / ٨٢٤ م) وقراءة الكسائي للمغيرة بن شعيب المازني البغدادي (احد تلاميذ الكسائي) وقراءة الكسائي لابي مسلم عبدالرحمن بن واقد الختلي البغدادي (أحد تلاميذ الكسائي) .
وقــراءة ابي عمرو بن العلاء ليحيى بن المبارك اليزيــدي (المتوفى ٢٠٢ هـ/٨١٧ م) . وقراءة ابي عمرو بن العلاء لاحمــد بــن يزيــد الحلواني (المتوفى ٢٥٠ هـ/٨٦٤ م) وقــراءات النبي لابي عمــر الدوري (ت ٢٤٦ هـ /٨٦٠ م) .

٢ ـ الاتجاه الثاني كتب القراءات الجامعة : وهي الكتب التي تجمع اكثر من قراءة لكنها لا تشير الى عدد معين من القراء بل تحمل عنوانا مطلقا ، وجلّها يحمل عنوان القراءات وكل كتب القراءات التي الفت في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) تحمل عنوان (القراءات) .

واشهر مؤلفات القرن الثاني الهجري (الثامن الميــلادي) التــي تسير في الاتجاه الثاني كتاب القراءات للمقرىء المشهور عبداللــه بن عامر (ت ١١٨هـ/٧٣٦م) وكتاب القراءات للعباس بن الفضل الواقفي الانصاري (ت ١٨٦هـ/٨٠٢م) وكتاب القراءات لابي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ/٧٧٠م) وكتاب القراءات للكسائي (ت ١٨٩هـ/٨٠٤م) وكتاب القــراءات لابان بــن تغلب الكــوفي (ت ١٤١هـ/٧٥٨م)

اما اشهر مؤلفات القرن الثالث الهجرى التي تسير في الاتجاه الثاني نفسه فهي :

أ ـ الكتب التي تحمل العنوان العام (القراءات) : كتاب القراءات ليحيى بن آدم (ت ٢٠٣هـ/٨١٨م) ، وكتاب القراءات لابي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ/٨٣٨م) ، وكتاب القراءات لهــارون بن حاتم الكــوفي (ت ٢٤٩هـ/٨٦٣م) ، وكتــاب

القراءات لمحمد بن سَعدان البغــدادي (ت ٢٣١هـ/٨٤٥ م) ، وكتاب القراءات لابي حاتم سهل بن محمد (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م)، وكتاب القراءات لاسماعيل بن اسحاق القاضــي (ت ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م) وكتاب القراءات للفضل بن شاذان (ت ٢٩٠هـ/٩٠٢م) وكتاب القراءات لثعلب النحوي المشهور (ت ٢٩١هـ/٩٠٣م) .

ب ـ الكتب التي تحمل عنوان (الجامع في القراءات) :

الجامع في القراءات ليعقوب بن اسحاق الحضرمي (ت ٢٠٥ هـ/٨٢٠م) وهو مقرىء البصرة بعد ابي عمرو بن العلاء والجامع في القراءات لمحمد بن يزيد بن رفاعة(ت بعد سنة ٢٤٨هـ/٨٦٢م)والجامع في القراءات لمحمد بن عيسى ابن رزين (ت ٢٥٣هـ/٨٦٧م) والجامع في القراءات لمحمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)ويعد كتاب الطبري من مؤلفات القرن الثالث لان ابن مجاهد تأثر بكتاب الطبري حين الف كتاب السبعة وكتاب السبعة الف في سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢ م كما صرح بذلك الامام المقرىء مكي بن ابي طالب القيسي في كتابه الابانة عن معاني القراءات) .

ملامح هذه المرحلة : المتتبع لحركة التأليف في القراءات (ضمن هــذه الفترة) يلاحظ ما يأتي :

اولا : أنّ المؤلفين جلهم عراقيون وان اكثرهم من قراء الكوفة ويأتي بعدهم من حيث العدد اهل البصرة وان اقلهم من قراء بغداد ويرجع ذلك فيما ارى ، الى ثلاثة عوامل :

١ ـ ان اجيال القراء في القرن الاول من قراء التابعين كان اكثرهم من اهل الكوفة .

٢ ـ ان اهل البصرة ركــزوا اهتمامهم في القــرن الاول في نقط المصاحف والاهتمام بالناحية النحوية ولاسيما تلاميذ ابــي الاسود الدوءلي .

٣ ـ ان جل قراء مدينة السلام في القرن الثاني كانوا من قراء الكوفة الوافدين الى عاصمة الخلافة بل عاصمة الدنيا بعد تأسيسها سنة ١٤٥ هـ/ ٧٦٢ م ٠

ثانيا : ان كتب القراءات تلك تحمل عنوانات عامة اى غير محددة بعدد الا في حالة واحدة تعد نادرة ، فالعنوان اما كتاب القراءات واما الجامع في القراءات ٠ ولم يؤلف احد في تلك المرحلة كتابا محددا بالعدد الا احمد بن جبير الكوفي نزيل انطاكية (ت ٢٥٨هـ/٨٧١م) وسمى كتابه القراءات الخمس او قراءات الخمسة وكل ما قاله علماء القراءات عنه انه ضمنه قراءة خمسة من القراء فاختار من كل مصر من الامصار الخمسة مقرئا ولم يحددوا اسماء القراء الذين اختارهم ٠ وليس لدينا سبيل الآن الى معرفتهم او تحديدهم لان الكتاب مفقود ٠

المرحلة الثالثة ما بعد كتاب السبعة

الف ابن مجاهد احمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي البغدادي (ت ٣٢٤هـ/٩٣٥م) كتابه السبعة في القراءات في حدود سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م ٠

والقراء السبعة الذين تناولهم الكتاب :

١ ـ نافع بن ابي نعيم المدني ، ت ١٦٩ هـ/ ٧٨٥ م ٠
٢ ـ عبدالله بن كثير المكي ، ت ١٢٠ هـ/٧٣٧ م ٠
٣ ـ عاصم بن ابي النجود الكوفي ، ت ١٢٧ هـ /٧٤٤ م ٠
٤ ـ حمزة بن حبيب الزيات الكوفي ، ت ١٥٦ هـ / ٧٧٢ م ٠
٥ ـ علي بن حمزة الكسائي الكوفي ، ت ١٨٩هـ/٨٠٤ م ٠
٦ ـ ابو عمرو بن العلاء البصري ، ت ١٥٤ هـ /٧٧٠ م ٠
٧ ـ عبدالله بن عامر الشامي ، ت ١١٨ هـ / ٧٣٦ م ٠

هؤلاء هم القراء السبعة الذين جمعهم كتاب ابن مجاهد وهذا ترتيبهم فيه .

وقد اشتهر الكتاب شهرة واسعة وسار مسير الشذا ، فلماذا نال هذه الشهرة الواسعة وهو مسبوق بحشد هائل من كتب القراءات لائمة مشهود لهم بالعلم والتقوى ؟

يبدو والله اعلم انه اشتهر لانه جعلهم سبعة وجعلهم غيره اكثر او اقل . والعدد سبعة كما هو معروف له سلطان غريب وسحر عجيب .. فالسموات سبع والارضون سبع وعجائب الدنيا سبع والذين يظلهم الله تحت ظله في الحديث الشريف سبعة والقرآن الكريم انزل على سبعة احرف وقراءات ابن مجاهد سبع فكيف لا تشتهر ؟؟

والحقيقة ان اهمية كتاب السبعة في القراءات كأهمية صحيح البخارى في الحديث وكتاب سيبويه في النحو ومقدمة ابن خلدون في التاريخ والاجتماع وكتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي في الرياضيات .

وقد اثر في حركة التأليف في القراءات تأثيرين : ايجابي وسلبي كما اثر في مفهوم القراءة الصحيحة والشاذة في وقت واحد .

فحركة التأليف في القراءات أصبحت بعد كتاب السبعة تسير في اربعة اتجاهات :

الاتجاه الاول : المتأثر بكتاب السبعة ايجابيا .

الاتجاه الثاني : المتأثر بكتاب السبعة سلبيا .

الاتجاه الثالث : استمرارية الاتجاهات السابقة .

الاتجاه الرابع : الاتجاه التجديدى .

١ – ويمثل الاتجاه الاول في هذا الحشد الهائل من الكتب التي تحمل عنوان (القراءات السبعة) وفي تلك المؤلفات المتصلة بها شرحاً وتعليلاً ... في العراق وجميع اقطار العالم الاسلامي والعربي المعروفة آنذاك .

واول من الف في السبع بعد ابن مجاهد ابو غانم المصري : المظفر ابن أحمد بن حمدان (ت ٣٣٣ هـ/٩٤٤ م) . ثم تلميذ ابن مجاهد عبدالواحد بن عمر (ت ٣٤٩ هـ/٩٦٠ م) وعنوان كتابه : البيان والفصل في القراءات السبع . وبعده الف ابو بكر النقّاش الموصلي (محمد بن الحسن بن زياد (المتوفى ٣٥١ هـ/٩٦٢ م) كتاب السبعة الاوسط وكتاب السبعة الاصغر . ونظم الحسين بن عثمان بن ثابت البغدادي (ت ٣٧٨/ ٩٨٨ م) القراءات السبع في قصيدة وهو اول من نظمها . ولسبط الخياط البغدادي (عبدالله بن علي بن احمد ت ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م) الايجاز في القراءات السبع وتبصرة المبتدى في السبع ايضا (وله كتب اخرى في غير السبع ستأتي) .

وقد ظهر لي من تتبع تاريخ القراءات ان التأليف في بغداد والعراق بعد سبعة ابن مجاهد كان اكثرها فيما زاد على السبع او نقص وكان أقلّه في السبع . ويرجع ذلك الى رد الفعل ضد سبعة ابن مجاهد ليمحو الائمة القراء اثر كون القراءات السبع هي وحدها القراءات الصحيحة . ويبدو هذا المنحى جلياً في الاتجاه الآتي (الثاني) .

٢ – اما الاتجاه المتأثر بكتاب السبعة سلبيا فقد ظهر في موقفين، الموقف الاول: تصحيحيّ اجتماعي ، والاخر : موقف التأليف الذي يزيل الشبهة التي وقع فيها الناس اذ ظنّوا أنّ القراءات السبع هي المقصودة بالحديث الشريف (انزل القرآن على سبعة احرف) .

والموقف الاول قال به جماعة من علماء القراءات منهم الامام احمد ابن عمار المهدوي (ت بعد سنة ٤٣٠ هـ/١٠٣٨ م) اذ قال : (اما اقتصار اهل الامصار في الاغلب على سبعة من القراء فذهب اليه بعض المتأخرين اختصاراً واختياراً فجعله الناس كالفَرْضِ المحتوم .. ولقد فعل مُسَبِّعُ السبعة ما لا ينبغي له ان يفعله وأَشْكَلَ على العامة حتى جهلوا ما لم يسعهم جهله واوهم كل من قل نظره ان هذه هي المذكورة في الحديث النبوي لا غير وليته نقص عن السبعة او زاد ، ليزيل هذه الشبهة) .

اما الموقف الثاني فتمثله كثرة المؤلفات الست والعشر والاحدى عشرة والاثنتي عشرة والاربع عشرة .

واشهر مؤلفات القرّاء العراقيين مرتبة ترتيباً زمنياً هي :

كتاب الروضة في القراءات الاحدى عشرة (القراءات العشر وقراءة الاعمش) لابي علي الحسن بن محمد بن ابراهيم البغدادي (ت بعد سنة ٣٤٨هـ/٩٥٩ م) . والمفيد في القراءات العشر لابي نصر احمد بن مسرور بن عبدالوهاب البغدادي (ت ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م) والتذكار في القراءات العشر لابي الفتح عبدالواحد بن الحسين بن احمد البغدادي (ت ٤٤٥ هـ/١٠٥٣ م). والجامع في القراءات العشر وقراءة الاعمش لابي الحسن علي بن محمد بن فارس الخياط البغدادي (ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) . والايجاز في القراءات العشر لابي ياسر محمد بن علي الحمامي البغدادي (ت ٤٨٩ هـ/١٠٩٥ م) . وكتاب المستنير في القراءات العشر لابي طاهر احمد بن علي بن سوار البغدادي (ت٤٩٦ هـ/١١٠٢ م) . والارشاد في القراءات لابي العزّ محمد بن الحسين بن بندار الواسطي (٤٣٥ ـ ٥٢١ هـ/١٠٤٣ ـ ١١٢٧ م) .

وكتاب الكفاية في القراءات الست والقصيدة المنجدة في القراءات العشر وارادة الطالب في العشر (شرح المنجدة) •
والمبهج في القراءات الاثنتي عشرة : قراءات القراء السبعة وقراءة يعقوب الحضرمي وقراءة كل من : ابن محيصن محمد بن عبدالرحمن ت ١٢٣ هـ/٧٤٠م والاعمش سليمان بن مهران ت ١٤٨ هـ/٧٩٥ م ، وخلف بن هشام البزار البغدادي ت ٢٢٩ هـ / ٨٤٣ م وابي محمد اليزيدي ت ٢٠٢ هـ/٨١٧م • وكلها من تأليف سبط الخياط البغدادي عبدالله بن علي بن احمد بن عبدالله (ت ٥٤١ هـ/١١٤٦ م) وهو استاذ ابن الجوزي في القراءات •
ثم المصباح الزاهر في القراءات العشر البواهر لابي الكرم المبارك بن الحسن ابن فتحان البغدادي (ت ٥٥٠ هـ /١١٥٥ م) • والشافي في القراءات العشر ليوسف بن جامع القفصي البغدادي (ت ٦٨٦ هـ/١٢٨٧م) قال ابن الجزري « يدل على عمله الكثير في هذا العلم » • أي : هذا الكتاب •

٣ ـ اما الاتجاه الثالث فيتمثل في استمرارية الاتجاهات التي سبقت كتاب ابن مجاهد في التأليف القرائي •

٤ ـ اما الاتجاه الرابع فقد سار في ثلاثة مسارات :

الاول : الاحتجاج للقراءات وتعليلها •

ومن السابقين اليه : ابن درستويه عبدالله بن جعفر بن محمد البغدادي (ت ٣٤٧ هـ/٩٥٨م) بكتابه « الاحتجاج للقراء » • وبعده ابو بكر النقاش (ت ٣٥١ هـ/٩٦٢ م) بكتابه « السبعة بعللها » •

وقد سار على نهجهما ابن خالويه (ت ٣٧٠ هـ/٩٨٠م) بكتابه « الحجة في القراءات السبع » وابو علي النحوي (٣٧٧ هـ/٩٨٧ م) بكتابه : الحجة في القراءات •

والثاني : التطوير المنهجي في القراءات ورائد هذا المسار الامام المحدث المقرىء الدار قطني نسبة الى محلة ببغداد(ت٣٨٥هـ/٩٩٥م)٠اذ الف كتابه (القراءات) قال فيه ابن الجزرى « والف الدارقطني في القراءات كتاباً جليلاً لم يؤلف مثله وهو اول من وضع ابواب الاصول قبل الفرش ولم يعرف مقدار هذا الكتاب الا من وقف عليه ولم يكمل كتاب جامع البيان الا لكونه نسج على منواله » .
ونستنتج من هذا النص ما يأتي :

أ ـ ان كتاب القراءات للدارقطني اول كتاب وضع أصول القراءات في القسم الاول ، وجعل الفروع في القسم الاخر .
واصول القراءات هي : الادغام والامالة والهمز واحكامها .

ب ـ وانه أثّر في كتاب جامع البيان في القراءات لابي عمرو الداني (ت ٤٤٤ هـ/١٠٥٢ م).

جـ ـ ان كتاب القراءات للدارقطني كتاب يتيم في بابه لأنه لم يؤلف قبله مثله .

الثالث : يتصل بتراجم القراء . ورائد هذا الفن ابن المنادى البغدادى ، (ت ٣٣٦ هـ/٩٤٧م) بكتابه (تسمية قراء اهل مدينة السلام) وقد نقل منه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٥/٣٣٤ وغيره .
وبعده الف ابو بكر النقاش كتابه : المعجم الكبير في اسماء القراء وقراءاتهم وتتابعت التآليف في فنون القراءات سائرة بهذه الاتجاهات ...

(٦)

علم التجويد

التجويد لغة : يقال جاد الشيء جُودة وجَودة اي صار جيّداً .

واجدت الشيء فجاد والتجويد مثله واجاد : اتى بالجيّد من القول أو الفعل ، والجيّد نقيض الرديء على وزن فَيْعِل .وأجاد في عمله وأجود، وجاد عمله يجود جودة . ويقال هذا شيء جيّد بيّن الجُودة والجَودة . وقد جاد جودة واجاد اتى بالجيد من القول والفعل . وقد جاد في عَدْوِه وجوّد واجود وجوّد في عَدْوه تجويداً .

فالتجويد مصدر جوّد تجويداً والاسم منه الجَودة والجُودة (بفتح الجيم وضمّها) .

واما مفهوم التجويد اصطلاحا فأن افضل التعريفات الاصطلاحية واجمعها هو التعريف الاتي :

(التجويد حلية القراء وهو إعطاءُ الحروف حقوقَها وترتيبها وردّ الحرف الى مخرجه واصله وتلطيفُ النطق به على كمال هيئته من غير إسراف ولا تَعَسّف) .

وهو تعريف جامع يعطي هذا المفهوم حقه تماما وعلماء التجويد كافة لم يزيدوا عليه شيئا ذا بال وكل ما فعلوه انهم شرحوا بعض اجزائه ووضحوا بعض عباراته .

اما قول ابي عمرو الداني (ت ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م) (ليس بين التجويد وتركه الا رياضة لمن تدبره بفكه) واعجاب ابن الجزري به بقوله : (فلقد صدق وبصر واوجز في القول وما قصّر فليس التجويد بتمضيغ اللسان ولا بتقعير الفم ولا بتعويج

الفكّ ولا بترعيد الصوت ولا بتمطيط الشد ولا بتقطيع المدّ ولا بتطنين الغنّات ولا بحصرمة الراءات قراءة تَنْفِرُ عنها الطباع وتَمُجّها القلوب والاسماع بل القراءة السهلة العذبة الحلوة اللطيفة التي لا مضغ فيها ولا لوك ولا تعسف ولا تكلف ولا تَصَنّعَ ولا تنطّع ولا تخرجَ عن طباع العرب وكلام الفصحاء بوجه من وجوه القراءات والاداء) ... فليس اكثر من شرح وتوضيح لبعض اجزائه .

فموضوع التجويد هو علم الاصوات اللغوية وانه يعني أداء هذه الاصوات أداءً مجوّداً موافقاً لطريقة العرب في اخراج هذه الاصوات من مخارجها واعطائها حقها من المدّ والقصر والتسهيل والتحقيق والادغام والبيان والفتح والامالة بلا افراط ولا تفريط ..

فالتجويد علم وفن .. والتأليف فيه تأليف في علم من علوم القرآن والمؤدي لهذا العلم هو القارىء المجوِّدُ اي القائم بهذا الفن فعلاً .

والمؤلفات التي ألّفها علماء القراءات في الاصوات اللغوية هي من صميم علم التجويد . وهذا كتاب المقرىء المعروف مكي بن ابي طالب (ت ٤٣٧ هـ /١٠٤٥ م) الموسوم بـ (الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة بعلم مراتب الحروف ومخارجها وصفاتها والقابها) هو خير شاهد على ما نقول فالكتاب في الاصوات اللغوية وهو كتاب في التجويد ايضا بل من اجل هذه الكتب وانفسها وعنوانه يجمع بين لفظ التجويد وعلم الاصوات .

اول مدرسة للتجويد كانت في العراق

يُعَدُّ الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود (ت سنة ٣٢هـ/٦٥٢م) مؤسس هذه المدرسة . فقد كان مجوداً من الطراز الاول ومن القلائل الذين يشار اليهم بالبَنان في هذا الفن على عهد رسول الله . وقد وصفه الرسول صلى

الله عليه وسلم بجمال الصوت فقال : (مَنْ أَحَبَّ أنْ يقرأ القرآن غضاً كما أُنزِل فليقرأْ قراءةَ ابنِ أُمّ عبد) • وحسبك بمن يصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الوصف ولذلك قال ابن الجزري في وصفه (كان هو الامام في تجويد القرآن وتحقيقه وترتيله مع حسن الصوت) وارسله الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى الكوفة مُعَلّماً ومقرئاً ومُفَقّهاً لاهلها ومُفَسِّراً للقرآن الكريم • فاثر في حركة الفقه والتفسير والقراءات •

واشهر تلاميذه في القراءات والتجويد ابو عبدالرحمن السلمي (عبدالله ابن حبيب بن ربيعة (ت ٧٣ هـ/٦٩٢ م) وظل يقرىء القرآن في مسجد الكوفة اربعين سنة من اول خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه حتى وفاته وقد وصف بانه المقرىء الذي (انتهت اليه القراءة تجويدا وضبطا) •

وعنه اخذ عاصم بن ابي النجود أحد القراء السبعة • واشهر من روى عنه القراءة :

حفص بن سليمان بن المغيرة الاسدي الكوفي (ت١٨٠هـ/٧٩٦م)وقد قال يحيى بن معين « الرواية الصحيحة التي رويت عن قراءة عاصم رواية حفص بن سليمان » •

وشعبة بن عياش ، ابو بكر الحَنّاط الاسدى النهشلي الكوفي (ت ١٩٣هـ/٨٨٠م)•ورواية حفص عن عاصم هي المأخوذ بها وبها طبع المصحف الذى نقرأ به في الاقطار العربية (عدا المغرب العربي) وجُلّ اقطار العالم الاسلامي •

حركة التاليف في التجويد

يرى ابن الجزرى ان المقرىء البغدادي ابا مزاحم موسى بن عبيدالله بن يحيى(ت٣٢٥هـ/٩٣٦م)اول من الف في التجويد•غير ان مفهوم التجويد وتعريفه

الاصطلاحي يدل بوضوح على ان حركة التأليف في هـذا العلم سـبقت ابـا مزاحم •

فقد بدأت حركة التأليف بالقرن الثالث الهجرى اذ الف قطرب محمد ابن المستنير كتابا اسماه : (الاصوات) وتبعه الاصمعي (ت ٢١٦ هـ/٨٣١م) والاخفش الاوسط سعيد بن مسعدة (ت ٢١٥ هـ/٨٣٠ م) فالف كل واحد منهما كتابا في الاصوات ويليهم ابو حاتم السجساتي بكتابه الادغام ثم يأتي دور ابي مزاحم البغدادي المقرىء المشهور • وألّف معاصره امام المقرئـين واستاذهم ابو بكر بن مجاهد المقرىء البغدادي (ت ٣٢٤ هـ/٩٣٥ م) الذي كان صديقا لابي بكر ابن الانباري (ت ٣٢٨هـ/٩٣٩م) كتابا أسماه كتاب الياءات وكذلك الف تلميذه ابو طاهر عبدالواحد بن عمر (ت ٣٤٩هـ/٩٦٠م) كتابا في الموضوع نفسه••والف النقّار البغدادي الحسن بن داود بن الحسن (المتوفى قبل سنة ٣٥٠هـ/٩٦١ م) كتابا في مخارج الحروف ذكـره (ابن النديـم) في الفهرست •

وختام المسك محمد بن محمود بن احمد البغدادي الدار الذى ذكر له ابن الجزرى في غاية النهاية كتابا عنوانه (التجريد في التجويد) ولم يذكر سنة وفاته •

(٧)

علم الوقف والابتداء

لقد ضـُبِط النص القرآنيبعد عمليتي النقط والشكل •والدلالة الكبيرة لعمليةضبط النص القرآني شـَكـْلاً بعد أنْ حـُفـِظ َ في الصدر هي أنْ يـُقرأ قراءة صحيحة ويؤدَى أداءً منسجماً مع القوانين اللغوية والنحوية للغة التي انزل بها حتى يكون وسيلة ميسرة لمن دخل في الاسلام من العرب وغير العرب يأخذون منه الاساليب العالية والتعاليم العادلة في وقت واحد •

ولكن المشكلة لم تتوقف عند هذا الضبط بل ظهرت مشكلة جديدة تتصل بفهم النص ليس من ناحية الشكل الجزئي للكلمات وانما من ناحية ارتباط الجمل بعضها ببعض ومعرفة حدود الجملة البسيطة ومعرفة التكملة فيها .

ان الهدف من النص هو فهمه (إنّا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) ، لان الفهم اساس العمل ومن لا يعرف دلالة الآية فكيف يعمل بها ؟؟

فاذا كان المسلم الجديد من غير العرب لا يعرف حدود الجمل من حيث المبنى ولاسيما الجمل المركبة التي تحتاج الى ادراك اشمل من الحركات وابعد من مجرد معرفة الاسم والفعل ، فماذا يصنع ؟ وكيف يستطيع ان يفهم هذه الجمل المركبة ؟ وكيف يدرك مفهوم مثل هذه الآيات ومعرفة الحركات الثلاث لا يسعفه ؟

اقرأ معي الآيات الآتية :

١ ـ الم . ذلكَ الكتابُ لا رَيْبَ فيه هُدًى للمُتّقِينَ الذين يؤمنون بالغيب ويُقيمون الصّلاةَ ومِمّا رزقناهُمْ يُنْفِقُون (سورة البقرة ١ ـ ٥) .

٢ ـ إنّ الله لا يستحيي أنْ يضربَ مثلاً ما بعوضةً فما فَوْقَها فاما الذين آمنوا فيَعلمون أنّه الحَقُّ مِنْ رَبِّهِم وأمّا الذين كفروا فيقولون : ماذا أرادَ اللهُ بهذا مثلا ؟ يُضِلُّ به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلاّ الفاسقين) . (سورة البقرة ٢٦) .

٣ ـ وما يَعْلَمُ تأويلَهُ إلاّ اللهُ والراسخون في العلم يقولون آمَنّا به كُلٌّ مِن عند رَبِّنا . (سورة آل عمران : ٧) .

من هنا برزت الحاجة الى وسائل جديدة لفهم نصوص الكتاب العزيز

ومعرفة سياق الآيات الكريمة فنشأت مسألة اخرى (غير النقط والشكل تتصل بالنص القرآني وهي معرفة مواطن الوقف والابتداء ، فأين يقف المسلم عندما يقرأ مثل هذه الآيات :

١ - فإنّها مُحَرَّمَةٌ عليهمْ أربعينَ سَنَةً يَتيهون في الارض (سورة المائدة : ٢٦) .

٢ - يُدْخِلُ مَنْ يشاءُ في رحمتهِ والظالمينَ أعدّ لهُمْ عذاباً أليماً (سورة الانسان : ٣١) .

٣ - ونَزَعْنا ما في صُدورِهمْ مِنْ غِلٍّ إخواناً على سُرُرٍ متقابلين (سورة الحجر : ٤٧) .

ولذلك مَسّت الحاجة الى تحديدِ مواضع الوقوف ثم انواعه وما يجوز عنده الوقوف وما لا يجوز .

واول المبادرين الى ذلك (القُرّاء) لانهم الرُوّاد الذين قامت على ايديهم عمليتا (النقط والشكل) ثم تبعهم اللغويون والنحاة المحترفون .

ويبدو أنّ التأليف بدأ في القرن الاول الهجري (السابع الميلادي) على يد (نصر بن عاصم) (ت٨٩هـ/٧٠٧م ، او ٩٠هـ/٧٠٨م) ونصر ممن اشتهر في البصرة بنقط المصاحف وهو من القراء المعروفين وقد ترجم له ابن الجزري في طبقات القراء واسم كتاب نصر (وقف التمام) ومعنى هذا المصطلح ان الوقف التام هو الذى يحسن الوقف عليه والابتداء بما بعده لانه لا يتعلق به شيء مما بعده وذلك عند تمام القصص واكثر ما يكون موجودا في الفواصل ورؤوس الآيات كقوله تعالى (اولئك هم المفلحون) (سورة البقرة : ٥) ، والابتداء بقوله تعالى (انالذين كفروا ..) (سورة البقرة : ٦) وكذلك الوقف عند (بكل شيء عليم) (سورة البقرة : الآية ٢٩) والابتداء بقوله تعالى (واذ قال رَبّكَ للملائكة) (سورة البقرة : ٣٠) .

وقد يكون قبل انقضاء الفاصلة كقوله تعالى (وجعلوا أعزّة أهلها اذلة) لانه انقضاء كلام بلقيس إذْ قالت : (إنّ الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة) (الاية ٣٤ من سورة النمل) • فالوقف عند قوله (اذلة) هو التمام •

اما في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) فاول من الف في الوقف والابتداء هم القراء ، والمبادر الى ذلك ضِرارُ بن صرد (وصرد بوزن عمر) وهو من قراء الكوفة روى عن الكسائي وعن يحيى بن آدم القراءة وتوفي سنة ١٢٩ هـ/٧٤٦ م • وتبعه المقرىء الكوفي المعروف حمزة بن حبيب الزيات (والمتوفى ١٥٦هـ/٧٧٢م) ويعد واحدا من القراء السبعة ترجم له ابن مجاهد (ت٣٢٤هـ/٩٣٥م) في كتابه السبعة في القراءات وغيره من المؤلفين في السبعة والعشرة (والتأنيث في العدد يرجع الى ان المعدود هم القراء وهم ذكور والعدد على عكس المعدود في هذا الحيز) •

وقد لاحظتُ أنّ جُلّ الكتب المؤلفة في علم الوقف والابتداء تكاد تنحصر في اهل العراق كوفيين وبغداديين ولاسيما من القرنين الثاني والثالث الهجريين وهذا لا يعني ان غيرهم لم يؤلف قطّ •

وقد اقتضتْ ارادة الله ان يكرم هذا البلد بحمل رسالة القرآن والدفاع عنه ، والتأليف في علومه •

ان التأليف في علم الوقف والابتداء في هذين القرنين قلما نهد في غير العراق • ومن القلائل الذين الفوا من غير اهل العراق المقرىء المدني نافع ابن عبدالرحمن المتوفى سنة ١٦٩هـ/٧٨٥م وهو احد القراء السبعة ايضا وكتابه في (وقف التمام) •

وعده ابو جعفر النحاس (ت٣٣٨هـ/٩٤٩م) في كتابه (القطع والائتناف) اول من الف في وقف التمام ولكنني اثبت ان اول من الف فيه (نصر بن عاصم) البصري (ت ٨٩هـ/٧٠٧م) اعتمادا على ما ذكره (ابن النديم) في (الفهرست : ٣٦ : ط فلوجل ، سنة ١٨٧٢ م) •

والملاحظة الاخرى هي أنّ اكثر المؤلفين في هذا الفن هم من القراء وهي ملاحظة يمكن ان تصدق حتى نهاية القرن الثالث الهجري وقد الف في (وقف التمام) يعقوب بن اسحاق الحضرمي (ت ٢٠٥ هـ / ٨٢٠م) وكان امام اهل البصرة بعد ابي عمرو بن العلاء .

وقد وصفه تلميذه في القراءات ابو حاتم السجستاني بقوله (يعقوب بن اسحاق من اهل بيت العلم بالقرآن والعربية وكلام العرب والرواية الكثيرة ، والحروف والفقه) .

وفي الوقف والابتداء الف الرؤاسي (محمد بن ابي سارة الكوفي ، استاذ الكسائي) كتابين في هذا الفن (كتاب الوقف والابتداء الكبير) و (كتاب الوقف والابتداء الصغير) . والف بعده الفرّاء يحيى بن زياد المتوفى ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م كتابا في الوقف والابتداء . وهو من القراء ترجم له (ابن الجزرى) في طبقات القراء وذكر انه قرأ على الكسائي وغيره .

وبعده الف النحوى البصرى المعروف الاخفش سعيد بن مسعدة ، ت ٢١٥هـ/٨٣٠م كتابه الموسوم بالوقف والابتداء.وجاء بعدهم المقرىء البغدادي خلف بن هشام البزار (بالزاى المنقوطة بواحدة ثم راء مهملة بعد الالف) فألف في الوقف والابتداء كتاباً . وهو احد القرّاء العشرة المشهورين وتوفي بمدينة السلام بغداد سنة ٢٢٩ هـ / ٨٤٣ م . والف معاصره المقرىء محمد بن سعدان الكوفي ، نسبةً غير اننا لو دققنا النظر لوجدنا انه بغدادي فقد ذكره الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ووثقه وذكره ابن المنادى في كتابه قراء اهل مدينة السلام (ينظر تاريخ بغداد ٥/٣٢٤)وقال القفطيفي إنباه الرواة ٣/١٤٠(وكان بغدادى المولد كوفي المذهب) أيْ من اتباع مدرسة الكوفة في النحو وتوفي ابن سعدان سنة ٢٣١ هـ/٨٤٥ م .

والف معاصره ابو عبدالرحمن عبدالله بن يحيى بن المبارك اليزيدى

المتوفى ٢٣٧هـ/٨٥١م كتابا في الوقف والابتداء ايضا وقد مضى ذكره في مبحث (النقط) •

وفي نهاية النصف الاول من القرن الثالث الهجرى الف المقرىء البغدادى ابو عمر الدوري حفص بن عمر المتوفى٢٤٦هـ/٨٦٠م كتابافي(الوقف والابتداء) ايضاً وهو واحد من أجَلّ رواة القراءة عن الكسائي ، وهو ممن روى عن محمد بن سعدان ونسبته الى الدور محلة بالجانب الشرقي من بغداد وهو من ابطال الثبات في محنة خلق القرآن وكان ممن وقف في وجه طغيان المعتزلة ، ولذلك روى عنه الامام احمد بن حنبل ابرز الابطال في تلك المحنة واثبتهم •

وجاء بعدهم المقرىء اللغوى ابو حاتم سهل بن محمد المعروف بالسجستاني (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م فالف كتابه المعروف بـ(المقاطع والمبادىء وهو كتاب مشهور عند اهل الفن وقد اثارت آراؤه في الوقف وانواعه رُدودَ فِعْلٍ مختلفة عند المؤلفين في (الوقف والابتداء) •

والف في نهاية القرن الثالث الهجرى المقرىء البغدادى ابو ايوب التميمي المعروفبالضبي(ت٢٩١هـ/٩٠٣م)كتابه في الوقف والابتداء•وهو ممن أَقرأ بمدينة السلام ستين سنة ، وقرأ عليه ابو بكر النقّاش البغدادى ومحمد ابن القاسم والد ابي بكر بن الانبارى •

ولمعاصره النحوي المشهور ثعلب (ت٢٩١هـ/٩٠٣م)كتابه الوقف والابتداء ايضا •

اما في القرن الرابع الهجرى فان اشهر المؤلفين في موضوع (الوقف والابتداء) هم :

١ ــ العباس بن الفضل بن شاذان (ت٣١٠هـ/٩٢٢م) واسم كتابه (المقاطع والمبادىء) •

٢ ــ ابن كيسان محمد بن احمد بن محمد (ت ٣٢٠هـ/٩٣٢ م) •

٣ ــ ابن الانباري (ت ٣٢٨ هـ/٩٣٩ م) وكتابه (ايضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عزوجل) .

٤ ــ ابو سعيد السيرافي الحسن بن عبدالله (ت ٣٦٨ هـ/٩٧٨ م) .

٥ ــ ابن جِنّي عثمان بن جني (٣٩٢ هـ / ١٠٠١ م) .

٦ ــ احمد بن كامل بن خلف بن شجرة (ت ٣٥٥ هـ/٩٦٥ م) .

ويُلاحظ على هذه القائمة امران :

الاول : ان نصف المؤلفين (١ ، ٣ ، ٦ ، من القراء ونصفهم من النحاة).

الثاني : ان كل هـــذه المؤلفات قـد ضاعت الاكتاب ابـن الانبـارى والمصطلحات التي يستعملها ابن الانبارى في كتابه هي :

١ ــ الوقف التـام .

٢ ــ الوقف الحسن .

٣ ــ الوقف القبيح .

لقد عرفنا مصطلح (الوقف التام) .. اما الوقف الحسن فهو الذى يحسن الوقف عليه ولا يحسن الابتداء بما بعـده لتعلقه به من جهـة اللفظ والمعنى جميعاً ، وذلك نحو (الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين) من سورة الفاتحة وشبهه .

ان الابتداء بقوله (ربِّ العالمين) او الرحمن الرحيم او مالك يوم الدين لا يحسن لان ذلك مجرور والابتداء بالمجرور لا يحسن لانه تابع لما قبله .

اما الوقف القبيح فهو الذى لايؤدّي معنى تاماً اى انه اذا وُقف عليه فلا يُعلم المراد منه . ومن الامثلة التي اوردها على ذلك قوله :

(الوقف على « الحمد » قبيح لانه مرفوع باللام اى في قوله تعالى « لله »

والمرفوع متعلق بالرافع لا يستغني عنه والوقف على «اياك نعبد» الوقف حسن والوقف على « ايـاك » قبيح لانه منصوب بـ « تعبد » والمنصوب مضطر الى الناصب اي محتاج اليه • وقوله « اهدنا الصراط المستقيم » الوقف على « اهدنا » قبيح لان (الصراط) منصوب به والمنصوب متعلـق بالناصب • والوقف على « الصراط » قبيح لان « المستقيم » نعته والنعت متعلق بالمنعوت، والوقف على « المستقيم » حسن وليس بتمام لان « الصراط » الثاني مترجم عن « الصراط » الاول والمترجـم ــ اي البـدل ــ متعلق بالاسـم الذي يترجم عنه) •

ويمكن تلخيص منهج ابن الانباري في (ايضاح الوقف والابتداء) كما يأتـي :

١ ــ الايجاز فقليلا ما يعلل سبب الوقف وقليلا ما يذكر التفاصيل وكثيرا ما تكون عباراته مقتضبة •

٢ ــ الاقتصار على مواضع الوقف ونادرا ما يذكـر مواضـع الابتـداء (الايضاح ١ / ٤٩٩) •

٣ ــ اغلب مصادره كوفية •

يكاد ابن الانباري يقتصر في كتابه على اقوال الكوفيين امثال المقرىء حمزة بن حبيب والكسائي والفرّاء وثعلب • ويتقبل آراءهم بقبول حسن ان لم نقل : انه يدافع عن جملة منها •

ولم يورد من اقوال البصريين الا اقوال ابي حاتم السجستاني واقوال الاخفش سعيد بن مسعدة ولكنه يبدو مخالفا لابي حاتم في جُلّ ما نقله من كتابه (الايضاح ١ / ٤٩٨ ، ٥٠٥ ، ٥١٤ ، ٥٢١) •

اما اقوال الاخفش فرد بعضها (الايضاح ١ / ٥٢٠) وارتضى بعضها (نفسه ١ / ٤٨٥) •

(٨)

علم متشابه القرآن

يُعَدُّ هذا العلم من ميادين البحث الشائكة وقد تحاشاه كثير من الباحثين في حين وقف منه بعض اهل الاهواء موقف التأويل البعيد فذهبوا مذاهب بعيدة في التأويل ليوافق اهواءهم . ولذلك يحتاج الباحث في هذا العلم الى ان يكون دقيقا وموضوعيا الى اقصى درجات الالتزام المنهجي ..

فما مفهوم المتشابه ؟

يقابِلُ المتشابَهُ المُحْكَمَ ، والمحكم هو الذي يَدُلُّ ظاهره على المراد منه او يقتضي السياقُ الذي جاء فيه انه لا يحتمل إلاّ الوجه الواحد من الدلالة .

اما المتشابه فليس كذلك لان المراد به يشتبه على العالم باللغة فيحتاج الى قرينة محددة في معرفة المراد منه اما بأن يُحملَ على المحكم او بانْ يدل عليه كلام الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومن امثلة النوع الاول قوله تعالى : (واعْلَمُوا أنّ الله يحول بينَ المَرءِ وقَلْبِهِ وأنّه إليه تُحشرون) (سورة الانفال الآية : ٢٤) . ظاهر الآية يدل على انه يحول بين المرء وقلبه لا بينه وبين افعال قلبه . غير ان الدقة تقتضي خلاف هذا لانه لو كان المقصود هذا الظاهر لم يكن فيه فائدة لاننا بيننا وبين القلب حائلاً ولذلك لا نراه كما نرى المستور المحجوب .

والمراد بذلك ان يحول بين المرء وقلبه بالاماتة فيخرج من ان يمكنه من التلافي بالتوبة والندم ويقوى هذا انه تعالى رَغّبَ في المبادرة الى التوبة وتلافي المعصية بقوله تعالى في السورة نفسها (يا أيّها الذين آمنوا استجيبوا للهِ وللرسولِ اذا دعاكُمْ لما يُحييكم) .

ومن النوع الثاني قوله تعالى في سورة النساء الآية : ١٢٩ (ولن تستطيعوا انْ تَعْدِلوا بينَ النساء ولو حَرَصْتُمْ) . وظاهر النص يدل على انهم لا يستطيعون ان يُسَوّوا بين النساء . لكن الراسخين في العلم من علماء هذه الامة الكريمة قالوا : ان النص لا يؤخذ على اطلاقه لانه لم يذكر الامر الذى يسوى بينهن فيه .

والمراد بالآية ان الانسان لا يستطيع ان يسوى بين النساء فيما يتعلق بميل النفس لان ذلك من خلق الله تعالى فيه .

ويؤيد هذا الحديث الشريف الذى اخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه وابو داود (واللفظ له) عن عائشة رضي الله عنها قالت (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ويقول : اللهم هذا قَسَمي فيما أَمْلِكُ فلا تلمني فيما تملك ولا املك) . لذلك نرى بعض الناس لو اشتد حرصه على ان يشتهي ما يسهل عليه تناوله ليتمكن من القناعة لم يتمكن من ذلك فلو أراد قصر شهوته على ما تحويه يده لما امكنه فصارت الشهوة بمنزلة الصحة واللون والهيئة من انه لا قدرة للانسان فيه ولا استطاعة .

ويوجد نوع ثالث من المتشابه وهو الذى تتكافأ فيه الادلة وتتراوح الدلالة بين قطبين وتتردد بين غايتين ، مثال ذلك الآية السابعة من سورة آل عمران : بسم الله الرحمن الرحيم (هو الذى أَنْزَلَ عليكَ الكتابَ منه آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكتاب وأُخَرُ متشابهاتٌ فأمّا الذين في قلوبهم زَيْغٌ فيتّبعون ما تشابَهَ منه ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويله وما يعلمُ تأويلَهُ إلاّ اللهُ والراسخون في العلم يقولون آمنا به كُلٌ مِنْ عند رَبِّنا وما يَذّكّرُ إلاّ أُولو الالباب) .

والسؤال هنا : ماذا تفيد الواو في قوله تعالى (والراسخون في العلم يقولون آمنا به ..) أهي واو الاستئناف ام واو العطف ؟

فذهب فريق من العلماء الى الرأى الاول وذهب فريق الى الرأى الآخر . فان ذهبنا الى الرأى الاول فالوقف عند قوله : (وما يعلم تأويله الا الله) .

وان ذهبنا الى الرأى الاخر فالوقف عند قوله : (والراسخون في العلم) او (آمنا به)وقد حقق ذلك ابو جعفر النحاس(ت٣٣٨هـ/٩٤٩م)في كتابه (القطع والائتناف صفحات ٢١٢ ـ ٢١٥) ولكنه لم يقطع برأى بل اقر الرأيين • وليس ذلك بغريب على من يَطّلع على المتشابهِ • وقد اسهم علماء العراق في هذا الميدان فكان لهم القدح المعلى •

واستقريت الكتب المؤلفة في متشابه القرآن منذ نشأة هذا العلم حتى القرن السابع فبلغت اربعة عشر كتابا ، اثنا عشر كتابا منها الفها العراقيون وهي نسبة لها دلالتها وهاهي مرتبة ترتيبا زمنيا :

١ ـ متشابه القرآن • تأليف : مقاتل بن سليمان البلخي ت١٥٠هـ/٧٦٧ م •

٢ ـ متشابه القرآن • تأليف حمزة بن حبيب الزيات الكوفي احد القراء السبعة توفي سنة ١٥٨هـ/٧٧٤م •

٣ ـ متشابه القرآن • تأليف : محمد بن المستنير المعروف بقطرب ت ٢٠٦ هـ/٨٢١ م •

٤ ـ متشابه القرآن • تأليف جعفر بن حرب المعتزلي البغدادي ت ٢١٦هـ/٨٣١ م •

٥ ـ متشابه القرآن • تأليف بشر بن المعتمر البغدادي المعتزلي ت ٢١٠ هـ/٨٢٥ م •

٦ ـ متشابه القرآن • تأليف خلف بن هشام البزار البغدادي ت ٢٢٩ هـ/٨٤٣ م •
وهو احد القراء العشرة •

٧ ـ متشابه القرآن • تأليف محمود بن حسن الوراق ت سنة ٢٣٠ هـ/٨٤٤ م •

٨ ـ متشابه القرآن . تأليف أبي هُذيل العلاّف محمد بن هذيل ت ٢٣٥ هـ/٨٤٩ م .

٩ ـ كتاب الرد على الجهمية والزنادقة فيما شككوا فيه من متشابه القرآن وتأوّلوه على غير تأويله تأليف الامام احمد بن حنبل الشيباني البغدادي (ت ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م) .

١٠ـ متشابه القرآن . تأليف ابي علي الجُبّائي محمد بن عبدالوهاب بن سلام المعتزلي ت سنة ٣٠٣ هـ/٩١٥ م .

١١ ـ متشابه القرآن . تأليف احمد بن جعفر بن حمدان القَطِيعي البغدادي ت سنة ٣٦٨ هـ/٩٧٨ م .

١٢ ـ متشابه القرآن للقاضي عبدالجبار بن احمد الهمذاني ت سنة ٤١٥ هـ/ ١٠٤٢ م .

١٣ ـ متشابه القرآن . تأليف احمد بن محمد بن حفص الخلال البصري (المتوفى بعد سنة ٣٧٧ هـ/٩٨٧ م) .

١٤ ـ متشابه القرآن . تأليف ابي البقاء العكبري البغدادي المتوفى سنة ٦١٦ هـ/ ١٢١٩ م .

(٩)

علم التفسير

لعل هذا العلم من أهمّ علوم القرآن الكريم بعد علم القراءات ولهذا كانت الكتب المؤلفة في التفسير اكثر من غيرها في أي علم آخر من علوم الكتاب العزيز وقد كثرت مناحي المفسرين واتجاهاتهم فمنهم من اكتفى بالتفسير اللغوي او البياني ومنهم من اهتم بالاحكام القرآنية المتصلة بالمعاملات وهذا المنحى يقترن بالاتجاهات الفقهية ومنهم من اتجه بالتفسير اتجاها مأثورا

فجمع ما صح عنده من اقوال السلف الصالح في التفسير ومنهم من لم يكتف باقوال السلف في التفسير بل اجتهد واعمل رايه امتثالاً لقوله تعالى (افلا يتدبرون القرآن) .

والتفسير في عرف العلماء كشف معاني القرآن وبيان المراد بالآيات اما التأويل فاصله في اللغة من الاول ومعنى قولهم ما تاويل هذا الكلام ؟ أي الام تؤول العاقبة في المراد به . قال تعالى (يوم يأتي تاويله) اي تكشف عاقبته . ويقال آل الامر الى كذا اي صار اليه . وقد يأتي التأويل ويراد به العاقبة نفسها ومنه قوله تعالى (ذلك خير وأحسن تأويلا) (سورة النساء: ٥٩) وتاويل الاحلام : المراد منها على وجه الدقة.ولذلك قرنها القرآن الكريم في جل الايات المتصلة بتأويل الأحلام بكلمة العلم واشتقاقها . قال تعالى : (ويعلمك من تأويل الاحاديث) (سورة يوسف : ٦) وقال تعالى : (وكذلك مكنا ليوسف في الارض ، ولنعلمه من تأويل الاحاديث) (سورة يوسف : ٢١) .

وقد يراد بالتأويل صرف الآية عن ظاهرها لتوافق وجهة نظر خاصة او لتوافق الهوى . وفي هذا المجال ترد التفاسير الخاصة باهل الفرق واصحاب الاهواء من معتزلة وباطنية وفرق غالية وبعض فرق الصوفية .

وقد يراد بالتأويل بيان الحكمة الخفية وراء الاشياء وهذا هو المراد بالآية الكريمة على لسان الخضر عليه السلام يخاطب موسى (ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا) (سورة الكهف / ٨٢) .

اما تسمية الطبري تفسيره « بجامع القرآن عن تأويل آي القرآن » فيرجع الى انه عرض في كتابه اقوال العلماء ثم ناقشها وابدى رأيه فيها واعطى ما تؤول اليه معاني الآيات .

فالتأويل حالة خاصة من حالات التفسير وبينهما عموم وخصوص . فالتفسير أعم من التأويل وكل تفسير تأويل وليس كل تأويل تفسيرا ..

اتجاهـات التفسـير

الاتجـاه الاول ـ التفسـير اللغـوي

ويراد باللغة هنا معناها العام ومفهومها الواسع ويشمل كل نشاط يتصل بمفردات اللغه وتراكيبها واساليبها . ويمكن ان نضع تحت هذا العنوان كل التفاسير التي سميت بـ :

١ ـ معاني القرآن .

٢ ـ اعراب القرآن .

★ كتب المعـانـي ★

واقدم من الف في معاني القرآن (واصل بن عطاء) المعتزلي المعروف المتوفى ١٣١ هـ /٧٤٨م وهو تلميذ الحسن البصري والف بعده(أبان بن تغلب) الكوفي (ت ١٤١هـ/٧٥٨م) وقد وصف الداودي كتابه في معاني القـرآن بانه لطيف وتوالت المؤلفات في هذا الاتجاه واخذت تنمو مادتهـا وتتطور اساليبها ومناهجها .

واشهر الكتب المؤلفة في معاني القرآن في القرن الثاني : معاني القرآن للرؤاسي (معاصر الخليل) ومعاني القرآن لخلف الاحمر (ت ١٨٠هـ/٧٩٦م) ومعاني القرآن الكبير والصغير ليونس بن حبيب (ت١٨٣ هـ/٧٩٩م) ومعاني القرآن للكسائي (ت ١٨٩ هـ / ٨٠٤م) ومعاني القرآن لابي فَيْدٍ مؤرج بن عمرو السَّدُوسِيّ البصري (ت ١٩٤هـ/٨٠٩ م) سمع من ابي عمرو بـن العلاء وابي زيد الانصاري وغيرهما .

ويلاحظ على هذه الكتب ثلاثة امور :

الاول : ان كل مؤلفيها عراقيون .

الثاني : انهم اما من نحاة البصرة او من نحاة الكوفة وقليل منهم في عداد الفلاسفة

الثالث : ان جميع تلك الكتب قد ضاعت .

اما المؤلفات في معانيَ القرآن في القرن الثالث الهجرى فهي :

معاني القرآن لقطرب (٢٠٦ هـ/٨٢١ م)معاني القرآن للفراء (ت ٢٠٧هـ / ٨٢٢م) ، معاني القرآن لابي عُبيدة مَعْمَرِ بن المثنى (ت ٢١٠هـ/ ٨٢٥ م) ، معاني انقرآن للاخفش (ت ٢١٥ هـ/٨٣٠ م) ، معاني القرآن لابي عُبيد القاسم بن سَلاّم (٢٢٤ هـ /٨٣٨ م) ، معاني القرآن لابن قتيبة عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ/٨٨٩ م) ، معاني القرآن للمبرّد (ت ٢٨٥ هـ/ ٨٩٨م) ، ومعاني القرآن لثعلب (ت ٢٩١ هـ /٩٠٣م) ومعاني القرآن للمفضل بن سلمة الكوفي (ت ٣٠٠ هـ/٩١٢ م) ومعاني القرآن لاسماعيل بن اسحاق (ت ٢٨٢ هـ/٨٩٥ م) .

ويلاحظ على هذه المؤلفات ان جميع مؤلفيها من اللغويين المعروفين من مدرستي البصرة والكوفة وان كل مؤلفيها عراقيون إلاّ ابنَ قتيبة الدِينوري صاحب كتاب الشعر والشعراء .. وقد بقي من كل تلك المؤلفات كتابان : معاني القرآن للاخفش وهو مطبوع ومعاني القرآن للفراء وهو مطبوع ايضا .
الاول : زعيم من زعماء مدرسة البصرة .

والآخر : زعيم من زعماء مدرسة الكوفة .

والمطلع على الكتابين يجد أنّ كلّ واحد منهما قد ركز على ابراز المسائل النحوية التي تتفق ومدرسته التي يؤمن بها .. فلا غرابة بعد ذلك ان نجد في الكتابين حديثا مسهبا عن القضايا النحوية .

غير ان كتاب الفراء اقرب الى كتب التفسير من كتاب الاخفش وكتاب الاخفش اقرب الى كتب اعراب القرآن من كتاب الفراء ويهتم الفراء ايضا

بالقراءات ولا يخلو كتابه من نقد القراء المعروفين ولاسيما حمزة بن حبيب الزيات وابن عامر وهما من القراء السبعة !!

اما المؤلفات في معاني القرآن في القرن الرابع الهجرى فهي معاني القرآن واعرابه للزجاج النحوي (ت ٣١١ هـ/٩٢٣ م) ومعاني القرآن لابن كيسان (ت ٣٢٠هـ/٩٣٢م) ومعاني القرآن للجَعْدِ الشيباني محمد بن عثمان وهو من اصحاب ابن كيسان (ت الجعد سنة ٣٢٠هـ / ٩٣٢م) ومعاني القرآن لابن الخياط محمد بن احمد بن منصور (ت ٣٢٠هـ/٩٣٢م) • اصله من سمرقند وقدم بغداد • والمُشْكِلُ في معاني القرآن لابن الانباري ت ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م ولابن درستويه ت ٣٤٧هـ / ٩٥٨م ثلاثة كتب في المعاني :

أ ــ معاني القرآن •

ب ــ الردّ على الفراء في المعاني •

ج ــ التوسط بين الاخفش وثعلب في المعاني •

ومعاني القرآن وتفسير مشكله للوزير علي بن عيسى بن داود الجراح ت ٣٣٤ هـ •والمُوضِحُ في معاني القرآن للمقرىء البغدادي محمد بن الحسن بن زياد بن سَنَدٍ ت ٣٥١ هـ/ ٩٦٢ م •

لكن الذي يؤسف له ان كل هذه الكتب قد ضاعت الا معاني القرآن واعرابه (للزجاج) النحوي المعروف •

ويهتم الزجاج بالقضايا النحوية وبوجوه الإعراب اهتماماً بارزاً لانّ هذا معدن الرجل وتلك ميزته بين أقرانه •

اما اللغة فانه قصير الباع فيها بالرغم من تأليفه كتاب الفرق وكتاب فعلت وافعلت وكتاب خلق الانسان وقد وصفه (ابن النديم) بانه (ضعيف باللغة) وطعن حمزة الاصبهاني ت ٣٦٠هـ/ ٩٧٠ م في منهجه الاشتقاقي •

★ كتب اعراب القـــرآن ★

اما كتب اعراب القرآن فلم تظهر الا في القرن الثالث الهجري ويرجع ذلك الى سببين :

الاول : ان اصول النحو لم تكتمل الا في نهاية القرن الثاني الهجري ويحتاج معرب القرآن الكريم الى ان يحيط علما بكل تفاصيل النحـــو واصوله والا فكيف يصبح شارحا لكتاب الله الكامل المتكامل ؟ •

الثاني : ان كتب معاني القرآن كانت تجمع بين الشرح العام والاعراب وهذه كتب الفراء والاخفش الاوسط وغيره تنبي عن هذا • وكان بعضهـا يجمع حتى في عنوانه بين لفظة المعاني ولفظة الاعراب •

اما اهم كتب الاعراب فهي اما ان تحمل العنوان العام وهذه سمة الكتب المؤلفة في الاعراب حتى نهاية القرن الرابع ، وهي : اعراب القرآن لقطرب (ت ٢٠٦ هـ / ٨٢١ م) واعراب القرآن لابي عبيدة (ت ٢١٠هـ ٨٢٥م) ولعبدالملك ابن حبيب السلمي الاندلسي (ت ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م) ولابي هاشم السجستاني (ت٢٥٥هـ/٨٦٨م) ولابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م) وللمبرد (ت٢٨٥هـ / ٨٩٨م) • ولمعاصره ثعلب (ت ٢٩١ هـ / ٩٠٣م) ولنفطويه (ت ٣٢٤هـ/٩٣٥م) ولابي جعفر النحاس (توفي ٣٣٨هـ / ٩٤٩م) •

اما في القرن الخامس الهجري فظهرت عنوانات جديدة مع بقـاء الاتجاه العام السالف ذكره •

الف مكي بن ابي طالب القيسي الاندلسي المتوفى (٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م) (مشكل اعراب القرآن) والف ابو البركات الانباري (ت ٥٧٧ هـ / ١١٨١م) كتابه (البيان في غريب اعراب القرآن) والف ابو البقاء العكبري (ت٦١٦هـ/ ١٢١٩م) كتابه (املاء ما من به الرحمن من وجوه الاعراب والقراءات في جميع القرآن) • وذكر له الداودي في (طبقات المفسرين) كتابا عنوانه (التبيان في اعراب القرآن) • ولا اشك في ان الكتابين واحد وان اختلفت الاسماء •

اما ما ذكرته بعض الكتب من ان الزجاج ألف كتاباً في (اعراب القرآن) فلا أراه الا ّ وهمـاً لأن كل ماروي للزجـاج في اعراب القـرآن في الكتب المماثلة فهي من كتاب (معانيه) ، والله اعلم .

الاتجـاه الثاني ــ بيان أحكام القـرآن

انزل الله سبحانه وتعالى القرآن العظيم رحمة للعالمين وسماه (نورا مبينا) وسماه (شفاء) ولا يكون رحمة ونورا وشفاء الا باتباعه والعمل بـه ..

قال تعالى : (وهذا كتاب انزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا) (سورة الانعام الآية ١٥٥) وقال تعالى : (انما كان قول المؤمنين اذا دُعُوا الى الله ورسوله لِيَحْكُمَ بينهم أنْ يقولوا : سمعنا واطعنا) (سورة النور ٥١) .

وهذا ما فهمه الصحابة وطَبّقوه تطبيقاً تاماً حتى قال عبدالله بن مسعود، الصحابي الجليل (كُنّا نَتَعَلَّمُ من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات فما تتعلم العشر التي بعدهن حتى تتعلم ما أَنْزَلَ اللهُ في هذه العَشْرِ من العمل) .

ولذلك كان علم الفقه اولَ العلوم نشوءاً في الاسلام فلا غرابة ان تظهر مجموعة من فقهاء الصحابة ، كالخلفاء الراشدين وعائشة ام المؤمنين وعبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس وعبدالله بن مسعود وغيرهم .

وكذلك ظهرت مجاميع اخرى من الفقهاء في عصر التابعين وتابعيهم باحسان رضي الله عنهم اجمعين .

اما التأليف في (احكام القرآن) فلم يظهر الا في نهاية القرن الثاني الهجرى وفي العقد الاخير منه .. والسبب يرجع الى ان هذا الاتجاه ارتبط ارتباطاً ظاهراً بالمذاهب الفقهية ونحن نعلم جميعاً أنّ هذه المذاهب المشهورة على الاقل لم تتكامل الا في النصف الثاني الهجرى وما بعده .

ولذلك يعد كتاب (أَحكامُ القرآن) للامام الشافعي (ت ٢٠٤ هـ/ ٨١٩ م) من اوائل هذه الكتب وهو مطبوع .

والف معاصره : يحيى بن آدم بن سليمان الكوفي القرشي (ت ٢٠٣هـ/٨١٨ م) كتابا في الموضوع نفسه ، وارجح انه حنفي المذهب لان منشأ الفقه الحنفي كان في الكوفة وتطلق نسبة الكوفي على الامام ابي حنيفة النعمان بن ثابت ويسمى ابو جعفر النحاس (توفي ٣٣٨ هـ /٩٤٩ م) ، فقهاء الحنفية : الكوفيين وذلك في كتابه (الناسخ والمنسوخ) .

والف المقرىء ابو عمر الدوري : حفص بن عمر (ت ٢٤٦ هـ/٨٦٠ م) كتابا في (احكام القرآن) ولمعاصره الفقيه الشافعي ابراهيم بن خالد الكلبي البغدادي ت ٢٤٠ هـ/٨٥٤ م كتاب في الموضوع نفسه . والف الفقيه الشافعي داود بن خلف الاصبهاني البغدادي توفي ٢٧٠ هـ/٨٨٣ م كتابا في احكام القرآن ايضا .

ومن فقهاء المالكية المؤلفين في احكام القرآن القاضي اسماعيل بن اسحاق، الجهضمي البصري (المتوفى ٢٨٢ هـ/٨٩٥ م) ووصف الداودي كتابه بقوله : (لم يسبق الى مثله) وهذا دليل على جودته .

وارى ان تفسير الطبرى (جامع البيان) كتاب من هذا الباب لانه ما ترك آية من آيات الاحكام وهي كثيرة إلا وتحدث عن دلالتها وقد املاه في الربع الاخير من القرن الثالث .

ويعد الطبرى من اصحاب الاراء الفقهية بعد ان ترك مذهب الشافعي . وقد املى مذهبه في كتاب كبير ذكره (ياقوت في معجم الادباء) في ترجمة الطبرى .

ويقال لمن تبع مذهبه الفقهي (الجريري) . ومن اشهر الكتب التي تنتمي الى المذهب الحنفي (احكام القرآن) لابي بكر الجصاص احمد بن علي (ت ٣٧٦ هـ/٩٨٦ م) وهو كتاب مطبوع معروف .

مفهومه : هو ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة او كلام الصحابة او من كلام التابعين مُبَيِّناً لمراد الله تعالى من كتابه .

وقد ذهب جمهور العلماء الى ان افضل التفاسير هو أنْ يُفَسَّرَ القرآن بالقرآن . واحسن ما أُلِّفَ في هذا الاتجاه كتاب « أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن » لمحمد الامين بن محمد المختار وهو مطبوع .

ومن امثلة تفسير القرآن بالقرآن ما جاء في (اضواء البيان) ١٢٦/٣ من ان المراد بالجَمْع في الآية الكريمة : (ومِنْ آياتِهِ خَلْقُ السمواتِ والارضِ وما بَثَّ فيهما من دابّة ، وهو على جَمْعِهِمْ اذا يشاء قدير) هو (يوم القيامة) بدليل الايات : (يوم يَجْمَعُكُمْ ليوم الجمع ذلكَ يومُ التّغابُنِ) (سورة التغابن الآية ٩) . و (قُلْ إنّ الأوّلين والآخِرين لمجموعون الى ميقاتِ يومٍ معلوم) (سورة الواقعة الاية ٥٠) و (الله لا إلهَ إلا هو لَيَجْمَعَنَّكُمْ الى يوم القيامة) (سورة النساء الاية ٨٧) .

ومن امثلة ما جاء في السُّنة النبوية شرحا للقرآن انه صلى الله عليه وسلم فسّر الظلم الوارد في الآية الكريمة : (الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانَهُمْ بِظُلْمٍ) (سورة الانعام : ٨٢) فسره بالشِرْكِ كما جاء في (صحيح البخاري) .

واما القسم الثالث وهو ما جاء عن الصحابة تفسيراً للقرآن الكريم فقد عُدّ من التفسير بالمأثور وان كان لا يخلو من التفسير بالرأي .

واشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة : الخلفاء الراشدون ، وابن مسعود وابن عباس ، وأبَيّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وابو موسى الاشعري ، وعبدالله بن الزبير . واكثرهم من روى عنه التفسير منهم : عبدالله بن عباس

(ت٦٨هـ /٦٨٧م) رضي الله عنهما ويعد (ابن عباس) اول مؤلف في التفسير بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة وان لم يرد عنه تفسير كامل للقرآن .

وكل من روى عن صحابي اوآه فهو تابعي . فالقسم الرابع هو ما روى عن التابعين من التفسير بالمأثور . واصح من روى عن ابن عباس تلاميذه الثلاثة سعيد بن جبير (المقتول بسيف الحجاج سنة ٩٥هـ/٧١٣م) ومجاهد بن جَبْر (ت ١٠٤ هـ /٧٢٢م) وعكرمة البربري (ت ١٠٤هـ / ٧٢٢م) .

الاتجاه الرابع ـ التفسير بالرأي

مفهومه : يطلق الرأي على الاعتقاد وعلى الاجتهاد وعلى القياس . فالتفسير بالرأي هو تفسير القرآن الكريم بالاجتهاد بعد معرفة المفسر لكلام العرب ومناحيها في القول ومعرفة الفاظ اللغة ودلالتها ومعرفة الناسخ والمنسوخ واسباب النزول ووجوه القراءات وتعليلها .

والموقف السليم من هذا الاتجاه هو أنَّ القرآن الكريم نفسه قد حثّنا على التفكير والتدبر واعمال العقل حتى نفهم آيات الله قال تعالى: (افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها) ؟ (سورة محمد الاية ٢٤) .

وقال عزّ منْ قائل : (إنّا أنزلناهُ قرآنا عربياً لعلم تعقلون) (سورة يوسف الاية ٢) .

فكيف يجوز ان يتصور مسلم ان الله سبحانه وتعالى يأمره بتدبر كتابه في الوقت الذي يمنعه فيه من الاجتهاد واعمال الفكر في تدبر آياته ؟

ولاشك في ان التفسير بالرأي لا يعني القاء القول على عواهنه بلا اعتماد على أثرٍ ولا على لغة وقد حدد العلماء أربعة أمور يجب أنْ يراعيَها المفسِّرُ بالرأي :

الاول : النقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنْ وُجد متصلاً بما يفسره مع الاحتراز من الضعيف والموضوع .

الثاني : الاخذ بقول الصحابي ولاسيما ما كان متصلاً باسباب النزول ونحوها مما لا مجال للرأي فيه .

الثالث : الالتزام باساليب اللغة وما عليه الاكثرون من العرب .

الرابع : الاخذ بما تقتضيه اساليب اللغة واحكامها واصول الشريعة وقوانينها. فمن فسر القرآن الكريم برأيه ملتزما بهـذه الحدود فتفسيره مقبول ومحمود . ومن حاد عنها وخرج عليها فتفسيره لا يعدو ان يكون اقوالا قد تصح وقد لا تصح .

مدارس التفسير بالعـــــراق

اول مدرسة تفسير : يعد عبدالله بن مسعود ابو عبدالرحمن الهذلي ، الصحابي الجليل رأس هذه المدرسة (توفي سنة ٣٢هـ / ٦٥٢م) وقد ارسله الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه معلما ومفقها لاهل الكوفـة وقد احسن الفاروق الاختيار فابن مسعود واحد ممن حفظ القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد ثبت عن ابن مسعود قوله (والذى لا اله غيره ما نزلت آية من كتاب الله الا وانـا اعلـم فيم نزلت وايـن نزلت ..) فهـو من علماء الصحابـة وقـال عنه تلميـذه (مسـروق بـن الاجدع الكوفي) : (كان عبدالله بن مسعود ، يقرأ علينا السورة ثم يحدثنا فيها ويفسرها عامة النهار) وارى أنّ مصحف ابن مسعود المُفَسَّر الذى اعتمد عليه (الفراء) كثيراً في معاني القرآن يُعَدّ أوّلَ مُصْحَفٍ مُفَسَّرٍ .. ومن ثَمّ يمكن ان يعد اول كتاب في التفسير وهي وجهة نظر آمل ان تكون صحيحة ان شاء الله . وامتدت المدرسة على يد تلامذة ابن مسعود في الكوفة واشهرهم :

١ ــ علقمة بن قيس بن عبدالله الكوفي النَخَعي (ت ٦٢هـ/٦٨١ م) .

٢ ـ مسروق بن الاجدع بن مالك الهمداني الكــوفي (ت ٦٣هـ/٦٨٢ م) وكان اعلم اصحاب (ابن مسعود) ومن الثقات حتى قــال يحيى بن معين عنه (ثقة لا يُسأل عن مثله) .

٣ ـ الاسود بن يزيد بن قيس النخعي (ت ٧٥ هـ/٦٩٤ م) وكان من كبار التابعين روى عنه اصحاب الصحاح الستة .

٤ ـ مُرّة بن شراحيل الهمداني الكوفي العابد المعروف بالطيّب لعبادته ولشدة وَرَعِه (ت سنة ٧٦ هـ/٦٩٥ م) .

واستمرت هذه المدرسة القديمة في خلق البيئة العلمية لاستمرار حركة التفسير.فقد الف الامام المشهور(سفيان الثوري) (ت١٦١هـ/٧٧٧م) تفسيره المعروف (وقد طبع في الهند في مجلد واحد) .وخلفه في الفقه والتفسير والحديث (وكيع بن الجراح) وهو مُحَدِّثُ زمانه مع الورع والفقه . وله تفسيره الذي رواه عنه : محمد بن اسماعيل الحساني توفي وكيع سنة ١٩٧ هـ/٨١٢م وقد ولد سنة ١٢٩ هـ/٧٤٦م ومن المقاربين له : الفضل بن دُكين (بزنة سهيل) القرشي الكوفي (ت ٢٠٨ هـ/٨٢٣ م) وله تفسير القرآن الكريم .

المدرسة البصرية في التفســــــير

يعد الحسن البصري (٢١ ـ ١١٠هـ / ٦٤١ ـ ٧٢٨م) بحرا من بحار العلم واماماً في الورع والتقوى ومن صفوة التابعين . وقد ادرك كثيرا مــن الصحابة واكثر من الرواية عن : الخليفة الراشد علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، وابن عمر وانس بن مالك وهو رأس المدرسة البصرية في التفسير ولــه تفسير رواه عنه جماعة من تلامذته .

ومن الذين خَلَفوه : قَتادةُ بنُ دِعامةَ السَّدُوسي البصري وهو اقرب الى طبقة المحــدثين من (الحسن) ولــه تفسير رواه عنه شــيبانِ بــن عبدالرحمن التميمي البصري .

وصفه الامام احمد بن حنبل فقال (قتادة عالم بالتفسير) ووصف سعيد بن المُسَيَّب حفظه فقال : ما أتاني عراقيّ أحفظ من قتادة ، يريد حفظه الاحاديث واتقانه فيه . وتوفي قتادة بواسط سنة ١١٨هـ / ٧٣٦م .

ونجد صدى هذه المدرسة قوياً في تفسير الطبري فقد اكثر من النقل عن رواة هذه التفاسير واودع جملة من اقوالهم تفسيره العظيم . غير ان هذه المدرسة قد ضعفت فيما يبدو بعد تأسيس بغداد مدينة السلام لانها استقطبت جل العلماء والفقهاء والمفسرين .

المدرسة البغدادية في التفسير

إنّ الذى يلفت النظر أنّ المدرسة البغدادية في التفسير هي حصيلة كل اتجاهات التفسير والبحر الزاخر الذي صبّت فيه آراء جمهرة من علماء الامصار .

ففيها من الاتجاه اللغوي والاتجاه الاجتهادي والاتجاه الفقهي .. جماعات . وفيها نزل كوفيون وبصريون وموصليون وغيرهم في حين غلبت على مدرسة التفسير البصرية النزعة الحديثية وغلبت على مدرسة الكوفة النزعة الفقهية .

وسأذكر هنا اشهر التفاسير واتجنب التكرار ما استطعت لانني قد ذكرت كثيرا من التفاسير فيما سبق . ومن اقدم المفسرين النازلين في بغداد هُشَيم بن بشير بن زياد . فله تفسيره الذي يرويه عنه زياد بن ايوب بن زياد البغدادي وتغلب على الرجل النزعة الحديثية ولذلك وصف بالحافظ سمع الحديث من الامام محمد بن شهاب الزُّهْرِيّ وغيره ، وسمع منه الحديث احمد بن حنبل وغيره . وتوفي سنة ١٨٣هـ/٧٩٩م . ولاحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ / ٨٥٥م) تفسير القرآن (كبير) . والمقدم والمؤخر في القرآن ، وجوابات القرآن .

ولابي علي الجُبّائِيّ المعتزلي (محمد بن عبدالوهاب ت ٣٠٣هـ/٩١٥م) تفسيره ايضا • ولابنه ابي هاشم الجبائي (عبدالسلام ٣٢١هـ/٩٣٣م) تفسيره أيضا وهما من اشياخ المعتزلة البارزين • غير ان اعظم المفسرين البغـداديين في القرن الثالث هو ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ /٩٢٢م) • وقد املى تفسيره من سنة ٢٨٣هـ / ٨٩٦م الى سنة ٢٩٠ هـ/- ٩٠٢م اي انه استغرق فيه سـبع سنين فلله دره !!

ويعد تفسير الطبري بحق مَعْلَمَةَ التفسير وجامع فنونه ولذلك أثنى عليه العلماء كافة ••

قال القاضي وكيع (احمد بن كامل بن خلف المتوفى ٣٥٥هـ/٩٦٥م) فيه: (وحُمِل هذا الكتاب مَشْرِقاً ومغرباً وقرأه كلَ مَنْ كان في وقتـه من العلماء وكلّ فضله وقدمه) •

قال مؤرخ بغداد الخطيب البغدادي (٢/١٦٢) في وصنه : (هو احد ائمة العلماء يحكم بقوله ، ويرجع الى رأيه لمعرفته وفضله ، وكان قـد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه احد من اهل عصره ، وكان حافظاً لكتاب الله ، عارفاً بالقراءات ، بصيراً بالمعاني فقيهاً في أحكام القـرآن ، عالماً بالسـنن وطرُقِها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها ، عارفاً باقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، عارفاً بأيام الناس واخبارهم ، وله الكتاب المشهور في تاريخ الامم والملوك ، وكتاب التفسير الذي لم يُصَنِّفْ أحَدٌ مثله) •

وقال احمد بن ابي طاهر الاسفراييني : (لو سافر رجل الى الصين حتى يحصل له تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيراً) •

يسير الطبري في تفسيره على ذكر وجوه التفسير المروية عن السلف مع ذكر اسانيدها منسقة بعضها عقب بعض لكنه لا يكتفي بالسرد بل ينقد احياناً سلاسل رجال السند ، ويعبر عن ذلك بما يناسبه ، ومتى وجد إجماعَ الأمّةِ

استظلّ بظلّه ، ونقد غيره . وكان يقول عن بعض المفسرين (يخالف اجماع الحجّة الذين لا يمكن نسبتهم الى الكذب . فمن ذلك انكاره على من يفسر القرآن بمجرد الرأي فحين يتعرض لتفسير الاية ٤٩ من سورة يوسف (ثم يأتي مِنْ بَعْدِ ذلك عامٌ فيه يُغاثُ الناسُ وفيه يَعْصِرُونَ) ويذكر اقوال المفسرين فيها يعقب على ذلك بقوله : (وكان بعض من لا علم له باقوال السلف من اهل التأويل ممن يفسر القرآن برأيه يُوَجِّهُ معنى قوله (وفيه يعصرون) الى (وفيه يَنْجُون من القحط ، بالغَيْثِ) ويزعم انه من العَصْر والعصر بمعنى المنجاة ... وذلك تأويل يكفي من الشهادة على خطئه خلافه جميع اهل العلم من الصحابة والتابعين) .

ويراعي في تفسيره في المرتبة الاولى المعنى الظاهر والطبري ينفر من التعميق في امور لا جدوى منها كالبحث عن الدراهم المذكورة في الاية الكريمة (وشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دراهمَ مَعْدُودةٍ) ويعقب على ذلك بقوله (وليس في العلم بمبلغ ذلك فائدة في دين ولا في الجهل به دخول ضَرٍّ فيه ، والايمان بظاهر التنزيل فرض وما عداه فموضوع عَنّا تكلف علمه) .

ويُعنى الطبرى بالاستعمال اللغوى لان هذا الاستعمال هو الموثوق به في تفسير العبارات التي لم يرد في تفسيرها أَثَرٌ صحيح او عند الاختلاف في الاقوال وترجيحها .

وللحلاّج الحسين بن منصور (المقتول ببغداد سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م) تفسير سورة الاخلاص (قل هو الله احد) .

ولاحمد بن كامل السالف ذكره تفسيره المعروف بـ (موجز التأويل عن معجز التنزيل) . ويعد الرجل من تلاميذ الطبرى ويقال له (الجريريّ) نسبة الى ابن جرير وهو مقرىء معروف ترجم له ابن الجزرى في طبقات القراء .

ولمعاصره المقرىء البغدادى ابي بكر النقاش محمد بن الحسن الانصارى (المتوفى ٣٥١هـ/٩٦٢)تفسيره الكبير،المنعوت بـ:«شفاء الصدور»وهو من ١٢

الف ورقة • ولعلامة العراق وبغداد في عصره: المعافى بن زكريا(ت٣٩٠هـ/٩٩٩م) كتابان في التفسير كتاب التفسير الكبير الذى يقع في ٦ مجلدات ، وكتاب تأويل القرآن •

ولابي القاسم هبة الله بن سلامة بن نصر بن عليّ المفسر البغدادى المعروف بكتابه (الناسخ والمنسوخ في القرآن) ، (تفسير) نص عليه الداودى في طبقات المفسرين وغيره وتوفي ببغداد سنة ٤١٠هـ/١٠١٩م • وصفه ياقوت في معجم الادباء بقوله (كان من احفظ الناس لتفسير القرآن والنحو) • ولابي البقاء العكبري (ت ٦١٦هـ / ١٢١٩م) كتاب في التفسير غير كتابه التبيان في علوم القرآن •

ولابن الجوزي (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) كتابه المعروف: (زاد المسير في التفسير) وهو مطبوع ولابنه يوسف بن عبدالرحمن(الذي قتله هولاكو٦٥٦هـ/١٢٥٨م) كتاب في التفسير عنوانه : معادن الابريز في تفسير الكتاب العزيز •

لسبط ابن الجوزي تفسير كبير يقع في (٢٧ مجلداً) وتوفي سبطه سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦م وهو مسك الختام ••

(١٠)

علم اسباب النزول

ان معرفة اسباب النزول ضرورية لمعرفة مدلول مجموعة كبيرة من الايات الكريمة • ويمكن ان نبين اهمية هذه الاسباب اذا جعلناها قريبة او مشابهة لمعرفة الدواعي والظروف التي قيلت فيها القصائد فاذا عرفنا الظروف والدوافع التي احاطت بالقصيدة فكانت سببا في نظمها او قولها ، عرفنا معاني كثيرة في القصيدة ما كانت لتعرف لولا معرفة تلك الظروف والدواعي •

ويعتمد التفسير في كثير من مواطنه على ايراد اسباب النزول لان القرآن الكريم في كثير من مواطنه قد نزل منجماً بحسب الدواعي والمناسبات .

فمعرفة سبب النزول معوان على فهم الاية لان العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب ولان هناك آيات اذا لم نفهمها في ضوء سبب نزولها ظللنا في فهمها او تحديد المراد منها حتى قال ابن تيمية رحمه الله (معرفة سبب النزول تعين على فهم الآية فان العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب). وقال ابن دقيق العيد : (معرفة سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن) .

وليس معنى ذلك ان الاية بهذا مقصورة على هذا السبب بل العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ولولا معرفة سبب النزول لظل الناس الى يومنا هذا يبيحون تناول المسكرات وشرب الخمور أخذاً بظاهر الاية (ليس على الذين آمنو وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا ما اتقوا ..) (سورة المائدة الاية ٩٣) .

فقد روى العلماء المختصون بهذا الفن: الواحدي (ت٤٦٨هـ/١٠٧٥م) والزركشي (ت٧٩٤هـ/١٣٩١م) وابن كثير (اسماعيل بن عمر بن كثير ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م) والسيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) ان الصحابيين : عثمان بن مظعون وعمرو ابن معدى كرب كانا يقولان : الخمر مباحة ويحتجان بالاية السابقة (ليس على الذين آمنوا .. الآية) .

ولم يأت هذا عنهما الا لكونهما غير عارفين بسبب نزولها ولو عرفاه لعلما أنه يمنع من اباحة الخمر وسبب نزولها انه لما نزل تحريم الخمر قال الصحابة كيف باخواننا الذين ماتوا وهي في بطونهم اي قبل تحريمها وقد اخبرنا الله تعالى انها رجس؟؟ فانزل الله تعالى (ليس على الذين آمنو وعملوا الصالحات جناح .. الاية) (وقد اخرج الاثر الامام احمد في مسنده والنسائي في صحيحه) .

ولولا أسباب النزول لاباح الناس لانفسهم التوجه في الصلاة الى الناحية التي يرغبون فيها عملاً بظاهر الاية الكريمة (ولله المَشْرِقُ والمَغْرِبُ ، فاينما تولوا وُجوهَكُمْ فَثَمَّ وَجْهُ الله إنّ الله واسع عليم) (سورة البقرة ، ١١٥) .

لكن الذي يطّلع على سبب نزول الاية يعرف أنها نزلت في نفر من المؤمنين صلّوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة مظلمة فلم يدروا اين القبلة فصلى كُلٌّ منهم على حاله تَبَعاً لاجتهاده ، فلم يضيّع الله سبحانه وتعالى لاحد منهم عمله ، واثابه عن صلاته ، ولو لم يتّجه الى الكعبة المشرفة لانه لم يكن له الى معرفة القبلة سبيل في الظّلمة .

وقد ينزل الشيء مرتين تعظيماً لشأنه وتذكيراً به عند حدوث سبب خوف نسيانه .

ثبت في الصحيحين عن ابي عثمان النَّهْدِيّ عن ابن مسعود أنّ رجلاً أصاب من امرأة قُبلة فاتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فاخبره فأنزل الله تعالى (وأَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهارِ وزُلَفاً من الليل إنّ الحسنات يذهبن السيئات ((سورة هود ١١٤) . (طرفا النهار · الصبح والعصر وزلفا الليل : المغرب والعشاء) . وسورة هود مكية بالاتفاق . ولهذا اشكل هذا الحديث على بعض العلماء ولا اشكال فيه لان الاية المذكورة نزلت مرتين : مرة بمكة ومرة بالمدينة .. ووجود آية مدنية في السورة المكية او آيات او وجود آية او آيات مكية في السورة المدنية امر مسلم به ، لان الايات لا تجمع في السورة تاريخياً بل حسب الموضوع الواحد وبتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم .

وهناك حالة اخرى عكس الحالة السابقة وهي أنْ يُذْكَرَ سبب واحد في نزول آيات متفرقة ، ولا اشكال في ذلك فقد ينزل في الواقعة الواحدة آيات

كثيرة في سور شتى مثاله : ما اخرجه الترمذي والحاكم عن أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها انها قالت يا رسول الله لا اسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء ؟؟ فانزل الله سبحانه : (فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر او أنثى : بعضكم من بعض) (سورة آل عمران : الآية ١٩٥) .

واخرج الحاكم عنها قالت يا رسول الله تذكر الرجال ولاتذكر النساء فأنزلت الاية الكريمة (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما) (سورة الاحزاب الاية ٣٥) .

ومن الجدير بالذكر ان سبب النزول يشترط (التزامن) بين نزول الاية وما نزلت بسببه فيخرج بذلك ماذكره (الواحدي) في كتابه (اسباب النزول) في أن سبب نزول سورة الفيل (الم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل .. الخ السورة) ، كان بسبب قدوم جيش ابرهة الحبشي لهدم الكعبة فان ذلك ليس من اسباب النزول في شيء وانما هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية .

وكذلك لاحظ العلماء المعنيون بهذا النوع من انواع علوم الكتاب العزيز فقالوا : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

فقد قال ابن تيمية : (قد يجيء كثيراً من هذا الباب قولهم : هذه الآية نزلت في كذا ولاسيما ان كان المذكور شخصاً فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الاية يختص باولئك الاعيان دون غيرهم فان هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الاطلاق والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على السبب : هل يختص بسببه ؟ فلم يقل أحد إن عمومات الكتاب

تختص بالشخص المعيَّن ، وانما غاية ما يقال : انهـا تختص بنوع ذلك الشخص فيعمّ ما يشبهه ، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ والاية التي لها سبب معين ان كان أمْراً ونَهْياً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته وان كان خَبَراً بمدح او ذم فهي متناولة لذلك الشخص ولمن كان بمنزلته) .

(١١)

علم الناسخ والمنسوخ

يطلق النسخ في اللغة على معنيين :

احدهما : الازالة ومنه قوله تعالى (وما ارسلنا مِنْ قَبْلِكَ من رسول ولا نبيّ إلاّ اذا تَمَنَّى القى الشيطان في أُمنيتِه فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلقِي الشيطان ثم يحكم الله آياته (سورة الحج الاية ٥٢) . ومنه قولهم : نَسَخَتِ الشمسُ الظلَّ اى ازالته ونَسَخَ الشيبُ الشبابَ .

الاخر : نقل الشيء وتحويله مع بقائه في نفسه . ومنه نسختُ الكتاب ومنه قوله تعالى (إنّا كُنّا نَسْتَنْسِخُ ما كنتم تعلمون) (سورة الجاثية الاية ٢٩) . والمراد هنا نقل الاعمال الى الصحف ومن الصحف الى غيرها .

أما مفهومه اصطلاحا فهو (رَفْعُ حُكْمٍ شَرعيّ سابق بحكم شرعي لاحِق . ومعنى رفع الحكم الشرعي قطع تعلقه بافعال المكلفين لا رفعه هو فانه امر واقع والواقع لا يرتفع .

ولا يتحقق هذا المعنى للنسخ الا باربعة امور :

الاول : ان يكون المنسوخ حكماً شرعياً .

الثاني : ان يكون دليل رفع الحكم دليلاً شرعياً .

الثالث : ان يكون هذا الدليل الرافع متراخياً عن دليل الحكم الاول غير متصل به .

الرابع : ان يكون بين ذينك الدليلين تعارضٌ حقيقيٌ •

ويحكم بالنسخ عند وجود التعارض المقطوع به مع علم التاريخ ليعرف المتقدم والمتأخر ولا يعتمد في النسخ على اقوال المفسرين ولا على اجتهاد المجتهدين من غير نقل صحيح ولا معارضة بَيِّنة لانّ النَّسْخَ يتضمن رفعَ حكمٍ وإثباتَ حُكْمٍ تَقَرَّر على عهد النبي صلى الله عليه وسلم •

والمعتمد فيه النقل والتاريخ دون الرأى والاجتهاد كما يقول (ابن الحصار) •

وانّ الاصل في آيات القرآن الكريم كلها (الإحكامُ) بكسر الهمزة الا ان يقوم دليل صريح على النسخ فلا مَفَرَّ من الاخذ به ••

ويعد علم الناسخ والمنسوخ لوناً من الوان التدرج في نزول الوحي فبمعرفتنا بما صحّ من وُجوهه تيسر علينا تعيين السابق واللاحق من النوازل القرآنية وتظهرنا على جانب من حكمة الله في تربية الخلق وتقفنا على مصدر القرآن الحقيقي وهو رَبُّ العالمين لانه يمحو ما يشاء ويُثْبِتُ ويرفع حُكْماً ويبدل آخر من غير ان يكون لاحد من خلقه عمل في ذلك ولاشأن •

وما زال العلماء المحققون بالايات التي قيلت انها منسوخة يبحثونها من وجوهها المختلفة حتى حصروا ما يصلح منها لدعوى النسخ في عدد قليل وتعقب آخرون هذا القليل نفسه فآثروا في طائفة منه القول بالإحكام على القول بالنسخ فالسيوطي حصر دعوى النسخ في كتابه « الاتقان في علوم القرآن » في تسعَ عشرةَ آية •

وقد يختلف علماء الناسخ والمنسوخ في تقسيم هذا العلم وانواعه •

ووجدت أن احسن التقسيمات ما ذكره الزركشي في البرهان ٢/٤١ ــ ٤٢ •
وقد قسم النسخ على ثلاثة اضرب :

الضرب الاول : نسخ المأمور به قبل امتثاله • وهذا الضرب هو النسخ على الحقيقة كقوله تعالى : (اذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة) (سورة المجادلة : ١٢) ثم نسخه سبحانه وتعالى بقوله (أأشفقتم ان تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ، فاذا لم تفعلوا وتاب الله عليكم ، فاقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله ، والله خبير بما تعملون) (سورة المجادلة : ١٣) •

الضرب الثاني : ويسمى نسخاً تجوزاً وهو ما أوجبه الله سبحانه وتعالى على من كان قبلنا كحتمية القصاص الذي نسخ الدية قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى ، فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعدذلك فله عذاب اليم) (سورة البقرة الآية ١٧٨) •

الضرب الثالث : ما امر لسبب ثم يزول السبب ، ومثاله الامر بالصبر عند الضعف والقلة • ونحو عدم إيجاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر في الآية الكريمة : (يا أيها الذين آمنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) (سورة المائدة : ١٠٥) • ثم نسخ بوجوب الامر بالمعروف والنهي

عن المنكر في آيات كثيرة منها ما جاء في الآية ٧١ من سورة التوبة في وصف المؤمنين : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة) . ووصفهم في السورة نفسها بانهم (الآمرونَ بالمعروف والناهُونَ عن المنكر والحافظون لحدود الله) (الآية ١١٢) وسورة التوبة آخر سورة نزلت من القرآن الكريم .

التاليف في علم الناسخ والمنسوخ

يمكن تنظيم المؤلفات في هذا الموضوع ترتيبا زمنيا مع الاشارة الى اشهر المؤلفين ، لا الى الجميع :

★ كتاب ناسخ القرآن ومنسوخه للحجاج بن محمد المِصّيصي (ت ٢٠٥هـ / ٨٢٠م) .

★ كتاب ناسخ القرآن ومنسوخه لجعفر بن مبشر الثقفي المعتزلي (ت ببغداد سنة ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م) .

★ كتاب الناسخ والمنسوخ للامام احمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ/٨٥٥م) .

★ كتاب ناسخ القرآن ومنسوخه لابي عُبيد القاسم بن سلام (ت ٢٤٤هـ/٨٥٨م) .

★ كتاب ناسخ القرآن ومنسوخه لابراهيم بن اسحاق الحَرْبِيّ (ت٢٨٥هـ/٨٩٨م) . والحربية محلة بالجانب الغربي من بغداد القديمة.

★ كتاب الناسخ والمنسوخ للحلاج الصوفي المشهور ابي القاسم الحسين بن منصور (ت ٣٠٩هـ/٩٢١م) .

★ كتاب الناسخ والمنسوخ لابن ابي داود صاحب كتاب المصاحف : عبدالله ابن سليمان بن الاشعث المتوفى ٣١٠هـ / ٩٢٢م .

- الناسخ والمنسوخ للجعد بن محمد بن عثمان بن مسبح (ت ٣٣٠هـ / ٩٣٢م) •
- الناسخ والمنسوخ لابن المنادي احمد بن جعفر (ت ٣٣٦هـ/٩٣٧م) •
- الناسخ والمنسوخ للحسين بن علي البصري (المعتزلي) ت ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م •
- الناسخ والمنسوخ لابي القاسم هبةالله بن سلامة البغدادي (ت ٤١٠هـ / ١٠١٩م) •
- كتاب اخبار اهل الرسوخ بمقدار الناسخ والمنسوخ لابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) •

ومن الجدير بالذكر ان الكتابين الاخيرين طبعا بمصر فطبع كتاب (هبة الله) سنة ١٣٧٩هـ ــ ١٩٦٠ • وطبع كتاب ابن الجوزي سنة ١٣٢٢هـ / ١٩٠٤م •

قائمة باهم المراجع

* الابانة عن معاني القراءات لمكي بن ابي طالب القيسي (ت ٤٣٧ هـ) بتحقيق الدكتور عبدالفتاح شلبي ، ط . القاهرة ١٩٦٠ م .

* الاتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم نشر مكتبة المشهد الحسيني بمصر ١٣٨٧-١٩٦٧ م .

* اضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين بن محمد المختار - عالم الكتب ، بيروت .

* إملاءُ مامَنَّ به الرحمن . لابي البقاء العكبري ، (ت ٦١٦ هـ) . تحقيق ابراهيم عطوة عوض ، نشر مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر ط ثانية ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .

* ايضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل لابي بكر محمد بن القاسم الانباري (ت سنة ٣٢٨ هـ) . تحقيق الدكتور محيى الدين رمضان (ط . دمشق ١٣٩١ هـ /١٩٧٢ م) .

* البرهان في علوم القرآن ، لبدرالدين الزركشي (ت ٧٩٤ هـ) تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم ، نشر عيسى البابي الحلبي بمصر سنة ١٣٩١ هـ - ١٩٧٢ م .

* تاريخ بغداد . للخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) ، ط . القاهرة ١٩٣١م .

* التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي ، الطبعة الاولى ، مطابع دار الكتاب العربي بمصر (١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م) .

* جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (ت ٣١٠ هـ) نشر مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م .

* كتاب السبعة في القراءات لابي بكر بن مجاهد البغدادي (ت٣٢٤ هـ) . تحقيق الدكتور شوقي ضيف (دار المعارف بمصر ١٩٧٢) .

* طبقات المفسرين للداودي (ت ٩٤٥ هـ) بتحقيق علي محمد عمر نشر مكتبة وهبة بمصر ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م .
* غاية النهاية في طبقات القراء . لابن الجزري (ت ٨٣٣ هـ) تحقيق برجشتراسر ط . مصر ١٣٥١ هـ .
* الفهرست لابن النديم . تحقيق غوستاف فلوجل (ط . لايبزك ١٨٧١ م) .
* القطع والائتناف . لابي جعفر النحاس (ت ٣٣٨ هـ) . تحقيق الدكتور احمد خطاب العمر ، مطبعة العاني بغداد (١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م) .
* متشابه القرآن للقاضي عبدالجبار بن احمد الهمذاني (٤١٥ هـ) تحقيق الدكتور عدنان محمد زرزور نشر دار التراث بالقاهرة ١٩٦٦ .
* المحكم في نقط المصاحف ، لابي عمرو الداني (ت ٤٤٤ هـ) تحقيق الدكتور عزة حسن . ط . دمشق ١٣٧٩ هـ — ١٩٦٠ م .
* المقنع في رسوم مصاحف اهل الامصار للداني . تحقيق محمد احمد دهمان ، مطبعة الترقي بدمشق ١٣٥٩ هـ .
* معاني القرآن للفراء (ت ٢٠٧ هـ) ط . مصر ١٩٥٥ م .
* معجم الادباء لياقوت الحموى (ت ٦٢٦ هـ) تحقيق الدكتور محمد فريد رفاعي ، ط . مصر ١٣٣٦ هـ — ١٩٣٨ م .
* كتاب المصاحف للحافظ ابي بكر عبدالله بن ابي داود السجستاني (ت ٣١٦ هـ) تحقيق آرثر جفرى . ط . مصر ١٣٥٥ — ١٩٣٦ م .
* مناهل العرفان في علوم القرآن لفضيلة الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني مطبعة البابي الحلبي ، الطبعة الثالثة (د . ت) .
* مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، ط . عاشرة ١٩٧٧ م .
* الناسخ والمنسوخ في القرآن لهبةالله بن سلامة البغدادي (ت ٤١٠ هـ) ، نشر مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٧٩ هـ — ١٩٦٠ م .
* النشر في القراءات العشر لابن الجزري (ت ٨٣٣ هـ) . تحقيق الشيخ علي محمد الضباع ، المكتبة التجارية الكبرى (د . ت) .
* هجاء مصاحف الامصار لاحمد بن عمار (ت بعد ٤٣٠ هـ) تحقيق د. محيي‌الدين رمضان (منشور بمجلة معهد المخطوطات العربية — المجلد التاسع عشر — الجزء الاول ١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م) .

الفصل الثاني

علوم الحديث الشريف

د . قحطان عبد الرحمن الدوري

كلية الشريعة ـ جامعة بغداد

السنة والحديث

السنة في اللغة : الطريقة حسنة كانت ام سيئة . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : (من سنّ سنة حسنة فله اجرها واجرُ من عمل بها الى يوم القيامة ، ومن سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة).

والسنة في اصطلاح المحدثين : هي اقوال النبي صلى الله عليه وسلم وافعاله وتقريراته وصفاته الخَلْقية والخُلُقية وسيره ومغازيه ، سواء كان قبل البعثة ام بعدها . فاقواله : مثل قوله صلى الله عليه وسلم (انما الاعمال بالنيات). وافعاله : مثل ادائه صلى الله عليه وسلم الصلاة ومناسك الحج مما نقله عنه صحابته عنه .

وتقريراته : هي ما اقر الرسول صلى الله عليه وسلم افعالا قام بها بعض صحابته بسكوت منه مع الرضى ، او باظهار استحسان لتلك الافعال .

والحديث في اللغة : اسم من التحديث وهو الاخبار ، او هو نقيض القديم ، فالقرآن كلام الله وهو قديم ، يقابله الحديث وهو ماورد عن النبي عليه الصلاة والسلام .

والحديث في اصطلاح بعض المحدثين : هو مرادف للسنة النبوية .

لذلك بحث علماء الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الاسوة الحسنة ، فنقلوا كل ما يتصل به من سيرة وخلق واخبار واقوال وافعال ، سواء اثبت حكما شرعيا ام لا .

نسبة السنة الى القرآن

لا تعدو السنة ان تكون بالنسبة الى القرآن الكريم من حيث الاحتجاج بها والرجوع اليها لاستنباط الاحكام الشرعية واحدا من ثلاثة :

١ ـ ان تكون السنة مقررة ومؤكدة حكما ورد في القرآن الكريم ، مثل الامر باقامة الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان.وغير ذلك من الاحكام التي جاء بها القرآن الكريم واكدتها السنة النبوية .

٢ ـ ان تكون السنة مفصلة ومفسرة ماجاء في القرآن مجملا ، او مقيدة ماجاء فيه مطلقا ، او مخصصة ماجاء فيه عاماً . مثل : امر القرآن باقامة الصلاة وايتاء الزكاة والحج ، ولم يفصل عدد الركعات ولا مقادير الزكاة ولا مناسك الحج ، فبينت السنة القولية والعملية هذا الاجمال .

٣ ـ ان تكون السنة مثبتة حكما سكت عنه القرآن ، كتحريم الرسول صلى الله عليه وسلم كل ذى ناب من السباع ومخلب من الطير وتحريم لبس الحرير والتختم بالذهب على الرجال .

وعليه : فلابد من فهم السنة النبوية كي يفهم القرآن الكريم •

حجية السنة النبوية

السنة النبوية حجة على المسلمين ، ومصدر تشريعي ، يستنبط منه المجتهدون الاحكام الشرعية ، ومن الادلة على ذلك :

١ ــ امر الله تعالى بطاعة الرسول ، فقال سبحانه : (واطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون) ــ آل عمران ١٣٢ •

وجعل الله سبحانه طاعة الرسول طاعة له ، قال عز وجل : (من يطع الرسول فقد اطاع الله) ــ النساء ٨٠ •

وامر المسلمين اذا تنازعوا في شيء ان يردوه الى الله والرسول ، قال تعالى : (يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم ، فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول) ــ النساء ٥٩ •

ولم يجعل للمؤمن الخيار اذا قضى الله ورسوله امرا ، قال سبحانه : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امرا ان يكون لهم الخيرة من امرهم) ــ الاحزاب ٣٦ •

وامر المسلمين بالتزام ماجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : (وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا) ــ الحشر ٧ •

ووصف الرسول صلى الله عليه وسلم بانه الاسوة الحسنة فقال : (لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) ــ الاحزاب ٢١ •

٢ ــ اجمع الصحابة على وجوب اتباع سنته صلى الله عليه وسلم ، وامتثال امره تحليلا وتحريما ، في حياته ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اراد ان يبعث معاذا الى اليمن قال : كيف تقضي اذا عرض لك قضاء ؟

قال : اقضي بكتاب الله قال : فان لم تجد بكتاب اللـه ؟ قال : فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فان لم تجد في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ولا في كتاب الله؟ قال: اجتهد رأيي ولا آلو. فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره وقال : الحمد لله الذي وفّق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله .

كما اجمعوا على امتثال امره بعد وفاته ، لان نصوص وجوب طاعته لم تفرق بين حياته ومماته ، فان ثبت عندهم قوله لم يتعدوه الى غيره . فكان ابو بكر الصديق اذا لم يجد في الواقعة سنّة خرج فسأل المسلمين : هل فيكم من يحفظ في هذا الامر سنة نبينا ؟ ، وهذا ما فعله عمر بـن الخطاب وغيره ممن تصدى للفتيا والقضاء من الصحابة وتابعيهم .

٣ ـ في القرآن الكريم فرائض مجملة كالصلاة والزكاة والصيام والحج ، لم يبين كيفية ادائها ، لكن السنة النبوية هي التي فصلت احكامها وكيفية ادائها . فلو لم تكن السنة حجة ما امكن تنفيذ تلك الفرائض .

اهتمام الصحابة بالسنة

وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين عرفوا نسبة السنة الـى القرآن الكريم وانها حجة على المسلمين اهتموا بها اهتماما بالغا ، ورأوا ضرورة حفظها . فكان من مظاهر ذلك الاهتمام :

١ ـ حرصهم على حضور مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسمعوا منه مايقول ، ويروا مايصدر عنه ، ويقتدوا به ، محافظة منهم على السنة التي بها نجاتهم في الحياة ، لان الرسول صلى الله عليه وسلم قـال : (تركت فيكم امرين لن تضلوا ماتمسكتم بهما : كتاب الله وسنتي) .

لذلك كانوا يتناوبون الذهاب الى ذلك المجلس ، ليبلغ الشـاهد الغائب ، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : (كنت انا وجار لي

من الانصار في بني امية بن زيد ، وهي من عوالي المدينة ، وكنا نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينزل يوما وانزل يوما ، فاذا نزلت جئته بخبر ذلـك اليوم من الوحي وغيره ، واذا نزل فعـل مثل ذلـك) •

وانما كانوا يتناوبون الذهاب الى ذلك المجلس ، لانهم اصحاب عمل ، لا يمكنهم معه المكوث عند رسول الله عليه الصلاة والسلام •

٢ ــ حرصهم على نقـل اقواله صلى الله عليه وسلم كمـا صدرت منه ، فاحتاطوا في حفظه ونقله ، لاسيما وان الرسول يقول : (من كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) •

فاصبح لهم منهج في محافظتهم على السنة :

آ ــ التشدد مع انفسهم في اداء الحديث ، خشية الوقوع في الخطأ •
قال عبدالرحمن بن ابي ليلى : (ادركت مئة وعشرين من الانصار من اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، مامنهم احد يحـدث بحديث الاّ ودّ ان اخاه كفاه اياه ، ولا يستفتى عن شيء الاّ ودّ ان اخـاه كفاه ايـاه) •

واشتهر من بين الصحابة في التشديد به عمر بن الخطاب وابن مسعود • وجرى على ذلك التابعون ، فقال محمد بن المنكدر : الذي يحدث الناس انما يدخل بين الله وبين عباده ، فلينظر بـم يدخـل •

وآثر بعضهم تقليل رواية الاحاديث احتراما للحديث واحتياطا للدين ، لا زهدا فيه ولا تعطيلا له ، فلم يرو الاّ عند الحاجة ،فكان يقول بعد رواية الحديث : (او كما قال ، او نحو هذا ، او شبيها بذلـك •••) •

ب ـ التشديد مع غيرهم الذين يتلقون عنهم ، قال البراء بن عازب :
(ما كل الحديث سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
كان يحدثنا اصحابنا ، وكنا منشغلين في رعاية الابل ، واصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يطلبون مايفوتهم سماعه
من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيسمعونه من اقرانهم ،
وممن هو احفظ منهم ، وكانوا يشددون على من يسمعون منه) .

وكان ابو بكر رضى الله عنه اول من احتاط في قبول الاخبار ، روى ابن شهاب عن قبيصة بن ذويب : (ان الجدة جاءت الى ابي بكر تلتمس ان تورث ، فقال : ما اجد لك في كتاب الله شيئا ، وما علمت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لك شيئا ، ثم سأل الناس ، فقام المغيرة فقال : حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيها السدس . فقال له : هل معك احد ؟ فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك فانفذه لها ابو بكر رضي الله عنه) .

لكنّ هذا لا يعني ان الصحابة اشترطوا لقبول الحديث ان يرويه اثنان فاكثر ، او ان يشهد الناس على الراوي ، او ان يستحلف ، فاذا لم يحصل شيء من هذا رد خبره ــ كما ورد في بعض الاثار ــ بل كان الصحابة يتبعون اية طريقة ترتاح نفوسهم اليها ، تفيد التدقيق وحمل الناس على البحث العلمي ، فكثيراً ماقبلوا برواية الآحاد لاطمئنانهم وثقتهم بضبط الناقلين .

وحين راى الصحابة ضرورة حفظ السنة النبوية حاول ابو بكر ثم عمر ان يدونوا الحديث فمنعهم حرصهم على القرآن الكريم والسنة من ان يختلطا .

لكن حرص الجميع على فهم الحديث والبحث عنه عند حفاظه ، فروى بعضهم عن الآخر ، فروت عائشة عن الصديق وابوها عنها ، وروى ابن عمر

عن ابن عباس وابن عباس عن ابن عمر ، وروى جابر بن عبدالله عن ابي سعيد الخدري ، وابو سعيد عن جابر ... نقل عبدالرزاق عن معمر انه قال : عامة علم ابن عباس من ثلاثة : عمر وعليّ وأُبيّ بن كعب رضي الله عنهم .

وتواصى الصحابة بطلب الحديث وحضوا التابعين على الاخذ من الصحابة ، فاوصاهم عمر بقوله : (تعلموا الفرائض والسنة كما تتعلمون القرآن) .

وقال ابن مسعود : (عليكم بالعلم قبل ان يقبض ، وقبضه ذهاب اهله ، فان احدكم لا يدري متى يفتقر اليه) .

وسار التابعون على نهج الصحابة ، فأوصوا ابناءهم وتلاميذهم بحفظ السنة ، قال عبدالرحمن بن ابي ليلى : (احياء الحديث مذاكرته فتذاكروه) . واشتهرت بينهم كلمة : تذاكروا الحديث ، فان الحديث يهيج الحديث .

فكانت حصيلة هذه الوصايا تكاثر الطلبة بشكل عجيب ، قال ابن سيرين : (قدمت الكوفة قبل الجماجم ، فرأيت فيها اربعة الاف يطلبون الحديث) .

وعقدت حلقات العلم في جوامع البصرة والكوفة ودمشق وحمص وحلب والفسطاط ومكة والمدينة ، فغصت بطلبة العلم ، واعتنوا بتربية الصبيان على مادرجوا عليه .

وعني الصحابة الكرام بتبليغ السنة النبوية امتثالا لامر الرسول صلى الله عليه وسلم اذ قال : (نضر الله امرءا سمع مني مقالتي فحفظها ووعاها ، فادا كما سمعها ، فرب مبلغ اوعى من سامع) .

وقال : (الا ليبلغ الشاهد منكم الغائب) .

فبلغ الصحابة هذه الامانة اينما حلوا وارتحلوا .

والنساء حين كنّ يحضــرن مجالس الرسول صلى الله عليه وسلم في المسجد يسألنه عن امور الدين ، فان منعهن الحياء في امورهن الخاصة سألن نساءه صلى الله عليه وسلم امهات المؤمنين ، اللاتي كنّ الوسيط الموضــح امور الدين لمن يسأل منهن والمبلغات الاحكام الشرعية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يقع بينه وبينهن .

ومما اثر تأثير كبيرا في نشر الحديث الشريف :

آ ـ رسله وولاته وبعوثه صلى الله عليه وسلم الى اليمن والبحرين واليمامة وحضرموت وعمان وغيرها من البلاد .

ب ـ وفود القبائل الكثيرة التي جاءت الى الرسول صلى الله عليه وســلم وسؤالها عن الاسلام والاحكام الشرعية ، واجابة الرسول لهم وخطابته فيهم وتعليمــه ايــاهم .

انتشار الحديث في عصر الصحابة والتابعين

اتسعت رقعة البلاد الاسلامية في عصر الخلفاء الراشدين ، فحرر الشام والعراق ومصر وبلاد فارس .

ودخل كثير من اهل تلك البلاد في دين الاسلام ، فاحتاجوا الى من يعلمهم احكامه ، وكان على رأس تلك الجيوش الفاتحة الصحابة الكرام الذين استقروا في تلك البلاد ، فكانوا مرشدين معلمين ، تخرج في حلقاتهم التابعون وحملوا لواء العلم ، فكونوا مدارس هي مراكز علمية في الامصار كانت لها ميزتهــا واساتذتها ، فقصدها الطلاب من الاماكن البعيدة .

وكانت تلك المراكز في : مكّة المكرمة ، والمدينة المنورة ، والكوفــة ، والبصرة ، والشام ، ومصر ، والمغرب ، واليمن ، وجرجــان ، وقزويــن ، وخراســـان .

والذي يهمنا هنا هو العراق ومن نزلـه من الصحابة والتابعـين الذين كونوا المراكز العلمية المشهورة .

١ ـ مركـز الكوفة : نـزل الكوفة عدد كبير من الصـحابة ، لان الكوفة والبصرة هما قاعدتا الفتح الاسلامي لبلاد فارس والهند .

قال ابن سعد : (هبط الكوفة ثلاثمائة من اصحاب الشجرة وسـبعون من اهل بـدر) .

وكان عمر بن الخطاب يقول : بالكوفة وجوه الناس .

وقال الشعبي : كتب عمر بن الخطاب الى اهل الكوفة : الى رأس أهل الاسلام ، الى راس العرب .

وممن نزل الكوفة من الصحابة :

علي بن ابي طالب حيث نزل في الرحبة التي يقال لها : رحبة علي فـي اخصاص كانت فيها ، وقتل ليلة ١٧ رمضان ٤٠ هـ (٢٥ كانون الثاني ٦٦١ م) ودفن بهـا .

وسعد بن ابي وقاص الذي افتتح القادسية ، ونزل الكوفة ، وخطهـا خططا لقبائل العرب ، وابتنى بها دارا ، ووليها لعمر بن الخطاب وعثمان بـن عفان . وبعدها توفى سنة ٥٥ هـ/٦٧٤ م . وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل مات سنة ٥٠هـ / ٦٧٠م . وعبدالله بن مسعود الذي كتب عمر بن الخطاب بشأنه الى أهل الكوفة : (اني بعثت اليكم بعبدالله بن مسعود معلما ووزيرا، وآثرتكم به على نفسي فخذوا عنه) . فنزل الكوفة ، وابتنى بها دارا الى جانب المسجد ، ثم قدم المدينة ، فمات بها سنة ٣٢ هـ /٦٥٢ م . وعمار بن ياسر توفى سنة ٣٧هـ / ٦٥٧م . وخباب بن الأرت توفي سنة ٣٧هـ /٦٥٧م . وسهل بن حنيف المتوفى بالكوفة سنة ٣٨ هـ/٦٥٨م . وحذيفة بن اليمان المتوفى بالمدائن سنة ٣٦هـ/٦٥٦م . وابو موسى الاشعري المتوفى بالكوفة سنة ٤٢هـ/٦٦٢م،

الذي ولي البصرة ثم الكوفة ، وكان احد الحكمين • وسلمان الفارسي المتوفى بالمدائن في خلافة عثمان • والبراء بن عازب • وعبيد بن عازب احد العشرة من الانصار الذين وجههم عمر بن الخطاب مع عمار بن ياسر الى الكوفة • وقرظة بن كعب الانصاري احد العشرة مع عبيد بن عازب • والنعمان ابن عمرو بن مقرن الذي امره عمر بن الخطاب على الناس يوم نهاوند سنة ٢١هـ/٦٤١م ، وكان اول قتيل فيه • واخوة النعمان : معقل وسنان وسويد وعبدالرحمن وعقيل • والمغيرة بن شعبة الذي ولي البصرة ثم الكوفة ومات بالكوفة سنة ٥٠هـ/٦٧٠م • وخالد بن عرفطة الذي ولاه سعد بن ابي وقاص القتال يوم القادسية ، ونزل الكوفة بعد ذلك • وعبدالله بن ابي اوفى الذي تحول الى الكوفة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتوفى بها سنة ٨٦هـ / ٧٠٥م وهو آخر من مات من الصحابة بها • وعدي بن حاتم الطائي المتوفى بالكوفة سنة ٦٨ هـ / ٦٨٧ م • وجرير بن عبدالله البجلي • والاشعث بن قيس الكندي • ووائل بن حجر الحضرمي • وسمرة ابن جندب الذي كان زياد بن ابي سفيان يستعمله على البصرة اذا قدم الكوفة• وضرار بن الازور المتوفى يوم اليمامة • وطارق بن عبدالله المحاربي • وخزيمة بن ثابت ، وهو ذو الشهادتين ، المتوفى سنة ٣٧ هـ /٦٥٧ م وقيس بن سعد • والنعمان بن بشير الذي ولي الكوفة لمعاوية •

وتخرج على يد هؤلاء الصحابة جمع كبير من التابعين منهم :

طارق بن شهاب • وقيس بن ابي حازم الذي شهد القادسية وتوفى في آخر خلافة . ليمان بن عبدالملك • والاسود بن يزيد النخعي ، المتوفى بالكوفة سنة ٧٥هـ/٦٩٤م • ومسروق بن الاجدع ، المتوفى سنة ٦٣هـ/٦٨٢م • وعلقمة بن قيس المتوفى بالكوفة سنة ٦٢هـ/٦٨١م • وعبيدة بن قيس السلماني ... سنة ٧٢ هـ/٦٩١ • وعبدالرحمن بن ابي ليلى ومرة بن شراحيل الهمداني ، وهو مرة الخير ومرة الطيب • وعبدالرحمن

بن يزيد بن قيس النخعي • وكليب بن شهاب وربعي بن حراش سنة ١٠١ هـ/٧١٩ م • وشريح بن هانىء • وشريح القاضي ت سنة ٨٠هـ/٦٩٩ م وقبيصة بن جابر • والحارث الاعور • والحارث بن سويد • وقيس ين السكن • وعبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود • والربيع بن خثيم• وابو عبيدة بن عبدالله بن مسعود • وموسى بن طلحة بن عبيدالله • والاشتر مالك بن الحارث وشبث بن ربعي • وصعصعة بن صوحان • ومحمد ومصعب ابنا سعد بن ابي وقاص • وعامر ين شراحيل الشعبي ت سنة ١٠٥ هـ/ ٧٢٣ م • وسعيد بن جبير ت سنة ٩٤هـ/ ٧١٢ م • وابو بردة بن ابي موسى الاشعري الذي ولي قضاء الكوفة بعد شريح ، وتوفى سنة ١٠٤هـ/ ٧٢٢م • وابراهيم النخعي •• وعبدالرحمن بن الاسود بن يزيد • ومحارب بن دثار • وطلحة بن مصرف ت سنة ١١٢هـ/ ٧٣٠م • وابو اسحاق السبيعي ت سنة ١٢٩ هـ/٧٤٦ م • وحبيب بن ابي ثابت ت سنة ١١٩ هـ/٧٣٧ م • وسماك بن حرب الذهلي • والمقدام بن شريح • وحماد بن ابي سليمان • ومنصور بن المعتمر ت سنة ١٣٢ هـ/٧٤٩ م • والاعمش سليمان بن مهران ت سنة ١٤٨ هـ/٧٦٥ م • وجابر بن يزيد الجعفي ت ١٢٨ هـ /٧٤٥ م وعبدالله بن شبرمة ت ١٤٤هـ / ٧٦١م • ومحمد بن عبدالرحمن بن ابي ليلى الذي ولي القضاء لبني امية ثم لبني العباس على الكوفة واعمالها ، وتوفى بالكوفة سنة ١٤٨ هـ/٧٦٥ م • ومسعر بن كدام ت سنة ١٥٢ هـ / ٧٦٩ م بالكوفة • وابو حنيفة النعمان بن ثابت المتوفى ببغداد سنة ١٥٠ هـ/ ٧٦٧ م • وحسن بن حي المتوفى بالكوفة سنة ١٦٧ هـ/٧٨٣ م • وزهير بن معاوية الذي تحول الى الجزيرة فمات بها • وشريك بن عبدالله الذي ولي قضاء الكوفة ومات بها سنة ١٧٧ هـ/٧٩٣ م • وزفر بن الهذيل العنبري • ووكيع بن الجراح ، المتوفى سنة ١٩٧ هـ/٨١٢ م • ويعلى بن عبيد ، المتوفى بالكوفة سنة ٢٠٩هـ / ٨٢٤م وابو نعيم الفضل بن دكين ، المتوفى سنة

٢١٩ هـ/٨٢٤ م وابو نعيم الفضل بن دكين ، المتوفى سنة ٢١٩ هـ/٨٣٤ م بالكوفة • وغيرهم كثير •

٢ ـ مركز البصرة : وقد نزلهـا من الصحابة عدد كبير منهم : عتبة بن غزوان الذي استعمله عمر بن الخطاب عليها ، وهو الذي فتحهـا ، وبصـر البصرة ، واختطها . وكانت قبل ذلك الابلة ، وبنى مسجد البصرة بقصـب ولم يبن بها دارا • وروى ان عتبة بن غزوان كان مع سعد بن ابي وقـاص بالقادسية ، فوجهه الى البصرة بكتاب عمر بن الخطاب اليه يأمره بذلك • توفى سنة ١٧هـ/٦٣٨م • وبريدة بن الحصيب الاسلمي، المتوفى بخراسان سنة ٦٣هـ • وابو برزة الاسلمي عبدالله بن نضلة • وعمران بن الحصين ومعقل بن يسار ، وهو صاحب نهر (معقل) امره عمر بن الخطاب بحفره فحفـره • وعبدالرحمن ابن سمرة والبراء بن مالك بن النضر الذي استشهد يوم تستر • وانس بـن مالك بن النضر خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي كان آخر مـن مات بالبصرة من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك سنة ٩٢ هـ • وثابت بن زيد احد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعائذ بن عمرو المزني : وكان من خيار الصحابة • وحمل بن مالك والعباس بن مرداس • وعبدالله بن الشخير • ومعاوية بن حيدة جد بهز بن حكيم • وقبيصة بن المخارق • وقيس بن عاصم سيد اهل الوبر • والزبرقان ابن بدر الشاعر • والاقرع بن حابس وصعصعة بن ناجية بن عقال • وصعصعة ابن معاوية عم الفرزدق الشاعر • والنمر بن تولب • وكهمس الهلالي • واحمر ابن جزء ، وعقبة بن مالك الليثي • وعبدالله بن سبرة • وعبدالله بن سرجس ونافع بن الحارث بن كلدة • واشج عبدالقيس •

وتخرج على يد هؤلاء الصحابة عدد كبير من التابعين منهم :

ابو مريم الحنفي الذي ولي قضاء البصرة بعـد عمران بـن الحصين في زمـن عمر بـن الخطاب • والاحنف بن قيس ، وابو عثمـان النهـدي

وابــو الاسود الدؤلــي وزيــاد بــن ابي ســفيان المتوفــى بالكوفــة وهو عامل عليها لمعاوية سنة ٥٣ هـ/٦٧٢م • وابو العالية الرياحي رفيع ت سنة ٩٠هـ/٧٠٨ م • وعبداللــه بن شــقيق العقلــي • والمهلب بن ابي صفــرة العتكي وابو رجاء العطاردي • ومطرف بن عبدالله بن الشخير وحمران بــن ابان وزرارة بن أوفى الحرشي • وهشام بن هبيرة الضبي • وكل منهما تولى القضاء بالبصرة • وعمران بن حطان السدوسي الشاعر • والحسن بن يسار البصري ، المتوفى سنة ١١٠ هـ ٧٢٨ م • وابو الشعثاء جابر بن زيد الازدي ، مفتي البصرة سنة ١٠٣هـ/٧٢١ م • وابو قلابة الجرمي ت سنة ١٠٤هـ/٧٢٢م• ومحمد بن سيرين ت سنة ١١٠هـ / ٧٢٨م • وعبدالله بن بريدة بن الحصيب الاسلمي ، واخوه سليمان • وطلق بن حبيب العنــزي • وقتادة بن دعامــة السدوسي ت سنة ١١٧هـ / ٧٣٥م • وثابت بن اسلم البنــاني • واياس بن معاوية قاضي البصرة العاقل الفطن • وعاصم الجحدري • وايــوب بن ابي تميمة السختياني ، المتوفى بالبصرة سنة ١٣١ هـ/٧٤٨ م • وداود بن ابي هند، ت سنة ١٣٩هـ / ٧٥٦م • وعاصم بن سليمان الاحــول ، الــذي كان قاضيا بالمدائن في خلافة ابي جعفر ، وكان على الكوفة على الحسبة ، تــوفى ســنة ١٤١ هـ/٧٥٨ م وعثمان البتي • وخالد بن مهران الحذاء ت سنة ١٤١ هـ/ ٧٥٨ م • وسوار بن عبدالله الذي ولي قضاء البصرة لابي جعفر • وعمرو بن عبيد المعتزلي • وسعيد بن ابي عروبة ت سنة ١٥٧ هـ/٧٧٣ م • وجريــر بن حازم بن زيد الجهضمي ت سنة ١٧٠ هـ/٧٨٦ م • وهشام الدستوائي وشعبة ابن الحجاج ، المتوفى بالبصرة سنة ١٦٠هـ/٧٧٦م وجويرية بن اسماء بن عبيد• وحماد بن سلمة ، وحماد بن زيد بن درهم ت١٧٩هـ/٧٩٥م • والوضاح ابو عوانة ت سنة ١٧٦هـ/٧٩٢م • وعبدالوهــاب بن عبدالمجيد الثقفي المتوفى بالبصــرة ســنة ١٩٤ هـ وبشــر بن المفضــل ت ســنة ١٨٦هـ / ٨٠٢م •

وعبدالاعلى بن عبدالاعلى القرشي ت سنة ١٨٩هـ / ٨٠٤م • ويحيى بن سعيد القطان المتوفى بالبصرة سنة ١٩٨ هـ/٨١٣ م • ومعاذ بن معاذ بن نصر الذي ولي قضاء البصرة لهارون ، وتوفى بها سنة ١٩٦هـ/٨١١م • ومحمد بن عبدالله ابن المثنى الذي ولي قضاء البصرة ، ثم عسكر المهدي ، ثم المظالم بعد اسماعيل ابن علية ، ثم قضاء البصرة • وغندر المتوفى بالبصرة سنة ١٩٤ هـ/٨٠٩ م • وعبدالرحمن بن مهدي المتوفى بالبصرة سنة ١٩٨ هـ/٨١٣ م • وابو داود الطيالسي المتوفى بالبصرة سنة ٢٠٣ هـ/٨١٨ م • وبهز بن اسد واخوه المعلى • ومسدد بن مسرهد المتوفى بالبصرة سنة ٢٢٨هـ / ٨٤٢م • وسليمان بن الشاذكوني المتوفى بالبصرة سنة ٢٣٤ هـ/٨٤٨ م •

٣ ــ مركز الجزيرة : من الصحابة الذين نزلوا الجزيرة عدي بن عميرة • ووابصة بن معبد الاسدي • والوليد بن عقبة بن ابي معيط • وكان في الجزيرة من بعد هؤلاء من محدثي التابعين : ميمون بن مهران ت سنة ١١٧هـ/٧٣٥م • ويزيد بن الاصم ت سنة ١٠٣هـ/٧٢١م • وزيد بن ابي انيسة ت سنة ١٢٥/٧٤٢ م • وجعفر بن برقان الكلابي ت سنة ١٥٤ هـ/٧٧٠ م • وموسى بن اعين ت سنة ١٧٧هـ/٧٩٣م • والمعافى بن عمران (الياقوتة) وكان اهل الموصل يفتخرون به •

٤ ــ مركز المدائن : وكان في المدائن من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : حذيفة بن اليمان ت سنة ٣٦هـ/٦٥٦م بالمدائن • وسلمان الفارسي المتوفى في خلافة عثمان بالمدائن • وتقدم ذكرهما في الذين نزلوا الكوفة • ومن المحدثين والفقهاء بالمدائن من التابعين : عاصم الاحول بن سليمان قاضي المدائن ت سنة ١٤١هـ/٧٥٨م ، وتقدم في البصريين • وشبابة بن سوار الفزاري وشعيب بن حرب • وابو جعفر المدائني عبدالله بن المسور •

٥ ــ مركز بغداد ، (مدينة السلام) ــ بنى بغداد سنة ١٤٥ هـ الخليفة ابو جعفر المنصور ، واشتهرت بعد ذلك فنزل بها من التابعين واتباعهم من المحدثين والفقهاء عدد كبير منهم :

اسماعيل بن سالم الاسدي • وهشام بن عروة بن الزبير ، المتوفى ببغداد سنة ١٤٦هـ/٧٥٨م • ومحمد بن اسحاق بن يسار ، المتوفى ببغداد سنة ١٥١هـ/٧٦٨م وابو حنيفة النعمان بن ثابت ، المتوفى ببغداد سنة ١٥٠هـ/ ٧٦٨م • وابو معاوية شيبان النحوي ، المتوفى ببغداد ١٦٤هـ/٧٠٨م • وابراهيم ابن سعد بن ابراهيم بن عبدالرحمن بن عوف المتوفى ببغداد سنة ١٨٣هـ/ ٧٩٩م واسماعيل بن ابراهيم بن مقسم الذي ولي صدقات البصرة والمظالم ببغداد ت سنة ١٩٣هـ/٨٠٨م • وابو يوسف القاضي يعقوب بن ابراهيم ، قاضي بغداد ت سنة ١٨٢هـ/٧٩٨ م • ومحمد بن الحسن الشيباني ، المتوفى بالري سنة١٨٩هـ/٨٠٤م• وعنبسة بن سعيد•ويحيى بن معين• وزهير بن حرب ت سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨ م • واحمد بن محمد بن حنبل • والقاسم بن سلام ، المتوفى بمكة سنة ٢٢٤هـ / ٨٣٨م • وكامل بن طلحة الجحدري ، المتوفى بالبصرة سنة ٢٣٢هـ/٨٤٦م • وسعيد بن سلمان الواسطي ت سنة ٢٢٥هـ/٨٣٩م •

٦ ــ مركز واسط : بنى واسط الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٨٣ هـ/ ٧٠٢ م واشتهر فيها من التابعين من الفقهاء والمحدثين :

يعلى بن عطاء • والعوام بن حوشب ، المتوفى سنة ١٤٨هـ/٧٦٥ م• وهشيم بن بشير ، المتوفى ببغداد سنة ١٨٣هـ/٧٩٩م • ومحمد بن يزيد الكلاعي ، المتوفى بواسط سنة ١٨٨هـ/٨٠٣م • ويزيد بن هارون • والفضل بن عنبسة •

٧ ــ مركز الانبار ، وكان في الانبار من المحدثين :

محمد بن عبدالله الحذاء • وسويد بن سعيد ، وكان ينزل الحديثة • واسحاق بن البهلول ، ابو يعقوب •

الوضع في الحديث :

لما كان القرآن الكريم ثابتا لم يطرأ عليه التبديل او التحريف لحفظه وتدوينه ايام الرسول صلى الله عليه وسلم ، اتجه اعداء الاسلام الى الحديث الشريف ، لما له من منزلة كبرى في الشريعة ، ولانه لم يدون ، فاعملوا جهودهم للتلاعب بنصوصه والدس عليه ، فشاع وضع الاحاديث المكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعندئذ بذل العلماء الجهود الجبارة في تمحيص متون الاحاديث واسانيدها ، فميزوا الحديث الموضوع من غيره .

اسباب الوضع :

لم ينقل الينا انه وضعت احاديث ايام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل ان النبي حذر من الكذب عليه بالحديث الذي بلغ حد التواتر وهو : (من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) .

اما الصحابة رضي الله عنهم فانهم كانوا متعلقين برسول الله صلى الله عليه وسلم وبتعاليمه وبالاقتداء به ، فهجروا الاهل والولد ، وبذلوا النفس والنفيس في سبيل نصرته ، فكانوا مضرب المثل في العدالة والنزاهة والاخلاص، ومن كان هذا شأنه فكيف يخالف امره ويكذب عليه ؟ .

ذكر انس حديثا ، فقال له رجل : انت سمعت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، او حدثني من لا يكذب ، والله ماكنا نكذب ، ولا ندري ما الكذب .

وقال ابن عباس : انا كنا نحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذ لم يكن يكذب عليه ، فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه .

ولم توجد ادلة على وقوع الوضع ايام ابي بكر وعمر لكثرة وجـود الصحابة في زمنهما ، ولوحدة الامـة •

الا ان الفتنة التي حدثت في النصف الاخير من خلافة عثمان واسـفرت عن مقتله أدت الى تشعب المجتمع ، فتولدت الاحقاد بين المسلمين ، فكانـت وقعة الجمل وصفين والنهروان ، وهذا هو اوان ظهور الوضع الذي تطـور واستفحل امره اوائل القرن الثالث الهجري ، وكاد يطغى لولا ظهور جهابذة الحديث من امثال البخاري وابن حنبل ويحيى بن معين ، وغيرهم ممن بينوا المزيف مـن غيره •

جهود العلماء فى مقاومة الوضع :

اسفرت حركة الوضع عن مجموعة كبيرة من الاحاديث التي اختلطـت بالاحاديث الصحيحة ، فبذل العلماء جهودا جبارة لتمييز الحديث الصـحيح مـن غيره •

قيل لابن المبارك : هذه الاحاديـث الموضوعة ، فقـال : تعيش لهـا الجهابذة : (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) •

وروى الذهبي : ان الرشيد اخذ زنديقا ليقتله ، فقال : اين انت مـن الف حديث وضعتها ؟ فقال : اين انت ياعدو الله من ابي اسـحاق الفزارى وابن المبارك يتخللانها فيخرجانها حرفا حرفا •

لذلك رحلوا في طلب الحديث للتوثق منه ، ووضعوا أدق قواعد النقد العلمي للروايات بما تفتخر به ونعتز مدى الاجيال • واظهرت تلك الجهـود ما يأتـي :

اولا ــ الاسناد

وهو رفع الحديث الى قائله . ومن المعروف ان الصحابة رضي الله عنهم كانوا ينقلون ماسمعوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى من لم يسمع . فكان الشاهد يحدث الغائب . وتقدم تحرى الصحابة وابي بكر وعمر والتدقيق في الرواية واسنادها .

وان عدم سؤال بعض الصحابة عن الاسناد مرده عدم الحاجة اليه ، لثقة احدهم بالآخر ، اذ لا يكذب بعضهم على بعض .

الا ان اهتمام العلماء بالاسناد قد ظهر بشكل جلي اعقاب الفتنة التي انتهت بمقتل عثمان رضي الله عنه ، بعد ظهور الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصاروا يسألون عن الرجال الذين نقلوا الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام .

قال محمد بن سيرين ت سنة ١١٠هـ/٧٢٨م : لم يكونوا يسألون عن الاسناد ، فلما وقعت الفتنة قالوا : سموا لنا رجالكم ، فينظر الى اهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر الى اهل البدع فلا يؤخذ حديثهم .

ففتش عن الاسناد عامر الشعبي ت سنة ١٠٣هـ / ٧٢١م :

روى الشعبي عن الربيع بن خثيم قال : من قال لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، فله كذا ، وسمى من الخير .

قال الشعبي : فقلت من حدثك ؟ قال : عمرو بن ميمون ، وقلت : من حدثك ؟ فقال : ابو أيوب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال يحيى بن سعيد : وهذا اول من فتش عن الاسناد .

ثم صار الاسناد اساسا للرواية حتى عدّ الزهري ت سنة ١٢٤ هـ اغفال الاسناد جرأة على الله تعالى .

وقال بهز بن اسد : لا تاخذوا الحديث عمن لا يقول ثنا • وعد سفيان الثوري ت سنة ١٦١هـ/٧٧٧م الاسناد سلاح المؤمن ، فاذا لم يكن معه سلاح فبأي شيء يقاتل ؟ •

وروي عن الاوزاعي ت سنة ١٥٧هـ/٧٧٣ م قوله : ما ذهاب العلم الا ذهاب الاسناد •

وجعل عبدالله بن المبارك ت سنة ١٨١هـ/٧٩٧ م الاسناد من الدين ، ولولا الاسناد لقال من شاء ما شاء •

وعنه قوله : مثل الذي يطلب امر دينه بلا اسناد كمثل الذي يرقى السطح بلا سلم •

وهكذا صار الاسناد لكل رواية في الحديث ، حتى طغى هذا على ما ينقلون في اللغة والادب والنحو وغيرها •

ثانيا ــ الرحلة في طلب الحديث

من مظاهر اهتمام الصحابة والتابعين واتباعهم بالحديث الشريف الرحلة في طلبه ، لتفاوتهم في حفظه وفهمه •

فسار جابر بن عبدالله شهرا حتى قدم الشام ليسأل عبدالله بن انيس الانصاري عن حديث سمعه جابر عن رجل من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يسمعه منه •

ورحل ابو ايوب الانصاري الى عقبة بن عامر بمصر يسأله عن حديث سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يبق احد سمعه منه غيره ، فلما حدثه ركب ابو ايوب راحلته راجعا الى المدينة •

وجرى على ذلك التابعون :

فقال سعيد بن المسيب ت سنة ٩٤هـ / ٧١٢م : ان كنت لاسير الايام والليالي في طلب الحديث الواحد •

وعن ابي قلابة الجرمي البصري قال : اقمت في المدينة ثلاثا مالي بهـا حاجة الا" قدوم رجل بلغني عنه حديث ، فبلغني انه يقدم فاقمت حتى قـدم فحدثنـي بـه .

وقال عامر الشعبي : لم يكن احد من اصحاب عبدالله (بن مسعود) اطلب للعلم في افق من الآفاق من مسروق .

وخرج عامر الشعبي الى مكة في ثلاثة احاديث ذكرت له ، فقال : لعلي القى رجلا لقي النبي صلى الله عليه وسلم او من اصـحاب النبي صلى اللـه عليه وسـلم .

وعن أبي العالية الرياحي قال : كنا نسمع الرواية بالبصرة عن اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم نرض حتى ركبنا الى المدينة فسمعناها من افواههم .

واخبار رحلات العلماء في طلـب الحديث كثيرة يضـيق بهـا المقام . واتسعت الرحلة في طلب الحديث في القرنين الثاني والثالث ، وصارت سـمة العالم فحين سأل عبدالله بن احمد بن حنبل اباه عن طلب العلم ، هـل له ان يلزم رجلا عنده علم فيكتب عنه او يرحل الى المواضع التي فيها العلم فيسمع منهم ؟ قال : يرحل يكتب عن الكوفيين والبصريين واهل المدينة ومكـة يشام؟ الناس يسمع منهم .

واصبحت الرحلة من منهج المحدثين في العلم . قال يحيى بن معـين : اربعة لا تؤنس منهم رشدا : حارس الدرب، ومنادي القاضي، وابن المحدث ، ورجل يكتب في بلده ولا يرحل في طلب الحديث .

وقال ابن الصلاح في مقدمته : واذا فرغ من سماع العوالي والمهمـات التي ببلده فليرحل الى غيره .

وكتب الرامهرمزى ت سنة ٣٦٠هـ/٩٧٠ م قائمة باسماء المحدثين الذين

رحلوا في طلب الحديث في كتابه (المحدث الفاصل) • وصنف الخطيب البغدادي كتابه (الرحلة في طلب الحديث) •

وصارت كتب التراجم تكتب : هو فلان اليمني ثم المكي ثم المدني ثم الشامي ثم الكوفي ثم البصري ثم المصري • فنعرف مقدار ماقاسى من مشاق في هذه المسافات الشاسعة باخطارها تاركا اهله وبلده •

ومن اهداف الرحلة عند المحدثين :

آ ـ الحصول على الحديث والتثبت من صحته بالوقوف على طريق سنده •

ب ـ طلب العلو في السند ، والعلو هو قلة عدد الرواة في سند الحديث مع اتصال السند ، تقوية للحديث ، لان الوسائط في السند اذا قلت تقل جهات احتمال الخلل •

جـ ـ البحث عن احوال الرواة من حيث العدالة والحفظ والتيقظ ، وبذلوا في ذلك جهدا كبيرا ، فحذروا الناس من الكذابين والضعفاء •

فسعى الامام يحيى بن معين الى ابي نعيم الفضل بن دكين ليختبر حفظه وتيقظه ، حتى شهد له انه قد بلغ الغاية في ذلك •

د ـ مذاكرة العلماء وجهابذة الفن في نقد الاحاديث وعللها • فكان الامام احمد بن حنبل يصلي من الليل مئة ركعة واكثر ، فاذا زاره يحيى بن معين اكتفى بالقليل من النافلة ، وجلس للمذاكرة مع يحيى • فقال له ابنه : في ذلك ؟ فقال : يابني ان مايفوت من النافلة يدرك ، لكن اذا فات ماعند هذا الفتى لا يدرك •

وبذلك شاعت الاحاديث في البلاد وتكثرت طرقها ، وتمكن المحدثون من العلم ، ونشروه بين الناس ، فاتسعت الثقافة ، ونمت الفضائل في النفوس ، وتعارفوا ، واجتمعوا على خدمة الحديث الشريف •

ثالثا ـ وضع قواعد لمعرفة الحديث الموضوع

عرف المحدثون الحديث الموضوع بانه : المختلق المصنوع الذي نسبه الكذابون المفترون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو شر انـواع الروايـة .

والوضاعون هم الذين تعمدوا الكذب ، لا انهم اخطأوا ، ولا انهـم رووا عـن كـذاب .

ورأوا ان مصدر الحديث الموضوع هو :

آ ـ من اختراع الواضع ، فيضع كلاما من نفسه ويرويه الى النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم .

ب ـ او من كلام غير الواضع كبعض السلف الصالح او قدماء الحكماء او الاسرائيليات مثل (المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء) لا اصل له من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، بل هو من كلام بعض الاطباء ، قيل هو الحارث بن كلدة طبيب العرب .

ج ـ او أن ياخذ الوضع حديثا ضعيف الاسناد ، فيركب له اسنادا صحيحا ليروج .

وقد حرموا رواية الموضوع ، سواء كان في الاحكـام ام القصص ام المواعظ وغيرها اذا كان الراوي عالما بوضعه ، الا اذا بين انه موضوع تحذيرا للجهلة منه ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : (من حدث عني بحديث يرى انه كذاب فهو احد الكذابين) .

ويرى بمعنى يظن . والكاذب متعمدا على الرسول صلى الله عليه وسلم في النار كما تقدم في الحديث .

وبذل العلماء جهودا عظيمة دققوا فيها الاحاديث المروية واحدا واحدا ، فاستطاعوا ان يميزوا بين الصحيح وغيره .

ومن الطرق التي ذكرها اولئك المحدثون لتعيين الحديث الموضوع :

آ ـ وجود متهم بالوضع في سلسلة الاسناد :

دقق العلماء في الرجال فجرحوا وعدلوا استناداً الى شروطهم في الراوي ، حتى اذا اتهم الراوي بالوضع ترك حديثه وان كان صاحب صلاح .

ب ـ اقرار واضعه انه وضعه :

عن ابن مهدي قال : قلت لمسيرة بن عبد ربه : من اين جئت بهذه الاحاديث : من قرأ كذا فله كذا ؟ قال : وضعتها ارغب الناس فيها .

ج ـ ما يتنزل منزلة اقراره بالوضع :

كأن يحدث عن شيخ ثم يسأل عن مولده ، فيذكر تاريخا يعلم وفاة ذلك الشيخ قبله ، ولا يوجد ذلك الحديث الا عنده . فهذا لم يعترف بوضعه ، ولكن اعترافه بوقت مولده يتنزل منزلة اقراره بالوضع .

او ان الشيخ توفي والراوي طفل لا يدرك الرواية او غير ذلك ، كما ادعى مأمون بن احمد الهروي انه سمع من هشام بن عمار ، فسأله الحافظ ابن حبان : متى دخلت الشام ؟ قال : سنة خمسين ومائتين ، فقال له : فان هشاما الذي تروى منه مات سنة ٢٤٥ هـ/٨٥٩ م ، فقال : هذا هشام بن عمار آخر . أو انه سمع في مكان يعلم ان الشيخ لم يدخله .

د ـ ركة اللفظ والمعنى :

والمدار في الركة على ركة المعنى، فحيثما وجدت دل على الوضع وان لم ينضم اليه ركة اللفظ ، لان هذا الدين كله محاسن ، والركة ترجع الى الرداءة .

اما ركة اللفظ فقط فلا تدل على ذلك ، لاحتمال ان يكون رواه بالمعنى ، فغير الفاظه بغير فصيح ، نعم ان صرح بانه من لفظ النبي صلى الله عليه وسلم فكاذب .

هـ ـ ان يكون مخالفا للعقل بحيث لا يقبل التأويل • ويلتحق به ما يدفعه الحس والمشاهدة • كالحديث الموضوع الذي ذكره ابن الجوزي : (ان سفينة نوح طافت بالبيت سبعا وصلت عند المقام ركعتين) •

و ـ ان يكون منافياً لدلالة القرآن القطعية او السنة المتواترة او الاجماع القطعي مع عدم امكان الجمع بينهما •

كحديث محمد بن سعيد الشامي المصلوب في الزندقة مرفوعا : (انا خاتم النبيين لا نبي بعدي الا ان يشاء الله) •

والحديث الموضوع المرفوع الى النبي صلى الله عليه وسلم (اذا جاءكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله ، فان وافقه فخذوه ، وان خالفه فدعوه) قال الخطابي في معالم السنن : انه حديث باطل لا اصل له،وقد حكى عن يحيى ابن معين انه قال : هذا حديث وضعته الزنادقة ، ويدفعه قوله صلى الله عليه وسلم : اني قد اوتيت الكتاب ومايعدله ، ويروى : اوتيت الكتاب ومثله معه •

قال ابن الجوزي : ما احسن قول القائل : اذا رأيت الحديث يباين المعقول ، او يخالف المنقول ، او يناقض الاصول ، فاعلم انه موضوع • ومعنى مناقضته للاصول : ان يكون خارجا عن دواوين الاسلام من المسانيد والكتب المشهورة •

ز ـ ان يصرح بتكذيب رواية جمع كثير يمتنع في العادة تواطؤهم على الكذب او تقليد بعضهم بعضا •

ح ـ ان يكون خبرا عن أمر جسيم تتوفر الدواعي على نقله بمحضر الجمع ، ثم لا ينقله منهم الا واحد ، كحصر العدو للحجاج عن البيت ، ثم لا ينقله منهم الا واحد ، لان العادة جارية بتظاهر الاخبار في مثل ذلك •

ط ـ مخالفة الحقائق التاريخية المعروفة في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، كحديث : ان النبي صلى الله عليه وسلم وضع الجزية على اهل خيبر

بشهادة سعد بن معاذ وكتابة معاوية • والحقائق التاريخية ترد هذا الحديث الموضوع ، لان الجزية لم تشرع في عام خيبر وانما انزلت آية الجزية بعد عام تبوك ، وان سعد بن معاذ توفى قبل ذلك في غزوة الخندق ، وان معاوية اسلم زمن الفتح •

ي ــ الافراط بالوعيد الشديد على الامر الصغير ، او الوعد العظيم على الفعل الحقير . وهذا كثير في حديث القصاص ، وهو يعود الى ركة المعنى• كالحديث الموضوع : (من صلى كذا فله سبعون دارا ، في كل دار سبعون الف بيت، في كل بيت سبعون الف سرير، على كل سرير سبعون الف جارية) •

قال ابن الجوزي : وان كانت القدرة لا تعجز ، ولكن هذا تخليط قبيح •

والمحدثون حددوا هذه الطرق في بيان الحديث الموضوع لكثرة مزاولة الفاظ النبي صلى الله عليه وسلم ، فحصلت لهم هيئة نفسانية وملكة قوية يعرفون بها مايجوز ان يكون من الفاظ النبوة وما لا يجوز •

لذلك قال الربيع بن خثيم ــ وهو من اصحاب عبدالله بن مسعود : ان للحديث ضوء كضوء النهار تعرفه ، وظلمة كظلمة الليل تنكره •

قال البلقيني : وشاهد هذا ان انسانا لو خدم انسانا سنين ، وعرف مايحب وما يكره ، فجاء انسان ادعى انه يكره شيئا يعلم ذلك انه يحبه ، فبمجرد سماعه يبادر الى تكذيب من قال انه يكرهه •

وبذلك الجهد العظيم المضني استطاعوا ان يثبتوا الصحيح من غيره في كتبهم ، فحفظوا لنا السنة المطهرة ، وصانوها من ايدي العبث والافساد •

ومن تلك الكتب التي كتبها العراقيون :

ــ كتاب الاباطيل لابي عبدالله الحسين بن ابراهيم الجوزقاني (نسبة الى جيل من الاكراد يسكنون اكناف حلوان بالعراق) الحافظ ، المتوفى سنة ٥٤٣ هـ/١١٤٨ م •

- وكتاب الموضوعات الكبرى لابي الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي البغدادي ت سنة ٥٩٧ هـ/١٢٠٠ م .
- وكتاب تذكرة الموضوعات لابي الفضل محمد بن طاهر المقدسي ابن القيسراني ت سنة ٥٠٧ هـ/١١١٣ م .
- ورسالة رضي الدين الحسن بن محمد الصغاني ، المتوفى ببغداد سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م .
- والمغني عن الحفظ والكتاب بقولهم لم يصح شيء في هذا الباب للحافظ ضياء الدين عمر بن بدر الموصلي ت سنة ٦٢٣ هـ/ ١٢٢٦ م .

وتتابعت بعدها كتب جليلة الشأن محصت ماجاء في هذه الكتب وغيرها .

رابعا - ظهور مقاييس الرواية

حين بحث المحدثون في الرواة ليمحصوا احاديثهم ، ويميزوا بين الصحيح وغيره ، وضعوا الشروط والقواعد بشكل منضبط دقيق ، حتى اصبحت ضوابطهم للرواية من ادق موازين النقد العلمي للاخبار عرفها الناقدون في التاريخ .

ومن الامور الموضحة لتلك المقاييس : شروط الراوي وطرق الرواية وعلم الجرح والتعديل .

شروط الراوي

هي ما اشترطه المحدثون في الراوي عند سماع الحديث وتلقيه ، وعند روايته وتبليغه . فالشروط نوعان :

آ - شروط التحمل : والتحمل هو تلقي الحديث وسماعه باحدى طرق التحمل .

ولم يشترطوا في تحمل الرواية كمال الاهلية ، لاجماع الصحابة والتابعين على قبول رواية صبيان الصحابة كالحسن والحسين وابن عباس وعبدالله بن الزبير .

واجماع السلف والخلف على احضار الصبيان مجالس الروايات ، ولم ينكر ذلك احد ، بل المشهور عن الاعمش انه كان يجمع الاطفال ويحدثهم .

والراجح ان الصغير اذا فهم الخطاب ورد الجواب كان مميزاً صحيح السماع .

الا ان المحدثين اشترطوا كمال الاهلية عند اداء الرواية . لان اساس قبول خبر الراوي ان يوثق به في روايته ، ذكرا كان ام انثى ، حرا ام عبدا ، فاجمعوا على وجوب توفر الشروط الآتية في الراوي حين يؤدي الرواية ويبلغها هي :

١ ـ التكليف ، اي ان يكون الراوي بالغا سن الرشد عاقلا .

٢ ـ الاسلام .

٣ ـ العدالة : وهي التمسك بآداب الشريعة فعلا وتركا .

٤ ـ الضبط : فيجب ان يكون الراوي متيقظاً حافظا ان حدث من حفظه، ضابطا لكتابه ان حدث منه ، عارفا بما يحيل به المعنى ان روى به . قال ابن كثير : « فان اختل شرط فيها ردّت روايته » .

وقد اجمع السلف على ان الراوي لو تحمل الرواية وهو صبي واداها وهو مكلف فهو مقبول الرواية . وكذلك اجمعوا على ان الفاسق او الكافر لو تحمل الرواية وهو فاسق او كافر واداها وهو عدل مسلم فهو مقبول الرواية .

طرق الرواية

بحث المحدثون في الروايات وسبروا غورها ، فقسموها الى نوعين :

النوع الاول

ان تكون رواية الصحابي عن النبي صلى الله عليه وسلم . ولروايته اساليب وطرق متعددة منها :

١ ــ اذا قال الصحابي : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم او اخبرني ، او حدثني ، او رأيته يفعل كذا ، مما لا يحتمل واسطة بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم فهو حجة بلا خلاف .

٢ ــ اذا جاء الصحابي بلفظ يحتمل الواسطة بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم ، كأن يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا ، او امر بكذا ، او نهى عن كذا ، او قضى بكذا . فذهب الجمهور الى ان ذلك حجة ، لان الظاهر انه روى ذلك عنه صلى الله عليه وسلم ، ثم انه عدل وعارف بلسان العرب . ولو فرضنا ان بينهما واسطة فمراسيل الصحابة مقبولة عند الجمهور .

٣ ــ اذا قال الصحابي امرنا بكذا ، او نهينا عن كذا بصيغة المبني للمجهول ، فذهب جمهور العلماء الى انه حجة ، لان الظاهر ان الآمر والناهي هو صاحب الشريعة ، ولان الصحابي انما يورد ذلك عند التبليغ للشريعة ، ويبعد كل البعد ان يأتي بمثل هذه العبارة ويريد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه لا حجة في قول غيره .

٤ ــ اذا قال الصحابي : كنا نفعل في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا ، او كانوا يفعلون كذا ، فهو حجة عند الاكثرين ، ومحمول على فعل الجماعة دون بعضهم لأنه : نقل لفعل جماعتهم مع تقرير النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، فتكون الحجة في تقريره عليه الصلاة والسلام .

النوع الثاني : رواية غير الصحابي عن شيخه

ذكروا طرق نقل التلميذ عن استاذه واصول الرواية ثمانية انواع هي التي تحدد مناهج العلماء في التعليم وهي :

١ ــ السماع من لفظ الشيخ . وهو نوعان : املاء وتحديث ، وكلاهما قد يكون من حفظ الشيخ او من كتاب له . والاملاء اعلى من التحديث .

والسماع اعلى انواع التحمل ، لانه طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم فانه كان يحدث صحابته وهم يسمعون •

٢ ــ القراءة على الشيخ ، فيقرأ التلميذ والشيخ يسمع ، سواء كــان الشيخ يحفظ ما يقرأ عليه ام لا يحفظ لكن يمسك اصله هو او ثقــة غيره • وسواء كان التلميذ هو القارىء ام قرأ غــيره وهو يسمع ، وسواء قرأ من كتاب ام من حفظــه •

وهذه طريقة صحيحة ورواية معمول بها ، ولم يخالف في ذلك الا من لا يعتد بخلافه • وسماها بعضهم عرضا ، لان التلميذ بقراءته على الشيخ كأنه يعرض عليــه ما يقرؤه •

٣ ــ المناولة : وهي ان يناول الشيخ تلميذه كتابا من سماعه•وقسموها الــى نوعــين :

آ ــ ان تقترن بالاجازة ، وذلك بان يدفع اصل الكتاب او نوعا مقابــلا عليه ، ويقول : هذا سماعي فاروه عني • او ان يأتي التلميذ الى الشيخ بجزء فيه سماعه فيعرضه على الشيخ وهو عارف متيقظ ثم يعيده اليــه ، ويقول : هو من مروياتي فاروه عنــي •

وسماها غير واحد من المحدثين : عرض المناولة ، وسمى القراءة : عرض القــــراءة •

والرواية بالمناولة جائزة وهو قول كافة اهل النقل والاداء والتحقيــق من اهل النظر •

ب ــ ان لا تقترن بالاجازة ، بل يناوله الكتاب ، ويقتصر على قوله : هذا سماعي من فلان ، ولا يقول : اروه عني •

وفي جواز الرواية بها قولان ، الراجح منهما عدم الجواز •

٤ ــ الكتابة : وهي نوعان :

آ ــ الكتابة المقترنة بالاجازة نحو : ان يكتب الشيخ الى التلميذ : سمعت من فلان كذا ، وقد اجزت لك ان ترويه عني ، وكان خط الشيخ معروفا .

وهذا النوع في الصحة والقوة كالمناولة المقرونة بالاجازة .

ب ــ الكتابة المجردة عن الاجازة

والجمهور يجوزون الرواية بها ، بعد ثبوت صحتها عند المكتوب اليه ووثوقه بانها عن كاتبها .

٥ ــ الاجازة : وهي ان يقول الشيخ لتلميذه : اجزت لك ان تروي عني هذا الحديث بعينه ، او هذا الكتاب ، او هذه الكتب .

والاجازة انواع : اعلاها ان يجيز الشيخ في معين لمعين نحو ان يقول : اجزت لك او لكم رواية الكتاب الفلاني عني . وفي جواز الرواية بها قولان .

ويستحسن ان يكون المجيز عالما بما يجيز به ، وان يكون المجاز له من اهل العلم ، لئلا يوضع العلم عند غير اهله ، وبالغ بعضهم في ذلك فجعله شرطا فيه .

٦ ــ الاعلام : وهو ان يعلم الشيخ تلميذه ان هذا الكتاب او الحديث سمعه من فلان من غير ان يأذن له في روايته .

وفي جواز الرواية به قولان ارجحهما الجواز ، لان إعتراف الشيخ به وتصحيحه له انه سماعه كتحديثه له بلفظه وقراءته عليه اياه وان لم يجزه له .

٧ ــ الوصية : وهي ان يوصي العالم قبل سفره او قبل موته بكتاب من مروياته لشخص بروايته عنه .

والمجوز للرواية بالوصية اوجب التزام الموصى له عبارة الموصي عند الاداء ، ولا يجوز ان يقول : حدثني فلان بكذا لانه لم يحدثه .

٨ ـ الوجادة : هي ان يجد حديثا او كتابا بخط شخص من عاصره وعرف خطه ، سواء لقيه ام لم يلقه . او بخط من لم يعاصره لكنه استوثق من ان الكتاب صحيح النسبة اليه بشهادة اهل الخبرة ، او بشهرة الكتاب الى صاحبه ، او بسند الكتاب المثبت فيه ، او غير ذلك مما يؤكد نسبة الكتاب الى صاحبه .

فاذا وجد التلميذ من هذا فله ان يقول : وجدت ، او قرأت بخط فلان ، او في كتابه بخطه : حدثنا فلان ، ويسوق الاسناد او المتن ، او قرأت بخط فلان عن فلان . اي : له ان يروي منه مايشاء على سبيل الحكاية لاعلى سبيل السماع . فنرى في مسند الامام احمد مما يرويه ابنه قوله : (وجدت بخط ابي : حدثنا فلان ...) مع ان عبدالله راوية كتاب ابيه ، وتلميذه ، وخط ابيه معروف لديه ، وكتبه محفوظة عنده .

واذا نقل التلميذ من مصنف فلا يقل : قال فلان الا اذا وثق بصحة النسخة بمقابلته او مقابلة ثقة لها . فاذا لم يوجد هذا ولا نحوه فليقل : بلغني عن فلان ، او وجدت في نسخة من كتابه ونحوه .

وهذا يدل على امانة السلف فيما ينقلون ويروون .

والوجادة الموثوق بها لا تقل قيمتها عن الاجازة بانواعها . لان الاجازة على حقيقتها انما هي وجادة معها اذن من الشيخ بالرواية .

وجميع ما ننقله اليوم من العلوم من مؤلفاتها انما هو ضرب من الوجادة لتعذر شرط الرواية فيها .

العمل بالاحكام الواردة بالنصوص الثابتة بطرق التحمل :

في كل انواع الرواية في الحديث من السماع الى الاجازة يجب على الراوي العمل بما صح اسناده عنده من روايته من غير خلاف .

واختلف العلماء في وجوب العمل بما صح اسناده من الحديث المروي بطرق الاعلام والوصية والوجادة . والصحيح من اقوالهم انه واجب كوجوبه في سائر الانواع .

في هذا العرض السريع لطرق التحمل والتلقي ندرك تشدد العلماء المسلمين وعنايتهم في وضع ضوابط لطرق التحمل ، وقد نجم اهتمامهم الشديد هذا بقصد المحافظة على السنة النبوية واتصال السند والتثبت في التحمل والرواية ، لاسيما وان وسائل التدوين في العصور الاولى كانت ضعيفة لا تقارن بما نحن عليه اليوم من طباعة ونشر .

وهذه المقاييس التي وضعت للحديث الشريف تعدت الى رواية الاخبار والشعر واللغة .

خامسا ـ علم الجرح والتعديل

الجرح في الاصطلاح هو : ظهور وصف في الراوي يثلم عدالته ، او يخل بحفظه وضبطه ، مما يترتب عليه سقوط روايته او ضعفها وردها .

والتعديل في الاصطلاح هو : وصف الراوي بصفات تزكيه ، فتظهر عدالته ، ويقبل خبره .

فعلم الجرح والتعديل هو العلم الذي يبحث في احوال الرواة من حيث قبول رواياتهم او ردها . وهو من اهم علوم الحديث اذ به يتميز الصحيح من السقيم .

مشروعية الجرح والتعديل

والجرح والتعديل مشروع لبيان احوال الرواة ، وادلة مشروعيته هي :

آ ـ من القرآن الكريم :

قوله تعالى : (واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ان تضل احداهما فتذكر إحداهما الاخرى) ـ البقرة ٢٨٢ .

والمرضي من الشهداء هو من ترضون دينه وامانته ، وليس نقل الحديث بأقل من الشهادة .

وقوله تعالى : (يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة) ــ الحجرات ٦ .

ب ــ من السنة النبوية :

قوله صلى الله عليه وسلم : (بئس اخو العشيرة) وهو جرح .
وقوله صلى الله عليه وسلم : (نعم عبدالله خالد بن الوليد ، سيف من سيوف الله) وهو تعديل .

ج ــ واجمع الصحابة والتابعون واتباعهم على جواز الجرح ، لان حديث الرسول صلى الله عليه وسلم دين فتجب فيه الامانة ، ويجب نشر اسم الكذاب ، ليتقى حديثه .

نشأة علم الجرح والتعديل

نشأ هذا العلم مع نشأة الرواية في الاسلام ، اذ لا يكون تحري الاخبار الصحيحة الا بعد تمييز الثقة من رواتها وغيره . لذلك تتبعوا الرواة وحياتهم العلمية فعرفوا الحافظ والضابط والأطول مجالسة لمن روى عنه من غيره .

وقد وصلت الينا اقوال كثيرة عن الصحابة والتابعين واتباعهم فيالتعديل والتجريح ، لا يحابي الناقد اخا او ابا او غيره امام حديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

قال عبدالرحمن بن مهدي البصري : (سألت شعبة وابن المبارك والثوري ومالك بن انس عن الرجل يتهم بالكذب ؛ فقالوا : (انشره فانه دين) . وكان يحيى بن معين لا يتحرج من جرح اصحابه . وجرح ابو داود صاحب السنن لبنه فقال : ابني عبدالله كذاب .

ولم يتورع هؤلاء من نشر اسم المجروح ، ولم يعدوا ذلك من الغيبة المحرمة ، وانما هو من الدين والنصيحة ، لان فيه حفظ الشريعة من شرور الكذابين والمجروحين .

قال عبدالله بن احمد بن حنبل : (جاء ابو تراب النخشبي الى ابي ، فجعل ابي يقول : فلان ضعيف ، فلان ثقة . فقال ابو تراب : ياشيخ لا تغتب العلماء . فالتفت ابي اليه ، فقال له : ويحك هذا نصيحة ، ليس هذا غيبة) .

وكان اشهر من تكلم في الرواة من التابعين واتباعهم :

عامر الشعبي ت سنة ١٠٣ هـ/٧٢١ م ، ومحمد بن سيرين ت سنة ١١٠ هـ/٧٢٨ م ، وشعبة بن الحجاج ت سنة ١٦٠هـ/٧٧٦م ، والاوزاعي ، والثوري ، ومالك بن انس ت سنة ١٧٩ هـ/٧٩٥ م ، والليث بن سعد ، ويحيى ابن معين ت ٢٣٣هـ/٨٤٧م واحمد بن حنبل ت سنة ٢٤١هـ/٨٥٥م، وعلي بن عبدالله المديني ت سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨ م ، والبخاري ت سنة ٢٥٦هـ/٨٦٩ م ، وابو حاتم الرازي ت سنة ٢٧٧ هـ/٨٤١ م .

وقد نما التصنيف في علم الجرح والتعديل في القرنين الثالث ، والرابع ، فبعض المصنفات اختص بالضعفاء ، وبعضها بالثقات ، وبعضها جمع بين الثقات والضعفاء .

كتب الضعفاء :

وممن صنف فيهم : يحيى بن معين البغدادي ، وعلي بن المديني البصري، ومحمد بن اسماعيل البخاري البغدادي في كتابه الضعفاء الكبير والضعفاء الصغير ، وابو حفص عمرو بن علي الفلاس البصري ت سنة ٢٤٩هـ/٨٦٣ م ، وابو زرعة الرازي ت سنة ٢٦٤هـ/٨٧٧ م ، وابن حبّان البستي ت سنة ٣٥٤هـ/٩٦٥م في كتابه (معرفة المجروحين من المحدثين) ، وعبدالله بن عدي ت سنة ٣٦٥ هـ/٩٧٥ م في كتابه (الكامل في ضعفاء الرجال) ، والنسائي ت سنة ٣٠٣هـ/٩١٥ م ، والدار قطني ت سنة ٣٨٥هـ/٩٩٥م في كتابه (الضعفاء

والمتروكين) ومحمد بن الحسين الازدي الموصلي البغدادي ت سنة ٣٧٤هـ/٩٨٤م قال الذهبي : له مصنف كبير في الضعفاء وهو قوي النفس في الجرح ، وهاه جماعة بلا مستند طائل .

كتب الثقات :

ومن صنف فيهم : ابو الحسن احمد بن عبدالله العجلي ت سنة ٢٦١هـ/٨٧٤م ، وابو العرب محمد بن احمد التميمي ت سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤ م ، ومحمد بن احمد بن حبّان البستي الذي سمع بالعراق ت سنة ٣٥٤ هـ/٩٦٥ م في كتابيه : الثقات، ومشاهير علماء الامصار، وعمر بن احمد بن شاهين البغدادي الواعظ ت سنة ٣٨٥ هـ/٩٩٥ م .

كتب جمعت بين الثقات والضعفاء

ومن المصنفين في ذلك محمد بن سعد سنة ٢٣٠هـ/٨٤٤ م في كتابه الطبقات الكبرى ، ويحيى بن معين في كتابيه : معرفة الرجال ، والتاريخ والعلل ،وعلي بن المديني البصري ت سنة ٢٣٤ هـ/٨٤٨ م في كتابه التاريخ ، واحمد بن حنبل الشيباني البغدادي ت سنة ٢٤١هـ/ ٨٥٥ م في كتابه العلل والرجال ، والبخاري ت سنة ٢٥٦هـ/٨٦٩ م في كتبه : التاريخ الكبير والاوسط والصغير ، وابو جعفر محمد بن عبدالله بن عمار الموصلي ت سنة ٢٤٢ هـ/٨٥٦ م في كتابه : كتاب في علل الحديث ومعرفة الشيوخ ، وابو حفص عمرو الفلاس ت سنة ٢٤٩ هـ/٨٦٣ م في كتابه التاريخ ، ومسلم بن الحجاج ت سنة ٢٦١ هـ/٨٧٤ م في كتابه رواة الاعتبار ، والنسائي ت سنة ٣٠٣هـ/٩١٥م في كتابه التمييز ، وابن ابي خيثمة ت سنة ٢٧٩ هـ/٨٩٢م في كتابه التاريخ الكبير ، وعبدالرحمن بن يوسف بن خراش البغدادي في كتابه الجرح والتعديل ، وابن حبّان البستي ت سنة ٣٥٤ هـ/٩٦٥ م في كتابه

اوهام اصحاب التواريخ ، والدار قطني ت سنة ٣٨٥ هـ/٩٩٥ م في تذييله على المحمدين من التاريخ الكبير للبخاري ، وابو حفص عمر بن احمد بن شاهين البغدادي الواعظ ت سنة ٣٨٥ هـ/٩٩٥ م في كتاب التاريخ •

ومن اجمع الكتب في هذا النوع كتاب (الجرح والتعديل) لعبدالرحمن ابن حاتم الرازي ت ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ م الـذي جمع فيه اقـوال المتقدمـين ونلهر فيه علمه بالرجال •

والمصنفات الاولى تناولت رجال الحديث عموما ، لكن بعـد ظهـور الكتب الستة في القرن الثالث الهجري ، بدأ التصنيف في رجال هذه الكتب ، لما نالت من قبول عند المحدثين •

فصنف عبـدالله بـن عـدي ت سـنة ٣٦٠ هـ/٩٧٠ م كتابـه اسمـاء مـن روى عنهـم البخـاري ، وصـنف الـدار قطنـي البغـدادي ت سـنة ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م كتبـه : (اسـماء التابعـين ومن بعدهم ممن صحت روايته من الثقات عند البخاري ومسلم وذكراه فـي كتابيهما الصحيحين او احدهما على حروف المعجـم) و (رجال البخـاري ومسلم) و (ذكر قوم ممن اخرج لهم البخاري ومسلم في صحيحيهما وضعفهم النسائي في كتاب الضعفاء) و (اسماء الصحابة التي اتفق فيها البخاري ومسلم وما انفرد به كل منهمـا) •

وصنف ابو نصر احمد بن محمد الكلاباذي ت سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م، كتابه في اسماء ما اشتمل عليه صحيح البخاري • وصنف ابو بكر احمد بن علـي الاصبهاني كتابه في اسماء ما اشتمل عليه صحيح مسلم • فجمع بين هذيـن الكتابين ابن القيسراني ت سنة ٥٠٧ هـ/١١١٣ م بكتابه (الجمع بين رجال الصحيحين) •

وصنف الحاكم النيسابوري ت سـنة ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م كتابه رجال البخاري ومسلم .

ثم ظهرت مصنفات بعد ذلك جمعت بين رجـال الكتب الستة هـي : (المعجم المشتمل على ذكر اسماء شيوخ الائمة النبل) لابن عساكر ت سـنة ٥٧١هـ/١١٧٥م اقتصـر فيـه على شيـوخ اصحـاب الكتب الستة دون الرواة الآخرين .

والكمال في اسماء الرجال لابي محمد عبدالغني بن عبدالواحد المقدسي الجماعيلي ت سنة ٦٠٠ هـ/١٢٠٣ م تناول فيه رجال الكتب الستة . الا انه لم يستوعب . فكان ذلك مدعاة للحافظ جمال‌الدين يوسف المزى ت سـنة ٧٤٢هـ/١٣٤١م الى تأليف الكتاب العظيم الذي لم يبلغ شأوه احد (تهذيب الكمال في اسماء الرجال) .

ثبوت عدالة الراوي وتزكيتـه

العدالة شرط في‌الراوي ـ كما تقدم ـ وتعرف‌بالاختبار في‌الاحوال بطول الصحبة والمعاشرة والمعاملة . فاذا لم يعثر عليه‌بانه فعل‌كبيرة ولا على‌ما يقتضي التهاون بالدين والتساهل في الرواية فهو ثقة ، والا فلا .

ولتزكية الراوي طرق لدى المحدثين منها :

١ ـ ان تكون بخبر عدلين ، واتفق الجمهور على ذلك .

٢ ـ ان يحكم الحاكم بشهادته ، لانه لا يحكم بشهادته الا وهو عدل عنده .

٣ ـ الاستفاضة فيمن اشتهرت عدالته بين اهل العلم ، لان الشاهد والمخبر انما يحتاجان الى التزكية متى لم يكونا مشهورين بالعدالة ، وكـان امرهمـا مشـكلا .

سئل احمد بن حنبل عن اسحاق بن راهويه ، فقال : مثل اسحاق يسأل عنه ؟ اسحاق عندنا امام من ائمة المسلمين .

رواية المجهول

المجهول عند المحدثين ثلاثة انواع :

١ ــ مجهول الحال ، اي لا يعرف حاله ظاهرا ولا باطنا مع كونه معروف العين برواية عدلين عنه .

٢ ــ المستور ، وهو العدل في الظاهر ، المجهول العدالة في الباطن .

٣ ــ مجهول العين ، وهو من لم يشتهر ولم يرو عنه الا راو واحد .

وقد اختلف العلماء في قبول رواية هؤلاء ، لا مجال لتفصيل القول فيه .

تعديل المبهم

اختلف العلماء في تعديل المبهم كقولهم حدثني الثقة ، او حدثني العدل على قولين ارجحهما عدم قبوله ، لانه وان كان عدلا عنده فربما لو سماه كان مجروحا عند غيره .

رواية التائب عن الفسق

اذا تاب الفاسق (مرتكب المعاصي) ، وعرفت عدالته بعد توبته ، وروى الاحاديث بعد توبته ، قبلت روايته .

اما الذي تعمد الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا تاب عن كذبه ، وعرفت عدالته بعده ، ففي قبول روايته قولان اشهرهما : لا تقبل روايته وتسقط جميع احاديثه السابقة ، لان في رفض روايته حفاظا على الشريعة ، وزجرا عن الكذب ، اذ في الكذب ضرر عام قد تتغير به احكام الدين . قال صلى الله عليه وسلم : (من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) .

ذكر السبب في الجرح والتعديل

اختلف المحدثون في قبول الجرح والتعديل من غير ذكر السبب على اقوال :

١ ـ لا بد من ذكر السبب في الجرح والتعديل ، ورجحه الشوكاني بحجة ان الجارح والمعدل قد يظنان ما ليس بجارح جارحا ، وقد يظنان ما لا يستقل باثبات العدالة تعديلا ، ولا سيما مع اختلاف المذاهب في الاصول والفروع ، فقد يكون ما ابهمه الجارح من الجرح هو مجرد كونه على غير مذهبه ، وعلى خلاف ما يعتقده وان كان حقا ، وقد يكون ما ابهمه من التعديل هو مجرد كونه على مذهبه وعلى ما يعتقده وان كان في الواقع مخالفا للحق ، كما وقع ذلك كثيرا .

٢ ـ لا يجب ذكر السبب فيهما اذا كان الجارح او المعدل بصيرا بالجرح والتعديل ، مرضيا في اعتقاده وافعاله .

٣ ـ يقبل التعديل من غير ذكر السبب ، لان اسبابه كثيرة يصعب ذكرها من الاعمال الصالحة وترك المنكرات .

اما الجرح فلابد من ذكر السبب ، لان الجرح يحصل بذكر سبب واحد ، ولا يشق ذكره ، ولان الناس مختلفون في اسباب الجرح ، فيطلق احدهم الجرح بناء على ما اعتقده جرحا وليس بجرح في نفس الامر ، فلابد من بيان سببه لينظر هل هو قادح اولا ؟ وهو قول نقاد الحديث وائمته ، ورجحه الحافظ .

٤ ـ يقبل الجرح من غير ذكر السبب ، ولا يقبل التعديل الا بذكر السبب ، لان مطلق الجرح يبطل الثقة ، ومطلق التعديل لا يحصل الثقة ، لتسارع الناس الى الظاهر .

الجرح المطلق

اذا ورد الجرح المطلق كقول الجارح ليس بثقة ، او ليس بشيء ، او هو ضعيف فيجب عندئذ التوقف حتى يبحث المطلع على حقيقة الحال في مطولات مصنفات هذا الشأن .

تفسير الجرح عند تعارض الجرح والتعديل

اذا تعارض الجرح والتعديل فينبغي ان يكون الجرح حينئذ مفسرا .

تعارض الجـرح والتعديـل

قد تتعارض اقوال العلماء في جرح الراوي وتعديله ، لان بعضهم يرى ان ذلك الراوي كان فاسقا فجرحه ، ولكن الآخر رآه قد تاب فعدله ، ونحو ذلـــك .

فاذا تعارض الجرح والتعديل ولم يمكن الجمع بينهما فللعلماء في ذلك اقوال ، اشهرها وهو قول الجمهور : الجرح مقدم على التعديل ، لان مــع الجارح زيادة علم لم يطلع عليها المعدل . وقد استثنى اصحاب الشافعي من هذا : ما اذا جرحه بمعصية وشهد الآخر انه قد تاب منها ، فانه يقدم في هذه الصورة التعديل ، لان معه زيادة علم .

جرح الاقران من الائمـة

اجمع العلماء على انه لا يؤخذ كلام الاقران الا المتعاصرين بعضهم في الآخر ، حال المنافسة او الغضب او الخلاف المذهبي : بلا دليل ، لان مــن صحت عدالته ، وثبتت في العلم امانته ، لم يلتفت فيه الى قول احد الا ان يأتي في جرحته ببينة عادلة تصح بها جرحته على طريق الشهادات .

المعـدل والجـارح

اتفق العلماء على ان الذين تولوا بيان احوال الرواة وتمييز الصحيح من السقيم ، يجب ان تتوفر فيهم شروط الــراوي السابقة وهــي التكليف والاســلام والعدالــة والضبط .

ولا بد من ان يكون مع تلك الشروط السابقة عارفا باسباب الجــرح والعدالة ، وغير متعصب ضد احد من الرواة . ومن لم يتم له هذا فلا يقبل منه القول في الرواة .

منهج العلماء في بيان احوال الرواة :

ولجلالة موضوع المحدثين تميز منهجهم في الجرح والتعديل بقـواعد اهمهـا :

١ ـ الامانة والنزاهة في الحكم ، فكانوا يذكرون ما للراوي وما عليه . قال محمد بن سيرين : (ظلمت اخاك اذا ذكرت مساوئه، ولم تذكر محاسنه).

٢ ـ الدقة في البحث والحكم ، فكانوا يدققون في احوال الراوي ويذكرون سبب وهمه ، ووقت اختلاطه ، وهل نشأ ضعفه عن وهن في دينه او عن عـدم الحفـظ ؟ .

٣ ـ التزام الادب في الجرح ، فالتزم اهل هذا العلم بالادب الجم في نقدهم ، واقسى العبارات التي وردت عنهم : فلان وضاع ، كذاب ، لـم يكن مسـتقيم اللسـان .

وكثيراً ما اوصى الائمة تلاميذهم بالتزام الادب في النقد . قال المزني : سمعني الشافعي يوما وانا اقول : فلان كذاب فقال لي : ابراهيم اكس الفاظك احسنها ، لا تقبل كذاب ؛ ولكن قل : حديثه ليس بشيء .

الفاظ الجرح والتعديـل

اعتنى العلماء كثيرا بضبط حال رواة الحديث ، ونتيجـة تلك العنايـة كانوا يقولون في التعديل : اوثق الناس ، واضبط الناس ، ولا يسأل عنـه ، ثقة ثقة ، وثقة مأمون ، وثقة حافظ ، وثبت ، ومتقـن ، وحجـة وامـام ، وصدوق ، مأمون ، لا بأس به ، شيخ ؛ صدوق ان شاء الله ... الخ .

وكانوا يقولون في التجريح : اكذب الناس ، ركن الكذب ، كـذاب ، وضاع ، هالك ؛ متروك ، ليس بثقـة ، رد حديثه ؛ ضعيف جـدا ، ليس بشيء ، فيـه مقـال .

لكن في المصنفات القديمة لم تكن تلك الالفاظ التي تدل على جـرح او تعديل الرواة موضع اتفاق بين اصحابها ، لذلك يجب معرفة مدلولها عنـد كـل منهـم •

فمثلا يحيى بن معين اذا قال : (ليس به بأس) فهو ثقة عند غيره تطلق على من هو ادنى من ثقة • ولكن فيما بعد اصبحت تلك الالفاظ ذات مدلول معين دقيق ، جعلها ابن ابي حاتم على شكل مراتب ، ذكرها في كتابه الجرح والتعديـل •

سادسا ـ تدوين السنة النبوية :

عني رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتعليم ، واقتضـت رسالته ان يوجد القارئون والكاتبون ، فالوحي وشـؤون الدولة تحتـاج الـى كتبة ومتعلمين • وبعد استقرار الدولة الاسلامية كثر هؤلاء ، فاصبحت المساجد مراكز تعليم القراءة والكتابة والعناية بالقرآن الكريم والحديث الشـريف • وكثرت الصحف المدونة ، وامر عمر بن عبدالعزيـز كبـار العلمـاء بجمـع الحديث وكتابته ، وتتابع على ذلك التابعون واتباعهم ، حتى قال ابن الصلاح الشهرزوري : (ولولا تدوينه في الكتب لدرس في الاعصر الآخرة) •

وقد اجمعت الامة على الكتابة التي اصبحت مـن ضروريات حفـظ الحديث لا يستغنى عنها • وآثار النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن في عصر الصحابة وكبار التابعين مدونة في الكتب ولا مرتبة لامرين :

احدهما : انهم كانوا في ابتداء الحال قد نهوا عن ذلك خشية ان يختلط بعض ذلك بالقرآن الكريم •

والثاني : سعة حفظهم وسيلان اذهانهم ، ولان اكثرهـم لا يعرفون الكتابـة •

وبعد ان كان المحدثون يجمعون الاحاديث المختلفة في صحف اصبحوا يرتبون الاحاديث على الابـواب •

فاول من بوب في التصنيف : الشعبي عامر بن شراحيل الكوفي ت سنة ١٠٥ هـ / ٧٢٣م • وكان من اوائل من صنف وبوب من العراقيين : الربيع بن صبيح بالبصرة ت سنة ١٦٠ هـ / ٧٧٦م • ومحمد بن اسحاق البغدادي ت سنة ١٥١ هـ / ٧٦٨م • وابو الوليد عبد الملك بن عبدالعزيز بن جريج البصري ت سنة ١٥١هـ / ٧٦٨م • وسفيان بن عيينة الكوفي ت سنة ١٩٨هـ / ٨١٣م • وسعيد بن ابي عروبة البصري ت سنة ١٥٨هـ / ٧٧٤م •

وحماد بن سلمة البصري ت سنة ١٦٧هـ / ٧٨٣م • وابو عوانة الوضاح البصري ت سنة ١٧٥هـ /٧٩١م • وشعبة بن الحجاج البصري ت سنة ١٦٠ هـ/٧٧٦ م• ومعمر بن راشد البصري ت سنة ١٦٠ هـ/٧٧٦ م• وسفيان ابن سعيد الثوري الكوفي ت سنة ١٦١ هـ/٧٧٧م • وهشيم بن بشير الواسطي ت سنة ١٨٣هـ / ٧٩٩م • وجرير بن عبدالحميد الضبي الكوفي ت سنة ١٨٨هـ / ٨٠٣م •

ثم انتهى — كما قال علي بن المديني — علم اهل مكة والمدينة والبصرة والكوفة ممن دار عليهم الاسناد واصحاب الاصناف الى ستة وهم :

يحيى بن سعيد القطان البصري ت سنة ١٩٨هـ / ٨١٣م • ويحيى بن زكريا بن ابي زائدة الكوفي ت سنة ١٨٢هـ/٧٩٨م• ووكيع بن الجراح الكوفي ت سنة ١٩٧هـ / ٨١٢م • وعبدالله بن المبارك الهيتي ت سنة ١٨١ هـ/٧٩٧م • وعبدالرحمن بن مهدي البصري ت سنة ١٨٨ هـ / ٨٠٣م ويحيى بن آدم الكوفي ت سنة ٢٠٣هـ / ٨٣٧م •

وقال غير علي : ثم صار علم هؤلاء كلهم الى رجل واحد هو يحيى بن معين البغدادي ت سنة ٢٣٣هـ / ٨٣٧م •

المسانيد

وكانوا يصنفون كل باب على حدة ، الى ان جاء منتصف القرن الثاني فدونوا الاحكام لكنها كانت ممزوجة باقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم ٠ حتى راى بعض الائمة ان يفرد حديث النبي صلى الله عليه وسلم خاصة وذلك على رأس المائتين . فصنف المسانيد : ابو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصري ت سنة ٢٠٣هـ/٨١٨م ٠ وعبيدالله بن موسى العبسي الكوفي ت سنة ٢١٣هـ / ٨٢٨م٠ ومسدد بن مسرهد البصري ت سنة ٢٢٨هـ/٨٤٢م ٠ ويحيى بن عبدالحميد الحماني الكوفي ت سنة ٢٢٨هـ / ٨٤٢م ٠ والامـــام احمد بن حنبل ت سنة ٢٤١هـ / ٨٥٥م ، ومسنده اوفى المسانيد واوسعها ٠ واسحاق بن راهويه ت سنة٢٣٨هـ / ٨٥٢م ٠ وعثمان بن ابي شيبة الواسطي الكوفي ت ســـنة ٢٣٩هـ / ٨٥٣م ٠ وابو جعفر محمد بن عبدالله الحضرمي الكوفي المعروف بـ (مطين) ت سنة ٢٩٧هـ / ٩٠٩م ٠ وابو اسحاق ابراهيم ابن سعيد الجوهري الطبري البغدادي ت سنة ٢٤٤ هـ / ٨٥٨م خرج فيـــه مسند ابي بكر الصديق ٠ واســحاق بن بهلول التنوخي الانباري ت ســـنة ٢٥٣ هـ/٨٦٦ م ٠ وابو جعفر احمد بن منيع البغوي البغـــدادي ت ســـنة ٢٤٤هـ / ٨٥٨م ٠ وابو محمد الحارث بن محمد بن ابي اسامة داهر التميمي البغدادي ت سنة ٢٨٢هـ / ٨٩٥م ٠ وابو جعفر احمد بن سنان الواسطي . ت سنة ٢٥٩هـ / ٨٧٢م ٠ وابو بكر احمد بن عمرو بن عبدالخـــالق البزاز البصري ت سنة ٢٩٢هـ / ٩٠٤م وبو عمرو احمد بن حازم الغفاري الكوفي ت سنة ٢٧٦ هـ / ٨٨٩م ٠ وابو امية محمد بن ابراهيـــم البغدادي ت ســـنة ٢٧٣هـ / ٨٨٦م ٠ وابو يوسف يعقوب بن شيبة بن الصلت السدوسي البصري البغدادي ت سنة ٢٦٢ هـ / ٨٧٥ م ٠ ومحمد بن هشام بن شبيب السدوسي البصري الثقة ت سنة ٢٥١هـ/٨٦٥م٠وابو محمد عبدالله بن محمد (بن ناجية) البربري البغدادي ت سنة ٣٠١ هـ/٩١٣ م ٠ وابو يعلى احمد بن علي التميمي

الموصلي ت سنة ٣٠٧هـ / ٩١٩م • وابو محمد عبدالرحمن بن ابي حاتم محمد الرازي ت سنة ٣٢٧هـ / ٩٢٧م • وابو الحسين احمد بن عبيد البصري الصفار المتوفى بعد سنة ٣٤٠هـ / ٩٥١م ، قال الدار قطني : صنف المسند وجوده • وابو محمد (دعلج) بن احمد البغدادي ت سنة ٣٥١هـ / ٩٦٢م • والمسانيد كثيرة جدا وهي جمع مسند ، وهي كتب ليست على الابواب ، موضوعها جعل حديث كل صحابي على حدة ، صحيحا كان او حسنا او ضعيفا ، مرتبين على حروف الهجاء في اسماء الصحابة وهو اسهل تناولاً ، او على القبائل ، او السابقة في الاسلام ، او الشرافة النسبية ، وغير ذلك • وقد يقتصر في بعضها على احاديث صحابي واحد : كمسند ابي بكر ، او احاديث جماعة منهم ، كمسند الاربعة ، او العشرة ؛ او طائفة مخصوصة جمعها وصف واحد كمسند المقلين ومسند الصحابة الذين نزلوا مصر • وقد يطلق المسند عند بعض المحدثين على كتاب مرتب على الابواب او الحروف او الكلمات لاعلى الصحابة ، لكون احاديثه مسندة ومرفوعة ، او اسندت ورفعت الى النبي صلى الله عليه وسلم كصحيح البخاري فانه يسمى بالمسند الصحيح ، وكذا صحيح مسلم وكسنن الدارمي فانها تسمى مسند الدارمي على مافيها من الاحاديث المرسلة والمنقطعة والمعضلة، على ان له مسندا على الصحابة •

وللامام زيد بن علي زين العابدين بن الحسين رضي الله عنهم ت سنة ١٢٢ المسند المسمى المجموع الفقهي والمجموع الحديثي، وقد جمعهما ورواهما عنه ابو خالد عمرو بن خالد الواسطي الكوفي •

كتب الصحاح :

وظهرت بعد ذلك كتب اقتصر اصحابها فيها على الصحيح من الحديث ، وهي الكتب الستة ، وقد نهل اصحابها جميعا من علم العراق وهم :

١ ـ الامام ابو عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري ت سنة ٢٥٦هـ/٨٦٩ م، وكتابه اصح كتاب بعد كتاب الله تعالى .

٢ ـ ابو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ت سنة ٢٦١هـ / ٨٧٤م وكتابه هو الصحيح الذي يلي صحيح البخاري .

٣ ـ ابو داود سليمان بن الاشعث الازدي السجستاني ، المتوفى بالبصرة سنة ٢٧٥هـ / ٨٨٨م .

٤ ـ ابو عيسى محمد بن عيسى بن سورة السلمي الترمذي ، ت سنة ٢٧٩هـ / ٨٩٢م .

٥ ـ ابو عبدالرحمن احمد بن شعيب النسائي ت سنة ٣٠٣هـ / ٩١٥م .

٦ ـ ابن ماجه ، ابو عبدالله محمد بن يزيد القزويني ت سنة ٢٧٣ هـ /٨٨٦م وسميت الكتب الاربعة الاخيرة بالسنن .

ومن المحدثين من جعل الكتاب السادس موطأ الامام مالك بدلا من سنن ابن ماجه ، ومنهم من جعل الاصول سبعة فاضاف الى الخمسة كلا من الموطأ وابن ماجه ، ومنهم من جعل السادس سنن الدرامي .

والفت كتب التزم اصحابها فيها الصحة منها :

١ ـ صحيح ابن خزيمة محمد بن اسحاق النيسابوري ت سنة ٣١١هـ/٩٢٣م .

٢ ـ صحيح ابي حاتم محمد بن حبان البستي ت سنة ٣٥٤هـ / ٩٦٥م سماه (التقاسيم والانواع) .

ـ صحيح الحاكم ابي عبدالله محمد بن عبدالله المعروف بابن البيع ت سنة ٤٠٥هـ / ١٠١٤م ، وهو المسمى بالمستدرك على الصحيحين مما لم يذكراه وهو على شرطهما او شرط احدهما اولا على شرط واحد منهما . وعقبوا عليه .

٤ ـ كتاب الالزامات لابي الحسن علي بن عمر الدار قطني البغدادي ت سنة سنة ٣٨٥ وهو كالمستدرك على الصحيحين جمع فيه ماوجده على شرطهما من الاحاديث ، وليس بمذكور في كتابيهما ، والزمهما ذكره وهو مرتب على المسانيد .

٥ ـ صحيح سعيد بن عثمان بن سعيد بن السكن البغدادي ت سنة٣٥٣هـ/ ٩٦٤م ويسمى بالصحيح المنتقى، وبالسنن الصحاح المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكنه محذوف الاسانيد ، جعله ابوابا في جميع ما يحتاج اليه من الاحكام ضمنه ما صح عنده من السنن المأثورة .

المستخرجات

والفت كتب مخرجة على الصحيحين او احدهما ، وهي كثيرة منها :

مستخرج الحافظ ابي بكر احمد بن ابراهيم الاسماعيلي ت سنة ٣٧١هـ / ٩٨١م . والحافظ ابي بكر احمد بن موسى بن مردويه الاصبهاني ت سنة ٤١٦هـ / ١٠٢٥م ، وهما على البخاري . والحافظ ابي عوانة يعقوب ابن اسحاق الاسفراييني ت سنة ٣١٦هـ / ٩٢٨م . والحافظ ابي الفضل احمد بن سلمة النيسابوري البزار المتوفى سنة ٢٨٦ هـ/٨٩٩ م رفيق مسلم في الرحلة الى بلخ والى البصرة . وهما على مسلم . والحافظ أبي نعيم احمد بن عبدالله الاصفهاني ت سنة ٤٣٠ هـ/١٠٣٨ م . والحافظ ابي محمد الحسن بن محمد البغدادي الخلال ت سنة ٤٣٩هـ/١٠٤٧م.والحافظ ابي بكر احمد بن محمد البرقاني المتوفى ببغداد سنة ٤٢٥هـ/١٠٣٣م.وهذه الثلاثة على كل من الصحيحين . وهناك كتب مخرجة على غير الصحيحين كالسنن منها :

مستخرج ابي بكر احمد بن علي بن منجويه الاصفهاني ت سنة٤٢٨هـ/١٠٣٦م على سنن ابي داود. ومستخرج ابن منجويه ابي بكر ايضا، وابي علي الحسن ابن علي الطوسي شيخ ابي حاتم الرازي ت سنة ٣١٢هـ/٩٢٤م ، وكلاهما على

سنن الترمذي . ومستخرج ابي نعيم الاصفهاني على التوحيد لابن خزيمة . واملى الحافظ ابو الفضل العراقي على المستدرك للحاكم مستخرجا لم يكمل .

والمستخرج عندهم : ان يأتي المصنف الى الكتاب ، فيخرج احاديثه باسانيد لنفسه من غير طريق صاحب الكتاب ، فيجتمع معه في شيخه او في من فوقه ولو في الصحابي ، مع رعاية ترتيبه ومتونه وطرق اسانيده . وشرطه ان لا يصل الى شيخ ابعد حتى يفقد سندا يوصله الى الاقرب ، الا لعذر من علو او زيادة مهمة . وربما اسقط المستخرج احاديث لم يجد له بها سندا يرتضيه ، وربما ذكرها من طريق صاحب الكتاب .

وقد يطلق المستخرج على كتاب استخرجه مؤلفه أي جمعه من كتب مخصوصة ، كمستخرج عبدالرحمن بن محمد (بن منده) الاصفهاني ت سنة ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م وسماه (المستخرج من كتب الناس للتذكرة والمستطرف من احوال الناس للمعرفة) .

السنن

وهي في اصطلاح المحدثين الكتب المرتبة على الابواب الفقهية من الايمان والطهارة والصلاة والزكاة ، وليس فيها شيء من الموقوف ، لان الموقوف لا يسمى في اصطلاحهم سنة ويسمى حديثا .

ومن كتب السنن : السنن الاربعة المشهورة وهي : سنن ابي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة . وسنن الامام الشافعي وسنن النسائي الكبرى ، ومنها لخص الصغرى تاركا لما تكلم في اسناده بالتعليل ، واذا اطلق المحدثون سنن النسائي فالمراد بها الصغرى . وسنن الدارمي عبدالله بن عبدالرحمن ت سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٨م . والسنن الكبرى لابي بكر احمد بن الحسين البيهقي ت سنة ٤٥٨هـ / ١٠٦٥م في عشر مجلدات ، وله السنن الصغرى بمجلدين ، وهما على ترتيب مختصر المزني . وسنن ابي الوليد عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج البصري ت سنة ١٥١هـ / ٧٦٨م . وسنن

سعيد بن منصور ت سنة ٢٢٧هـ / ٨٤١م . وسنن ابي مسلم ابراهيم بن عبدالله البصري الكشي ت سنة ٢٩٢هـ / ٩٠٤م . وسنن الدار قطني البغدادي وسنن ابي جعفر محمد بن الصباح البغدادي البزار ت سنة ٢٢٧هـ / ٨٤١م . وسنن ابي بكر احمد بن محمد البغدادي الاسكافي الأثرم ت سنة ٢٧٣ هـ / ٨٨٦م ، وهو صاحب الامام احمد . وسنن ابي علي الحسن بن علي الخلال الحلواني العراقي ت سنة ٢٤٢هـ / ٨٥٦م . وسنن ابي الحسين احمد بن عبيد البصري ، قال الدار قطني : كان ثقة ثبتا . وسنن ابي بكر احمد بن سليمان النجاد البغدادي ت سنة ٣٤٨هـ / ٩٥٩م . وسنن ابي اسحاق اسماعيل بن اسحاق بن اسماعيل القاضي الازدي البصري البغدادي ت سنة ٢٨٢هـ /٨٩٥م. وسنن ابي محمد يوسف بن يعقوب بن حماد بن زيد البصري البغدادي ت سنة ٢٩٧هـ / ٩٠٩م .

ومنها كتب تعرف بكتب السنة ، ويراد بها الكتب التي تحض على اتباع السنة النبوية والعمل بها وترك البدع والاهواء منها : كتاب السنة للامام احمد بن حنبل ، ولابي داود ، وللاثرم ، ولعبدالله بن احمد ، ولابي علي حنبل بن اسحاق بن حنبل ، وهو ابن عم الامام احمد بن حنبل ت سنة ٢٧٣هـ / ٨٨٦م . ولابي بكر احمد بن محمد البغدادي الخلال ت سنة ٣١١ هـ/٩٢٣ م ولابي بكر احمد بن عمرو بن النبيل البصري ت ٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م، ولابي حفص عمر بن احمد البغدادي الواعظ المعروف بابن شاهين ت سنة ٣٨٥هـ /٩٩٥م .

المصنفات والجوامع

وهي كتب مرتبة على الابواب الفقهية مشتملة على السنن وما هو في حيزها ، او له تعلق بها ، بعضها يسمى مصنفا وبعضها جامعا ، منها :

مصنف وكيع بن الجراح الكوفي ت سنة ١٩٧هـ / ٨١٢م . ومصنف ابي سلمة حماد بن سلمة البصري ت سنة ١٦٧هـ / ٧٨٣م ومصنف ابي الربيع

سليمان بن داود العتكي البصري ت سنة ٢٣٤ هـ/٨٤٨ م • ومصنف ابي بكر عبدالله بن محمد بن ابي شيبة ابراهيم الواسطي الكوفي ت سنة ٢٣٥هـ / ٨٤٩م جمع فيه الاحاديث على طريقة المحدثين بالاسانيد وفتاوى التابعين واقوال الصحابة مرتبا على الكتب والابواب على ترتيب الفقه • ومصنف عبدالرزاق ابن همام الصنعاني ت سنة ٢١١هـ / ٨٢٦م • وجامع سفيان الثوري الكوفي ت سنة ١٦٠ هـ / ٧٧٦م • وجامع سفيان بن عيينة الكوفي ت سنة ١٩٨هـ / ٨١٣م • وجامع ابي عروة معمر بن راشد البصري ت سنة ١٥٣هـ / ٧٦٩م • وجامع ابي بكر احمد بن محمد الخلال • والجامع الكبير والصغير وكلاهما للبخاري وجامع مسلم بن الحجاج •

ومن الكتب المرتبة على الابواب الفقهية :

كتاب الآثار لمحمد بن الحسن الشيباني الكوفي صاحب ابي حنيفة ت سنة ١٨٩هـ / ٨٠٤م • والام للامام الشافعي • وكتاب الشريعة في السنة لابي بكر محمد بن الحسين البغدادي الاجرى ت سنة ٣٦٠هـ / ٩٧٠م • وتهذيب الاثار لمحمد بن جرير الطبري البغدادي ت سنة ٣١٠هـ / ٩٢٢م •

كتب مفردة في ابواب مخصوصة منها :

كتاب التصديق بالنظر لله للاجرى • وتثبيت الرؤية لله لابي نعيم الاصبهاني • والاخلاص لعبدالله بن محمد المعروف بابن ابي الدنيا البغدادي ت سنة ٢٨١ هـ /٨٩٤م ، ولابي الفرج عبدالرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي البغدادي ت سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠م • والايمان لاحمد ، ولابي بكر بن ابي شيبة•والتوحيد واثبات الصفات لابن خزيمة•والاعتقاد والهداية الى سبيل الرشاد للبيهقي • والاسماء والصفات للبيهقي ايضا • والطهور لابي عبيد القاسم بن سلام البغدادي ت سنة ٢٢٤هـ / ٨٣٨م • والصلاة لابي نعيم الفضل بن دكين الكوفي ت سنة ٢١٨هـ/٨٣٣م •وكتاب ذم الغيبة، وكتاب ذم

الحسد ، وكتاب ذم الدنيا ، وكتاب ذم الغضب ، وكتاب ذم الملاهي ، وكتاب الصمت • وهي كتب كثيرة في الاداب والاخلاق والترغيب والترهيب ونحوها وكلها لابن ابي الدنيا• ونحو ذلك من الكتب الكثيرة• وكتبوا في الشمائل النبوية والسير والمغازى ككتاب الشمائل للترمذي وكتاب الانوار في شمائل النبي المختار لابي محمد حسين بن مسعود البغوي ، رتبه على واحد ومئة باب على طريقة المحدثين بالاسانيد • ودلائل النبوة لابي نعيم ، ولابي بكر البيهقي ، ولابي حفص بن شاهين • واعلام النبوة لابي داود السجستاني والسيرة لمحمد بن اسحاق البغدادي ت سنة ١٥١هـ/٧٦٨م وهي التي هذبها ابن هشام المتوفى سنة ٢١٨هـ/٨٣٣م• والسيرة لمحمد بن عمر الواقدي المتوفى ببغداد سنة ٢٠٦هـ / ٨٢١م • والسيرة لابي حفص عمر بن محمد الموصلي • والمغازى لمحمد بن اسحاق ، ولابي ايوب يحيى بن سعيد بن ابان الكوفي البغدادي الملقب بالجمل ت سنة٢٩٤هـ/٩٠٦م، ولمحمد بن عمر الواقدي •

وكتبوا في احاديث شيوخ مخصوصين من الكثيرين كاحاديث سليمان ابن مهران الكاهلي الملقب بالاعمش ، لابي بكر الاسماعيلي • واحاديث الفضيل بن عياض للنسائي • وغير ذلك •

وكتبوا كتبا في جمع طرق بعض الاحاديث منها :

طرق حديث : ان لله تسعة وتسعين اسما لابي نعيم الاصبهاني • وطرق حديث الافك لابي بكر الاجرى•وطرق حديث قبض العلم للخطيب البغدادي• وطرق حديث الرحمة لابن الصلاح الشهرزوري • والفوا كتبا في رواة بعض الائمة المشهورين ، او في غرائب احاديثهم : ككتاب تراجم رواة مالك للخطيب البغدادي ، ذكر فيه من روى عن الامام مالك • وكتاب غرائب مالك ، اي الاحاديث الغرائب التي ليست في الموطأ للدار قطني • وغرائب شعبة بن الحجاج العتكي الواسطي البصري ت سنة ١٧٠ هـ / ٧٨٦م •

وصنفوا في الاحاديث الافراد :

والافراد جمع فرد ، وهو قسمان :

آ ـ فرد مطلق ، وهو ماتفرد به راويه عن كل احد من الثقات وغيرهم ، بان لم يروه احد من الرواة مطلقا الا هو .

ب ـ فرد نسبي ، وهو ماتفرد به ثقة ، بأن لم يروه أحد من الثقات الا هو ، أو تفرد به اهل بلد بان لم يروه الا اهل بلدة كذا كأهل البصرة ، او تفرد به راوية عن راو مخصوص بان لم يروه عن فلان الا فلان وان كان مرويا من وجوه عن غيره .

ومن الكتب المصنفة فيه : الافراد للدار قطني في مئة جزء حديثية ، والافراد لابي حفص بن شاهين . والافراد المخرجة من اصول ابن رزيق البغدادي ت سنة ٣٩١هـ / ١٠٠٠م . وصنف ابو داود السنن التي تفرد بكل سنة منها اهل بلدة . كتفرد اهل المدينة واهل اليمامة باحاديث . وكتبوا في الاحاديث المسلسلة ، وهي التي تتابع رجال اسنادها على صفة او حالة ، كالمسلسل بالاولية لابي طاهر احمد بن محمد السلفي ت سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م، وكمسلسلات ابي العباس جعفر بن محمد المستغفري وابي بكر احمد بن ابراهيم بن الحسين (بن شاذان) البغدادي البزاز المتوفى سنة ٣٨٣هـ/٩٩٣م، وابي نعيم الاصبهاني .

وكتبوا في المراسيل ، والمرسل : هو ان يقول التابعي : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا ، او فعل كذا ، او فعل بحضرته كذا . فيسقط من السند الصحابي . ومن كتب المراسيل : كتاب المراسيل لابي داود صاحب السنن، ولابن ابي حاتم . وصنفوا اجزاء حديثية ، والجزء عند المحدثين هو تأليف الاحاديث المروية عن رجل واحد من الصحابة او من بعدهم ، وقد يختارون من المطالب في صفة الجامع مطلبا جزئيا يصنفون فيه مبسوطا وفوائد

حديثية ايضـا ، ووحدانيـات ، وثنائيات الـى العشاريـات ، واربعونيات وثمانونيات والمئة والمئتان وما اشبه ذلك .

فمن الاجزاء الحديثية :

جزء ابي عاصم الضحاك بن مخلد المعروف بالنبيل البصري ت سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧م . وجزء ابي علي الحسن بن عرفة البغدادي ت سنة ٢٥٧هـ / ٨٧٠م . وجزء ابي عبدالله محمد بن عبدالله الانصاري ت سنة ٢١٥هـ / ٨٣٠م . وجزء ابي الحسن احمد بن عبدالعزيز بن احمد (بن ترتال) البغـدادي ت سـنة ٤٠٨هـ / ١٠١٧م . وجزء ابي بكر بن شاذان البغدادي البزاز . وجزء ابـي عبدالله محمد بن مخلد بن حفص الدوري العطار ت سنة ٣٣١هـ / ٩٤٢م . والاجزاء الخلعيات ، وهي عشرون جزءا للقاضي ابي الحسن علي بن الحسن المعروف (بالخلعي) الموصلي ت سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٨م . والاجزاء القطيعيات ، وهي خمسة اجزاء لابي بكر احمـد بن جعفر القطيعي البغـدادي ت سـنة ٣٦٨ هـ / ٩٧٨م .

ومن الفوائد الحديثية الكثيرة : فوائد ابي الحسين محمد بن علـي المعروف بابن الغريق . المتوفى ببغداد سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٣م . وفوائد ابي طاهر المخلص ، وهي من تخريج ابي الفتح محمد بن أحمد البغدادي ت سنة ٤١٢هـ / ١٠٢١م .

ومن الوحدانيات فما بعدها : الوحدانيات لابي حنيفة جمعها ابو معشر عبدالكريم الطبري لكن باسانيد ضعيفة .

والثلاثيات وهي الاحاديث التي يكون بين مخرجها وبين النبي صلـى الله عليه وسلم ثلاثة رواة صحابي وتابعي وتابع تابعي . كثلاثيات احمـد في مسنده وهي ٣٣٧ حديثا ، والبخاري وهي اثنان وعشرون ، والترمذي فـي جامعه وهو حديث واحد .

والخماسيات لابي الحسين احمد بن محمد (ابن النقور) البغدادي البزار ت سنة ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م ٠

والعشاريات للترمذي والنسائي ٠

والاربعون لعبدالله بن المبارك ت سنة ١٨١هـ / ٧٩٧م ، وهو اول من صنف في الاربعينات ٠ ولابي بكر الاجري ت سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧٠م ، وللدار قطني ت سنة ٣٨٥هـ / ٩٩٥م ، ولابي طاهر السلفي ت سنة٥٧٦ هـ/١١٨٠م ٠ ولابي محمد عبدالقاهر بن عبدالله الرهاوي ت سنة ٦١٢هـ / ١٢١٥م (نسبة الى مدينة الرها بالجزيرة بين الموصل والشام) وغيرهم كثير ٠

والاربعينات صنفها العلماء ، لحديث ورد من طرق كثيرة بروايات متنوعة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من حفظ على امتي اربعين حديثا في امر دينها بعثه الله يوم القيامة في زمرة الفقهاء والعلماء) ، واتفقوا على انه حديث ضعيف ، وان كثرت طرقه ٠

لكن المصنفات في هذا متنوعة المقاصد فمنهم من اعتمد ذكر احاديث التوحيد واثبات الصفات ومنهم من قصد ذكر احاديث الاحكام ، ومنهم من قصد ذكر احاديث العبادات او الاحاديث الصحيحة ٠

والف حديث عن مئة شيخ ، ويسمى بالامالي لابي المظفر منصور السمعاني ت سنة ٤٨٩هـ / ١٠٩٥م وهو جد ابي سعد السمعاني ٠ جمع الالف المذكورة ، وتكلم عليها فاحسن ٠

وكثر التصنيف في الوان متعددة من فنون الحديث ، فمنها كتب في الاحاديث القدسية ، وهي المسندة الى الله تعالى فجعلت من كلامه سبحانه ، ولم يقصد الاعجاز بها ٠

كتب الامالي

والاملاء من وظائف العلماء قديما لاسيما الحفاظ من اهل الحديث في يوم من ايام الاسبوع يوم الثلاثاء او يوم الجمعة . وطريقهم فيه ان يكتب المستملي في اول القائمة : هذا مجلس املاه شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا ، ثم يورد المملي باسانيده احاديث وآثارا ثم يفسر غريبها ويورد من الفوائد المتعلقة بها باسناد او بدونه مايختاره .

ومن هذه الكتب : الامالي لابي حفص بن شاهين ، ولابي الفضل محمد ابن ناصر السلامي البغدادي ت سنة ٥٥٠هـ / ١١٥٥م ، ولابي بكر محمد بن احمد بن عبدالباقي البغدادي ت سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٥م ، ورضي الدين احمد ابن اسماعيل الوراق البغدادي ت سنة [illegible] هـ/٩٨٨ م، والحسين بن اسماعيل المحاملي البغدادي ت سنة ٣٣٠هـ/[illegible] وابن بشران عبدالملك بن محمد البغدادي ت سنة ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م ... الخ .

كتب رواية الأكابر عن الاصاغر والأباء عن الابناء وعكسه ومنها :

كتب رواية الاكابر عن الاصاغر والآباء عن الابناء وعكسه

ومنها : كتاب ما رواه الكبار عن الصغار والآباء عن الابناء لاسحاق بن ابراهيم المنجنيقي البغدادي الوراق ت سنة ٣٠٤هـ / ٩١٦م . وكتاب رواية الصحابة عن التابعين ، وكتاب رواية الآباء عن الابناء وكلاهما للخطيب البغدادي .

كتب العوالي

وصنفوا كتبا في عوالي بعض المحدثين منها : كتاب عوالي الاعمش لابي الحجاج يوسف بن خليل الدمشقي . وعوالي سفيان بن عيينة لابي عبدالله محمد بن اسحاق بن منده . وعوالي البخاري لتقي الدين بن تيمية الحراني .

كتب الاطراف

وهي التي يقتصر فيها على ذكر طرف الحديث الدال على بقيته ، مع لجمع لاسانيده ، اما على سبيل الاستيعاب او على جهة التقييد بكتب مخصوصة ، كاطراف الصحيحين لابي محمد خلف بن محمد الواسطي ت سنة ٤٠١هـ / ١٠١٠م ، واطراف الكتب الستة (الخمسة مع ابن ماجه) لابي الفضل محمد بن طاهر المقدسي ت سنة ٥٠٧هـ / ١١١٣م ، وله ايضا : اطراف الغرائب والافراد للدار قطني ، رتب فيه كتاب الدار قطني على حروف المعجم.

كتب الزوائد

اي الاحاديث التي يزيد بها بعض كتب الحديث على بعض آخر معين ، كزوائد سنن ابن ماجه على كتب الحفاظ الخمسة للشهاب البوصيري سماه : مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه . وله ايضا : فوائد المنتقي لزوائد البيهقي في سننه الكبرى على كتب الستة .

كتب في الجمع بين بعض الكتب الحديثية :

كالجمع بين الصحيحين للصغاني البغدادي ت سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م وسماه مشارق الانوار النبوية من صحاح الاخبار المصطفوية. والجمع بين الكتب الستة (فيها الموطأ بدلا من ابن ماجه) لمجد الدين ابن الاثير الجزري الموصلي ت سنة ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م ، سماه جامع الاصول من احاديث الرسول . وجامع المسانيد بألخص الاسانيد لابي الفرج ابن الجوزي ، جمع فيه بين الصحيحين والترمذي ومسند احمد ، رتبه على المسانيد في سبع مجلدات .

وهناك كتب مجردة او منتقاة من كتب الاحاديث المسندة خصوصا او عموما مثل كتاب عمدة الاحكام عن سيد الانام لتقي الدين عبدالغني بن عبدالواحد المقدسي ت سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٣ م .

وكتب في تخريج الاحاديث الواقعة في كتب العقائد والتفسير والفقه والاصول ونحوها ، كتخرج احاديث كتاب المهذب للشيرازي ، لابي بكر محمد بن موسى الحازمي .

كتب الحديث عند الشيعة

يرى الشيعة ان الصحيفة الاولى المدونة هي صحيفة الامام علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، كان يقوم بكتابة كل مايمليه عليه الرسول صلى الله عليه وسلم بها بخطه ، فسماها بعضهم بالجامعة ، او الصحيفة او كتاب علي . وذهب بعضهم الى انها تحتوي على كل شيء من الاحكام حتى ارش الخدش، لكن لم يستيقن البعض منهم من شموليتها .

واول من دون الحديث بعد الامام علي هو ابو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي شهد مع النبي صلى الله عليه وسلم مشاهده ، ثم لازم بعده عليا ، وصار صاحب بيت ماله بالكوفة . وقد رتب ابو رافع الحديث على الابواب ، فاشتهر بكتابه في السنن والاحكام والقضايا .

ثم كانت ابرز المدونات : الكتاب المنسوب الى الصحابي سلمان الفارسي ت سنة ٣٧هـ / ٦٥٧م والمسمى بحديث الجاثليق . وجاثليق هو مبعوث ملك الروم الى المسلمين . وكتاب ميثم التمار ت سنة ٦٠هـ/٦٧٩م وهو من خواص الامام علي وتابعيه . وكتاب سليم بن قيس الهلالي ت سنة ٩٠هـ / ٧٠٨م وهو معروف بولائه للامام علي ، قيل ان الامام علي بن الحسين قال بعد ان قرأ الكتاب بتمامه : (هذه احاديثنا صحيحة) . ثم كتب على بن ابن رافع وهو من التابعين جملة من الاحاديث المتصلة بالوضوء والصلاة وغيرها من ابواب الفقه ، وجمعها على شكل كتاب .

وتتابعت المصنفات بعد ذلك فقال الشيخ المفيد : (صنفت الامامية من عهد امير المؤمنين الى عصر ابي محمد الحسن العسكري (ع) اربعمائة كتاب تسمى بالاصول) ، وسميت هذه الاربعمائة بالاصول خلافة

لبقية المدونات ، لان جميع الاحاديث الواردة فيها قد سمعت مباشرة وشفاها من الامام ، او كان لها طريق واحد فقط بين الراوي والامام ، لهذا تميزت بالصحة • ولكن بعد نشاط الحركة العلمية جمعت هذه الاصول الاربعمائة في اربعة كتب هي :

١ ــ الكافي لابي جعفر محمد بن يعقوب الكليني ت سنة ٣٢٩هـ / ٩٤٠م •

٢ ــ من لا يحضره الفقيه لابي جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي ت سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١م •

٣ ــ كتاب التهذيب ، وكتاب الاستبصار ، وكلاهما لابي جعفر محمد بن الحسن الطوسي ت سنة ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م •

علم الرجال :

والفوا في تواريخ الرجال واحوالهم ، واتبعوا في التآليف اساليب مختلفة ، فمنهم من صنف على ترتيب السنين ، ومنهم على حسب البلدان فيذكر فضائل البلد المؤرخ لعلمائه ومن سكنه من الصحابة او مروا به ثم علماء ذلك البلد ومن دخله من اهل العلم •

ومنهم من رتبه على حروف المعجم كما هي الحال في كتب التراجم ، ومنهم من جعل الرجال عى طبقات واجيال •

وانواع الكتب في هذا العلم هي :

١ ــ كتب الصحابة :

والصحابي هو المسلم الذي رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم • وقد صنف المحدثون الكتب في معرفة الصحابة وحاولوا حصر اسمائهم وبيان رواياتهم واحوالهم وتاريخ وفياتهم مرتبة على الحروف او القبائل او غير ذلك ، اذ لا يتميز الحديث المرسل ــ الذي سقط

من اسناده الصحابي ـ من الحديث المسند ـ الذي اتصل اسناده الى الرسول صلى الله عليه وسلم ـ الا بمعرفة الصحابة .

ومن تلـك الكتـب :

معرفة من نزل من الصحابة سائر البلدان ، في خمسـة اجزاء لعلي بن المديني البصري ت سنة ٢٣٤هـ / ٨٤٨م . وكتاب ابي الحسين عبدالباقي (بن قانع) البغدادي ت سنة ٣٥١هـ / ٩٦٢م . وكتاب ابي علي سعيد بن عثمان ابن سعيد بن السكن البغدادي ، ويسمى بالحروف . وكتاب معرفة الصحابة لابي نعيم الاصبهاني في ثلاثة مجلدات . وكتاب ابي حفص بن شاهين ت سنة ٣٨٥هـ / ٩٩٥م . وكتاب ابي حاتم محمد بن حبان البستي ت سنة ٣٥٤هـ / ٩٦٥م المسمى (اسماء الصحابة) . واسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين ابن الاثير الجزري الموصلي .

٢ ـ كتـب الطبقـات :

وهي الكتب التي تشتمل على ذكر الشيوخ واحوالهم ورواياتهم طبقـة بعد طبقة ، وعصرا بعد عصر الى زمن المؤلف . وانما نظمت على الطبقـات لتسهيل التمييز بين الصحابة والتابعين واتباع التابعين ، فيميز الحديث المرسل او المنقطع من المسند ، ويميز بين الاسماء المتفقة والمتشابهة .

ومن اشهر هذه الكتب : طبقات محمد بن عمر الواقدي المتوفى ببغداد سنة ٢٠٦هـ / ٨٢١م . والطبقات الكبرى لمحمد بن سعد البصري البغدادي ت سنة ٢٣٠ هـ/٨٤٤ م وهو من اوثق واهم المصادر في التاريخ والرجال . وطبقات علي بن المديني البصري ت سنة ٢٣٤هـ / ٨٤٨م . وطبقات خليفة بن خياط العصفري البصري ت سنة ٢٤٠هـ / ٨٥٤م . وطبقات التابعين لمسلم بن الحجاج القشيري ت سنة ٢٦١ هـ / ٨٧٤م . وكتاب التابعين لمحمد بن حبان البستي ت سنة ٣٥٤هـ / ٩٦٥م وله ايضا : اتباع التابعين وتباع التبع كلاهما في ١٥ جزءا . وكتاب ذيل المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين لمحمد بن جرير

الطبري البغدادي ت سنة ٣١٠هـ / ٩٢٢م . وطبقات التابعين لابي حاتم محمد ابن ادريس الرازي من اقران البخاري ومسلم ت سـنة ٢٧٥ هـ / ٨٨٨م . وطبقات المحدثين والرواة لابي نعيم احمـد بن عبدالله الاصبهاني ت سـنة ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م ، وله ايضا : كتاب حلية الاولياء ، اختصره ابو الفرج بن الجوزي البغدادي بكتابه صفوة الصفوة . وغير هذه الكتـب مما الف في طبقات علماء المذاهب وطبقات حفاظ البلدان ، وطبقات الصوفية والقراء .

٣ ـ كتب الجرح والتعديل :

وقد تقدم الكلام عليها في موضوع الجرح والتعديل .

٤ ـ كتب معرفة الاسماء والكنى والالقـاب :

وصنفوا كتبا في معرفة الاسماء والكنى والالقاب ، اي اسـماء مـن اشتهر بكنيته ، وكنى من اشتهر باسمه ، والقاب المحدثين لدفع اللبس فـي اسماء الرواة . ومنها : كتاب الاسماء والكنى لاحمد بن حنبل . والاسـماء والالقاب لابي الفرج بن الجوزي المسمى كشف النقاب عن الاسماء والالقاب. وكتاب الكنى للبخاري ، ولمسلم ، وللنسائي ، ولعلي بن المديني ، ولابن ابي حاتم ، ولمحمد بن حبان البستي .

٥ ـ كتـب الانسـاب :

وصنفوا في الانساب فكان من اجمع الكتب كتاب الانساب لتاج الاسلام ابي سعد عبدالكريم بن محمد السمعاني الرحالة المتوفى سنة ٥٦٢هـ /١١٦٦م، رتبه على حروف المعجم ، وهو كتاب عظيم لم يصنف مثله فيه .

واختصره وزاد عليه ونبه على اغلاطه الامام عزالدين علي بـن محمـد الشيباني الجزري الموصلي في كتابه المفيد جدا الذي اسماه (اللباب) .

ومما الف في الانساب ايضا : كتاب انساب المحدثين لمحب الدين محمـد

ابن محمود بن النجار البغدادي ، وكتاب العجالة لابي بكر محمد بن موسى الحازمي •

٦ ــ كتب المتفق والمفترق :

وصنفوا في المتفق لفظا وخطا من الاسماء والالقاب والانساب ونحوها وهو مفترق معنى ومن ذلك : كتاب المتفق والمفترق للخطيب البغدادي وهو كتاب نفيس • والمتفق والمفترق لابي عبدالله محمد بن النجار البغدادي الحافظ • وكتاب ما اتفق لفظه وافترق معناه من اسماء البلدان والاماكن المشتبهة في الخط لابي بكر محمد بن موسى الحازمي •

٧ ــ كتب المؤتلف والمختلف :

وصنفوا في المؤتلف أي المتفق خطا منها وهو مختلف لفظا • ومن ذلك : كتاب المختلف والمؤتلف للدار قطني وهو كتاب حافل • وكتاب المختلف والمؤتلف لعلاء الدين علي بن عثمان المارديني • ولابي محمد عبدالغني بن سعيد الازدي المصري ت سنة ٤٠٩هـ/١٠١٨م كتابان: احدهما في مشتبه الاسماء، والآخر في مشتبه الانساب • ثم جاء الخطيب البغدادي فجمع بين كتابي الدار قطني وعبدالغني وزاد عليهما ، وجعله كتابا مستقلا سماه المؤتلف تكملة المختلف • ثم جاء الامير ابو نصر علي (ابن ماكولا) البغدادي العجلي ت سنة ٤٧٥هـ/١٠٨٢م والف كتاب الاكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف من الاسماء والكنى والانساب • وذيل على الاكمال ابو بكر محمد بن عبدالغني المعروف بابن نقطة البغدادي ت سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣١م •

٨ ــ المتشابه :

وصنفوا في المتشابه المركب من النوعين السابقين، وهو المتفق لفظا وخطا من اسمين او نحوهما مع اختلاف اسم ابيهما لفظا لا خطا او العكس • ومن ذلك :

كتاب تلخيص المتشابه في الرسم وحماية مااشكل منه عـن بوادر التصحيف والوهم للخطيب البغدادي • ثم ذيل عليه بما يتفق من اسماء الرواة وانسابهم ، قال عنه ابن الصلاح انه من احسن كتبه •

٩ ــ المبهـم :

وصنفوا في مبهم الاسانيد او المتون من الرجال والنساء ، مثل كتـاب الخطيب البغدادي رتبه على حروف المعجم ومعتبرا اسم المبهم • وكتاب ابي الفضل محمد بن طاهر المقدسي المعروف بابن القيسراني ، المتوفى ببغـداد سنة ٥٠٧هـ / ١١١٣ م •

١٠ ــ تواريـخ الرجـال :

المصنفات الاولى في التاريخ والرجال واحوالهم شاملة منها : التاريـخ الكبير للبخاري جمع فيه اسامي من روى عنه الحديث من زمن الصحابة الى زمنه ، قال فيه التاج السبكي : انه لم يسبق اليه ، ومن الف بعده في التاريخ او الاسماء او الكنى فعيال عليه • وله ايضا : التاريخ الوسـط والصـغير • وتاريخ يحيى بن معين البغدادي ت سنة ٢٣٣هـ / ٨٤٧م ، وهـو مرتب على حروف المعجم • وكتاب الرجال عن ابن معين ، لابي الفضل عبدالله بن محمد الدوري البغدادي ت سنة ٢٧١هـ / ٨٨٤م • وتاريـخ ابي الحسن احمد بن عبدالله العجلي الكوفي ت سنة ٢٦١هـ / ٨٧٤م • وتاريخ عثمان بن محمد بن ابي شيبة الكوفي • وتاريخ خليفـة بن خياط العصفري البصري ت سـنة ٢٤٠هـ / ٨٥٤م • وتاريخ محمد بن سعد كاتب الواقدي • وتاريخ ابي بكر احمد بن ابي خيثمة زهير بن حرب النسائي البغدادي ت سنة ٢٧٩هـ /٨٩٢م، ذكر فيه الثقات والضعفاء ، قال الخطيب : لا اعرف اغزر فوائد منه • وتاريخ الامام احمد بن حنبل ت سنة ٢٤١هـ / ٨٥٣ م •

ثم ظهرت مصنفات اهتمت بذكر رجال المدينة الواحدة امعانا في الضبط والتدقيق ، لان من يكتبها عالم من ابناء تلك البلدة • ومن تلك المصنفات :

تاريخ واسط لابي الحسن اسلم بن سهل (بحشل) الواسطي ت سنة ٢٨٨هـ/ ٩٠٠م • وتاريخ الحمصيين لاحمد بن محمد بن عيسى البغدادي (القرن الثالث) • وكتاب الجزيرة وكتاب الرقة كلاهما لابي عروبة الحسين بن محمد الحراني ت سنة ٣١٨هـ / ٩٣٠م • وطبقات العلماء والمحدثين من اهل الموصل لابي زكريا يزيد بن محمد الازدي ت سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م • وكتاب في محدثي بغداد وكتاب تاريخ الموصل كلاهما لابي بكر مجمد بن عمر ابن الجعابي ت سنة ٣٥٥هـ/٩٦٥م • وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ت سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠م ، وهو من اجل الكتب وأعودها فائدة ، ذكر فيه رجالها ومن ورد اليها، وضم اليه فوائد جمة • ذكر فيه الثقات والضعفاء والمتروكين • وممن ذيل عليه الحافظ ابو عبدالله محمد بن سعيد المعروف بابن الدبيثي الواسطي ، المتوفى ببغداد سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م •

كتب الرجال عند الشيعة : وصنف الشيعة منذ عهد مبكر الكتب في علم الرجال منها : كتاب الرجال لعبدالله بن جبلة بن حيان بن الحر الكناني ت سنة ٢١٩هـ / ٨٣٤م • والرجال للحسن بن علي بن فضال ت سنة ٢٢٤هـ/ ٨٣٨م • والطبقات لاحمد بن محمد ، ابي جعفر البرقي الكوفي ت سنة ٢٧٤هـ/ ٨٨٧م • والرجال لعلي بن احمد العلوي العقيقي الذي قدم بغداد سنة ٢٩٨هـ / ٩١٠م والرجال لعلي بن الحسن بن علي بن فضال • والرجال لمحمد ابن يعقوب ، ابي جعفر الكليني ت سنة ٣٢٩هـ / ٩٤٠م • والتاريخ الكبير لابي العباس احمد بن محمد بن سعيد (بن عقدة) الكوفي ت سنة ٣٣٢ هـ / ٩٤٤م • واخبار المحدثين لعبد العزيز بن يحيى الجلودي البصري • وكتاب الرجال المختارين من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لمحمد بن علي بن موسى بن بابويه القمي ت سنة ٣٨١هـ / ٩٩١م • وكتاب الزيادات على ابي العباس بن سعد في رجال جعفر بن محمد ، وكتاب الرجال الذين رووا عن ابي عبدالله ، وكلاهما لاحمد بن محمد بن نوح السيرافي البصري • وكتاب لاشتمال على معرفة الرجال، ذكر فيه من روى عن كل امام ، مختصر ، وكتاب

من روى الحديث في بني عمار بن ياسر ، وكلاهما لاحمد بن محمد بن عبيد الله الجوهري البغدادي سنة ٤٠١هـ / ١٠١٠ م .

واهم الكتب الرجالية المعمول عليها اربعة وهي :

١ ــ معرفة الناقلين عن الائمة الصادقين لابي عمرو بن عمر الكشي من علماء القرن الرابع .

٢ ــ كتاب الرجال لاحمد بن علي النجاشي ت سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨ م .

٣ ــ كتاب الرجال لشيخ الطائفة ابي جعفر محمد بن الحسين الطوسي ت سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧ م .

٤ ــ كتاب الفهرست للطوسي ايضا .

١١ ــ تواريخ الوفيات :

صنف المحدثون كتبا خاصة متضمنة ذكر سني الوفيات ، لاهميتها في نقد الرواية وفضح الكذابين . قال سفيان الثوري : (لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ) . ومن مصنفاتهم : كتاب الوفيات لعبدالباقي ابن قانع البغدادي ت سنة ٣٥١ هـ/٩٦٢ م . والسابق واللاحق في تباعد ما بين وفاة الراوين عن شيخ واحد ، للخطيب البغدادي . ودر السحابة في وفيات الصحابة للصغاني رضي الدين البغدادي ت سنة ٦٥٠ هـ/١٢٥٢ م . والتكملة لوفيات النقلة للحافظ المنذري ت سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م .

١٢ ــ المعاجم :

والمعجم في اصطلاح المحدثين : الكتاب الذي تذكر فيه الاحاديث على ترتيب الصحابة او الشيوخ او البلدان او غير ذلك ، والغالب ان يكون مرتبا على حروف الهجاء . ومن مصنفات هذا النوع : معجم الصحابة لابي الحسين ابن قانع ولابي يعلى احمد بن علي الموصلي ت سنة ٣٠٧ هـ/٩١٩ م .

وللطبراني ابي القاسم ت سنة ٣٦٠هـ/٩٧٠م المعجم الكبير الفه في اسماء الصحابة على حروف المعجم ، والمعجم الاوسط الفه في اسماء شيوخه وهم

قريب من الفي رجل ، والمعجم الصغير خرج فيه عن الف شيخ يقتصر فيه غالبا على حديث واحد عن كل واحد من شيوخه • ومعجم الشيخ لابي بكر احمد بن ابراهيم الاسماعيلي ت سنة ٣٧١هـ/٩٨١م ، ولابي نعيم الاصبهاني وهو في شيوخه ، ولاحمد بن محمد المعروف بابن الاعرابي البصري ت سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م وهو في شيوخه • ولابي طاهر احمد بن محمد السلفي ثلاثة معاجم : معجم لمشيخة اصبهان ، وآخر لمشيخة بغداد ، وآخر لباقي البلاد سماه معجم السفر • ولأبي سعد عبدالكريم بن السمعاني : معجم الشيوخ ، ومعجم البلدان ، والتحبير في المعجم الكبير •

١٣ ــ كتب المشيخة :

وهي التي تشتمل على ذكر الشيوخ الذين لقيهم المؤلف وأخذ عنهم ، او اجازوه وان لم يلقهم • ومن هذه الكتب : مشيخة ابي طاهر احمد بن محمد السلفي ، سمعها من خلائق بعدة مدائن جمع فيها الجم الغفير مع فوائد لا تحصى • ومشيخة الشيخ شهابالدين عمر بن محمد السهروردي البغدادي ت سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م •

اصول الحديث :

لم تكن المصنفات الاولى في بعض علوم الحديث منفصلة عن اصول الفقه ، فالامام الشافعي ت سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م حين كتب (الرسالة) وهي اول كتاب مدون في علم اصول الفقه تناول بعض قواعد علم اصول الحديث، فتحدث عن خبر الآحاد ، وشروط صحة الحديث ، وعدالة الراوي ، ورد الخبر المرسل والمنقطع •

وتتابع ظهور المصنفات : فكتب علي بن المديني البصري ت سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨م كتابيه اصول السنة ومذاهب المحدثين • ثم كتب مسلم في مقدمة صحيحه بعض اصول الحديث • ثم كتب ابو محمد الحسن الرامهرمزي ت سنة ٣٦٠هـ/٩٧٠ م كتابه المحدث الفاصل بين الراوي والواعي ، الذي عد اول

كتاب جامع في اصول الحديث • وكتب الحاكم النيسابوري ت سنة ٤٠٥هـ/ ١٠١٤ م (معرفة علوم الحديث) • وصنف الخطيب البغدادي ت سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠ م عدة كتب في هذا العلم مثل (الكفاية في علم الرواية) والجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع ، وشرف اصحاب الحديث ، وتقييد العلم • حتى قال ابن نقطة : (كل من انصف علم ان المحدثين بعد الخطيب عيال على كتبه) •

وكثرت بعد ذلك المؤلفات فكان اجمع كتاب فيها مقدمة ابن الصلاح الشهرزوري ت سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥ م جمع فيه كثيرا من اقوال من تقدموه مع التحرير البديع ، فعكف عليه طلاب العلم بالدرس والتعليق والاختصار •

وقد افرد بعض العلماء بالتصنيف بعض علوم الحديث منها :

علم علل الحديث

يبحث هذا العلم عن الاسباب الخفية الغامضة ، من حيث قدحها في الحديث ، كوصل منقطع ، ورفع موقوف ، وادخال حديث في حديث، او الزاق سند بمتن •

قال الحاكم : (وانما يعل الحديث من اوجه ليس للجرح فيها مدخل ، فان حديث المجروح ساقط واه • وعلة الحديث : يكثر في احاديث الثقات ان يحدثوا بحديث له علة ، فيخفى عليهم علمه ، فيصير الحديث معلولا والحجة فيه في علم علل الحديث ــ عندنا الحفظ والفهم والمعرفة لا غير) لذلك حرص العلماء على جمع طرق الحديث وعلى لقاء الائمة الحفاظ والسماع عنهم والمذاكرة بين يديهم والعرض عليهم •

ومن المصنفات في هذا العلم : كتاب التاريخ والعلل ليحيى بن معين البغدادي ت سنة ٢٣٣هـ/٨٤٧ م • وعلل الحديث لاحمد بن حنبل ت سنة ٢٤١ هـ/٨٥٥ م • والمسند المعلل ليعقوب بن شيبة

البصري ت سنة ٢٦٢ هـ/٨٧٥ م . والعلل للبخاري ومسلم والترمذي . وعلل الحديث للحافظ عبدالرحمن بن ابي حاتم الرازي ت سنة ٣٢٧هـ/٩٣٨م بمجلدين . والعلل الواردة في الاحاديث النبوية للدارقطني البغدادي ت سنة ٣٨٥هـ/٩٩٥ م ، وهو اجمع ما صنف في علل الحديث مرتب المسانيد في اثني عشر مجلدا .

علم غريب الحديث :

وغايته بيان ما يخفى معناه من لفظ الحديث الشريف ، كي يتم استنباط الحكم منه . والرسول صلى الله عليه وسلم افضح العرب ، وكان اذا خاطبهم على اختلاف قبائلهم ولهجاتهم خاطبهم بما يفهمون ، فاذا غرب من كلامه شيء سألوه فأجاب . ولكن حين دخل الاسلام الاعاجم ، وتعلموا شيئا من العربية نشأت اجيال جديدة بعد حين ، وجدت في الفاظ الحديث مايغرب بحكم اعجميتها ، فاحتاجت الى من يفسرها . فبدأ العلماء يهتمون بشرح الحديث الشريف، حتى قال الامام عبدالرحمن بن مهدي البصري (لو استقبلت من امري ما استدبرت لكتبت بجنب كل حديث تفسيره) .

وممن صنف في هذا العلم : النضر بن شميل المازني البصري البغدادي ت سنة ٢٠٣هـ/٨١٨م . وابو عبيدة معمر بن المثنى البصري البغدادي ت سنة ٢١٠هـ/٨٢٥م . ومحمد بن المستنير ، قطرب البصري ت سنة ٢٠٦هـ/٨٢١م. وابو عمرو الشيباني الكوفي اسحاق بن مرار ت سنة ٢١٠هـ/٨٢٥م . وابو زيد الانصاري سعيد ابن اوس ت سنة ٢١٥هـ/٨٣٠م . وعبدالملك بن قريب الاصمعي البصري البغدادي ت سنة ٢١٦هـ/٨٣١م . وابو عبيد القاسم بن سلام الهروي البغدادي ت سنة ٢٢٤ هـ/٨٣٨ م بكتابه (غريب الحديث والاثار) . وابن الاعرابي الكوفي محمد بن زياد ت سنة ٢٣١هـ/٨٤٥م . وابو جعفر محمد بن حبيب البغدادي ت سنة ٢٤٥هـ/٨٥٩م . وابن قتيبة ابو محمد عبدالله بن مسلم الكوفي البغدادي ت سنة ٢٧٦هـ/٨٨٩م بكتابه

(غريب الحديث) • وابو محمد سلمة بن عاصم الكوفي المتوفى بعد سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م • وابو العباس محمد بن يزيد المبرد البصري ت سنة ٢٨٥ هـ • وابو العباس احمد بن يحيى ثعلب الكوفي ت سنة ٢٩١هـ/٩٠٣م • وابو محمد القاسم بن محمد الانباري ت سنة ٣٠٤هـ/٩١٦م وابنه ابو بكر محمد ت سنة ٣٢٨هـ/٩٣٩م • وابن دريد البصري ت سنة ٣٢١هـ/٩٣٣م • وابن درستويه عبدالله بن جعفر البغدادي الفسوي ت سنة ٣٤٧هـ/٩٥٨م • وجارالله الزمخشري المكي البغدادي ت سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣ م بكتابه (الفائق في غريب الحديث) • وابن الجوزي البغدادي ت سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠ م •

واجمع كتاب في هذا الباب هو (النهاية في غريب الحديث والاثر) لمجدالدين ابن الاثير الجزري الموصلي ت سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م حيث جمع ما الف قبله ، وذكر الالفاظ الغريبة على حروف المعجم ، ثم الحديث الذي ورد فيه ، وفسر معناه • وانحصرت الجهود بعد ذلك بالتذييل على النهاية واختصارها •

علم مختلف الحديث ومشكله :

ويسمى مشكل الحديث ، واختلاف الحديث ، وتأويل مختلف الحديث ، وتلفيق الحديث • وهذا العلم يعني بالاحاديث التي ظاهرها التعارض فيجمع بينها اما بتقييد مطلقها ، او بتخصيص عامها ، او بحملها على تعدد الحادثة • ويبين ما يشكل من الحديث وان لم يعارضه حديث آخر •

وهذا العلم يحتاج اليه المحدثون والفقهاء والعلماء فاهتموا به وازالوا الشبهات التي اثارها بعض الفرق كالمشبهة •

ومن التصانيف في هذا العلم : اختلاف الحديث للامام الشافعي ت سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م ، ذكر فيه جملة من الاحاديث المختلفة وجمع بينها • وتأويل مختلف الحديث لابن قتيبة الدينوري الكوفي البغدادي ت سنة ٢٧٦هـ/٨٨٩م ، وضعه ردا على من اتهم اصحاب الحديث برواية الاحاديث المتناقضة المشكلة • وفي هذا كتاب محمد بن جرير الطبري ت سنة ٣١٠هـ/٩٢٢ م •

علم ناسخ الحديث ومنسوخه :

النسخ في اصطلاح الاصوليين : هو رفع الشارع حكما شرعيا بدليل شرعي متراخ عنه . ومثاله : قوله صلى الله عليه وسلم (كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروها فانها تذكركم الآخرة) .

فاذا تعارض حديثان ، ولم يمكن التوفيق بينهما ، فما ثبت تاريخ تقدمه كان منسوخا ، وماتأخر تاريخه كان ناسخا .

وكان الائمة يحضون الطلبة على تعلمه ، وصنفوا كثيرا من الكتب منها : الناسخ والمنسوخ لاحمد بن حنبل ، ولابي داود صاحب السنن ، ولابي الفرج ابن الجوزي . وكتاب ناسخ الحديث ومنسوخه للحافظ ابي بكر احمد بن محمد الاثرم ت سنة ٢٦١هـ/٨٧٤م صاحب الامام احمد .

ومن اجمعها : ناسخ الحديث ومنسوخه لابي حفص عمر المعروف بابن شاهين البغدادي ت سنة ٣٨٥هـ/٩٩٥م . والاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار لابي بكر محمد بن موسى الحازمي المتوفى ببغداد سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م ، جمع فيه جهود من سبقوه .

ومعرفة مناسبات الحديث واسباب وروده تسهل معرفة الناسخ والمنسوخ ومممن صنف في اسباب الحديث : ابو حفص العكبرى ، وهو شيخ القاضي ابي يعلى محمد بن الحسين الفراء ت سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٥ م .

آداب رواية الحديث وكتابته :

للتحديث مكانة عالية بين الناس اذ انه يتعلق بالكلام على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبليغ احكام الشريعة الى الناس ، لذلك تحدث العلماء عن الآداب التي يلتزمها المحدث التي منها : تصحيح النية ، وتطهير القلب من دنس الدنيا ، وكثرة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم

كلما ذكر ، وقصد الانتفاع والنفع للغير • ومتى احتيج الى الشخص في روايته فليتصدّ لذلك • والاقبال على القوم وعدم ايراده الحديث سردا يمنع السامع من ادراك بعضه •

كما تحدثوا عن آداب طالب الحديث ، وآداب كتابة الحديث ، ومجالس الحديث ، ومجالس الاملاء •

ومن اقدم ماصنف في هذا الباب وأشهره كتاب (الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع) للخطيب البغدادي ت سنة ٤٦٣ هـ/١٠٧٠ م وكتابه ايضا (الكفاية في معرفة اصول علم الرواية) • وللامام ابي سعد عبدالكريم السمعاني ت سنة ٥٦٢هـ/ ١١٦٦ م كتاب (ادب الاملاء والاستملاء) •

والناظر الى هذه الكتب ، وهي غيض من فيض ، يرى ذلك الاهتمام العظيم المنقطع النظير الذيقام به علماؤنا الاوائل في سبيل حفظ الحديث النبوي الشريف • فقدموا للباحثين الطريقة السليمة في التثبت والبحث العلمي في العلوم النقلية خاصة • وتلك جهود تتقاصر عنها الهمم مهما عظمت لولا عناية الله سبحانه بحديث رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم •

فكانت تلك الدراسات وذلك الاهتمام ذات اثر كبير في نشأة بعض العلوم وتطورها كالفقه وتطور مدرسة اهل الحديث ، والجغرافية حيث رحل العلماء الى البلدان لتحصيل الاسانيد العالية ولقاء الحفاظ فكونوا كثيرا من المادة الجغرافية • وعلوم اللغة حيث عني المحدثون بشرح الغريب والحفاظ على اللغة بعد دخول الاعاجم • والتاريخ الذي عدوه من فنون الحديث ، فكتبت المغازى والسير ، وعلم الرجال ، ودرسوا احوال الرواة ونظموا كتبهم على الطبقات والانساب والبلدان والوفيات وحروف المعجم ، وتخصصت الكتب فبعضها للصحابة واخرى للتابعين ثم الضعفاء ثم الثقات •

وكانت مظاهر ذلك التأثير في :

آ ـ مناهج البحث العلمي الذي وصل الى الذروة عند المحدثين .

ب ـ ازدياد اثر الفكر الديني حين اعتمد الحديث اساسا في البحث بدلا مما يتجه اليه ارباب الفرق الكلامية . وكان بعض الخلفاء والامراء الذين يتقربون الى الناس معنيين بسماع الحديث وروايته .

جـ ـ الوحدة الفكرية حين انطلق المسلمون ينشرون دينهم ولغتهم في الافاق ، ويتصل الشيوخ بعضهم بالاخر بالرحلة والتدريس والسماع .

وبما تقدم تتضح جهود المحدثين العراقيين الجليلة المضنية السخية ، ولا غرابة فان العراق منذ اوائل الفتح الاسلامي مركز اشعاع فكري ، وحين تسلمت بغداد زمام قيادة الامة وردها العلماء من كل حدب وصوب ، فاثمرت فيها تلك الجهود وبلغت الغاية .

المصـــادر

- اثر دراسة الحديث في تطور الفكر العربي ، د. بشار عواد معروف ــ بحث في (رحلة في الفكر والتراث) مطبعة جامعة بغداد سنة ١٩٨٠ .
- اختصار علوم الحديث ــ ابن كثير (ت سنة ٧٧٤) . تحقيق احمد محمد شاكر الذي شرحه بكتاب الباعث الحديث . ط ٣ سنة ١٩٥٨ مصر .
- ارشاد الفحول الى تحقيق الحق من علم الاصـــول ــ محمد بـــن علـــي الشوكاني ت سنة ١٢٥٠ الطبعة الاولى ــ مصر سنة ١٩٣٧ .
- اصول الحديث ــ علومه ومصطلحه ــ د. محمد عجاج الخطيـــب . دار الفكر ط ٢ سنة ١٩٧١ .
- الالماع الى معرفة اصول الرواية وتقييد السماع للقاضي عياض ت سنة ٥٤٤ تحقيق السيد احمـــد صـــقر . ط ١ ســـنة ١٩٧٠ مطبعة السنة المحمديـــة ــ القاهـــرة .
- امثال الحديث مع تقدمة في علوم الحديث ــ د. عبدالمجيد محمود . ط ١ مكتبة دار التراث بالقاهـــرة . سنة ١٩٧٥ م .
- بحوث في تاريخ السنة المشرفة ــ د. اكرم العمري ط ٢ مطبعة الارشاد ــ بغـــداد . سنة ١٩٧٢ م .
- تأويل مختلف الحديث لابي قتيبة ت سنة ٢٧٦ . صححه محمد زهـــري النجار . الطبعة المصورة ــ دار بيروت على الطبعة المصرية . سنة ١٩٧٣ م.
- التبصرة والتذكرة (الفية) وشرحهـــا ، وكلاهما لزين‌الدين عبدالرحيم العراقي ت سنة ٨٠٦ هـ . المطبعة الجديدة ــ فاس سنة ١٣٥٤ هـ .

- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي ــ السيوطي ت سنة ٩١١ ط ٢ سنة ١٩٦٦ ــ مصر .
- تذكرة الحفاظ ــ شمس الدين محمد بن احمد الذهبي حيدر آباد ــ الدكن . ط ٣ سنة ١٣٧٥ هـ .
- التقييد والايضاح شرح مقدمة ابن الصلاح العراقي ت سنة ٨٠٦ تحقيق عبدالرحمن محمد عثمان ط ١ سنة ١٩٦٩ .
- تنزيه الشريعة المرفوعة عن الاخبار الشنيعة الموضوعة لابن عراق ت سنة ٩٦٣ هـ .

تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف وعبدالله محمد الصديق ط ١ القاهرة .
- جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ت سنة ٤٦٣ . صححه عبدالرحمن محمد عثمان . ط ٢ القاهرة سنة ١٩٦٨ م .
- الحديث والمحدثون ــ د . محمد محمد ابو زهو ط ١ بمصر سنة ١٣٧٨ .
- الخلاصة في اصول الحديث ــ الحسين الطيبي ت سنة ٧٤٣ تحقيق صبحي السامرائي مطبعة الارشاد ــ بغداد ، ١٩٧١ م .
- الرحلة في طلب الحديث ــ الخطيب البغدادي ت سنة ٤٦٣ تحقيق نورالدين عتر دار الكتب العلمية ــ لبنان . ط ١ سنة ١٩٧٥ م .
- الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة ــ محمد بن جعفر الكتاني ت سنة ١٣٤٥ ط ٣ سنة ١٩٦٤ ــ مطبعة دار الفكر بدمشق .
- السنة قبل التدوين ــ د. محمد عجاج الخطيب دار الفكر ط ٢ سنة ١٩٧١ .
- السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي ــ د. مصطفى السباعي الدار القومية للطباعة والنشر .
- السنن الاربعة : ابو داود ، والترمذى ، والنسائي ، وابن ماجه .
- سنن الدارمي ت سنة ٢٥٥ هـ .

طبع بعناية محمد احمد دهمان ــ طبعة مصورة .
- صحيح البخاري .
- صحيح مسلم بن الحجاج .

- الطبقات الكبرى لابن سعد ــ دار صادر ببيروت .
- علم اصول الفقه ــ عبدالوهاب خلاف ــ ط ٧ سنة ١٩٥٦ القاهرة .
- علوم الحديث ونصوص من الاثر ــ قحطان عبدالرحمن الدوري ورشدي عليان وكاظم الراوي ــ مطبعة جامعة بغداد سنة ١٩٨٠ .
- غريب الحديث لابي عبيد القاسم بن سلام ط ١ ــ الهند ١٩٦٤ .
- فتح الباري شرح صحيح البخاري ــ لابن حجر العسقلاني المطبعة السلفية ــ مصر .
- فتح الباقي على الفية العراقي للشيخ زكريا الانصاري ت سنة ٩٢٥ مطبوع بهامش التبصرة والتذكرة .
- قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث ــ محمد جمال الدين القاسمي ت سنة ١٩١٤ . تحقيق محمد بهجة البيطار ط ٢ سنة ١٩٦١ .
- الكفاية في علم الرواية ــ الخطيب البغدادي ت سنة ٤٦٣ ط ١ مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٧٢ .
- اللآلي المصنوعة في الاحاديث الموضوعة ــ للسيوطي ت سنة ٩١١ المكتبة التجارية بمصر .
- محاسن الاصطلاح للبلقيني ــ تحقيق بنت الشاطىء مطبعة دار الكتب سنة ١٩٧٤ بمصر .
- المحدث الفاصل بين الراوي والواعي ــ الرامهرمزي ت سنة ٣٦٠ تحقيق د. محمد عجاج الخطيب ــ الطبعة الاولى سنة ١٩٧١ ــ دار الفكر .
- مشروعية تدوين الحديث واصوله الاولى ــ د. محمود المظفر ــ بحث منشور في مجلة كلية الفقه العدد ١ السنة ١٩٧٩ .
- معرفة علوم الحديث للحاكم النيسابوري ــ منشورات المكتب التجاري بيروت وهي طبعة مصورة .
- مقدمة تحفة الاحوذى شرح جامع الترمذى ــ ابو العلى المباركفورى ط مصورة على طبعة الهند الحجرية .
- مقدمة ابن الصلاح الشهرزوري . وهي مع التقييد والايضاح ومع محاسن الاصطلاح .
- نزهة النظر شرح نخبة الفكر في مصطلح اهل الاثر ــ ابن حجر العسقلاني ت سنة ٨٥٢هـ بيروت ــ الناشر : المكتبة العلمية بالمدينة المنورة .

الفصل الثالث

الفقه الاسلامي

د. رشدي محمد عليان

كلية الشريعة ـ جامعة بغداد

تمهيـــد

ما ان تم تحرير العراق حتى سارع مستوطنوه الى الدخول في الاسلام فتكون منهم ومن العرب المحررين له والقادمين اليه مجتمع جديد ، ونشأت فيه مؤسسات دينية واجتماعية بغية وضع التشريعات الكفيلة بتنظيمه وتوجيهه نحو التطور والازدهار ، فكان مجتمعا متميزا بمقوماته البشرية والفكرية ، واسرع الى اقليم العراق العمران ، ونشأت فيه امصار جديدة غدت موئـــل العلماء وقبلة طلاب العلم والمعرفة ، ولم يمض طويل وقت حتى تبوأ الصدارة، وامتدت مدنيته وتشريعاته لتصل الى كل إقليم في الدولة العربية ، وبرز في مؤسسته الدينية اتجاهات فكرية وتشريعية ومذاهب فقهية اغنت المجتمعات العربية والاسلامية .

وقد خصصت هذه الدراســة لتناول الفقه مؤسسة دينية منذ تحريــر العراق حتى سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨ م ، وتضمنت اربعة مباحث •

خصص المبحث الاول منها لدراسة الفقه منذ التحرير حتى اوائل القرن الثاني للهجرة وهو «عهد النشوء والتأسيس» والمبحث الثاني لدراسته حتى منتصف القرن الرابع تقريبا وهو « عهد الارتقاء والتدوين » وخصص المبحث الثالث لدراسة المذاهب الفقهية ، والمبحث الرابع لدراسة الفقه حتى سقوط بغــداد وهو « عهد الركود والتقليد »

عهد النشــوء والتأسيس

بعد تحرير العراق ،واستقرار جموع من المحررين فيه ، والقادمين من قلب شبه جزيرة العرب اليه ودخول كثير من أهله ومن مستوطنيه من غير العرب في دين الاسلام ، ظهرت حاجة الى تبيان العقيدة والشريعة التي جــاء بها هذا الدين ، والمبادىء والقيم التي تقوم عليها فانبرى لهذه المهمة الجليلة نفر من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن رافقوا معارك التحرير ، وممن قدموا بعيد ذلك لهذا الغرض •

وقد قام هؤلاء « الاصحاب » بمهمتهم خير قيام ، حيث تولوا نشــر آي القرآن الكريم ، وما حفظوا من السنة النبوية المشرفة وأخذوا يفسرون لهم حكم الاسلام فيما يطرأ عليهم من الحــوادث ويجد من الوقائع التي لانصّ فيها •

وقد اعتمد هؤلاء الرواد في بيانهم على القرآن والسنة والاجتهاد ، حيث كانوا اذا عرضت لهم حادثة ، أو وقعت واقعة ، نظروا في القرآن ، فاذاوجدوا فيه نصا يدل على حكمها وقفوا عنده وقصروا جهودهم على فهمه ، ومعرفة المراد منه ، ومن ثم تطبيقه عليها •

واذا لم يجدوا في القرآن نصا يدل على حكم ماعرض لهم من الحوادث وعلموا من السنة مايدل على حكمها ، وقفوا عنده وطبقوه عليهـا .

واذا لم يجدوا نصا في القرآن او السنة يدل على حكم ماعرض لهم ، ونزل بهم ، اجتهدوا حكمه ، وكانوا في اجتهادهم يعتمدون على ملكتهـم التشريعية التي تكونت لهم من خلال تدارسهم للقرآن والسنة ، ووقوفهـم على أسرار التشريع ومبادئه العامة .. فتارة كانوا يقيسون مالا نص فيه على ما فيه نص وتارة كانوا يشرعون ما تقضي به المصلحة،وبهذا كان في اجتهادهم متسع لسد حاجات الناس وتحقيق مصالحهم .

وكانت حجتهـم في الرجوع الى اجتهادهم ماعلموه مـن الرسـول صلى الله عليه وسلم حيث كان يرجع الى اجتهاده اذا لم ينزل عليه بالتشريع وحي الهي ، وما رووه من اقراره لبعض صحابته حيث اجتهدوا آراءهم في حوادث نزلت بهم في اثناء بعدهم عنه عليه السلام ولم يكن لديهم فيها نص، ومافهموه من تعليل بعض الاحكام في نصوص القرآن والسنة فانهـم فهموا من هذا ان المقصـود من تشـريع الاحكام تحقيق مصـالح الناس وانـه كلما دعت المصلحة الى التشريع وجب على المسلمين أن يشرعوا لتحقيقهـا وبذلك عد الاجتهاد مصدرا ثالثا للتشريع بعد القرآن والسنة النبوية وكانت مناهجهم فيه مختلفة :

فمنهم من كان يجتهد في حدود القرآن والسنة لا يعدوهما ومنهم من كان يجتهد بالرأي حيث لا نص وكانت مناحي الرأي مختلفة كذلك فمنهم من كان يجتهد بالقياس ومنهم من كان يجتهد بالمصلحة .

وعلى كل حال فقد وجد الاجتهاد بالرأي ونقل عن كثير من كـبار الصحابة قضايا افتوا فيها برأيهم وكان حامل لواء هذا المنحى عمر بن الخطاب رضي الله عنه واشهر من نحا نحوه واتبع طريقته عبد الله بن مسعود في العراق

وكان عمر قد اوفـده اليها معلما وقاضيا فتأثر بمنحاه هذا كثير من أهلها ومن ثم أزدهر هذا المنحى في العراق وتحول فيما بعد الى مدرسة عرفت بمدرسة الرأي وكان لذلك اسباب اخرى من أهمها :

١ ـ قلة رواية العراقيين للسنة النبوية واشتراطهم فيما يؤخذ به من الحديث شروطا لا يسلم معها الا القليل .

٢ ـ ان الوقائع والحوادث التي تحتاج الى تعرف احكامها في العراق اكثر منها في غيره لانه قطر متمدن ووارث حضارات عريقة . والمدنية تضع امام المشرع جزئيات كثيرة تحتاج الى التشريع لا يقاس بها القطر البدوي وما في حكمه .

وقد تميزت مدرسة الرأي هذه بكثرة تفريع الفروع حتى الخيالي منها والذي الجأهم الى ذلك كثرة مايعرض لهم من الحوادث نظراً لمدنيتهم ثم ساقهم ذلك الى الفرض والتقدير فاكثروا من (أرايت لو كان كذا ؟)فيسألون المسألة ويبدون فيها حكما ثم يفرعونها بقولهم (لو كان كذا) ويقلبونها على سائر وجوهها الممكنة وغير الممكنة احيانا وكان عملهم هذا سببا في تضخم الفقه وكثرة مسائله مما جعل الفقهاء الاخرين يبدون حكمهم فيها على اصول مذاهبهم .

وقد تولى التشريع والافتاء بعد جيل الرواد الصحابة نخبة ممن تتلمذوا عليهم سموا بـ « التابعين » وقد وجد هؤلاء ثروة من النصوص وثروة من الاجتهاد الفقهي فكان لهم عملان اولهما : جمع هاتين الثروتين فجمعوا المروي من أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) وجمعوا اقوال الصحابة واجتهاداتهم ومما سهل هذا ان كل تابعي كان تلميذا لصحابي أو اكثر، ومن الصحابة من كان له تلاميذ كثر ، فعبدالله بن مسعود تخرج عليه كثيرون

منهم ابراهيم النخعي ، وعلقمة بن قيس ، وحماد بن ابي سليمان شيخ ابي حنيفة النعمان • وثانيهما : اجتهادهم فيما لم يعرف فيه عن الصحابة رأي ، وليس فيه نص من قرآن او سنة، فكان لهم اجتهاد وراء ماينقلون من احاديث وفتاوى ولم يخرجوا في اجتهادهم عن منهاج من سبقهم من الصحابة، بل انهم عدوا اجتهادات الصحابة سنة واجبة الاتباع وليست مجرد رأي،وذلك لانهم الذين تلقوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم فهم اقدر الناس على ماجاء به ,اجتهادهم اقرب الى التلقي منه الى الاستنتاج العقلي المجرد • وقد عرف الحكم الصادر عن اجتهاد جماعتهم بـ « الاجماع » وعد حجة في ذاته ، وأحد مصادر الفقه والتشريع • وبهذا اصبحت مصادر التشريع واصول الفقه اربعة : القرآن والسنة والاجماع والرأي •

ابرز الفقهاء والمفتين

تصدى للتشريع والافتاء كثير من رجالات هذا العهد من الصحابة والتابعين ، وكان أبرزهم في العراق : عبدالله بن مسعود الهذلي (ت ٣٢هـ/٦٥٢م) وعلي بن ابي طالب (ت ٤٠هـ/٦٦١م) وعلقمة بن قيس النخعي (ت ٦٢هـ/٦٨١م) ومسروق بن الاجدع الهمداني (ت ٦٣هـ/ ٦٨٢م) وشريح بن الحارث الكندي (ت ٧٨ هـ/٦٩٧ م) وابو العالية رفيع ابن مهران الرياحي (ت ٩٠ هـ/٧٠٨ م) وعبيدة بن عمرو السلماني المرادي (ت ٩٢هـ/٧١٠م) وانس بن مالك (ت ٩٣هـ/٧١١م) وابو الشعثاء جابر بن زيد (ت ٩٣هـ/٧١١م) وسعيد بن جبير (ت ٩٥هـ/٧١٣م) وابراهيم بن يزيد النخعي (ت ٩٥هـ/ ٧١٣م) والاسود بن يزيد النخعي (ت ٩٥هـ/٧١٣م) وعامر بن شراحيل الشعبي (ت ١٠٤هـ/٧٢٢ م) والحسن بن ابي الحسن البصري (ت ١١٠هـ/٧٢٨م) ومحمد بن سيرين (ت ١١٠هـ/٧٢٨م) وقتادة بن دعامة السدوسي (ت ١١٨هـ/٧٣٦م) •

هؤلاء كانوا ابرز الذين كانوا يفتون الناس، ويروون الحديث عن الرسول (عليه السلام) ولم يكن عرف بين الناس الانتساب الى فقيه معين ،يعمل بما ذهب اليه من رواية او رأي ، وانما كان هؤلاء المفتون معروفين بالفقه ورواية الحديث ، فكان المستفتي يذهب الى من شاء منهم فيسأله عما نزل به فيفتيه، وربما ذهب مرة اخرى الى مفت اخر ، وكان القضاة يقضون بين الناس بما يفهمونه من القرآن والسنة والرأي ان ظهر لهم وربما استفتوا من يبلدهم من الفقهاء المعروفين .

الآثار والمميزات

خلف رجال هذا العهد ثروة مثرية في التشريع والفقه ، اتخذها من جاء بعدهم اساسا في التشريع وفي وضع اصول البحث الفقهي ومناهجه ، كما تميز بنشوء بعض الظواهر التي كان لها انعكاساتها على الحركة العلمية عامة والحركة التشريعية خاصة وهي :

اولا ـ الآثار

أ ـ شرح تشريعي لنصوص الاحكام في القرآن والسنة ، يعد اوثق مرجع لتفسيرها وبيان اجمالها ووجوه تطبيقها ، ويتجلى هذا في كتب تفسير القرآن بالمأثور .

ب ـ جملة فتاوي اجتهادية في وقائع لانص فيها ، فأن المجتهدين منهم كانوا اذا لم يجدوا نصا في القرآن او السنة على حكم الواقعة ، اجتهدوا للوقوف على حكمها وبهذا الاجتهاد شرعوا احكاما كثيرة في وقائع عديدة .

ثانيا ـ المميزات

أ ـ بدء الخلاف بين فقه الرأي ، وفقه الحديث ، وظهور انصار لكل منهما وغلبة انصار فقه الرأي ، فقد وجد في هذا العهد من يقف عند ظواهر

النصوص ولايتعداها كعامر بن شراحيل الشعبي محدث الكوفة وعالمها، ووجد من لايحجمون عن الرأي اذا لم يكن عندهم نص ، بل ربما ردوا بعض النصوص لمخالفتها لاصول الشريعة ، ولاسيما اذا عارضتها نصوص اخرى كابراهيم النخعي فقيه الكوفة ، وكان معاصرا للشعبي .

ب ــ ظهور عدد كبير من الفقهاء الموالي ، فقد دخل في الاسلام كثيرمن غير العرب ولا سيما من ابناء فارس ، وكانوا يعرفون بالموالي ، فجد فريق منهم في اتقان العربية وتعلم القرآن والسنة لدوافع كثيرة ، وظهر فيهم نبوغ ونباهة ، وشاركوا شيوخهم في الافتاء والتشريع ، ومن هؤلاء الحسن البصري ، ومحمد بن سيرين ، وسعد بن جبير .

جـ ــ انعكاس الانقسامات السياسية التي حدثت بين المسلمين بشأن الخلافة على الفقه والتشريع .. وذلك انه بعد ان وقع الخلاف السياسي الذي أثاره مقتل عثمان ، ومبايعة علي بالخلافة ، ومن ثم تحوله الى صراع ووقوع عدة معارك بين الفرقاء المتصارعين « الجمل ، صفين » واللجوء الى التحكيم ، واستيلاء معاوية على الخلافة .. نتج عن هذا كله ازمة ثقة ، واخذ انصار كل فريق يتحفظون على الاحاديث والاراء الفقهية التي ينقلها رجالات الفريق الاخر من الصحابة . فالخوارج تحفظوا على كل حديث رواه صحابي خاض غمار تلك الفتنة ، واخذوا بكل حديث روي عمن يرضونه من الصحابة ، واعتمدوا آراء علمائهم وفتاويهم ، ولهذا كان لهم فقه خاص والشيعة عولوا على الاحاديث والفتاوي التي رويت عن الائمة المعتمدين لديهم فقط ، وتحفظوا على كل ماعداها من احاديث وفتاوي وآراء ، وبهذا كان لهم فقه خاص . واما جمهور المسلمين فقد كانوا يحتجون بكل حديث صحيح رواه الثقات العدول بلا تفريق بين صحابي وصحابي ، ويعتدون بفتاوي الصحابة وآرائهم جميعاً .

د ــ انتهى هذا العهد ولم يدون فيه شيء من السنة أو الفقه ، ولم تتكون فيه مذاهب فقهية معينة ولكنه كان نواة طيبة ، واساسا صالحا لنمو الفقه وارتقائه ، وازدهار الحركة العلمية ، ونشاط التدوين ، وبروز نوابغ الفقهاء وتكون المذاهب الفقهية ، وشيوع العمل بها .

عهد الارتقاء والتدوين

ابتدأ هذا العهد في اوائل القرن الثاني للهجرة (القرن الثامن الميلادي) ، وانتهى فياواسط القرن الرابع للهجرة (اواسط القرن العاشر الميلادي) فهو بالتقريب ٢٥٠ سنة وفيه ارتقى الفقه ارتقاء عظيما ، واتسعت دائرته ، واتجه الفقهاء الى مالم تتهيأ لهم أسبابه ، فافرغوا جهدهم في ترتيب اشتاته ، وتنافسوا في ابراز مكوناته ، وتضافرت الجهود على ضبطه وتدعيم قواعده ، فأصبح الفقه ثروة طائلة وفيه نشط تدوين العلوم العربية والاسلامية وكان لحركة التدوين هذه أثر كبير في ازدهار الفقه ، والعمل على نشره وذيوعه ، فلقد استفاد الفقه كثيرا من تدوين العلوم الاخرى ، فأن العلوم كشبكة متصلة الاجزاء يخدم بعضها بعضا ، ويشد الواحد منها أزر الآخر ، ولاسيما الفقه فأنه اكثر اتصالا بالعلوم الاخرى من سواه ، هذا الى ان التدوين يسهل طريق البحث ويساعد على الرجوع الى العلوم مهما كثرت ويهيء للانسان ان يلم بالكثير من اشتات المسائل في قصير الوقت .

وبالجملة فقد كان للتدوين في هذا العهد شأن كبير ، فقد دونت السنة وهي المصدر الثاني للفقه بعد القرآن ، ووضع علم اصول الفقه ، وهوقواعد الاستنباط التي يسير عليها المجتهدون كما دون الفقه ، هذا فضلا عن تدوين علوم القرآن والكلام واللغة .

وفيه ظهر نوابغ القراء وأهل اللغة والتفسير والمحدثين والمتكلمين والفقهاء حتى لقد استحق هذا العهد بجدارة اسم « العهد الذهبي » لحركة

العلوم العربية والاسلامية • والاسباب التي ادت الى نمو الفقه الاسلامي ونشاط حركة الاجتهاد في هذا العهد كثيرة اهمها :

١ ــ ان حضارة العراق قد اتسعت وازدهرت ، فقد تحولت الخلافة عن بني امية الى بني العباس ، واستلزم ذلك تحول مركز الخلافة عن الشام الى العراق ، واسس أبو جعفر المنصور مدينة بغداد لتكون حاضرة للبلاد العربية والاسلامية ، وقد تأتق في بنائها بدرجة جعلتها تفوق في ذلك العصر جميع مدن العالم ، ولما تم تأسيسها حشر اليها العلماء والصناع والتجار من جميع الامصار فلم يكدينتهي عصره حتى صارت بغداد سيدة المدائن وحاضرة الحواضر • أضف الى ذلك ماكان في الكوفة والبصرة من حركة علمية ومن علماء وحكماء ، ناهيك عن اتساع رقعة الدولة ورعايتها لكثير من الشعوب المختلفة الاجناس والعادات والمعاملات والمصالح • كل ذلك كان له اثر كبير في حركة الفقه والاجتهاد لانه استنهض همم الفقهاء لاستنباط احكام لتلك الوقائع فأثرت هذه الحركة ثروة تشريعية ، أغنت الدولة العربية الاسلامية على سعة أرجائها ، وتجدد حضارتها ، وتنوع مصالحها ، ولم يقف الفقهاء عند ذلك ، وانما أخذوا يفرضون مالم يقع ، ويجتهدون في تعرف الاحكام لتلك الفرضيات حتى غدا المجتمع العربي والاسلامي محكوما بالفقه متصلا به •

٢ ــ اهتمام الخلفاء العباسيين بالفقهاء ورعايتهم لانتاجهم الفقهي • فقد كان الخلفاء يقربون الفقهاء ، ويهتمون بانتاجهم الفقهي ، ويوفرون لهم الحرية التامة للبحث العلمي ، ومن مظاهر ذلك مافعله الرشيد اذ طلب من ابي يوسف وضع تشريع مالي يفي بحاجة الدولة ، فاستجاب للطلب ، وألف كتاب « الخراج »

٣ ــ ان الذين تصدوا للبحث الفقهي والافتاء وجدوا طريق التشريع ممهدة وصعابه ميسرة لانهم وجدوا المصادر التشريعية في متناولهم ، ووجدوا

كثيرا من الوقائع والمشاكل قد عالجها سلفهم من قبلهم • فالقرآن مـدون ومنشور، والسنة مدون اكثرها منذ مطلع هذا العهـد • وكذلك فتاوى الصحابة والتابعين ، فاليسر الذي وجده مجتهدو هذا العهد في رجوعهـم الى القرآن والسنة وماخلفه سلفهم من ثروة فقهية كان من عوامل نشاطهم ، ووفرة انتاجهم •

٤ ـ بروز اعلام لهم مواهبهم واستعداداتهم ، وساعدتهم البيئة التي عاشوا فيها على استثمار هذه المواهب والاستعدادات فتكونت ملكة تشريعية لكثير من نوابغهم امثال ابي حنيفة ، والشافعي ، وابن حنبل وغيرهم مـن معاصريهم من المجتهدين واقتدروا بهذه الملكات على تنمية الفقه الاسلامي ، وسد الحاجة التشريعية للدولة وكان اكثر اعلام التشريع في هذا العهد يقومون بتدريس العلوم الاسلامية ورواية الحديث ، ومنهم من كان يتجر كأبي حنيفة ، ومنهم من ولي القضاء كأبن ابي ليلى وابي يوسف ، فلم يكن الاجتهاد وظيفة ينقطع لها الفقيه وانما كان واجبا يتصدى للقيام به من يأنس من نفسه القدرة عليه مع اشتغاله بوظيفته او تجارته او دراسته •

مصادر التشريـع

ترك الصحابة ثروة من الفقه بالنص عن النبي صلى الله عليه وسلم او بالتطبيق على ماعرفوا من مقاصد الاسلام ، وحمل ذلك العلم من بعدهم تلاميذ هم من التابعين ، وكان اولئك التابعون ينقلون السنة النبوية ، وينقلـون علم الصحابي الذي تخرجوا عليه ويعدون ما اجمع عليه الصحابة حجة قطعية لامناص من اتباعها وان اختلفوا كان لهم ان يختاروا من بينها ، ولايخرجـوا عنها ، وكان للتابعين مع ذلك اجتهاد فيما لانص فيه ، ولم يعرف لسلفهم من الصحابة رأي فيه •

وقد وقعت بينهم مناظرات حول مناهج الاجتهاد ، اسفرت عن بداية ظهور مناهج جديدة نمت من بعدهم حتى تكاملت في عهد الارتقاء والتدوين، على ايدي الائمة المجتهدين كأبي حنيفة ، وسفيان الثوري ، وابن ابي ليلى ، ومن تلاهم كالشافعي وأبي ثور وأحمد بن حنبل ، وداود الظاهري ، الذين جاءوا من بعد التابعين ، والتقت طلائعهم بهم ، وأخذوا عنهم ، ودرسوا الآثار ومناهج الاجتهاد عليهم ، فأبو حنيفة تلقى عن ابراهيم النخعي ، وعطاء بن ابي رباح وحماد بن سليمان ، وغيرهم من التابعين وقد احتدم الخلاف واشتد الحوار في هذا العهد حول مناهج الاجتهاد ومصادر التشريع ، وأدى ذلك الى تعدد المدارس الاجتهادية ، وتكون المذاهب الفقهية .

وقبل عرض أهم مادار حوله الخلاف اود ان انبه الى ان الاختلاف في الفروع الفقهية التي تكون محل نظر واجتهاد ، لا ضرر فيه ولامانع منه مادام اساسه طلب الحق ، ولو أدى ذلك الى خطأ، فقد صح ان النبي عليه السلام قال «اذا اصاب المجتهد فله اجران وان اخطأ فله أجر» ولأن تباين آراء المجتهدين في مثل هذه الامور الجزئية مما يدل على يسر الدين ، ويفتح باب التوسعة على الناس فيما يختارون ، يروى ان عمر بن عبد العزيز قال في ذلك «مايسرني باختلاف اصحاب رسول الله(صلى الله عليه وسلم) حمر النعم ، ولو كان رأيا واحد لكان الناس في ضيق » .

مدار الخلاف

المحت الى ان هذا العهد كان عهد تشريع واجتهاد ، ففيه تم تقعيد القواعد وتحديد مصادر الفقه ، ووضع مصطلحاته ، فهو بحق عهد صناعة الفقه وفيه جرت خلافات حادة ، ومناظرات شديدة حول مصادر التشريع ومناهج الاجتهاد واهم مادار حوله الخلاف هو :

١ ـ القرآن الكريم

لم يقع خلاف بين المجتهدين في ان القرآن عمدة التشريع ، ومصدره

الاساس وليس فيما اشتمل عليه من احكام خلاف في انها أصل الاسلام ، ومادته التي تكون منها ، وركنه الذي قام به ، وانما وقع خلاف بينهم حول قوة الدلالة في بعض الفاظ القرآن ، وفي دلالة بعض عباراته مع وجود نص من السنة في موضوعه ، مثل : تخصيص عموم القرآن بالسنة فذهب الشافعي واحمد وكثيرون الى حمل القرآن على كل ما يجيء في السنة من بيان في موضوعه ، لان السنة مبينة للقرآن، ومفسرة له ومفصلة لمجمله ، فقد جاء فيه : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم » ، فكل لفظ عام في القرآن اذا جاء في السنة مايخالف ظاهره ، خصص عمومه بالسنة .

وذهب أبو حنيفة وبعض الفقهاء الى ان عموم القرآن يسير على مقتضى العموم ولا يخصص الا بالسنة المتواترة او المشهورة ، لان القرآن قطعي في تواتره ، ولا يمكن ان تكون أخبار الآحاد في مقام القرآن الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بل ان اخبار الاحاد التي تخالفه تعد غير صحيحة النسبة الى النبي (صلى الله عليه وسلم) وهنا تجري عبارتان بين الفقهاء ، فالذين يخصصون ظواهر القرآن بالسنة يقولون : السنة حاكمة على القرآن بمعنى انها مفسرة له ، مبينة لمدلوله ومقاصده ، وهي المفتاح الحقيقي لفهمه ، وتعرف احكامه ، ولا يمكن ان يستغني المجتهد في فهمه للقرآن عنها والذي يقررون ان السنة لا تكون صحيحة اذا عارضت ظواهر القرآن وكانت من اخبار الآحاد ، يقولون : القرآن حاكم على السنة بالصحة والرد ، وهكذا نجد الفقهاء يختلفون حول جزئيات في الاستدلال بالقرآن الكريم ، وليس في اصل الاستدلال به .

٢ ـ السنة

كانت السنة مصدرا رئيسيا للتشريع في عهد الصحابة والتابعين يرجعون اليها اذا لم يجدوا نصا في القرآن ، ويستعينون بها في فهم نصوصه ، الا ان طول العهد وكثرة من تصدروا لرواية السنة ، وشيوع الوضع في الحديث

على رسول الله (عليه السلام) أوجد في السنة اختلافا كثيرا ،حتى كان من يريد استنباط الاحكام يرى عقبة صعبة التذليل في تحقيق السنة ففتح ذلك بابا للخلاف في اصل الاستدلال بالسنة وفي طريق اعتمادها ، والوثوق بهـــا .

أ ـ الخلاف في اصل الاستدلال بالسنة : ذهب فقهاء من اهل البصرة الى ان الحجة للقرآن وحده دون السنة ، وشرط نفر منهم لحجية الســـنة مطابقتها لنص قرآني . هذا الرأي سرعان ما اختفى بما صدم به مــن قــوة اصحاب الحديث ، وانتصر الاعتماد على السنة بصفتها مصدرا تشريعيا بعــد القرآن ، وكان للشافعي الفضل الاكبر في تفنيده بالمعقول والمنقول ، ولذا سمي « ناصر السنة » .

ب ـ الخلاف في طريق اعتماد السنة : اقتصر ابو حنيفة واصحابه على اعتماد السنة المتواترة والمشهورة ، ورجحوا مارواه الثقات من الفقهاء ، وردوا أخبار الآحاد ، وبهذا قال ابو يوسف : «عليك بما عليه الجماعة من الحديث وما يعرفه الفقهاء » .

واعتمد باقي المجتهدين كل مارواه العدول الثقات مــن الفقهاء وغير الفقهاء وافق عمل اهل المدينة او خالفه سواء أكان متواترا او احــادا .

وقد ترتب على هذا ان ابا حنيفة وأصحابه جعلوا الحديث المشهور في حكم المتواتر وخصصوا به العام في القرآن ، وقيدوا به المطلق ، وغيرهم لــم يجعلوا له هذه القوة ، وترتب عليه ايضا ان الحديث المرسل(*) يحتج بــه بعض المجتهدين ولا يحتج به بعضهم .

---

* المرسل هو الحديث الذي لم يتصل سنده بالرسول صلى الله عليــه وسلم ، وانما سقط منه الصحابي الذي هو واسطة النقل بين التابعي والرسول (عليه السلام) .

٣ ـ الاجمـــاع

اشرنا الى ان ماأتفق عليه الصحابة سمي «اجماعا» وان التابعين عدوه احد مصادر التشريع بعد القرآن والسنة ، وفي هذا العهد وقع خـلاف شديد حول ماهية الاجماع ،وعدد المجمعين وفي امكان وقوعه ، فيما لم يعلم من الدين بالضرورة وفي امكان معرفته والاطلاع عليه ، واخيرا في حجيته .

اما الاجماع على ماعلم من الدين بالضرورة والذي سماه الشافعـي « علم العامة » ، كصوم رمضان ، وفريضة الزكاة ، وعدد ركعات الصلاة فهو محل اتفاق لانه اعتمد محكم القرآن ومتواتر السنة .

واما الاجماع على غير علم العامة ، فقد اثبته الاكثرون ونفاه الاقلون ، واختلف المثبتون في امكان معرفته والاطلاع عليه ، فأثبته الاكثرون ايضا . واما حجيته فقد اثبتها اكثر المجتهدين ، والظاهر ان اقـوى الادلـة على حجيته هو ما تضافر من روايات على عصمة هذه الامة من الخطأ .

منها : اقوال الرسول «صلى الله عليه وسلم» : لا تجتمـع امتى على الضلالة ، ولم يكن الله ليجمع امتي على الضلالة ، وسألت اللـه تعالى ان لا يجمع امتي على الضلالة فأعطانيها .

وامـا الاجمـاع السكـوتـي ، وهـو ان يبـدي احـد المجتهدين رأيا ويسكت الاخرون ، فأن الاكثرين على انـه ليس بحجـة ، خلافا لاكثر اصحاب ابي حنيفة وغيرهم .

٤ ـ فتوى الصحابي

اختلف المجتهدون في الفتاوي والاراء الاجتهادية التي صدرت عن افراد الصحابة فأبو حنيفة والشافعي واصحابهمـا كانوا يتخيرون مـن آرائهـم ولايتقيدون برأي واحد منها ، كما انهم لا يخرجون عنها جميعا .

واحمد بن حنبل كان يعد آراءهم سنة واجبة الاتباع ، لانهم الذين شاهدوا وعاينوا وتلقوا علم الرسول (عليه السلام) •

٥ ـ الـرأي

ظل الرأي بمفهومه العام وطرقه المتعددة ، وسيلة للكشف عن الحكم الشرعي في حالة عدم وجود نص على الحادثة في القرآن والسنة ، وفي هذا العهد جرت محاولات لحصر الرأي في اصول محددة وقواعد مضبوطة ، كان اشهرها واعمها نفعا هو « القياس » الذي عد احد مصادر التشريع بعد القرآن والسنة والاجماع ، ولكنهم اختلفوا في مقدار اخذهم بالقياس كما وكيفا • فابو حنيفة توسع في الاخذ به لقلة ماصح عنده من السنن، وكان لا يحجم عن القياس الا اذا رآه قبيحا حينئذ يستحسن ، والاستحسان هو ترك القياس ، والرجوع لاثر أو أصل عام أو اجماع أو ضرورة •

واحمد بن حنبل ، كان الى الاثر اميل فهو رجل اثر وصاحب حديث ، ومع ذلك أخذ بالقياس مقتصدا ، وعده احد مصادر التشريع وروى عنه انه قال : « لا يستغني احد عن القياس » •

والامام الذي التزم الحصر السابق بحق ، وذهب الى ان الاجتهاد والقياس اسمان لمعنى واحد، هو مؤصل الاصول «الشافعي» ثم انه رد ماعداه من طرق ووسائل اذ جعل الاستحسان تشريعا في الدين ، ورأيه في المصالح لا يختلف عن رأيه في الاستحسان • وفي الاتجاه المضاد نجد داود الظاهري يبطل القياس بالكلية ويحرم العمل به وبغيره من مصلحة واستحسان ويقصر الادلة على النصوص •

الآثار التشريعية

كان هذا العهد عظيما بانتاجه الفكري ، متميزا بآثاره العلمية ، واهم ما خلفه من آثار تشريعية هو :

١ ـ تدوين السنة

عكف فريق من رجالات هذا العهد على جمع السنة وتصنيفها ، ومعنى تصنيفها ، هو ضم الاحاديث التي في موضوع واحد الى بعض ، وترتيبها ، على الابواب كأحاديث الصلاة ، واحاديث الصيام . وقد وجدت هذه الفكرة وبوشر في تنفيذها في اكثر من اقليم من أقاليم الدولة في آن واحد ، وممن كان لهم فضل الريادة في العراق سفيان الثوري بالكوفة ، وحماد بن ابي سلمة ، وسعد بن ابي عروبة بالبصرة وهشيم بن بشير بواسط ، وكانت هذه المصنفات تشتمل على السنن وما يتعلق بها ، وكان بعضها يسمى مصنفا ، وبعضها جامعا او مجموعا، وكان معظم هذه المصنفات والمجاميع يضم الحديث وفتاوي الصحابة والتابعين. ثم رأى من جاء بعدهم ان تفرد احاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) في مدونات خاصة ، فالفت المسانيد ، وهي كتب تضم احاديث الرسول (عليه السلام) بأسانيدها خالية من فتاوي الصحابة والتابعين ، واول من الف المسانيد في العراق ، يحيى بن عبدالحميد الحماني الكوفي (ت ٢٢٨ هـ/٨٤٢م) وتلاه كثيرون ، اشهرهم أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ / ٨٥٥م) ويعتبر مسنده اوفى تلك المسانيد واوسعها .

جاء بعد هؤلاء من رأوا ان يقتصروا في جمعهم وتدوينهم على الحديث الصحيح فقط فظهرت كتب الصحاح الستة لاصحابها. البخاري (ت٢٥٦هـ) ومسلم (ت ٢٦١هـ / ٨٧٤م) وابي داود (ت ٢٧٥ هـ / ٨٨٨م) والترمذي (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) والنسائي (ت ٣٠٣هـ / ٩١٥م) وابن ماجه (ت ٢٧٣هـ / ٨٨٦م) .

ولم يكن هؤلاء هم الذين الفوا في السنة فقط بل وجد بجانبهم كثيرون سواهم الا ان هؤلاء هم الذين نالوا شهرة لم ينلها غيرهم ، وقد وجد الى جنب هؤلاء من كان همهم البحث عن حال رواة الحديث ووصف كل راو منهم بما يستحق من ضبط واتقان وعدالة او اضدادها وعرفوا برجال

« الجرح والتعديل » فمن عدلوه قبلت روايته ومن جرحوه ترك حديثه ، وقد يختلفون في ذلك •

٢ ـ تدوين الفقه

كان حظ الفقه من الجمع والتصنيف والتدوين عظيما في هذا العهد ، فبعد ان كان الفقه فيما مضى مسائل متفرقة ، واحكاما غير مسببة ، وفتاوي فردية ، صار علما له قواعده واصوله ومناهجه ، ودونت فيه موسوعات لاتزال مرجع المسلمين حتى اليوم ، ومن اشهر هذه الموسوعات : كتاب ظاهر الرواية التي رواها محمد بن الحسن عن ابي يوسف عن ابي حنيفة ، وكتاب الام للشافعي ، والسنن في الفقه على مذهب احمد ، وغير هذه كثير جدا •

٣ ـ تدوين اصول الفقه

كان المجتهدون يتحاورون في مسائل الفقه ، ويستدلون ويعترضون ، ولكن لم يكن لهم قانون كلي يرجعون اليه في معرفة اصول استنباط الاحكام من الادلة حتى جاء الشافعي ، فألف رسالة في ادلة الاحكام ، وهي الرسالة الاصولية التي املاها في بغداد على تلميذه محمد بن الحسن الزعفراني (ت ٢٦٠هـ / ٨٧٣م) فكانت اول كتاب في اصول الفقه وقد تكلم فيها على : (أ) القرآن وبيانه (ب) السنة ومقامها بالنسبة الى القرآن (جـ) الناسخ والمنسوخ (د) علل الاحاديث (هـ) خبر الواحد (و) الاجماع (ز) القياس (حـ) الاجتهاد (ط) الاستحسان (ي) الاختلاف •

٤ ـ المذاهب الفقهية

في هذا العهد نشط الاجتهاد الفقهي حتى بلغ اوجه ونتج عنه كثير من الاتجاهات والآراء الفقهية المختلفة وتكون من هذه الاختلافات مدارس فقهية ثم تبلورت تلك المدارس فصارت مذاهب فقهية ، اعترف لها الجمهور

بالريادة والقيادة واخذت كل جماعة من المسلمين تتبع مذهبا منها ، وتترسم خطى مؤسسه وتسير على اثره وتعمل بمقتضى آرائه • وحسب هذا العهد فخرا انه انجب اكثر من خمسة عشر مجتهدا دونت مذاهبهم وقلدت اراؤهم فسفيان بن عيينة بمكة ، ومالك بن انس بالمدينة ، والاوزاعي بالشام ، والليث ابن سعد في مصر، واسحاق بن راهويه بنيسابور، وابو حنيفة، وسفيان الثوري والشافعي وابو ثور ، واحمد بن حنبل ، وداود الظاهري ، وابن جرير الطبري ، وجعفر الصادق ، وزيد بن علي ، وعبدالله بن اباض في العراق، الى جنب هؤلاء كثير ممن لم يسعدهم الحظ بانتشار مذاهبهم ومن هذا يتضح ان حظ اقليم العراق من حركة الاجتهاد، وعدد المجتهدين، والانتاج الفقهي ، ونشوء المذاهب الفقهية وتكونها ، وتدوين تلك المذاهب وشيوعها ، واعتراف جمهور المسلمين لها بالزعامة والقيادة وتقليدهم اياها ، كان وفيراً جدا ، ودوره في هذا كان متميزا للغاية بالقياس الى دور اقاليم الدولة الاخرى ، وحسبه فخرا ان نشأفيه وتكون عشرة مذاهب فقهية من المذاهب التي ذكرناها ، والبالغ عددها خمسة عشر مذهبا وفي المبحث الاتي تعريف موجز بأهم المذاهب الفقهية التي تكونت في العراق او تمركزت فيه ومن ثم انتشرت منه الى غيره من أقاليم الدولة العربية الاسلامية خلال هذا العهد •

اولا ــ المذهب الحنفي

لاجدال في أن المذهب الحنفي اوسع المذاهب الفقهية انتشارا واكثرها اتباعا وخصوبة في تراثه الفقهي ، وانه اول مذهب فقهي من مذاهب الجمهور المشهورة ، وكان منشأه بالكوفة ، ثم انتشر في سائر اقاليم الدولة العربية الاسلامية وضع اسسه ابو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي (٨٠ ــ ١٥٠ هـ / ٦٩٩ ــ ٧٦٧م) •

اصول المذهب

لخص ابو حنيفة منهاجه الذي اختطه لاستنباط الاحكام الفقهية بقوله :

«اني آخذ بكتاب الله اذا وجدته ، فما لم اجده فيه اخذت بسنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فاذا لم أجد في كتاب الله ، ولا سنة رسول الله ، أخذت بقول أصحابه آخذ بقول من شئت منه وادع قول من شئت ولا اخرج عن قولهم الى قول غيرهم فأذا ماانتهى الامر الى ابراهيم «النخعي» والشعبي والحسن «البصري» وابن سيرين ، وعطاء وسعيد بن المسيب (يعني بهؤلاء جميع التابعين) فعلي ان اجتهد كما اجتهدوا .

وقد بنى اجتهاده على التوسع في القياس والاستحسان وكذا اصحابه حتى اتسعت بذلك المسائل الفقهية ، وكثرت كثرة عظيمة جدا وكانوا يفترضون صورا للمسائل ويلتمسون لكل صورة جوابا وبهذا خالفوا سنة من قبلهم فقد كان اولئك لا ينظرون الا في أحكام الحوادث التي وقعت بالفعل ولا يفترضون حوادث ولا مسائل ، ولا يفرعون تفريعات لا وجود لها بالفعل، بل كان بعضهم يحجم من جواب المسألة اذا لم يجد فيها نصا ، وبالجملة فقد نشط فقه الرأي على يد ابي حنيفة واصحابه ومن كان معهم من فقهاء العراق ، قال محمد بن الحسن كان ابو حنيفة يناظر اصحابه بالمقاييس فينتصفون منه ويعارضونه حتى اذا استحسن لم يلحقه احد منهم لكثرة مايورد في الاستحسان من المسائل فيذعنون جميعا ويسلمون له وكان ابو حنيفة عارفا بحديث اهل الكوفة شديد الاتباع لما كان عليه الناس ببلده .

فقهاء معاصرون

كان في عصر ابي حنيفة جملة من كبار الفقهاء بالكوفة ، وما اكثر ما احتدمت المناظرات واشتدت المنافسات بينه وبينهم ، وكانوا ينتصفون منه احيانا وينتصف منهم كثيرا اهمهم :

١ ــ سفيان بن سعيد الثوري (٩٧ ــ ١٦١هـ / ٧١٥ ــ ٧٧٧م) من كبار المحدثين ، اجمع الناس على دينه وورعه وزهده وثقته وهو احد المجتهدين الذين كان لهم اتباع .

٢ ـ شريك بن عبدالله النخعي (٩٥ ـ ١٧٧ هـ / ٧١٣ ـ ٧٩٣م) كان عالماً فقيها ذكيا فطناً تولى القضاء بالكوفة ايام المهـدي ، ثم عزله موسـى الهادي ، وكان عادلاً في قضائه كثير الصواب ، حاضر الجواب .

٣ ـ محمد بن عبدالرحمن بن ابي ليلى (٧٤ ـ ١٤٨هـ/ ٦٩٣ ـ ٧٦٥م) كان من اصحاب الرأي وتولى القضاء بالكوفة واقام حاكما ثلاثا وثلاثين سنة ولي القضاء لبني امية ، ثم لبني العباس ، وكان فقيها مفتيا .

ابرز تلاميـذه

الذين تتلمذوا لابي حنيفة لا يحصون عددا وقد قيل انهم سبعمائـة وثلاثون رجلاً وكان في حلقات درسه ما لا يقل عن الاربعـين دارسا يقـوم بالتدوين منهم عشرة ويتصدر الحلقة اربعة هم :

١ ـ ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم الانصاري (١١٣ـ١٩٣هـ/٧٣١ـ٨٠٨م) اشتغل بادىء الامر برواية الحديث فروى عن هشام بن عروة، وابي اسحاق الشيباني ، وعطاء بن السائب ، وطبقتهم ثم تفقه بابن ابي ليلى ، اقام معه مدة ثم انتقل الى ابي حنيفة فكان اكبر تلاميذه وافضل معين له ، وهو اول من صنف الكتب على مذهبه وأملى المسائل ونشرها . وبث علم ابي حنيفة في اقطار الارض .

٢ ـ زفر بن الهذيل بن قيس الكوفي (١١٠ ـ ١٥٧ هـ / ٧٢٨ ـ ٧٧٣م) كان من اهل الحديث . ثم غلب عليه الرأي وكان اقيس اصحاب ابي حنيفـة .

٣ـ محمد بن الحسن الشيباني (١٣٢ـ١٨٩هـ/٧٤٠ـ٨٠٤م) ولد بواسط ، ونشأ في الكوفة، وسكن بغداد، طلب العلم في صباه، فروى الحديث واخذ عن ابي حنيفة ولم يجالسه كثيرا لان ابا حنيفة توفي ومحمد صغيـر السن، فأتم دراسته على ابي يوسف.وقد كان فيه عقل وفطنة فنبغ نبوغاً

عظيما وصار هو المرجع لاهل الرأي في حياة ابي يوسف وعن محمد اخذ مذهب ابي حنيفة ، فأن الحنفية ليس بايديهم الاكتبه •

٤ ـ الحسن بن زياد اللؤلؤي الكوفي (ت ٢٢٣هـ / ٨٣٨م) تتلمذ بعد ابي حنيفة لابي يوسف ومحمد وصنف الكتب في المذهب ولكن كتبه وآراءه ليس لهما من الاعتبار عند الحنفية ما لكتب محمد وآرائه •

هؤلاء الاربعة هم الذين انتشر بهم مذهب أهل الرأي وتلقاه الناس عنهم وكان لهم مع تتلمذهم لابي حنيفة شخصية علمية مستقلة وآراء خاصة • فلم يكونوا يقفون عند ما افتى به استاذهم بل يخالفونه اذا ظهر مايوجب الخلاف ولذلك نجد كتب الحنفية تورد اراءهم بادلتها وربما يكون في المسألة الواحدة عدة آراء لابي حنيفة رأي ، ولابي يوسف رأي ، ولمحمد رأي ، وبالجملة فقد كان هؤلاء الاربعة مشاركين لاستاذهم في تأسيس المذهب ووضع قواعده واصوله الفقهية ولم يكونوا مجرد اتباع •

نمـو المذهب

نما المذهب الحنفي نموا عظيما وترجع عوامل نموه الى :

١ ـ كثرة تلاميذ ابي حنيفة وعنايتهم بنشر فقهه وبيان الاصول التي قام عليها• واكثارهم من التخريج والتفريع على آرائه وبيان الاقيسة التي قـام عليها التفريع ، ثم اهتمامهم بالتعرف على علل الاحكام وتطبيقها علـى مايجد من الوقائع • وجمع المسائل المتجانسة في قواعد شاملة وقـد ساعدهم على ذلك طبيعة الاصول ، التي بنى عليها المذهب فانها تفسـح للمجتهدين المجال في الترجيح والتخريج تطبيقـا لمبـادىء القيـاس والاستحسان •

٢ ـ انتشار المذهب في اقاليم كثيرة تختلف فيها الاعراف والعادات وتتعدد الوقائع ، وتتولد الحوادث ، وهذا يتطلب تخريجات كثيرة خصوصا وانه طبق في كل اقليم للدولة العباسية سلطان فيه •

ذيوع المذهب

ذاع المذهب الحنفي في بلده العراق وصار المذهب الشعبي والرسمي فيها ، ثم اتجه شرقا فانتشر في بلاد فارس وماوراء النهر (بخارى وسمرقند) والهند وبلاد الافغان واذا ماتركنا العراق وماوراءه من بلدان المشرق نجده يسود في بلاد الشام ويصبح مذهب الدولة والمتبع في القضاء والفتوى في مصر ، ويغلب على افريقيا (ليبيا وتونس والجزائر) حتى نهاية القرن الرابع الهجري.جاء في (الديباج) لابن فرحون : ان المذهب الحنفي ظهر ظهورا كثيرا في افريقيا الى قريب سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م فانقطع فدخل منه شيء ماوراءها من المغرب قريبا من الاندلس ومدينة فاس .

ثانيا ـ مذهب الشافعي

يحتل المذهب الشافعي المرتبة الثالثة من حيث النشأة والظهور .فقد كان ظهوره بعد المذهب الحنفي في العراق ، والمذهب المالكي في الحجاز ويحتل المرتبة الثانية من حيث الاهمية والذيوع فقد نافس المذهب الحنفي في ذلك .

امام المذهب

محمد بن ادريس الشافعي يلتقي نسبه مع النبي صلى الله عليه وسلم في عبد مناف، ولد في مجدل غزة سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م يتيما، وبعد سنتين من ميلاده انتقلت به امه الى موطن آبائه مكة ، وبها نشأ وحفظ القرآن في صباه ثم خرج الى قبائل هذيل بالبادية ، وكانوا من افصح العرب فحفظ كثيرا من اشعارهم ثم عاد وقد افاد فصاحة وادبا وتفقه بمكة على شيخ الحرم ومفتيه مسلم بن خالد ثم رحل الى المدينة بعد ان حفظ موطأ مالك فقرأه عليه . واخذ العلم عنه .

قدم العراق سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م ونزل في بيت محمد بن الحسن ببغداد فأخذ عنه فقه الرأي وتلقى عليه كتبه التي الفها في فقه ابي حنيفة وكان الشافعي في اثناء

اقامته ببغداد يناظر تلاميذ ابي حنيفة ويحاورهم ، بعدها عاد الى مكة وقد اجتمع له فقه الاثر وفقه الرأي ، فقه الحجاز وفقه العراق ، فعكف على دراسة الفقهين ومنهاج كل من المذهبين ، فقادته هذه الدراسة المقارنة الى منهج جديد يجمع بين المنهجين وينتج فقها مستقلا عن الفقهين ، ورأى ان من واجبه ان ينشر ماوصل اليه ، وليس ثمة الا" مكان ينبثق منه نور العلم عاما مشرقا هو مقر الخلافة العباسية (بغداد) فقدم اليها سنة ١٩٥هـ/٨١٠م ، وهنا في بغداد استدعى نظر كل العلماء فيها واحتف به التلاميذ فأخذ يملي عليهم كتبه التي سماها (الكتب البغدادية) وهي (الام) او يسمى (المبسوط) وهو عدة كتب و (الرسالة الاصولية) وهي اول كتاب في (اصول الفقه) وقد كتبها عنه تلميذه (الزعفراني) وفي سنة ١٩٨هـ / ٨١٣م رحل الشافعي الى مصر ونزل الفسطاط ضيفا على عبدالله بن عبدالحكيم واخذ ينشر علمه فيها وينقح كتبه البغدادية ويمليها على تلاميذه حتى توفاه الله سنة ٢٠٤هـ / ٨١٩م .

والشافعي هو الذي نشر مذهبه بنفسه في العراق وفي مصر ، وهو الذي كتب كتبه بنفسه واملاها على تلاميذه ، ولم يعرف هذا لغيره من كبار الائمة ، وقد عرف مذهبه الذي نشره في العراق بالمذهب القديم والذي نشره في مصر بالمذهب الجديد وبين المذهبين اختلاف في جملة مسائل .

اصول المذهب

بين الشافعي الاصول التي بنى عليها مذهبه بقوله (العلم طبقات شتى): الاول : الكتاب والسنة اذا ثبتت . ثم الثانية الاجماع فيما ليس فيه كتاب ولاسنة . والثالثة : ان يقول بعض اصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قولا ولانعلم له مخالفا منهم.والرابعة : اختلاف اصحاب النبي (صلعم) في ذلك الخامسة القياس . ولايصار لشيء غير الكتاب والسنة وهما موجودان وانما يؤخذ العلم من اعلى .

وقد رد الشافعي بشدة ماسماه فقهاء الرأي (الاستحسان) وماسماه فقهاء الاثر (الاستصلاح) ولكنه عمل بما يقرب من ذلك وهو (الاستدلال).

والاستدلال : اقامة دليل ليس بنص ولا اجماع ولا قياس وانما يكون بالادلة النظرية ، كالقياس المنطقي والاستصحاب العقلي .

ابرز تلاميذه

تتلمذ للشافعي كثيرون . وقد برز منهم في العراق اربعة كانوا بمثابة الاصحاب له ورواة مذهبه وهم :

١ ــ ابو ثور ابراهيم بن خالد بن ابي اليمان الكلبي البغدادي (ت٢٤٦هـ/٨٦٠م) كان احد الفقهاء الاعلام وكان اول اشتغاله بمذهب اهل الرأي حتى قدم الشافعي بغداد ، فاختلف اليه ، واخذ عنه ، وهو معدود من كبار فقهاء الشافعية وان كان لايقلد الشافعي بل يخالفه متى ظهر له الدليل وقد اختار لنفسه آراء وصار له مذهب خاص وله اتباع لكنه لم يبق زمنا طويلا .

٢ ــ احمد بن حنبل الشيباني (١٦٤ ــ ٢٤١هـ / ٧٨٠ ــ ٨٥٥م) كان امام اهل الحديث في عصره صنف كتابه (المسند) وجمع فيه من الحديث مالم يتفق لغيره ، تفقه بالشافعي حين قدم بغداد ، وكان يثني على عقله وفكره ، ولم يزل يصاحبه حتى ارتحل الشافعي الى مصر وقال في حقه (خرجت من بغداد وماخلفت بها اتقى ولا افقه من ابن حنبل) ثم اجتهد لنفسه فصار له مذهب مستقل واتباع كثر .

٣ ــ ابو علي الحسن بن محمد الصباح الزعفراني (ت٢٦٠هـ/٨٧٣م) برع في الفقه والحديث وصنف فيهما كتبا . سمع الزعفراني من سفيان بن عيينة ومن في طبقته مثل وكيع بن الجراح وعمر بن الهيثم . لزم الشافعي واخذ

عنه وهو اثبت رواة كتبه البغدادية وكان هو الذي يتولى القراءة في مجلس الشافعي .

٤ ــ ابو علي الحسين بن علي الكرابيسي (ت٢٤٨هـ/٨٦٢م) كان يتفقه بالرأي ثم لزم الشافعي فتفقه له وسمع منه ، وله تصانيف كثيرة في اصول الفقه وفروعه كان متكلما عارفا بالحديث وصنف ايضا في الجرح والتعديل وأخذ عنه الفقه خلق كثير .

نمو المذهب

ينمو المذهب وتتسع آفاق التفكير فيه بخصوبة اصوله وتعدد المصادر فيه وتباين الاجواء الفكرية التي يتحرك فيها القائمون على المذهب بعد الامام المؤسس. وقد كان هذا متوفراً في المذهب الشافعي (فمناهجه خصبة ومتعددة والاقاليم التي انتشر فيها متباعدة ومتباينة و الاصحاب كثر وهم متصفون بسعة الافق وبعد النظر والقدرة على الاستنباط والتخريج ، ولهذا نما المذهب نموا عظيما وانتشر في بلاد كثيرة .

ذيوع المذهب

نشر الشافعي بنفسه مذهبه في العراق وكان الحنفي غالبا عليها ، ثم زاحمه فيها الشافعي وكانت له كثرة من الاتباع ومن العراق انتقل الى ماوراءه من بلاد المشرق واخذ ينافس فيها المذهب الحنفي ويقاسمه التدريس والفتوى.

وانتشر كذلك في مصر الكنانة وزاحم فيها المالكي والحنفي ومع ان المذهب الحنفي كان له سلطان لانه مذهب الدولة العباسية كان الشافعي ينازعه السلطان في الشعب قال ابن خلدون (واما الشافعي فمقلدوه بمصر اكثر من سواها وكان مذهبه قد انتشر بالعراق وخراسان وماوراء النهر وقاسم الشافعية الحنفية في الفتوى والتدريس في جميع الامصار ، وعظمت مجالس المناظرات بينهم وشحنت الخلافيات بانواع استدلالاتهم) وذاع مذهب

الشافعي في الشام وكان يغلب عليها مذهب الاوزاعي فأنزوى عنها . وتخلى عن الفتوى والقضاء للشافعية ، منذ مطلع القرن الرابع الهجري ، وانتشر كذلك في الحجاز والجزيرة العربية واخذ ينازع المذهب الزيدي نفوذه في اليمن ولم يكن له كبير حظ في بلاد المغرب والاندلس لغلبة المذهب المالكي عليها.

ثالثا ــ المذهب الحنبلي

المذهب الثالث من المذاهب الفقهية التي اشتهرت ودونت هو المذهب الحنبلي وكانت نشأته في بغداد وفيها اشتهر وازدهر ، ومنها ذاع وانتشر ، وضع اسسه احمد بن حنبل (١٦٤ ــ ٢٤١هـ / ٧٨٠ ــ ٨٥٥م) وهو من قبيلة (بني شيبان) التي كانت تقيم في العراق قبل تحريره على ايدي العرب المسلمين.

اصول المذهب

استخرج اصحاب الامام احمد وتلاميذهم الاصول التي قام عليها مذهبه الفقهي من فتاويه التي كان يفتي بها ذلك لانه لم يؤثر عنه تصنيف ، فمذهبه في الواقع هو من جمع اصحابه الذين جاءوا من بعده ، وقد لخص ابن القيم الاصول التي بني عليها فقه احمد وهي :

١ ــ النصوص من الكتاب والسنة فاذا وجد النص افتى به ولم يلتفت الى غيره ولذلك قدم النص على فتاوي الصحابة وقد ضرب ابن القيم امثلة على تركه فتوى الصحابة للنص ، منها انه قدم الحديث الذي يعد عدة الحامل المتوفى عنها زوجها بوضع الحمل ، ولم يفت بانها تعتد بابعد الاجلين ، كما هو فتوى ابن عباس . ومنع توريث المسلم من غير المسلم للحديث الوارد في ذلك ، ولم يلتفت الى قول معاذ بن جبل بتوريثه .

٢ ــ فتوى الصحابي التي لايعلم لها مخالفا فاذا وجد لبعضهم فتوى ولم يعرف مخالفها ، لم يتركها الى غيرها قال ابن القيم (اذا وجد الامام

احمد شيئا من هذا النوع عن الصحابة لم يقـدم عليه عملا ولا رأيـاً ولاقياسـا) •

٣ ـ اذا اختلف الصحابة تخير من اقوالهم ماكان موافقا للكتاب والسنة ولم يخرج عن اقوالهم فاذا لم يتبين موافقة احد الاقوال حكى الخلاف ولم يجزم بقول •

٤ ـ وهنا نجد احمد يختلف عن الشافعي فالشافعي يتخير ويرجح ولـو بالقياس فما يكون اقوى قياسا يأخذ به ويختاره ويترك مادونه قياسا • اما احمد فأنه عند تخيره من اقوال الصحابة يختار مايكون معاضدا بنص من القرآن والحديث ولايتجه الى القياس لانه لا يقدم القياس على قول صحابي •

٤ ـ الاخذ بالحديث المرسل والحديث الضعيف الذي لم يثبت وضعه ويقدمه على القياس ويبين ابن القيم الضعيف بأنه ليس المراد به الباطل ولا المنكر ولا مافي روايته متهم بحيث لايسوغ الذهاب اليه ، بل المراد من ذلـك من لم يبلغ في درجته الثقة ولم ينزل الى درجة الاتهام •

٥ ـ القياس فاذا لم يكن عند الامام نص من كتاب او سنة او قول صحابي او تابعي على الرواية المشهورة ولا اثر مرسل ضعيف ذهب الى القياس •

وهنا نجد احمد لا يلجأ الى القياس الا عند الضرورة وقد استأنس في هذا بما رواه الشافعي (انما يسار اليه عند الضرورة) ولكن الشافعي لا يأخذ بالضعيف ويترك القياس فمقدار الاخذ عند الامامين مختلف : الشافعي يتجه الى القياس اذا لم يجد حجة لاشبهة فيها ، واحمد يؤخره عن أي مستند من النصوص او مايشبهها •

ابرز تلاميذه

صحب احمد وتتلمذ عليه كثيرون وهم الذين تولوا جمع مسائلـه

وفتاويه وآرائه ونسقوا بينها ووأزنوا ورجحوا واستنبطوا مذهبــه مـــن ذلك كله . ومن ثم قاموا بتدوينه ونقله ونشره في الآفاق . ومن ابرزهم :

١ ـــ صالح بن احمد (ت ٢٦٦ هـ /٨٧٩م) اكبر اولاد الامام تلقى الفقه عن ابيه وناس كثيرين وقد تولى القضاء فأستطاع ان ينقل فقه ابيه لا الى الاجيال فقط بل الى التطبيق والعمل .

٢ ـــ عبدالله بن احمد (ت ٢٩٠هـ / ٩٠٢م) روى مسند ابيه ونقل فقهه وان كان نقله للحديث اكثر .

٣ ـــ ابو بكر الاثرم وهو احمد بن هانيء الطائي (ت ٢٧٣ هـ / ٨٨٦ م) لزم احمد امدا غير قصير ونقل فقهه .

٤ ـــ عبدالملك الميموني (ت ٢٧٤هـ/٨٨٧م) صحب احمد نحو اثنين وعشرين سنة وكان يكتب عنه مسائل مع نهي احمد عن ذلك ولروايته فقه احمد مقام كبير .

٥ ـــ ابو بكر المروذي (ت ٢٧٥هـ /٨٨٨م) كان اخص اصحاب احمد ونقل عنه مسائل كثيرة .

٦ ـــ حرب بن اسماعيل بن خلف الحنظلي (ت ٢٨٠هـ / ٨٩٣م) لقي احمد زمنا غير طويل ومع ذلك نقل عنه فقها كثيرا .

نمـــو المذهب

ينفرد المذهب الحنبلي بكثرة الاقوال والروايات والتوجيهات ، ويتميز بانه ابقى باب الاجتهاد مفتوحا لكل من توفرت فيه شروطه ، بل ان الحنابلة يرون ان وجود مجتهد مستقل فرض كفاية لا يصح ان يخلو منه عصر . لانه يجد للناس من الاحداث مايجعل وجوده ضروريا ولهذا بذل اتباع الامام جهودا استثنائية في الموازنة بين تلك الآراء والروايات المختلفة ومن ثم في

الترجيح بينهما والتخريج عليها وفي وضع ضوابط عامة ترجع اليها اشتات الفروع ، حتى لقد وصل بعض هؤلاء الاتباع الى درجة الاجتهاد المطلق ولم يتقيدوا باراء الامام احمد بل كانت لهم اختياراتهم وارأؤهم المستقلة . قال ابن القيم (ان منهم من وصل الى درجة الاجتهاد المستقل المطلق ، وان لم يصل الى قدرة احمد . ومنهم من كان دون ذلك . لهذا وغيره نما المذهب الحنبلي واستمر عطاؤه .

ذيوع المذهب

عرف المذهب الحنبلي في كثير من البلدان ولكن ظل اتباعه قليلين في كل عصرومصر ، ولم يستطع ان يزاحم المذاهب الفقهية الاخرى ، ولم تكتسب له الغلبة على أي اقليم من اقاليم الدولة وقد ارجع الاستاذ ابو زهرة ذلك الى عدة اسباب وهي :

١ ــ انه جاء بعد ان احتلت المذاهب التي سبقته الامصار الاسلامية فكان في العراق مذهب ابي حنيفة ، وفي مصر المذهب الشافعي وفي المغرب والاندلس المذهب المالكي .

٢ ــ انه لم يكن منه قضاة والقضاة انما ينشرون المذهب الذي يتبعونه ، فأبو يوسف ومن بعده محمد بن الحسن نشرا المذهب الحنفي ، واسد بن الفرات نشر المذهب المالكي في المغرب ، وابو زرعة الدمشقي (ت٣٠٢هـ/ ٩١٤م) عزز نشر المذهب الشافعي في الشام ، ولم ينل المذهب الحنبلي تلك الحظوة .

٣ ــ شدة الحنابلة وتعصبهم وكثرة خلافاتهم مع غيرهم لابالحجة والبرهان بل بالعمل ، وكانوا كلما قويت شوكتهم اشتدوا على الناس بأسم (الامر بالمعروف والنهي المنكر) ، ولهذا نفر الناس منهم ، وقل اتباعهم ، بالمقارنة مع اتباع المذاهب الفقهية الاخرى .

رابعا ـ المذهب الظاهري

من المذاهب الفقهية التي نشأت في بغداد وانتشر في العراق وماوراءه من بلاد المشرق (المذهب الظاهري) وقد استمر العمل به الى منتصف القرن الخامس الهجري ثم اضمحل ٠

امـام المذهـب

داود بن علي بن خلف(٢٠٢ــ٢٧٠هـ/٨١٧ــ٨٨٣م) تلقى الفقه عن تلاميذ الشافعي والتقى بكثير من اصحابه الذين لازموه من امثال اسحاق بن راهويه وابي ثور ، وكا معجبا اشد الاعجاب بالشافعي ، وصنف في فضائله والثناء عليه كتابين، وكان مع تلقيه عن الشافعي يطلب الحديث فسمع الكثيرين من محدثي عصره وروى عنهم ٠ سمع من المقيمين ببغداد موطنه ثم رحل الى نيسابور ليسمع المحدثين هناك ٠ وقد دون مارواه في كتبه وكانت كتبه مملوءة حديثا فانتحل لنفسه مذهبا خاصا يقوم على ظاهر النصوص فقط وانتقل بذلك من الفقه الشافعي الذي تلقاه الى فقه الظاهر الذي كان محصلة علمه الغزير بالاحاديث ٠

اصول مذهبه

اتجه داود الى فقه الظاهر ورفض فقه الرأي وابطل الاستدلال بالقياس وما في حكمه ، قال الخطيب البغدادي في ترجمته : (انه اول من اظهر انتحال الظاهر ، ونفى القياس في الاحكام قولا ، واضطر اليه فعلا وسماه (الدليل) والدليل الذي اشار اليه البغدادي نوع من انواع الاستدلال الفقهي يعتمد على صريح النصوص عند الظاهرية ،وليس هو عندهم من ضروب القياس وله مناح شتى والاصول التي اقام عليها مذهبه هي : نصوص القرآن الكريم ونصوص الاحاديث النبوية واجماع علماء الامة ودليل منها لايحتمل الا وجها واحدا ٠

والفرق بين الفقهاء واهل الظاهر يكمن في تعليل النصوص وعدم تعليلها فجمهور الفقهاء ينظرون الى النصوص على انها معقولة المعنى قد جاءت لغايات ومقاصد ليفهم كل نص بما تدل عليه الفاظه ومايفيده من معان عامة وخاصة فاذا جاء النص بتحريم الخمر تعرفوا القصد من التحريم ومن ثم يطبقون على الخمر كل ماتتحقق فيه العلة التي كان من اجلها التحريم . وبذلك يستنبطون من مجموع النصوص قواعد كلية تندرج تحتها جزئيات كثيرة ويمكن معرفة احكام الحوادث التي تجد بتطبيق هذه القواعد عليها .

اما الظاهرية فمع انهم يرون ان النصوص جاءت لتحقيق مصالح العباد فانهم يقولون : كل نص يقتصر على موضوعه لا يتجاوزه ولايفكر في علة مستنبطة منه ، فلا تحليل ولا تحريم الا بنص وان كانت بعض النصوص جاءت لاسباب فليس ذلك لتتعدى احكامها الى غير موضوع النص قال ابن حزم وهو الامام الثاني لاهل الظاهر : « لانقول ان الشرائع كلها لاسباب بل نقول : ليس شيء منها لسبب الامانص عليه انه لسبب، وماعدا ذلك فانما هو شيء اراده الله تعالى الذي يفعل مايشاء ، ولانحرم ولانحلل ولانزيد ولاننقص الاما قال ربنا عزوجل ، ونبينا (صلعم) ولا نتعدى ما قالا ، ولا نترك شيئا منه ، وهذا هو الدين المحض الذي لا يحل لاحد خلافه ولا اعتقاد سواه وبالله تعالى التوفيق » .

ابرز تلاميذه

تلقى من داود العلم ونقله عنه كثيرون ومن ابرزهم :

ابنه ابو بكر محمد(ت٢٩٧هـ/٩٠٩م)وكان عالما فقيها وله تصانيف كثيرة منها كتاب (الوصول الى معرفة الاصول) وكتاب (الانذار) وكتاب (الاعذار) .

ومن متبعي داود والمؤلفين على مذهبه : ابو الحسن عبدالله بن احمد

المغلس (ت٣٢٤هـ) كان عالما فاضلا مقدما عند جميع الناس واليه انتهــت رئاسة اهل الظاهر في وقته •

نمـو المذهب وانتشاره

كان نمو المذهب الظاهري محدودا بسبب رفضه للرأي والقياس واعتماده على ظاهر النصوص ، وبفعل المعارضة الشديدة التي كان يتلقاها من جمهور الفقهاء ، ومع ذلك فقد انتشر المذهب في العراق وماوراءه من بلاد المشرق في القرنين الثالث والرابع ثم اخذ يضعف ويتراجع فيهما بعد ذلك حتى اضمحــل ولم يعد له اتباع ولكنه في الوقت الذي خبا فيه ضوؤه في المشرق كان نشطا وقوياً في بلاد الاندلس ثم اضمحل فيها ايضا ويرجع سبب انتشار هذا المذهب مع معارضه الكثيرين له الى مؤلفات امامه وحماس تلاميذه لنشر تلك الكتب وما احتوته من علم فقد الف كتبا كلها سنن وآثار•وقد اشتملت على آرائه في فروع فقهية عرضت له ، مبينا احكامها من النصوص ومبيناً مع ذلك شمول النصوص لكل مايحتاج المسلم من احكام للحوادث التي تصادفه في حياتــه • وان الكتب بذاتها آثار مستمرة غير قابلة للمحو وهي تدعو بذاتها الــى مذهب كاتبها فهي السجل الخالد للاعمال الفكرية •

خامسا ــ مذهب الطبري

من المذاهب الفقهية التي نشأت في بغداد وعرفت في العراق وماوراءه من بلاد المشرق مذهب ابن جرير الطبري ويسمى بالمذهب الجريري وبالمذهــب الطبري وقد كان له اتباع حتى منتصف القرن الخامس الهجري ثم اضمحل •

امام المذهب

ابو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري ولد بآمل طبرستان سنة (٢٢٤هـ/٩٣٥م) وطاف الاقاليم في طلب العلم، ثم استوطن مدينة العلم وموئل العلماء (بغداد) واقام فيها الى حين وفاته سنة (٣١٠هـ/٩٢٢م) وكان قد جمع من

العلوم مالم يشاركه فيه احد من اهل عصره فكان حافظا لكتاب الله عارفـــا بالقراءات فقيها في احكام القرآن عالما بالسنن عارفا بأصول الصحابة والتابعين بصيرا بايام الناس واخبارهم ، له التاريخ المشهور الذي ليس في التواريـخ العربية اوثق منه • وله كتاب الاثار لم يتمه وله كتاب اختلاف الفقهاء ، ولـه في اصول الفقه وفروعه كتب كثيرة ، تفقه بمذهب الشافعي تلقاه عن اصحابـه، فاتخذه قدوة له وعمل على نشره ومن اقواله في ذلك (اظهرت فقه الشافعي وافتيت بـه ببغـداد عشـر سـنين) ثـم لما اتسـع علمـه اداه اجتهاده الى مااختاره في كتبه ومنها (لطيف القول في احكام شرائع الاسلام) وهو مذهبه الذي اختاره واحتج له واستقل لذلك عن المذهب الشافعي واصبح من كبار الفقهاء وائمة المذاهب •

اصـــول المذهب

مذهب الطبري لا يفترق كثيرا عن مذهب الشافعي في اصولـهفهو وان خرج عن فقه الشافعي في كثير من الفروع لم يخرج كثيرا عن اصولـه ولذا بعد ان اجمع اصحاب الطبقات على انه مجتهد مطلق اختلفوا في كونه مع ذلك من اصحاب المذهب الشافعي كأبي ثور الذي لااختلاف في انه مجتهد مطلق ، وانه من اصحاب المذهب فبعضهم عده من ضـمن المجتهدين خارج طبقات المذهب ، وعده بعضهم من اصحاب المذهب •

ابرز تلامـيذه

من اصحاب الطبري المتفقهين على مذهبه علي بن عبدالعزيز بن محمدبن الدولابي ، وابو بكر محمد بن احمد بن ابي الثلج الكاتب ، وابو الحسن احمد بن يحيى المنجم المتكلم، وابو الحسن الدقيقي الحلواني وابو الفرج المعافى بن زكريا النهرواني •

ذيـوع المذهـب

انتشر مذهب الطبري في العراق وماوراءه من بلاد المشرق وبقي معروفا معمولا به الى منتصف القرن الخامس ثم اندثر اتباعه ولم يبق منه الا في بطون الكتب .

سادسا ـ المذهب الجعفري

من المذاهب الفقهية التي نمت وازدهرت في العراق وفيه تمركزت ومنـه ذاعت وانتقلت الى اكثر أقاليم الدولة العربية الاسلامية (المذهب الجعفري)

امام المذهـب

ابو عبدالله جعفر بن محمد الصادق(٨٠ــ١٤٨هـ/٦٩٩ــ٧٦٥م)ولد في المدينة المنورة وفيها نشأ وقد تلقى العلم عن آبائه (عليهم السلام) وعن شيوخ عصره وتلقى عنه العلم وروى عنه الحديث والسنن كثيرون .

قال الشيخ المفيد (ونقل الناس عنه من العلوم ماسارت به الركبـان وانتشر ذكره في البلاد ولم ينقل العلماء عن احد من اهل بيته مانقل عنه ، فأن اصحاب الحديث نقلوا اسماء الرواة عنه الثقات على اختلافهم في الآراء والمقالات فكانوا اربعة الاف رجل) وممن اخذ عنه وافاد من علمه مـن كبار الفقهاء : مالك بن انس ، وابو حنيفة وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة وروى عنه الحديث كثير من التابعين منهم : يحيى بن سـعيد الانصاري وايوب السختياني وابان بن تغلب وابو عمرو بن العلاء ويزيد بن عبد الله بن الهادي ومن اصحابه الذين نقلوا فقهه ونشروا علمه : زرارة بن اعين(ت١٥٠هـ/٧٦٧م) وابو حمزة الثمالي ثابت بن دينـار (ت١٥٠هـ/٧٦٧م) وحمـزة بن حبيـب (ت١٥٦هـ/٧٧٢م) ومعاوية بن عمار الدهني (ت ١٧٥هـ / ٧٩١م) ومحمد بن مسلم الطائفي (ت ١٥٠هـ / ٧٦٧م) واشتهر بالتأليف من اتباعه : ابو النصر محمد بن مسعود العياشي وابو علي محمد بن احمد بن الجنيد .

اصـــول المذهب

اورث الامام الصادق اصحابه ثروة ضخمة من السنن والاخبار ومـــن الفتاوي والاحكام ودعاهم الى الاجتهاد ، وبين لهم معالمه ، والقى اليهم بعـــض القواعد الاصولية التي تعين الفقيه في استنباطه الآراء الفقهية حتى ينمو المذهب ويستمر عطاؤه ويجد فيه الاتباع حلا لكل ماينزل بهم ويعترضهم من حوادث، لاسيما وان النصوص تتناهى والحوادث لا تتناهى وان لله في كل واقعةحكما .

والمنهج الذي سار عليه المجتهدون في المذهب والاصول التي بنوا عليها فقههم هي :

القرآن والسنة ، والاجماع ، والعقل . فقد كانوا ومازالوا اذا حدث لهـــم حادث هرعوا الى كتاب الله ، فأن وجدوا فيه الحكم التزموه والاعرضوا الامر على السنة (وهي من وجهة نظرهم تشمل فضلا عن قول النبي وفعله وتقريره قـــول الامـــام وفعلـــه وتقريره فالامامـــة عندهـــم استمرار للنبـــوة) . فأن لم يجدوا ضـــالتهم نظروا هل للعلماء ممن ســـبقوهم فتوى في الحادثة اتفقت عليهـــا كلمتهم واجمع عليهـــا أمرهم فأن لم يجدوا لجأوا الى العقل (وهو كل قضية عقلية يتوصل بها الى العلم القطعي بالحكم الشرعي) قـــال الشيخ محمد بن ادريس في كتابه السرائر : (فاذا فقدت الثلاثة ــ الكتـــاب والسنة والاجماع ــ فالمعتمد في المسألة الشرعية عند المحققين التمسك بدليل العقل فأنها مبقاة عليه وموكولة اليه) واذا لم يعثر المجتهد على الحكـــم الواقعي لتلك الحادثة في الادلة السابقة على نحو القطع أو الظن واصبح في حيرة وشك ، فلا يقف مكتوف اليدين ، بل يلجأ الى ادلة اخرى تسمـــى (الاصول العملية) للحصول على الحكم الظاهري ، واهم موارد الاصـــول العملية هي :

البراءة ، والاحتياط ، والاستصحاب ، والتخيير وهـي لا تخلـو اما ان تكون مقررة من قبل الشرع، ويطلق عليها حينئذ (الاصول العملية الشرعية)واما ان تكون مقررة من قبل العقل ويطلق عليها حينئذ (الاصول العملية العقلية) قال الشيخ الانصاري في كتابه الوسائل (ان المكلف اذا التفت الى حكـم شرعي فأما ان يحصل له الشك فيه او القطع او الظن فأن حصل له الشك فالمرجع فيه هي القواعد الشرعية الثابتة للشاك من مقام العمل وتسمى بالاصـول العملية) .

نمو المذهب

نما الفقه الجعفري نموا عظيما ويرجع ذلك الى سببين رئيسين :

١ ـ خصوبة اصوله وتعدد مصادره وسعة افق المجتهدين في المذهب وحسن تصرفهم في الثروة الضخمة التي ورثوها عن ائمة اهل البيت (عليهـم السلام) لاسيما وانهم عدوا اقوال الائمة مصدرا تشريعيا مكملا للسنة النبوية .

٢ ـ ابقاء باب الاجتهاد مفتوحا ، وعدم جواز تقليد المجتهد المتوفى ابتداء وضرورة استفتاء احد المجتهدين الاحياء وتقليده .

ذيـوع المذهب

انتشر المذهب الجعفري في العراق وماوراءه من بلاد المشرق واخذ ينافس المذاهب الاخرى في كثرة الاتباع ، كما انتشر في الحجاز وشـرق الجزيـرة العربية (الاحساء ، والدمام ، والقطيف) والشام ، ولم يكن له حظ في مصر وافريقيا وبلاد الاندلس .

سابعا ـ المذهب الزيدي

من المذاهب الفقهية التي كان بدء ظهورها في الحجاز وذيوعها وتمركزها في العراق ثم انتقالها منه الى غيره من الاقاليم (المذهب الزيدي) .

امـام المذهب

هو زيد بن علي بن الحسين(٨٠ــ١٢٢هـ/٦٩٩ــ٧٣٩م)ولد في المدينة المنورة وفيها نشأ وتلقى العلم عن آبائه (عليهم السلام) وعن شيوخ عصره من التابعين. فقد روى عن ابيه زين العابدين ثم عن اخيه محمد الباقر ، الذي كان يكبره ، علم آبائه ومالديهم من حديث وآثار ، وكتاب (المجموع) الذي يشتمل على روايات زيد ، فيه احاديث كثيرة تنتهي الى الامام علي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) او تقف عند علي رضي الله عنه ، كما تلقى العلم عن عبدالله بن الحسن، وقد كان ثقة صدوقا تتلمذ له كثيرون منهم ، ابو حنيفة ، وروى عنه جمع من المحدثين منهم : مالك وسفيان الثوري .

كان الامام زيد فقيها ومحدثا وعالما بالقراءات له منزلة كبيرة بين العلماء وكان مقصدا لطلاب الفقه والحديث في الحجاز انتقل زيد الى العراق واخذ يتجول في مدنه (البصرة وواسط والكوفة) ينشر علمه ويذاكر العلماء ويحاور الفقهاء ويناظر المتكلمين ، قال فيه ابو حنيفة : (شاهدت زيد بن علي فما رأيت في زمانه افقه ولااسرع جوابا ولا ابين قولا لقد كان منقطع القرين) وقال فيه جعفر الصادق عندما سئل عنه: (كان والله اقرأنا لكتاب الله، وافقهنا في دين الله واوصلنا للرحم والله ماترك فينا لدنيا ولا لآخرة مثله) وقد نقل فقهه وحديثه تلاميذه الذين اخذوا عنه وتلقوا عليه ، وكان من اكثر الفقهاء المحدثين تلاميذ وقد روى ابو خالد عمرو بن خالد الواسطي عن زيد مجموعيه (المجموع الفقهي والمجموع الحديثي) ورواهما عن الواسطي ابراهيم بن الزبرقان ، ونصر بن مزاحم ، وحسين بن علوان الكلبي ...

اصول المذهب

لم يؤثر عن الامام زيد بيان تفصيلي لمناهجه الاجتهادي ، شأنه في ذلك شأن جميع الفقهاء الذين جاءوا قبل ان يضع الامام الشافعي اصول الفقه وقواعد الاستنباط ، وانما استنبطت مناهجهم من الفروع التي اثرت عنهم

وعليه فقد تولى المجتهدون في المذهب استنباط (اصول الفقه الزيدي)من الفروع التي أثرت عنه وعن غيره من اصحابه الذين لازموه ، وهي في جملتها لاتخرج عن الاصول التي اقرها ائمة المذاهب الفقهية ، فالزيدية يأخذون بالكتاب، ثم بالسنة ثم بالاجماع فأن لم يكن كتاب ولاسنة ولا اجماع يكون القياس ويدخلون فيه الاستحسان والمصالح المرسلة ثم بعد ذلك يجيء العقل ، فما يقر العقل حسنه يكون مطلوبا ومايقر العقل قبحه يكون منهيا عنه . قال صاحب الكاشف في الاصول (اذا عدم الدليل الشرعي من الكتاب والسنة والاجماع والقياس بشتى ضروبه كان دليل العقل)

نمو المذهب

تضافرت عدة اسباب جعلت المذهب الزيديناميا متجددا واهمها :

1 ـ كثرة المجتهدين المنتسبين الى المذهب ، وقد وافقوا الامام زيدا في اكثر ما استنبطوه من احكام فقهية وخالفوه في كثير وقد اضيفت آراؤهم الى المذهب فنمته ووسعته .

٢ ـ ابقاء باب الاجتهاد مفتوحا وكان من الاجتهاد فيه اختيار مايستحسن من آراء في المذاهب الفقهية الاخرى ، وقد صار المذهب بهذا الاختيار حديقة غناء تلتقي فيها صور الفقه الاسلامي المتنوعة واغراسه المتباينة ،وثماره المختلفة الالوان والطعوم .

ذيوع المذهب

انتشر المذهب الزيدي في العراق وماوراءه من بلاد الشرق وتمركز في طبرستان والديلم وغلب على بلاد اليمن واصبح المذهب الرسمي فيها ، ونازعه المذهب الشافعي سلطانه في الشعب وانتشر كذلك في الحجاز والجزيرة العربية ولم يكن له حظ فيما عدا ذلك من الاقاليم .

ثامنا ـ المذهب الاباضي

من المذاهب الفقهية التي نشأت في العراق ، وانتقلت منه الى غيره من أقاليم الدولة العربية الاسلامية ، ونالت حظا من الشهرة والتدوين والبقاء (المذهب الاباضي)وهو منسوب الىعبدالله بن اباض(ت٨٦هـ/٧٠٥م)وقد كانمن فقهاء التابعين ومحدثيهم ، جمع اتباعه من بعده ماروى عنه وعن اصحابه من سنن واحاديث ، ومن اراء فقهية وفتاوي اجتهادية ، ونموها بالتخريج والتفريع عليها ، وقد تكون من ذلك فقه جيد فدونوه منسوبا اليه • والمذهب الاباضي لا يبتعد كثيرا في اصوله وفروعه عن مذاهب جمهور الفقهاء وقد انتشر في العراق والجزيرة العربية ، وفي عمان ، ولايزال اكثر اهلها اباضية ، كما تمركز في الصحراء المغربية والجزائر وزنجبار وغلب على البربر من اهلها خاصة •

* * *

كانت تلك اشهر المذاهب الفقهية التي نشأت في العراق ، ولم تكن جميعها فقد اشرت الى نشوء مذاهب اخرى فيه في اثناء الحديث عن المذاهب التي عاصرتها وغلبت عليها كمذهب سفيان الثوري وابن ابي ليلى • فقد عاصر نشأة المذهب الحنفي ، او في اثناء الحديث عن المذاهب التي تفرعت عنها ، كمذهب ابي ثور فقد تفرع عن المذهب الشافعي •

عهد الركود والتقليد

ابتدأ هذا العهد من منتصف القرن الرابع للهجرة (العاشر الميلادي) وانتهى في اواسط القرن السابع فهو بالتقريب ٣٠٠ سنة • وفيه فترت همم الفقهاء عن الاجتهاد المطلق وعن الرجوع الى مصادر التشريع مباشرة لاستنباط الاحكام منها والتزموا اتباع ماستمده المجتهدون السابقون من احكام وآراء وراضوا انفسهم على التقليد، ورضوا انيكونوا عالة على فقه الائمة السابقين وحصروا عقولهم في دوائر محدودة من فروع مذاهب هؤلاء الائمة واصولها وحرموا على انفسهم انيخرجوا عن حدودها، ونسي رجال هذا العهد ماقاله ابو

حنيفة في اسلافه (هم رجال ونحن رجال) وما قاله مالك (مامن احد الا ويؤخذ من قوله ويترك الا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وما قاله الشافعي (اذا صح الحديث فهو مذهبي واضربوا بقولي عرض الحائط) وبلغ بهم ركونهم الى اقــوال ائمتهم ان قال طليعة فقهاء الحنفية في هذا العهد وهو ابو الحسن الكرخــي (ت٣٤٠هـ/٩٥١م) :(كل آية تخالف ماعليه اصحابنا فهي مؤولة او منسوخة، وكل حديث كذلك فهو مؤول او منسوخ) . وبهذا وقف التشريع عند ماوصل اليه فقهاء العهد السابق وقصر عن مسايرة مايجد من تطورات ومعامــلات واقضية ووقائع .

اســباب الركــود

يرجع وقف التشريع وركود حركة الاجتهاد وسريان روح التقليد في هذا العهد الى عدة اسباب اهمها :

١ ــ انقسام الدولة العربية الاسلامية الى عدة ممالك يتناحر أمراؤها وولاتها وافرادها فبنو امية في الاندلس والفاطميون في الشــمال الافريقي ، والاخشيديون في مصر والزيديون في اليمن ، والبويهيون ثم السلاجقة فالاتابكة في العراق ، والسامانيون ثم الخوارزميون في المشرق واخيرا جاءت الطامة الكبرى التي لم تبق ولم تذر والمتمثلة بالمغــول . هذا الانقسام شغل ولاة الامور بالحروب والفتن اتقاء المكائد وتدبير وسائل القهر والغلبة وشغل الناس معهم فدب الانحلال العام وفترت الهمم في العلوم والفنون وكان لهذا اثره في وقف حركة التشريع .

٢ ــ التزام كل فقيه من فقهاء هذا العهد مذهبا معينا من المذاهب السابقــة . والانتصار له وتأييد فروعه واصوله بكل الوسائل فتارة باقامة البراهين على صحة ماذهب اليه امام المذهب واصحابه وبطلان ماخالفه ، وتارة بالاشادة بزعمائهم ، وعد آيات نبوغهم ومقدرتهم ، وهذا وذلك شغل فقهاء المذاهب وصرفهم من النظر الحر والمستقل في مصادر التشريــــع

الاساسية وصار الواحد منهم لا يرجع الى نص قرآني او حديث نبوي الاليلتمس فيه مايؤيد مذهب امامه ، وبهذا فنيت شخصية الفقيـــه في في مذهبيته .

٣ ـ اعجاب الناس بما تركه فقهاء العهد السابق من دراسات فقهية وثروة تشريعية تشمل الحلول الجزئية والقواعد الكلية ، وأتباع التلاميذ لأئمتهم ، ثم اتباع ماجاء بعدهم . وهكذا اخذ الاتباع يسود التفكير الفقهي ، ومن وراء الاتباع كان التقليد ووقف التشريع .

٤ ـ انبعاث فكرة تقييد القضاء ، وضرورة التزام القاضي بمنهاج معين ، وعدم ترك الامر لرأيه واجتهاده ذلك انه كان فيما مضى يتم اختيار القاضي ممن يتوسم فيهم العلم بكتاب الله وسنة رسوله على استنباط الاحكام منهما ، ثم يوكل اليه الحكم بما يظهر له ، وكان القضاة اذا لم يظهر لهم رأي في حادثة استشاروا من معهم في بلدهم من المفتين وربما راسلوا خلفاءهم فاخذوا رأيهم في بعض المسائل وكانت ثقـة الناس بهؤلاء القضاة عظيمة ، ولكن الحال الاجتماعية تغيرت بامتداد الزمن فوجد من هؤلاء القضاة من لم يحافظ على هذه الثقة ومن هنا ظهر ميل الناس لان يكون القاضي مقيدا في قضائه بأحكام معروفة حتى لا يتيسر له ان يقضي مرة برأى مفت اذا وافق غرضه ويقضـي مرة اخرى برأي مفت يخالفه .

لهذه الاسباب وغيرها اقتصر اكثر فقهاء هذا العهد على دراسة فقه الائمة السابقين والتخريج على اصولهم ، وحتى من توفرت فيه شـــروط الاجتهاد المطلق وسمت نفسه اليه كان يحجم عنه خشية الاتهام بمفارقـة الجماعة ، ويكتفي بان يكون في النهاية مجتهد مذهب بمعنى انه يفتى فيمـا يجد من احداث اذا لم يكن فيها نص لامامه ، او يرجـح احد رأيـين له في الحادثة ، وقد كان من هؤلاء كثيرون في هذا العهد ، على انالانصاف

يملي علينا ان نذكر ان فقهاء المذهب الحنبلي والجعفري والزيدي والاباضي قرروا وجوب ابقاء الاجتهاد مفتوحا وبضرورة عدم خلو عصر من العصور من مجتهد يتولى استنباط احكام لما يجد من احداث ، وان انتسب لمذهب معين من المذاهب المعروفة ، وقد وجد من هؤلاء كثيرون في هذا العهد ايضا .

حركة الفقه والتشريع

ان الاسباب التي قعدت بالفقهاء عن الاجتهاد المطلق ، واستمداد الاحكام الشرعية من مصادرها الاولى ، لم تقعدهم عن بذل جهود تشريعية ضمن دوائر محدودة ، وقد قسم فقهاء هذا العهد الى طبقات اهمها ثلاث

الاولى ــ طبقة المنتسبين

وهم الذين قيدوا انفسهم بالمنهاج المذهبي على الرغم من قدرتهم على الاجتهاد المطلق واكتفوا بالاجتهاد في الوقائع الفرعية على اصول أئمتهم ، وقد يخالف الواحد منهم امامه في بعض الاحكام الفرعية . وسموا منتسبين لانهم منتسبون لمذهب معين ، وان لم يتقيدوا بفروعه وقد وجد من هؤلاء كثيرون في هذا العهد .

الثانية ــ طبقة المخرجين

وهم الذين الزموا انفسهم بأصول مذهب وفروعه واكتفوا باستنباط احكام الوقائع التي لم يرد عن امام المذهب رأي فيها ، وقد انحصر عمل هؤلاء في امرين :

١ ــ استخراج القواعد التي كان يلتزمها ائمة المذاهب وجمع الضوابط الفقهية التي تتكون من علل الاقيسة التي استخرجها الائمة .

٢ ـ استنباط احكام للوقائع التي لم ينص عليها في المذهب
وهذه الطبقة هي التي ميزت الكيان الفقهي لكل مذهب ووضعت الاسس لنمو المذاهب والتخريج عليها .

الثالثة ـ طبقة المرجحين

وهم الذين تولوا الموازنة بين ماروى عن أئمتهم من الروايات المختلفة والاقوال المتعارضة ورجحوا بعضها على بعض ليبينوا اقوى الروايات ويميزوا أصح الاقوال او اقربها الى السنة ، او اوفقها قياسا ، او ارفقها بالناس .

ومن هذا يتبين ان جهود الفقهاء التشريعية في هذا العهد انصبت على اصول المذاهب الفقهية وفروعها التي تكونت في العهد السابق، وانهم بدل ان ينظروا في مصادر التشريع الاساسية (القرآن والسنة) ويستنبطوا الاحكام منها مباشرة ، قصروا جهودهم على اقوال الائمة وتعليلها والترجيح بين المتعارضات منها وبذلك سوغ هؤلاء لانفسهم غلق باب الاجتهاد المطلق ، الذي فتحه الله ودعاهم اليه الرسول ولايفوتني ان أذكر أن بعض المذاهب الفقهية واخص منهم الحنابلة والجعفرية ابقوا باب الاجتهاد مفتوحا على مصراعيه لكل من استوفى شروطه وانس من نفسه القدرة وبذلك برهنوا على فاعلية وحيوية الفقه الاسلامي ، وصلاحيته للتشريع في كل عصر حتى يرث الله الارض ومن عليها ، باعتبار ان الشريعة الاسلامية هي خاتمة الشرائع السماوية .

المراجـــع

احمد امين

فجر الاسلام ، ط/١٠ ، مصر ١٩٦٥

احمد تيمور

المذاهب الفقهية الاربعة ، مطابع سجل العرب / مصر

احمد بن علي النجاشي

كتاب الرجال / طبعة بمباي ١٣١٧ هـ

احمد بن علي الخطيب البغدادي

تاريخ بغداد ، دار الكتاب العربي ، بيروت

اجناس جولد تسهير

العقيدة والشريعة في الاسلام ، دار الكتاب المصري ١٩٤٦

ابن قيم الجوزيـة

اعلام الموقعين ، دار الكتب الحديثة ، مصر ١٩٦٩

جرجي زيدان

تاريخ التمدن الاسلامي ، مطبعة الهلال ، مصر ١٩٣٢ .

خيرالدين الزركلي

الاعلام ، ط ٤ . دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٩ .

زيد بن علي بن الحسين

المسند ، مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٦ م

شمس الدين ابن خلكان

وفيات الاعيان ، دار صادر ، بيروت

صبحي المحمصاني

فلسفة التشريع في الاسلام ، ط ٣ دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦١ م

عبدالله بن عبدالمحسن التركي
اسباب اختلاف الفقهاء ، ط/٢ ، مكتبة الرياض الحديثة
اصول مذهب الامام احمد ، ط/٢ ، مكتبة الرياض الحديثة
عبدالحسين شرف‌الدين الموسوي
النص والاجتهاد ، ط/٤ مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت ١٩٦٦ م
علي سامي النشار
نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ، ط/٤ ، دار المعارف ١٩٦٩
عبدالحليم الجندي
الامام الشافعي ناصر السنة وواضع الاصول ، دار الكاتب العربي ، بيروت ١٩٦٧
عبدالوهاب خلاف
علم اصول الفقه وخلاصة تاريخ التشريع الاسلامي ، ط/٣ ، مصر ١٩٤٧
عزالدين بن عبدالسلام
قواعد الاحكام في مصالح الانام ، دار الشرق للطباعة، مصر ١٩٦٨ م
عمر رضا كحالة
معجم المؤلفين ، دار احياء التراث العربي ، بيروت
محمد ابو زهرة
تاريخ المذاهب الاسلامية ، دار الفكر العربي ، مصر
الامام الصادق ، دار الثقافة العربية للطباعة
الامام ابو حنيفة ، ط/٢ ، دار الفكر العربي ١٩٤٧
محاضرات في اصول الفقه الجعفري، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٦
محمد ثابت الفندي وآخرون
دائرة المعارف الاسلامية ، مصر ١٩٣٣
محمد بن جرير الطبري
اختلاف الفقهاء ، ط/٢ ، بيروت
محمد الخضري
تاريخ التشريع الاسلامي ، ط/٤ مطبعة الاستقامة ، مصر ١٩٦٥
محمد بن ادريس الشافعي
الرسالة ، ط/١ ، مطبعة مصطفى الحلبي واولاده بمصر ١٩٤٠

محمد رضـــا المظفــر
اصول الفقه ، ط/٣ ، دار النعمان بالنجف ١٩٧٦
محمد علي السايس
نشأة الفقه الاجتهادي وتطوره دراسة منشورة في كتاب المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الاسلامية ، ١٩٦٨ م
محمد مصطفى شلبي
تعليل الاحكام ، مطابع الازهر ١٩٤٧ م

الفصل الرابع

اللغة والنحو

د . خديجة الحديثي
كلية الآداب - جامعة بغداد

تمهيد

العربية لغة الامة الكريمة التي شرفها الله بكتابه الكريم ونبيه العظيم محمد (صلى الله عليه وسلم) هذه اللغة العريقة الممتدة جذورها في اعماق التاريخ اهتم بها اصحابها وأعجبوا بها ، وكانت موطن فخرهم واعتزازهم ، بها باهوا الامم وفضلوها على سائر اللغات وانصرفوا اليها مؤرخين وجامعين وباحثين ومنظمين ومستنبطين للاصول والاحكام وواضعين القواعد والمقاييس .

بهذه اللغة نزلت معجزة الرسول الكبرى وبها فخر النبي (عليه السلام) فقال « أنا افصح العرب بيد أني من قريش » فاستحقت من المسلمين ان يوجهوا اليها هممهم وعنايتهم، وان يتناولوها بالدرس والتحقيق وقد رويت عن الرسول والصحابة الاقوال الكثيرة التي ترفع من شأنها وتحث على العناية بها والتأليف

فيها والمحافظة عليها وصونها من التأثر بلغات الاقوام الاخرى وحمايتها مـن العجمـة واللحن والتصحيف والتحريف •

كانت العناية باللغة العربية وبما نظم فيها معروفة قبل ظهور الاسلام ، وكان العرب يهتمون بالشعر ونظمه وروايته والمفاخرة به ، وكان الشعراء لسان قومهم يشيدون بمجد قبائلهم وعزها ويتغنون بمفاخر آبائهم فكان لكل منهم راوية او اكثر يتلقى عنه ما يقول وينشره ويعلي صيته في الآفاق وكان من الرواة من يختص بشاعر بعينه ومنهم من يروي لاكثر من شاعر •

القرآن وأثره

استمرت العناية باللغة بعد ظهور الاسلام وانتشـار القرآن الكريم في الاصقاع النائية التي وصل اليها نوره واستظلت بظله ، وزاد اهتمام العلماء العرب بهذه اللغة التـي ارتفعت في نظرهم بعـده ، واصبحت عنوان دينهم ودنياهم ، ورمز مجدهم وعزهم وتقدمهم وقوتهم وايمانهم ، وكان القرآن السبب المباشر لظهور الدراسات اللغوية وتطورها فقد نزل بلغـة العرب وبألفاظهم وعلى اساليب كلامهم ليفهموه ويطبقوا شريعته واحكامه ويأتمروا بأوامره وينتهوا بنواهيه ويقربوا ما حلل ، ويتجنبوا ما حرم ، ولم يكن ذلك ممكنا الا بان يفهم جميع المسلمين على اختلاف قبائلهم ولهجاتهم ومساكنهم وأجناسـهم ولغاتهم معاني الفاظه وعباراته ، وكان الداخلون في الاسـلام من العرب من قبائل شتى ولذلك كان من البديهي ان لا يتساوى المسلمون في فهمهم لآياته ، وكان احسنهم فهما له الرسول العربي فهو مرجعهم في فهم امور معجزتـه الكبرى (القرآن) وتفسير ما أشكل عليهم من الفاظـه وما غمض من معاني عباراته ودقائق احكامه ، وتفصيلات شريعته ، فلما قضى الله بوفاته اصبح الصحابة (رضي الله عنهم) المرجع في تفسيره وكان منهم من يتحرج أن يفسر غير ما فسره الرسول ومنهم من يتطوع لذلك وكان ممن

اشتهر بتفسيره عبدالله بن عباس (رضي الله عنه) «٦٨هـ / ٦٨٧م» الذي ألف، تفسيرا رواه عنه مجاهد وكان يفسر الآيات مستشهدا عليها باللغة من منثور ومنظوم • وتطور هذا النوع من التفسير فأصبح العلماء بالعربية من الصحابة والتابعين مهتمين بتبيين معانيه وتفسير غريبه وبيان مشكله •

مراكز الثقافة اللغوية

ادت محاولات العلماء البحث في معاني القرآن وتفسير غريبه وبيان مشكله الى الاهتمام بجمع اللغة عن القبائل العربية الفصيحة وكان من اوائل المهتمين بذلك العلماء الذين استقروا في البصرة اول المدن التي مُصّرت في العراق بعد ان حرره العرب المسلمون اذ بدأ عتبة بن غزوان بتمصيرها سنة اربع عشرة للهجرة ــ على الارجح ــ بموافقة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فبنى مسجدها الجامع الذي اصبح فيما بعد مركزا للعلوم القرآنية واللغوية والنحويــة وغيرها •

كانت هذه المدينة منبع هذه الدراسات والشمس التي شع نورهــا على الناطقين بالضاد ، وغمرت بضوئها بلاد العرب والمسلمين بعد ان استطاع رجالها القائمون على هذه الدراسات ان يضعوا اصولها وضوابطها واقيستها التي بها يستطيعون ان يفسروا آيات كتاب الله واحاديث رســوله الكريم واساليب أسلافهم من العرب الفصحاء وان يفهموها من عاصرهم او جاء بعدهم ممن دخلوا في الاسلام وانضووا تحت لوائه من أبناء الالســن المختلفــة والاجناس المتعددة • وكانت الكوفة ثاني مدينة مصرت في العراق بعد الفتح الاسلامي ، مصرها سعد بن ابي وقاص في السنة السابعة عشرة للهجرة الا ان الدراسات اللغوية والنحوية تأخر ظهورها فيها •

وقد اشتهرت في البصرة والكوفــة مراكز كان لها الاثر الاكبر في نشأة علوم اللغة وتطورها ونشر الثقافة الدينية فيها او في حواضر اخرى وهي :

١ ـ المسجد

كان المسجد الجامع في البصرة ومسجد الكوفة اول ما أسس مع دار الامارة فيهما وكان المسلمون ينشئونه في وسط المدينة تحيط به الدور والاحياء والسكك لانه موضع العبادة يجتمع فيه الناس لاداء فريضة الصلاة وسماع خطبة الجمعة وغيرها والبحث في امور دينهم ودنياهم ، وعقد الاجتماعات العامة التي يدعو اليها الخليفة او ولاته .

وأصبح المسجد فيما بعد اكبر معاهد العلم ومركزا للعلوم المتنوعة ، فيه تعقد مجالس الدرس وحلقات الشيوخ لتعليم القرآن وقراءاته وتفسيره وفقهه ، وللحديث وروايته وتدوينه والبحث فيه ، وللغة وسماع المنثور منها والمنظوم اذ يجتمع الرواة والقصاص والخطباء والشعراء ، وكان للوعاظ والفقهاء حلقات خاصة بهم كما كان للغويين والنحاة مجالسهم ومباحثاتهم في علوم اللغة المختلفة واشتهر من مجالس علماء العربية في البصرة :

مجلس الحسن البصري (ـ١٠٠هـ/٧١٨م) وكان يجتمع فيه الناس على اختلاف نزعاتهم واهوائهم لسماع قراءته للقرآن الكريم وتفسير آياته وكان يتبع في ذلك اسلوب عبدالله بن عباس (ـ ٦٨هـ/٦٨٧م) في اهتمامه بالتفسير والاستشهاد عليه باللغة منثورها ومنظومها وكان شديد الاحساس باللحن مشهودا لـه بالفصاحة وجمال العبارة ونصاعة الاسلوب كما يقول الجاحظ .

ومجلس حماد بن سلمة (ـ١٦٥هـ/٧٨١م) المحدث المشهور بالفصاحة المعدود من متقدمي النحاة ، كان يقول : « من لحن في حديثي فقد كذب عليّ » وكان يروي الحديث في مجلسه ويصححه لطلبته ويعنى بالفاظه وسنده وتفسير معانيه واحكامه .

وكانت تعقد في مسجد البصرة الجامع حلقات للقراءة واللغة والنحو يزدحم فيها طلبة العلم، ومن اشهرها حلقة ابي عمرو بن العلاء (ـ ١٥٤هـ/

٧٧٠م)احد القراء السبعةعالم اللغةوالنحوالرواي لمنظوم اللغةومنثورها،ومجلس الخليل بن احمد الفراهيدي(ـ ١٧٥هـ/٧٩١م)او حلقته التي كان الدارسون فيها يزحم بعضهم بعضا حتى انكمشت من حوله الحلقات ولم يتحدث التاريخ في حياة الخليل عن مجلس غير مجلسه الذي خلفه في الجلوس فيه معاصره يونس ابن حبيب البصري (ـ ١٨٢هـ/٧٩٨م) ولم تدب الحياة في المجالس الاخرى الا بعد موتـــه •

كانت هذه الحلقات التي تعقد في مسجد البصرة تهتم بالدراســات القرآنية وعلوم الحديث والفقه والقراءة وتعليم اصولها وتخريجاتها والبحث في صحتها واختلافها وتوجيهها بحسب لغات القبائل العربية المتنوعة المتعددة ، هذه الدراسات التي كانت الاساس الذي قامت عليه فيما بعد المباحث اللغوية ونشأت منه وتفرعت عنه المباحث النحوية ، ثم اتجهت الى ميادين اخرى ، منها دراسة الشعر وروايته ونقده والمفاضلة بين الشعراء علــى اساس الصحة اللغوية والنحوية بعد الفصاحة وجودة الشعر ، أذعن فيها الشعراء لاحكام النحاة ونقدهم واخذوا يلمون بمجالسهم يسمعون ما يذكر من عيوب الشعر ليتجنبوها واصبحوا يعرضون شعرهم بعد ذلك على النحاة قبل انشاده ليقيموه وليأمنوا مخالفتهم اياهم وطعنهم عليهم •

وعلى الرغم من كثرة المجالس والحلقات وتعددها وتنوعها لم اســتطع ان اعثر في المصادر التي بين يديّ على مايشير الى مجلس لابي الاسود الدؤلي (ـــ٦٩هـ/٦٨٨م) في المسجد الجامع او في غيره ولم يتطرق لذلك كتاب التراجم ومؤلفو الطبقات مع ان مجالس الاقراء والتفسير والدراسات اللغوية بدأت قبل زمن ابي الاسود أي منذ تأسيس المسجد الجامع في البصرة • وبقي العلمـــاء يعقــدون فيه مجالســـهم وحلقـــاتهم للاقـراء ولرواية اللغـــة والمناقشة فى الظواهر التي تعرض في هذه القراءات • وفي المسجد الجامع نشطت الدراسات القرآنية في زمن ابي الاسود ومعاصريه وتلاميذه وعلى

ايديهم تم نقط المصحف نقط الاعراب ثم نقط الاعجام وكان ذلك بداية التفكير في المسائل اللغوية والنحوية والبذرة الاولى التي نمت وازدهرت ثم اثمرت هذا النحو العظيم .

أما مسجد الكوفة فقد نمت فيه حلقات الإقراء وعلوم القرآن وقد اشتهر من علمائها يحيى بن وثاب (ـ١٠٣هـ/٧٢١م) وعاصم بن ابي النجود (ـ١٢٨هـ/٧٤٥م) وحمزة بن حبيب الزيات (ـ١٥٦هـ/٧٧٢م) وسليمان الاعمش (ـ ١١٢ هـ / ٧٣٠م) وعلي بن حمزة الكسائي (ـ ١٨٣هـ /٧٩٩م) وكان عاصم وحمزة والكسائي من القراء السبعة المشهورين . ووجدت فيه حلقات لعلماء اهتموا بالتشريع والفقه وبرز من رجالها ابو حنيفة النعمان (ـ ١٥٠ هـ / ٧٦٧م) وكان زعيمها الاكبر عبدالله بن مسعود (ـ ٣٢هـ / ٦٥٢م) الذي اتبع منهج عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في الاجتهاد بالرأي في الشريعة فيما لم يكن فيه نص من قرآن او سنة وهؤلاء هم مؤسسو مدرسة الرأي الفقهية في الكوفة .

وفي هذا المسجد ومن بين هؤلاء الرجال الذين عرفتهم مجالس الاقراء فيه عرف الكسائي الذي اخذ القراءة عن حمزة بن حبيب الزيات ثم تصدر للاقراء بعده فكانت له حلقة في مسجد الكوفة يقرىء فيها القرآن ويشرح فيها ما يعرض له من مسائل لغوية ونحوية وصرفية وصوتية تتعلق بقراءته او بقراءات مخالفة له وكان لتلميذه الفراء حلقة مشهورة يملي فيها على الحاضرين ويشرح لهم ما يتعلق بآيات الكتاب المبين من قراءات وما يعرض في عباراته والفاظه من مشكلات وصلت الينا في كتابه الشهير « معاني القرآن » كما أملى فيه كتابه « الحدود » في النحو الذي عد اضخم الكتب التي الفها ، وكان للشعراء والادباء والرواة حلقات يروون فيها الشعر ويتناشدونه وكان الدافع الى كل هذه العلوم الرغبة الخاصة فيها .

٢ ـ المربد

كان المربد سوقا بظاهر البصرة ومناخا للابل وكان يسمى « سوق الابل »

وهو شبيه بسوق عكاظ الذي كان اصله سوقا لتبادل السلع ثم اصبح مقصد القبائل العربية يجتمعون فيه ، وبعد تمصير البصرة اصبح المربد مثابة للخطباء والشعراء من البادية والحاضرة يتناشدون فيه الاشعار ويتفاخرون باحسابهم وانسابهم ومآثرهم ولم يكن هؤلاء الشعراء ممن يقيمون في الحاضرة وانما كانوا اعرابا ، فمقام الفرزدق بادية البصرة ومقام جرير بادية اليمامة ومقام الاخطل بادية بني تغلب وكان غيرهم من الشعراء يفضلون الاقامة بالبادية ويختلفون الى المربد في المواسم التي يلتقي فيها البدو والحضر والشعراء والخطباء والنقاد والنحاة واللغويون الذين كانوا يحضرون لمشافهة الاعراب ممن سلمت سلائقهم ولم تشب فصاحتهم شائبة التحضر وليضعوا مستعينين بما يسمعونه عنهم اصولهم في الدرس النحوي واللغوي بعد ملاحظة اساليب تعبيرهم والظواهر التي ترد في كلامهم •

٣ ـ دور الخلفاء والامراء والوزراء والاغنياء

كانت هذه الدور تتخذ في الكوفة مراكز لنشر العلم والثقافة على اختلاف فروعها فقد كان اصحابها يتخذون لاولادهم معلمين خاصين ولا سيما الطبقة المكونة من القبائل العربية الاصيلة وكان همّ هؤلاء المعلمين تأديب اولاد هذه الطبقة فاشتهر منهم الشرقي بن القطامي الوليد بن الحصين (ــ ١٥٥هـ / ٧٧١م) وابو معاوية شيبان بن عبدالرحمن التميمي الشيباني النحوي (ــ ١٦٤ هـ / ٧٨٠م) أو (ــ ١٧٠هـ / ٧٨٦م) كان الاول وافر الادب عالما بالنسب وكان الثاني قارئا محدثا نحويا من متقدمي النحاة البصريين المقيمين في الكوفة •

٤ ـ مجالس المناظرة

كان الناس يجتمعون فيها للتناظر والتباحث في مسائل معينة يتهيأون لها ويستعدون بالاطلاع على هذه العلوم اطلاعا يؤهلهم للخوض فيها أمام حشد كبير من المستمعين المختصين بالعلم المتناظر فيه ، او من غيرهم كالولاة والامراء والعلماء غير المختصين ثم شارك في حضورها والاستماع اليها او

الاشتراك في المناقشات والتحكيم فيها الخلفاء والوزراء وغيرهم من رجال الدولة ، وفي مجالس العلماء للزجاجي والاشباه والنظائر للسيوطي الكثير منهـا .

٥ ـ الرحـلات

وكان للرحلة اثرها الواضح في تنمية العلوم وانتشارها بـين البصرة والكوفـة وغيرهما من مدن العراق كبغداد والموصل وبين هذه المدن وغيرها من اقطار العالم العربي الاسلامي فيما بعد ، فقد كان البصري يرحل الى الكوفة ليعلم اولاد الكوفيين ما تلقاه عن شيوخه البصريين من علوم ولا سيما اللغوية منها والنحوية كما فعل أبو معاوية شيبان التميمي البصري (ـ١٦٤هـ/٧٨٠م) الذي اخذ النحو عن الخليل ورحل الى الكوفة يبث هـذا العلم بين الدارسين اخذ النحو عن الخليل ورحل الى الكوفـة يبث هذا العلم بين الدارسـين ويعلمه ابناء أهل الكوفـة ، ويرحل الكوفي الى البصرة ليطلع على العلوم التي ظهرت فيها واشتهرت وليشارك في البحث والمناقشة ثم يعود محمـلا بمسائل هذه العلوم الى الكوفـة كما فعل كثير من المؤدبين والمعلمين الكوفيين كأبي جعفر الرؤاسي (١٨٧هـ/٨٠٣م) وعلي بن حمزة الكسائي (ـ١٨٣هـ / ٧٩٩م) اللذين رحلا الى البصرة فقابلا الخليل وحضرا مجلسه وسمعا منه وكان ان اعجب به الكسائي وتعجّب من اطلاعه الواسع على لغة العرب ومن العلوم اللغوية التي استنبطت مـن هذه اللغة وانتشرت وازدهرت في البصرة ، فلما اعلمه بأنه قد سمعها مـن بوادي نجد وتهامة والحجاز خرج الكسائي الى هذه البوادي رغبة في الاستزادة وفي التشبه بنحاة البصرة وعلماء اللغة فيها فسمع ودوّن ما سمع وحفظ الكثير ثم عاد الى البصرة بعد وفاة الخليل وجلس في مجلس يونس واشترك في المناقشات التي كانت تجري فيه ثم عاد الى الكوفة ليدرّس اللغة التي سمعها ويقارن ما وجده من ظواهر بما اطلع عليه منها عند الخليل وليستنبط ظواهر جديدة ينشرها بين الدارسين الكوفيين ، ورحل رحلة

اخرى الى البصرة حضر فيها حلقة يونس وشارك في المناقشات التي كانت تجري فيها .

ورحل الى بغداد كل من الكسائي والفراء (ـ٢٠٧هـ/٨٢٢م) ليؤدب الاول الرشيد بن المهدي ثم اولاده من بعده وليحل الثاني محل استاذه في دار الخلافة العباسية مستشارا لغويا نحويا ، ورحل الاخفش الاوسط سعيد بن مسعدة (ـ٢١٥هـ/٨٣٠م) الى بغداد والمبرد (ـ٢٨٥هـ/٨٩٨م) الى سامراء باستدعاء من الخليفة المتوكل ولازمه ونشر علمه فيها ثم رحل الى بغداد بعد مقتل المتوكل حيث استقر فيها وكوّن له مجلسا في مسجدها نشر فيه النحو البصري ممثلا بكتاب سيبويه وباسلوب المبرد في العرض والاستدلال والاحتجاج .

واستمر علماء العربية يرتحلون من مدينة الى اخرى ومن بلد الى آخر يتلقون علوم هذه البيئات ويوصلون اليها علوم بيئاتهم وقد ادت هذه الرحلات وهذا التنقل الى نشر العلوم في الامصار فقد كان لابي علي النحوي (ـ٣٧٧هـ/ ٩٨٧ م) فضل كبير في نشر علوم العربية بين بغداد والموصل والشام وبلدان الشرق ، وفعل مثله تلميذه ابن جني (ـ ٣٩٢ هـ / ١٠٠١م) الذي تنقل بين الموصل وبغداد والشام .

واثمر البحث في هذه المراكز الثقافية نوعين من الدراسة هما : الدراسة اللغوية والدراسة النحوية .

(١)
الدراسات اللغوية

جمع اللغة

استمرت العناية في البصرة باللغة وجمعها وواكبت تلك حركة اقراء القرآن وتفسير غريب آياته والفاظه وتوضيح احكامه والعمل على نشره ، وقد انصرف علماء العرب المسلمون الى هذا كله معتمدين على ما جاء في لغات العرب وما رووه عن الفصحاء مما ادى الى ان تنشط حركة جمع اللغة التي

لم تشب ألسنة الناطقين بها شائبة من عجمة او لكنة او لحن وتكونت طبقة من العلماء اللغويين المهتمين بالقرآن وقراءاته وتفسيره ممن اخذوا على عاتقهم جمع اللغة وروايتها حفظا او تدوينا للاحتجاج بها .

وادى بهم هذا الاهتمام الى ان حددوا اللغات العربية الفصحى وهي التي صفت قرائح المتكلمين بها لبعدهم عن الاختلاط بالاجناس الاخرى فسلمت السنتهم من تأثير العجمة وبقيت على فصاحتها وحافظت لغتهم على صفائها ونقائها فكانت لغة البدوي المتفرد في وسط الصحراء المثل الاعلى الذي يجب ان يحتذى ، ووصف المتكلم بها بالذكاء والفطنة وفصاحة اللسان مما حدا بالخلفاء والامراء وكبراء المجتمع الى ان يبعثوا ابناءهم الى البادية ليكتسبوا الفصاحة ونصاعة البيان وصفاء القريحة وليتخلقوا باخلاق البدو ويتطبعوا بعاداتهم .

ووجدت كذلك طائفة من علماء العربية والاقراء سمّوا بالمربين ساعدوا على تنشئة ابناء الخلفاء وكبار رجال الدولة ممن لم يستطيعوا الخروج الى البادية وتثقيفهم بعلوم لغتهم ، وأدى هذا الى رحيل الاعراب الى المدن فهجروا البوادي واستقروا في الحواضر يترددون على هؤلاء المربين في حلقاتهم الدراسية يزودونهم باللغة الفصيحة حيث اغترف منهم هؤلاء المربون العلم الوفير ودونوا اقوالهم والفاظهم وما رووه عن قبائلهم ، واصبحت هذه المدونات كتبا تنسب الى هؤلاء الاعراب مع انها مدونة من قبل العلماء الرواة .

وكان من اشهر هؤلاء الاعراب الذين استقروا في المدن واخذ عنهم علماء العربية ابو البيداء الرياحي وهو اعرابي نزل البصرة يعلم الصبيان بأجرة ، وابو مالك عمرو بن كركرة وهو اعرابي كان يعلم في البادية ويورق في الحضر وكان راوية لابي البيداء الرياحي ، بصري المذهب يحفظ اللغة ، له من الكتب «خلق الانسان» و «الخيل» . وابو سراء الغنوي" كان فصيحا

اخذ عنه ابو عبيدة • وابو عرار اعرابي غزير العلم كثير الحفظ • وابو زياد الكلابي أعرابي بدوي قدم بغداد ايام المهدي وأقام بها اربعين سنة وبها مات وله من الكتب « النوادر » و « الفرق » و « الابل » و « خلق الانسان » • وابو الجاموس ثور بن يزيد ، اعرابي كان يفد الى البصرة وعنه اخذ ابن المقفع الفصاحة • وأبو خيرة نهشل بن زيد اعرابي ، بدوي من بني عدي دخل الحضرة وله من الكتب « كتاب الحشرات » • وابو ثوابة الاسدي ، اعرابي يروي عنه الأموي • وأبو مهدية أعرابي صاحب غريب يروي عنه البصريون • وابو مسحل أعرابي حضر بغداد وله مناظرات مع الاصمعي في التصريف ، له من الكتب « النوادر » و « الغريب الوحشي » • وابو ثروان العكلي أعرابي فصيح يعلم في البادية وله كتاب « خلق الفرس » وكتاب « معاني الشعر » وغيرهم كثير •

وظهرت مع هؤلاء طائفة اخرى من العلماء لم يكن همهم الاول التدريس ولم يكونوا من مؤدبي اولاد الطبقة الحاكمة ومربيهم وانما كان همهم العلم والتتبع والتقصي والتوسع في الضبط والتحليل والتفسير وكان على رأس هؤلاء ابو الاسود الدؤلي (ـ ٦٩ هـ /٦٨٨م) وتلاميذه من بعده، تخصص بعض هؤلاء بالخروج الى بوادي نجد والحجاز وتهامة لتلقي اللغة عن الناطقين بها وحفظها عنهم مباشرة وروايتها او تدوين ما يسمعون من سكان هـذه البوادي ويعودون به الى مجالس الدرس في البصرة ثم في الكوفة وكان من اشهرهم عبدالله بن ابي اسحاق (ـ ١٢٧ هـ / ٧٤٤ م) وعيسى بن عمر (ـ ١٤٩هـ / ٧٦٦م) وابو عمرو بن العلاء (ـ ١٥٤هـ / ٧٧٠م) والخليل ابن احمد الفراهيدي (ـ ١٧٥ هـ /٧٩١م) ويونس بن حبيب البصري (ـ ١٨٢هـ / ٧٩٨م) وعلي بن حمزة الكسائي (ـ ١٨٣ هـ /٧٩٩م) وابو الخطاب الاخفش الكبير الذي اخذ وروى عن ابي عمرو وطبقته ، وابو عمرو الشيباني (ـ ٢٠٦ هـ/٨٢١ م) وابو عبيدة معمر بن المثنى (ـ ٢١٠هـ/٨٢٥م) والاصمعي (ـ٢١٣هـ/٨٢٨م) وعمرو بن ابي عمرو الشيباني (ـ ٢٣١هـ /

٨٤٥م) وابن الاعرابي (ـــ ٢٣١هـ/٨٤٥م) وغيرهم ممن سمعوا لغات العرب الفصحاء في البوادي، وفي المربد من الشعراء والخطباء وممن يرد البصرة والكوفة من الاعراب والرواة، وقد صنف هؤلاء مصنفات لغوية منها ما كان في لغات العرب وغريب القرآن والحديث والنوادر ومنها ما كان في موضوع بعينه مثل خلق الانسان والحيوان واسماء السيف واسماء الاسد ، وقد وصلت الينا اسماء بعض هذه الكتب ، ومن هذه المصنفات ما جمع لغة العرب واحصى موادها وذكرها مصنفة مبوبة ، وتلك هي المعاجم التي كان اولها واشهرها معجم « العين » للخليل بن احمد الفراهيدي (ـــ ١٧٥ هـ / ٧٩١م) .

نقل اللغة

اخذ علماء العربية والاقراء منذ زمن عبدالله بن عباس (ـــ ٦٨هـ/٦٨٧م) وابي الاسود الدؤلي (ـــ ٦٩هـ/٦٨٨م) وتلاميذه ممن جمعوا اللغة أو سمعوها عن الاعراب والرواة يدرسون هذه اللغة ويقارنون بها ما جاء في كتاب الله العزيز من الفاظ غريبة على الدارسين ومن اساليب وعبارات مشكلة المعاني ويضعون الحدود والاصول معتمدين على هذه المادة اللغوية التي بين ايديهم ، ولشدة حرصهم على العربية الاصيلة لغة القرآن العظيم ورغبتهم في صيانتها من التغيير والتحريف بعد اتساع رقعة الدولة العربية الاسلامية المعتمدة على كتابها المجيد وانتشاره بين المسلمين في البصرة ، المدينة التي تعددت قوميات الساكنين فيها والطارئين عليها واختلفت لغاتهم اهتموا بهذه اللغة المروية (المنقولة) فوضعوا شروطا خاصة بالراوي (ناقل اللغة) وبالمروي (المنقول منها) وبالمروي عنه (المتكلم بها) وحددوا المكان الذي يصح النقل عن اصحابه والزمان الذي يتحدد به النقل ولا يتعداه .

واهتم علماء العربية المتأخرون بتحديد الشروط التي اتبعها أوائل اللغويين والنحاة في جمع اللغة وقد تحدث ابن فارس (ـــ ٣٩٥هـ/١٠٠٤م) عن الشروط التي يجب توافرها في الناقل والمنقول عنه واللغة المنقولة في كتابه

« الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها » . وألف ابو البركات بن الانباري (ـ ٥٧٧هـ / ١١٨١م) كتابه «لمع الادلة» لبحث أدلة النحاة الاوائل واصولهم في اللغة التي جمعوها واعتمدوا عليها في تقعيد قواعد اللغة والنحو والصرف .

عرّف ابن الانباري (النقل) بانه « الكلام العربي الفصيح المنقول النقل الصحيح الخارج عن حد القلة الى حد الكثرة ، فخرج عنه اذاً ما جاء في كلام غير العرب من المولدين وما شذ من كلامهم كالجزم بـ (لن) والنصب بـ (لم) ...» وجعله قسمين: تواترا وآحادا ، فأما التواتر فلغة القرآن الكريم وما تواتر من السنة وكلام العرب وهذا القسم دليل قطعي من أدلة النحو يفيد العلم . واما الآحاد : فما تفرد بنقله بعض اهل اللغة ولم يوجد فيه شرط التواتر وهو دليل مأخوذ به . ووضع علماء اللغة لكل من التواتر والآحاد شروطا فصلوا فيها وكان من اهم شروط التواتر ان يبلغ عدد النقلة الى حد لا يجوز فيه على مثلهم الاتفاق على الكذب كنقلة القرآن الكريم وما تواتر من السنة وكلام العرب فانهم انتهوا الى حد يستحيل على مثلهم فيه الاتفاق على الكذب . واختلفوا في عدد هؤلاء النقلة اختلافا كبيرا دفع ابن الانباري الى ان يقول بعد سرده الاعداد : « وأما تعيين تلك الاعداد فانما اعتمدوا فيها على قصص ليس بينها وبين حصول العلم بأخبار التواتر مناسبة وانما اتفقَ وجودها مع هذه الاعداد فلا يكون فيها حجة » .

أما شروط الآحاد فمنها : ان يكون ناقل اللغة عدلا ـ رجلاكان او امرأة ، حراً كان او عبداً ، كما يشترط في نقل الحديث ، لان بها معرفة تفسيره وتأويله فاشترط في نقلها ما اشترط في نقله ... فان كان ناقل اللغة فاسقا لم يقبل نقله ، ويقبل نقل العدل الواحد ولا يشترط ان يوافقه في النقل غيره » .

وفصلوا في شروط من يقبل نقلهم ، واختلاف علماء اللغة في ذلك ، وفي قبول نقل اهل الاهواء وقبول المرسل ـ وهو الذي انقطع سنده ـ والمجهول

ـ وهو الذي لم يعرف ناقله ـ وذهب اكثرهم الى ان الجهل بالناقل وانقطاع السند يوجبان الجهل بالعدالة فان ذكر اسـمه ولم يعرف لم تعرف عدالته فلا يقبل نقله وذهب بعضهم الى قبول هذين النوعين •

وتحدثوا في الاجازة وهي (في فن الحديث ان يجيز المحدّث لمعّين في معين) مثل ان يقول : (اجزت لك الكتاب الفلاني وما اشتملت عليه فهرستي هذه) فيروي طالب الاجازة الكتاب عن المحدث بسنده كما يقول ابن الصلاح في مقدمته •

وزاد السيوطي في « المزهر » من طرق النقل ما سماه (الافراد) وعرفه بقوله : « وهو ما انفرد بروايته واحد من اهل اللغـة ولم ينقله احد غيره ، وحكمه القبول ان كان المتفرد به من اهل الضبط والاتقان كأبي زيد والخليل والاصمعي وابي حاتم وابي عبيدة واضرابهم وشرطه الا يخالفه فيه من هو اكثر عددا منه » •

وتكلم ابن فارس على كيفية اخذ اللغة ورأى انها « تؤخذ اعتياداً كالصبي العربي يسمع ابويه وغيرهما فهو يأخذ اللغة عنهم على مر الاوقات ، وتؤخذ تلقنا من ملقن وتؤخذ سماعا من الرواة الثقات ذوي الصدق والامانة ويتقى المظنون •• فليتحر آخذ اللغة وغيرها من العلوم أهل الامانة والثقة والصدق والعدالة » •

وفصل السيوطي في « المزهر » الكلام على طرق الاخذ والتحمل معتمدا في بحثها واحصائها على ما استنبطه من كتب اللغويين والنحاة الاوائل ممثلا لكل نوع منها بأمثلة من هذه الكتب وعدّها ستة ٠

احدها ـ السماع من لفظ الشيخ او العربي وله عند الاداء والرواية صيغ اعلاها ان يقول (أملى عليّ فلان) أو (أملّ عليّ فلان) ويلي ذلك (سمعت) ويليه (حدثني) اذا حدّث وهو وحده و (حدثنا) اذا حدّث وهو مع غـيره ، ويلي ذلك (اخبرني فلان) و (اخبرنا فلان) ويستحسن

الافراد حالة الافراد والجمع حالة الجمع ـ كما تقدم ـ ويلي ذلك ان يقول (قال فلان) ونحوه (زعم فلان) ويليه (عن فلان) ومثله (ان فلانا قال) .

ثانيها ـ القراءة على الشيخ ويقول عند الرواية (قرأت على فلان) ويستعمل فيه ايضا (اخبرنا) و (حدثنا) وتارة (املى عليّ) فيما سمع املاء عليه وتارة (قرىء عليّ وانا أسمع) .

ثالثها ـ السماع على الشيخ بقراءة غيره ويقول عند الرواية (قرىء على فلان وانا اسمع) أو (اخبرنا قراءة عليه وانا اسمع) أو (اخبرني فيما قرىء عليه وانا اسمع) وقد يستعمل في ذلك (حدثنا) .

رابعا ـ الاجازة وذلك في رواية الكتب والاشعار المدونة ، وقد تقدم الكلام عليها .

خامسها ـ المكاتبة : قال ثعلب في أماليه (بعث بهذه الابيات اليّ المازني، وقال : انشدنا الاصمعي ... الابيات) وقال غيره (اخبرنا فلان فيما كتب بـه الي) .

سادسها ـ الوجادة قال القالي في اماليه (قال ابو بكر بن ابي الازهر : وجدت في كتاب ابي : حدثنا الزبير بن عباد ..) وقال (قال ابو بكر بن الانباري : وجدت في كتاب ابي عن احمد بن عبيد عن ابي نصر ...) وقال ابو عبيدة : (وجدت في كتاب لبعض ولد ابي عمرو بن العلاء ..)

واهتم علماء اللغة بالفصيح من الالفاظ ووضعوا له صفات تميزه من غيره وشروطا يجب ان تكون فيه واخرى يجب ان يخلو منها . وكان من أوائل من الفوا فيه أحمد بن يحيى ثعلب (ــ ٢٩١هـ / ٩٠٣م) الذي التزم في كتابه « الفصيح » أن يورد الفصيح والافصح مما يجري في كلام الناس وكتبهم قد اعتنى من جاءوا بعده بهذا الكتاب وعكفوا عليه يشرحونه ويذيلون عليه. فكان ممن شرحه : ابـن درستويه (ــ ٢٨٥ هـ/٨٩٨ م) وابـن خالويـه (ــ ٣٧٠ هـ / ٩٨٠م) وغيرهما من العراقيين . وذيّل عليه الموفق عبداللطيف

البغدادي (ـ ٦٢٩ هـ / ١٢٣١م) بذيل يقاربه في الحجم •

قال السيوطي : « رتب الفصيح متفاوتة ففيها فصيح وأفصح ونظير ذلك في علوم الحديث تفاوت رتب الصحيح ففيها : صحيح وأصحّ » •

وكان ممن ميز بين الفصيح والافصح من المتقدمين ابو عبيد القاسم بن سلام (ـ ٢٨٧هـ /٩٠٠م) في مواد كتابه « الغريب المصنف » وابن دريد (ـ ٢٣١هـ/٨٤٥م) في كتابه «الجمهرة» وابو علي القالي (ـ ٣٥٦هـ/٩٦٦م) في أماليه وابن خالويه (ـ ٣٧٠هـ / ٩٨٠م) في « شرح الفصيح » وفي «شرح الدريدية » وغيرهم •

وقد جعل ثعلب مدار الفصاحة في اللفظة على كثرة الاستعمال وذهب ابن خالويه الى ان « اللغة اذا وردت في القرآن فهي افصح مما في غير القرآن لا خلاف في ذلك » ووضع غيرهما للفصيح المفرد شروطا منها : خلوصه من تنافر الحروف ومن مخالفة القياس اللغوي •

شروط من تنقل عنه اللغة

اما الفصيح من قبائل العرب فلم يغفل علماء اللغة البحث فيه وكان من أوائل من تتبع ذلك في كتب اللغة ابن فارس الذي تكلم على القبائل العربية الفصيحة في كتابه « الصاحبي » وعد قريشا افصح العرب بكونها (اللغة الاولى القدمى) كما يقول سيبويه فقال: «اجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لاشعارهم والعلماء بلغاتهم وايامهم ومجالسهم أن قريشا افصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة وذلك أن الله جل ثناؤه ـ اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمداً صلى الله عليه وسلم فجعل قريشا قطّان حرمه وجيران بيته الحرام وولاته فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفِدون الى مكة للحج ويتحاكمون الى قريش في امورهم وكانت قريش مع فصاحتها

وحسن لغاتها ورقة ألسنتها اذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم واشعارهم احسن لغاتهم وأصفى كلامهم فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك افصح العرب الا ترى انك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم ولا عجرفية قيس ولا كشكشة اسد ولا كسكسة ربيعة ولا الكسر الذي تسمعه من اسد وقيس مثل (تِعلمون) و (نِعلم) ومثل (شِعير) و (بِعير) .. » .

ولم يخرج ثعلب في مجالسه عن هذا حين قال « ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم وتلتلة بهراء وكسكسة ربيعة وكشكشة هوازن وعجرفيّة ضبة .. » .

وعد ابو نصر الفارابي قبيلة قريش « أجود العرب انتقادا للافصح من الالفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعا وأبينها ابانة عما في النفس » وحدد القبائل الاخرى التي اعتمد على لغاتها في الدراسات اللغوية والنحوية بقوله : « والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدي وعنهم اخذ اللسان العربي من قبائل العرب هم : قيس وتميم واسد فان هؤلاء هم الذين عنهم اكثر ما أخذ ومعظمه وعليهم اتكل في الغريب وفي الاعراب والتصريف ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم » .

هذه هي القبائل التي حدد اللغويون فصاحتها وعدّوها ممن يقتدى بلغاتها .

وتحدّث الصحابة عن لغات العرب التي نزل بها القرآن واللغات التي يستحسن ان تكتب بها المصاحف قال ابن فارس في باب (القول في اللغة التي نزل بها القرآن وانه ليس في كتاب الله ـ جل ثناؤه ـ شيء بغير لغة العرب) : « عن ابن عباس قال : نزل القرآن على سبعة احرف أو قال : سبع لغات ، منها خمس بلغة العجز من هوازن وهم الذين يقال لهم : عليا هوازن وهي خمس

قبائل او اربع منها سعد بن بكر وجشم بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف . قال ابو عبيد : واحسب افصح هؤلاء بني سعد بن بكر وذلك لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا افصح العرب ميد أني من قريش ، واني نشأت في بني سعد بن بكر » وهم الذين قال فيهم ابو عمرو بن العلاء : أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم .

وعن عبد الله بن مسعود انه كان يستحب ان يكون الذين يكتبون المصاحف من مضر . وقال عمر : « لا يملين في مصاحفنا الا غلمان من قريش وثقيف » وقال عثمان : « اجعلوا المملي من هذيل والكاتب من ثقيف » . هذا مع انه قد جاءت في القرآن لغات لاهل اليمن معروفة كلغة أزد شنوءة . ويروى مرفوعا أن القرآن نزل على لغة الكعبين : كعب بن لؤى وكعب بن عمرو وهو ابو خزاعة .

أما اللغات التي لا يصح الاخذ منها والاحتجاج بها لفسادها بمخالطة الاجناس الاخرى فقد حددوها أيضا . نقل السيوطي عن كتاب « الالفاظ والحروف» لابي نصر الفارابي(ـ ٣٥٠هـ/٩٦١م) قوله: «....وبالجملةفانه لم يؤخذ عن حضري قط ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن اطراف بلادهم المجاورة لسائر الامم الذين حولهم فانه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم اهل مصر والقبط ولا من قضاعة وغسان واياد لمجاورتهم اهل الشام واكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية ، ولا من تغلب واليمن فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس ولا من عبد القيس وازد عمان لانهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ولا من اهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف واهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ولا من حاضرة الحجاز لان الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الامم وفسدت السنتهم والذي نقل اللغة واللسان العربي من

هؤلاء وأثبتها في كتاب فصيرها علما وصناعة هم اهل البصرة والكوفة فقط من بين امصار العرب » •

يتضح من هذا النص ان علماء اللغة البصريين والكوفيين هم الذين اهتموا بجمع لغة العرب وجعلوا دراستها علما وألفوا فيها الكتب ثم اخذ هذا عنهم ونقل ونشر في البلدان العربية والاسلامية •

ولو عدنا الى اول كتاب وصل الينا يجمع علوم العربية وآراء شيوخها منذ نشأة الدراسة النحوية والصرفية واللغوية وهو كتاب سيبويه وتتبعنا اللغات التي اعتمد عليها سيبويه وشيوخه واحتجوا بها لوجدناها مرتبة بحسب الفصاحة والصفاء ترتيبا قريبا مما ورد عند الباحثين الذين تقدمت أقوالهم ، وذلك أنهم جعلوا لغة قريش افصحها واعلاها واقدمها وقد يسميها سيبويه (الحجازية) ويكفيه للتعبير عن صحة الاسلوب وفصاحته ان يصفه بانه حجازي ، ويأتي بعدها في الفصاحة لغة تميم التي قد تساوي لغة الحجاز وقد تتبعها وقد يعد لغة تميم اصح قياسا في بعض الظواهر الواردة فيها ، وتأتي بعد هاتين اللغتين في الفصاحة لغات منها : لغة بني اسد ، او من ترضى عربيته منهم ، ومنها : لغة طيء وهي لغة قوية جارية في الاستعمال ومنها بنو عدي ـ من تميم ـ وبنو سليم وهم ممن يوثق بعربيته ومنها بنو سعد ومنها قبائل لم يصفها بالفصاحة او الضعف مثل بعض بني سعد وكعب وغني وخثعم وان قال عنها في موضع بانها ليست هي الجيدة ومنها لغة فزارة وهي قليلة عنده ومنها لغة بكر بن وائل ولغة قوم من ربيعة •

تبين لنا من هذا ومن النصوص التي قدمناها مبلغ عناية علماء اللغة بوصف لغات العرب والتمييز بينها من حيث الفصاحة والصفاء ومدى ما بذلوه من جهود في سبيل الحفاظ عليها وصيانتها لتبقى لغة الكتاب العزيز خالدة نقية سليمة من التحريف والفساد •

ولم يقتصرهم علماء العربية على التحدث عن الفصيح من القبائل واللغات والالفاظ وانما تعدوا ذلك الى الكلام على الضعيف والمنكر والمتروك الرديء والمذموم من اللغات وتجاوز ذلك الفراء الى ان سمى بعضه (مستبشع اللغات) و (مستقبح الالفاظ) فقال : « كانت العرب تحضر الموسم في كل عام وتحج البيت في الجاهلية وقريش يسمعون لغات العرب فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به فصاروا افصح العرب وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الالفاظ ، من ذلك : الكشكشة وهي في ربيعة ومضر .. ومن ذلك الكسكسة .. و .. العنعنة وهي في كثير من العرب في لغة قيس وتميم .. ومن ذلك الفحفحة في لغة هذيل .. » .

درجات المنقول

وعنوا بالكلام على المطرد والشاذ وتبيين انواع كل منهما ودرجاته وامثلته وميزوا بين المستعمل من الالفاظ والمهمل مما لا تأتلف فيه الحروف البتة ويكاد كتاب « الخصائص » لابن جني يكون مسرحا للكلام على اللغة العربية وخصائصها وعللها ومقاييسها وما يمكن ان يفكر فيه علماء اللغة من امور تخصها وتحدد اصولها ولهجات قبائلها واصناف هذه اللهجات .

ولم يغفل علماء اللغة الكلام على المعرّب من الاعجمي فقد تحدث عنه الخليل وبين في مقدمة معجمه « العين » الحروف التي لا تأتلف في كلمة عربية ، والحروف التي لا تخلو منها كلمة عربية رباعية كانت او خماسية او سداسية . وعقد سيبويه ابوابا للمعرّب في كتابه منها : (باب ما أعرب من الاعجمية) و (باب اطراد الابدال في الفارسية) و (باب الاسماء الاعجمية) وتحدث عن (العلم الاعجمي) في أبواب ما ينصرف وما لا ينصرف ، والتحقير وغيرها .

وتحدث الجوهري في « الصحاح » عن تعريب الاسم الاعجمي وقال : « هو أن تتفوه به العرب على مناهجها تقول : « عرّبته العرب وأعربته ايضا » .

وألف ابو منصور موهوب الجواليقي (ـ ٥٤٠هـ/١١٤٥م) كتاب «المعرّب من الكلام الاعجمي» ذكر فيه الالفاظ التي دخلت اللغة العربية من مختلف اللغات مشيرا الى ما وقع فيه خلاف في اللغة المنقـول عنها او في كونهـا عربية اشـبهت الاعجمية • وتحدث عنه ايضا ابو عبيد القاسم بن سلام وابو عبيدة معمر بن المثنى • وهكذا نجد اللغويين قد بحثوا في كل ما له علاقة بهذه اللغة الكريمة وفي كل ما أثّر فيها •

التأليف في اللغة

أما جمع اللغة والتأليف فيها فقد كانت له صور مختلفة وموضوعات متعددة لم يترك اللغويون موضوعا منها لم يؤلفوا فيه ولما كان جمع اللغة انما بدأ لتفسير ألفاظ القرآن الكريم وتبيين معانيه وتوضيح غريبه وغريب ألفاظ الحديث النبوي فقد اهتم علماء اللغة من القراء والمفسرين والمحدثين بالتأليف في هذه الموضوعات وكان من اوائل ماصنف فيها كتب غريب القرآن وعزي اول كتاب في ذلك لابن عباس (ـ ٦٨ هـ/٦٨٧ م) كما نسب اليه تفسير لآيات القرآن الكريم روي عن طريق ابي بكر بن مجاهد (ـ٣٢٤هـ/٩٣٥م) وألف فيه كثيرون منذ زمنه اشتهر منهم ابن قتيبة (ـ ٢٧٦هـ / ٨٨٩م) الذي وصل الينا كتابه في « غريب القرآن » الذي قصر فيه بحثه على تفسير الغريب •

واهتموا بالتأليف في معاني القرآن لتوضيح آياته وتبيين معاني عباراته وكان من اشهر ما ألف فيه كتاب «معاني القرآن» للفراء (ـ ٢٠٧هـ/٨٢٢م) و «معاني القرآن» للاخفش الاوسط سعيد بن مسعدة (ـ ٢١٥هـ/٨٣٠م) • وألفوا في لغات القرآن وكان اول ما ألف فيها رسالة تنسب الى ابن عباس وهي « اللغات في القرآن » وقد قصر عنايته فيها على لغات القبائل العربيـة ولهجاتها وميز بينها ، وألف في الموضوع نفســه الفراء والاصمعي وابن دريد •

وكان من الموضوعات المتعلقة بالقرآن مايبحث في مشكل اعراب القرآن وما يخص النقط والشكل في القرآن الكريم وينسب ابن النديم الى الخليل بن احمد الفراهيدي (ــ ١٧٥هـ/٧٩١م) تأليف اول كتاب في هذا الموضوع • وتكلموا على (اللامات) في القرآن الكريم والفوا فيها كتبا من أشهرها كتاب « اللامات » لسعيد بن مسعدة الاخفش الاوسط • وكان لهم اهتمام بموضوع الوقف والابتداء في القرآن الكريم لان بهما يتضح معنى الآيات وعلى مواضع الوقف يعتمد التفسير •

وغريب الحديث مما شغل علماء اللغة فعنوا بتوضيحه والتأليف فيه وكان كتاب : « ماجاء من الحديث المأثور عن النبي عليه السلام مفسرا وعلى أثره مافسر العلماء من السلف » • لعبد الرحمن بن عبدالاعلى السلمي اول كتاب الف فيه كما يرى ابن النديم ، وتواصل التأليف فيه وكان من اشهر ماوصل الينا منها كتاب « النهاية في غريب الحديث والاثر » لابي السعادات بن محمد الجزري ابن الاثير (ــ ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م) •

واهتموا بالتأليف في لغات القبائل وكان يونس بن حبيب البصري (ــ ١٨٢هـ / ٧٩٨م) اول من نسب اليه كتاب في (اللغات) وتابعه من النحويين واللغويين الفراء وابو زيد الانصاري وابن دريد •

وكان الحفاظ على لغة القرآن والحديث النبوي والعرب الفصحاء السبب الرئيس لنشوء هذه الدراسات التي تبعت جمع اللغة والتأليف فيها وكان اللحن في الكلام من أقسى ماواجهه اللغويون وحاولوا دفعه عن ألسن المتكلمين بالعربية عربا كانوا فسدت سليقتهم بمخالطة الاعاجم او اعاجم دخلوا في الدين الاسلامي وخالطوا العرب وحاولوا التكلم بالعربية فأفسدوا هذه اللغة وغيروا من ظواهرها الصوتية او الصرفية او النحوية وقد شاع اللحن في لغة عامة الناس الذين أوجدوا لهم لغة خاصة انحرفت عن الفصحى وابتعدت عنها بتخلصها من الأعراب وبما غيرته من طريقة تأليف العبارات ومن تحريف في

كثير من المفردات وفي خصائص اخرى كثيرة ، هذه اللغة التي سميت (اللغة العامية) ألفت فيما وقع فيها من لحن وتحريفـات كتب كثيرة حملت اسـم : (لحن العامة) او (ماتلحن فيه العوام) عني بها علماء اللغة عناية كبيرة واهتموا فيها بذكر الاصل الصحيح للالفاظ والعبارات والتنبيه على ما وقع فيها من خطأ لكي يجنبوا الناطقين بها الابتعاد عن الفصحى ، ثم تسرب اللحن الى ألسـن الخاصة فألفت كتب (لحن الخاصة) ومن اشهر هذه الكتب كتـــاب « درة الغواص في أوهام الخواص » للقاسم بن علي بن محمد الحريري المتوفى في البصرة سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م، ولم يكن لمعظم هذه الكتب منهج معين وانما كانت تذكر المواد في الكتاب بحسب سماعها من غير ترتيب كما في كتب ابن قتيبة وثعلب والجواليقي وكان بعضها قد رتب في فصول رتبت فيها المواد ترتيبـا ألفبائيا كما في « اغلاط الخواص والعوام » لابي الفرج جمـال الدين بن الجوزي الذي الفه حوالي سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م وكان قد رتبه هذا الترتيب لانه جمع مادته من كتب علماء العربية كالفراء والاصمعي وابي عبيد وابي حاتم ومن تبعهم من أئمة هذا العلم وكان له فيه فضل الترتيب والاختصار لكنه مع هذا لم يرتب سوى الحرف الاول ولم يهتم بما بعده من حروف .

ومن هذه الكتب كتاب «اصلاح المنطق» لابن السكيت (ـ ٢٤٦هـ/٨٦٠م) و«أدب الكاتب» لابن قتيبـة (ـ ٢٧٦ هـ/٨٨٩م) و «الفصيح» لثعلـب (ـ ٢٩١هـ/٩٠٣م) وجميع هؤلاء من اللغويين والنحاة الذين واصلوا السماع والبحث والتأليف في حلقات الدرس البصري والكوفي والبغدادي وهم الذين كان لهم الفضل الاول في جمع اللغة وتنقيتها والتنبيه على الفصيح منها وعلى ماوقع فيها من تحريف او تصحيف او لحن او وهم في لغة العوام او الخواص.

ولم يقتصر اهتمام علماء اللغة العربية على ماتقدم وانما درسوا وبحثوا والفوا في مسائل جزئية تتعلق بصوت من اصوات اللغة كثر دورانه في لغات العرب واختلفوا في نطقه باختلاف لهجاتهم ذلك هو (الهمزة) الحرف الذي

كان من العرب من يحققه ومنهم من يخففه ومنهم من ينطقه بين بين وكان هذا الاختلاف يشتد ويتضح في قراءات القرآن لذلك انصرف علماء العربية الى التأليف فيه فكان من هذه الكتب ما حمل اسم (الهمز) او (تحقيق الهمز) عند ابي زيد الانصاري (ـ٢١٥هـ/٨٣٠م) وافرد ابو عبيد القاسم بن سلام (ـ ٢٢٤هـ / ٨٣٨م) ثلاثة ابواب من كتابه الكبير « الغريب المصنف » للهمز ، وكذا فعل ابن قتيبة (ـ ٢٧٦هـ / ٨٨٩م) في « ادب الكاتب » واهتم به ابن دريد (ـ ٣٢١ هـ / ٩٣٣م) في « الجمهرة » ونبه عليه وقد وصل الينا كتاب ابن جني (ـ ٣٩٢ هـ/١٠٠١ م) المسمى « ما يحتاج اليه الكاتب من مهموز ومقصور وممدود مما يكتب بالالف والياء » .

وألف علماء اللغة الذين خرجوا الى البادية ، والاعراب الذين هجروها واستقروا في المدن كتبا في اللغة تحمل اسم (النوادر) لم تكن تتخصص بموضوع معين ولابألفاظ معينة وانما كانت تتمثل في روايات لغوية متنوعة عن قبائل عربية مختلفة يقارن فيها بين هذه اللغات في نطق بعض الالفاظ او العبارات أو في معانيها وقد تنسب فيها اللغات الى افراد منسوبين الى هذه القبائل كالسعدي والتميمي والتغلبي والنمري والمقصود قبائلهم . وقد يفسرون الالفاظ الواردة ويحتجون على معانيها عند هذه القبائل بما ورد من اقوال رجالها او شعر شعرائها ويمثل هذا النوع من التأليف كتاب «النوادر» لابي زيد الانصاري .

وألف اللغويون في موضوعات بعينها منها ماكان يتعلق بخلق الانسان وصفاتها وسيرها وعاداتها وادواتها كالسرج واللجام والرحل وغرها ، وكان خير كتاب يمثل النوع الاول كتاب الاصمعي(ـ ٢١٥هـ/٨٣٠م) « خلق الانسان » .

وكان للحشرات كتب خاصة بها وقد عدوا منها ماورد في القرآن

الكريم من النمل والنحل والذباب والعنكبوت والجراد والبعوض والفوا كتبا تحمل اسم الحشرات واخرى تحمل اسم نوع معين منها .

واهتموا باسماء البلدان والمواضع ووصفها وتحديدها ولهم في مياه العرب وجبالها ومناهلها وقراها كتب كثيرة للاصمعي وابي عبيدة وابي سعيد السكرى(ـ٢٧٥هـ/٨٨٨م) وكان غرضهم من ذلك في اول الامر تحديد الاماكن والبقاع الكثيرة الواردة في اشعار الجاهليين والاسلاميين وفي القرآن الكريم واحاديث الرسول (عليه افضل الصلاة والسلام)وكان القائمون بهذا من الادباء اللغويين ثم اصبح التأليف فيها جزءا من علم آخر هو علم الجغرافية .

والذي يعنينا من كل هذه الكتب التي الفت في الموضوعات السابقة أنها الفت لاغراض لغوية صرفة حيث كان الاهتمام فيها موجها الى الالفاظ ومعانيها وابنيتها واصواتها وطريقة النطق بها وكيفية صوغ العبارات في اللغة الفصيحة ، لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والعرب الفصحاء وإن تعددت موضوعاتها وتنوعت وتشعبت اسماؤها .

أما الكتب التي الفت في موضوعات لغوية صرفية فقد كانت نوعين : منها مايتعلق بابنية معينة كأبنية الاسماء والافعال وماشتق منهما تحمل عنوانات عامة او خاصة ، ومنها ماكان الغرض منه احصاء اللغة وحصر الالفاظ المستعملة في العربية وبيان عددها ومعانيها . وكانت كتب الابنية من اهم ماعتنى به اللغويون والنحاةوالصرفيون وكرسوا جهودهم لحصرها وبيان اوزانها واصولها ودلالة كل بناء فيها فألفوا فيها الكتب الكبيرة كما وضعوا البحوث والرسائل الصغيرة ، أفرد لها بعضهم كتبا وتكلم عليها آخرون في كتبهم النحوية او اللغوية ، وسار التأليف فيها في اتجاهين : تأليف في الاسماء وآخر في الافعال وان كانت العناية بالافعال اكثر منها بالاسماء لكون اللغة العربية لغة اشتقاق وتصريف وهما يتضحان في الفعل

اكثر من اتضاحهما في الاسم لان الفعل يتصرف الى أبنية مختلفة وتشتق منه المشتقات المعروفة وتعتمد عليها مصادرها ولهذا بدأ التأليف فيه وقد علل ابن القوطية (ــ٣٦٧هـ/٩٧٧م) الذي الف كتاب «الافعال» هذا بقوله : « اعلم ان الافعال اصول مباني اكثر الكلام وبذلك سمتها العلماء الابنية وبعلمهـا يستدل على اكثر علم القرآن والسنة ، وهي حركات مقتضيات ، والاسماء غير الجامدة والاصول كلها مشتقات منها وهي اقدم منها بالزمان .. » . وقوله هذا يوضح اهمية الفعل عند اللغويين العرب ، وكـان ممـا يتعلق بالفعل ابنية المصادر او كتب المصادر وكـان اول من الف فيهـا عند ابن النديم الكسائي (ــ١٨٣هـ/٧٩٩م) وتوالت بعده الكتب التي حملت اسم (المصادر او (المصادر في القرآن) الف بعضها النضر بن شميل (ــ٢٠٤هـ/٨١٩م) والفراء (ــ٢٠٧هـ/٨٢٢م) وابو زيد الانصاري (ــ٢١٥هـ/٨٣٠م) وابراهيم بن يحيى اليزيدي (ــ ٢٢٥هـ/٨٣٩م) وابو عمر الجرمي (ــ٢٢٥هـ/٨٣٩م) وتفننوا في الكلام على اشتقاقها وغرائبها كما فعل ابو عبيد القاسم بن سلام في « الغريب المصنف » اذ عقد خمسة ابواب قصار تناول فيها بعض المظاهر الشاذة .

وأول من روي عنه أنه الف في الافعال قطرب النحوي (ــ ٢٠٦هـ) واسـم كتابه « فعل وأفعل » والف في « الاشـتقاق » كذلك ، والف ابو عبيدة كتاب « فعل وأفعل » وابو زيد الانصاري كتاب « فعلت وأفعلت » وتابعهم على ذلك كثيرون من البصريين والكوفيين والبغداديين ، وما ذلك الا لخلط العامة والمثقفين بين البناءَين واستعمالهم احدهما مكان الآخر ، ووقوع الغلط في اشتقاق المضارع والمشتقات منهما وقد وصل الينا بعض هذه الكتب منها كتاب ابي حاتم السجستاني(ــ٢٥٥هـ/٨٦٨م)وكتاب الزجاج (ــ٣٣١هـ/ ٩٤٢م). وكان لكل منها منهج يختلف عن الاخر فبعضها مقسم ابوابا يضمّ كل باب الالفاظ المبدوءة بحرفه بلا ترتيب للحروف الاخرى وبعضها يُعنَى بالصيغتين حين يتفق معناهما وغيره يعنى بهما مختلفتين في المعنى ومنهم من جعل ما كان

على (فعل) قسما وآخر لما كان على (أفعل) وهكذا تعددت المناهج والكتب •

وتكلم بعضهم على الافعال من غير ان يختصوا بناء معينا ، من هؤلاء ابو عبيد في « الغريب المصنف » وابن السكيت وابن قتيبة • وتحدث بعضهم عن التعدي واللزوم في بنائي (فعل) و (افعل) وغيرهما وعن اتفاقهما مع صيغ اخرى واختلافهما عنها • واهتم ابو عبيد بمعالجة المشتقات منهما والمصدر الميمي وغيرها • ولم تصل الينا كتب خاصة بالافعال وابنيتها جميعا مجردها ومزيدها متعديها ولازمها وانما كانت هذه الدراسات في كتب النحو والصرف واول من جمعها في كتاب وتحدث عنها وعن ابنيتها وعملها سيبويه (ـ١٨٠هـ/٧٩٦م) وتابعه في ذلك النحاة والصرفيون فقد جمع ابو عثمان المازني (ـ٢٤٧هـ/٨٦١م) مادة الصرف في كتاب سيبويه ، في كتابه «التصريف» الذي شرحه ابن جني (ـ ٣٩٢هـ/١٠٠١م) بكتابه «المنصف شرح الامام أبي الفتح بن جني لكتاب التصريف » وصنف كتابا آخر هو « التصريف الملوكي » •

وأفرد بعضهم كتبا لامثلة الاسماء وعنوا بها وتحدث عنها ابو عبيد القاسم بن سلام في « الغريب المصنف » واورد تحت مدلول الاسم : المصادر واسماء الافعال وصيغة (فَعالِ) اسم فعل الامر ، وبَيّنَ الصحيح والمعتل والاسماء التي اختلفت فيها اللغات وميز الاسماء من الصفات ، وتعرض ابن السكيت لامثلة الاسماء في كتابه « اصلاح المنطق » فخصص لها القسم الاكبر من الجزء الاول منه وبعض ابواب الجزء الثاني وعني بالالفاظ التي يرد منها مثالان لا مثال واحد •

وكان القسم الثاني من « ادب الكاتب » لابن قتيبة خاصا بأبنية الاسماء وافق فيه ابن السكيت في الموضوعات وزاد موضوعات جديدة •

وعني من جاء بعدهم ولاسيما ابن دريد بابواب الاسم وامثلته ورتب الثلاثي والرباعي على الحروف والحق بها عدة ابواب رتبها على الإبنية

لا على الحروف، فجعل للملحق بالرباعي اثنين وعشرين باباً، وللملحق بالخماسي ثلاثة وثلاثين بابا وللفيف سبعة وثلاثين بابا مما أدى الى كثرة الابواب والامثلة واضطرابها .

ولم يقتصر أمر التأليف في الموضوعات اللغوية على كتب الابنية وانما ألفوا في (الشواهد) و (معاني الشعر) و (الابيات السائرة) و (المقصور والممدود) و (الاشتقاق) و (الاصوات) ولا ندري هل يراد بها اصوات المخلوقات أو الاصوات اللغوية وقد ألف الاخفش سعيد بن مسعدة (ـ ٢١٥هـ) كتابا بهذا الاسم يبدو انه في الاصوات اللغوية وألفوا في (الاضداد) وفي (الامثال) و (الحدود) و (الزوائد) و (الجمع والتثنية) و (غريب الاسماء) و (الالفاظ) و (اشتقاق الاسماء) و (الابنية والتصريف) و (الالف واللام) وفي (ما اختلفت اسماؤه من كلام العرب) وفي (المقاطع والمبادىء) و (الهجاء) و (الادغام) وفي (الخط والهجاء) وفي (ضرورة الشعر) وفي (ما اتفقت ألفاظه واختلفت معانيه في القرآن) وفي (الحروف) وفي (أقسام العربية) وفي (المجاري) وفي (ادب الكاتب) .

ومن الموضوعات التي الفوا فيها كتبا مستقلة او ابوابا من كتب عامة موضوع (الصفات) ويسمى ايضا (الغريب المصنف) وكان القاسم بن معن (ـ ١٧٥هـ/٧٩١م) اول من ينسب اليه كتاب باسم «الغريب المصنف» وألف النضر بن شميل (ـ ٢٠٤هـ/٨١٩م) كتاب « الصفات » وتتابع التأليف في هذا الموضوع فكان ممن الف في (الغريب المصنف) ابو عمرو الشيباني (ـ ٢٠٦هـ/٨٢١ م) وقطرب (ـ ٢٠٦هـ/٨٢١م) والف الاصمعي وأبو زيد الانصاري كتاب « الصفات » وتعتمد هذه الكتب على كتب سابقة متفردة باحدى الصفات ، ومن اشهر ما صنف في هذا الموضوع كتاب النضر بن شميل .

المعجم العربي

وكان (المعجم) أهم ما جدّ في التأليف اللغـوي بعد هذه الكتب المتنوعة المختلطة منها والمستقلة بموضوعاتها ، المرتبة منها على منهج معين والتي كانت لمجرد الجمع وضم المتشابهات في الموضوع الواحد •

لقد اكتشف الخليل بن احمد فكرة المعجم وحاول تحقيقها بان تنبـه الى ان حروف الهجاء العربية تسعة وعشرون حرفا رتبها بحسب مخـارج نطقها مبتدأ بها من اقصى الحلق حتى الشفتين ووجد ان الابنية تنحصر بين الثنائي والخماسي وان للثنائي تقليبين وللثلاثي ست صور وللرباعي اربعـا وعشرين وللخماسي مائة وعشرين صورة وتأتي هذه الصور من تقليب مواضع الحروف في الكلمة فسميت لذلك (تقاليب) فاستطاع بهذه الطريقة أن يحصر مواد اللغة العربية • وكان يشير في كل فصل من فصول الابنيـة الثنائية والثلاثية الى المستعمل منها والمهمل لكون المستعمل اكثرهـا والمهمل اقلها أما ماعدا هذين البنائين اي في الربـاعي والخماسـي فانـه لم يذكر الاالمستعمل ولم ينص على المهمل لكونه اغلب الابنية • ورتب مواد معجمه بادئا بما اشتمل على حرف العين منها مع حرف آخر في الثنائي وهو المضعف وحرفين في الثلاثي وهكذا متتبعا الحروف بحسب مخارجها في اصول الكلمة جميعا من اقصاها مخرجا من الحلق الى ادناها من الشفة فكان ترتيبه لهـا (ع•ح•هـ•خ•غ ـ ق•ك ـ ج•ش•ض ـ ص•س•ز ـ ط•د•ت ـ ظ • ذ • ث ـ ر•ل•ن ـ ف•ب•م ـ و•ا•ي•ء) ولهذا ابتدأ بحرف العين وسمّى معجمه هذا « العين » فكان أول معجم شـامل لمواد اللغة العربية محصورة حصرا دقيقا لم يشذ عنها شيء مرتبة ترتيبا يدل على ذكاء وفطنـة وتتبع •

وقد بعث هذا المعجم نشاطا ملحوظا في حركة التأليف اذ ألفت عليـه كتب ودراسات كان منها مايستدرك عليه مثل كتاب « فائت العين » للخليل

ابن احمد نفسه واستدرك عليه ايضا ابو فيد مؤرج السدوسي (ـ١٩٥هـ/٨١٠م) وعلي بن نصر الجهضمي (ـ ١٨٧هـ/٧٩٤م) والف ابو طالب المفضل بن سلمة (ـ٣٠٨هـ/٩٢٠م) كتاب «الرد على الخليل واصلاح ما في كتاب العين من الغلط والمحال » وألف ابو تراب كتابا سماه « الاستدراك على الخليل في المهمل والمستعمل » وألف ابو عبدالله محمد بن عبدالله الكرماني النحوي الوراق (ـ ٣٣٩هـ/٩٥٠م) كتاب « ما اغفله الخليل في كتاب العين » والف ابو عمر محمد بن عبدالواحد الزاهد (ـ ٣٤٥ هـ/٩٥٦ م) « فائت العين » .

وألف آخرون كتبا تدافع عن العين وتحاول انصافه منها « كتاب التوسط » لابن دريد (ـ ٣٢١هـ/٩٣٣م) وكتاب« الرد على المفضل في الرد على الخليل » لعبدالله بن جعفر بن درستويه (ـ ٣٤٧هـ/٩٥٨م) .

والف ابو علي القالي البغدادي (ـ ٣٥٦هـ/٩٦٦م) كتاب «البارع» واتبع فيه منهج الخليل في « العين » الا انه رتب حروف الهجاء بحسب مخارجها ترتيبا يختلف في بعضها عن ترتيب الخليل وصفه الدكتور حسين نصار بأنه :

(هـ.ع.غ . ق . ك . ض . ج . ش . ل . ر . ن .ط.د.ت .ص ز.ظ.ذ.ث.ف.ب.م.و.ا.ي) وهو عند فلتون على الترتيب نفسه الا ان الاحرف الاولى هي : (هـ . ج . ع . خ . غ . ق...) ويرى الدكتور هاشم الطعان فيما استخرجه من قطع مخطوطة منه أنها (أ . هـ . ع.ح.خ.غ..) وجعل ابواب المعجم ستة هي (الثنائي المضاعف) وسماه (الثنائي في الخط والثلاثي في الحقيقة) و (الثلاثي الصحيح) و (الثلاثي المعتل) و (الحواشي او الاوشاب) و (الرباعي) و (الخماسي) وهو يختلف بعض الاختلاف عن تقسيم الخليل الذي عدها خمسة ولكنه وافقه في اتباع منهج التقليب فهو يورد الكلمة وتقليباتها في اول حرف من الحروف التي تركبت منها المادة .

وكان ممن تابعهما وسار سيرتهما في التأليف المعجمي ابو منصور محمد ابن احمد الازهري (ت ٣٧٠هـ/٩٨٠م) في معجمه « التهذيب » او « تهذيب اللغة » حاول فيه ان يهذب الالفاظ مما غيره الاغبياء وحرفوه عن صيغه وسننها في كلام العرب ولغاتها فأزال ماوقع فيها من تصحيف وتحريف وخطأ بقدر علمه ودعاه الى تأليفه ثلاثة امور : تقييد نكت حفظها ووعاها من افواه العرب الذين شاهدهم واقام بين ظهرانيهم ، والنصيحة الواجبة على اهل العلم لجماعة المسلمين في افادتهم مالعلهم يحتاجون اليه والخلة الثالثة التي لها اكثر القصد أنه قرأ كتبا تصدى مؤلفوها لتحصيل لغات العرب فيها مثل كتاب « العين » ثم كتب احتذى مؤلفوها حذو الخليل فكان من النصيحة التي التزمها ان يخلص مافيها من دخل وعوار ويصفي لغة العرب ويحفظ لسانها العربي وان يهذب الفاظها جهده غاية التهذيب ويدل على التصحيف الواقع في كتبهم والمعور من التفسير المزال عن وجهه لئلا يغتر به من يجهله ولايعتمده من لا يعرفه ومع هذا فقد اتبع منهج الخليل في « العين » بأكمله ، وكان الاختلاف في المواد انفسها حيث تضخمت في التهذيب عما كانت عليه عند الخليل .

وألفت معاجم اخرى سارت على منهج يختلف عن منهج الخليل ولم يكن هدفها هدف كتاب « العين » من احصاء للالفاظ المستعملة في العربية وحصر لها وتمييز لثلاثي الاصول من رباعيه وخماسيه وتنبيه على المستعمل منه والمهمل وانما كان الغرض منها استيعاب كلام العرب الواضح غير المستنكر ولا الغريب ويمثل هذا النوع « الجمهرة » لابن دريد ابي بكر محمد بن الحسن (ـ ٣٢١هـ/٩٣٣م) الذي قال في مقدمته : « وانما اعرناه هذا الاسم لانا اخترناله الجمهور من كلام العرب وأرجأنا الوحشي المستنكر » رتب فيه المواد ترتيبا الفبائيا (أ • ب • ت • ث • ج • ح • خ • د • ذ • ر ز • س • ش • ص • ض • ط • ظ • ع • غ • ف • ق • ك • ل • م • ن

هـ • و • ي) ألا انه افرد في الرباعي المضـــعف ماكان احد أصليه الهمزة سماه (باب الهمزة ومايتصل به من الحروف في التكرير) الحقه بـــاب ما يسميه الصرفيون (الرباعي المضعف) وسماه هو : (ابواب الثنائي الملحق ببناء الرباعي المكرر) مثل (بَ•تْ•بَ•تَ) و (جَ رْ جَ رَ) ومقلوبهما ونحوها •

وجعل ابواب كتابه عشرة ابواب هي : (باب الثنائي الصحيح المدغم) و (ابواب الثنـائي الملحق بالربـاعي المكرر) و (ابواب الثلاثي الصحيح وما تشعب منه) و (باب من الثلاثي يجتمع فيه حرفان مثلان في موضـــع العين واللام او العين والفاء او الفاء واللام من الاسماء والمصادر وما تشعب منه فهو ملحق بما مضى من الثلاثي الصحيح) و (ابواب ما ألحق بالثلاثي الصحيح بحرف من حروف اللين) و (باب النوادر في الهمز) و (باب اللفيف في الهمز) و (ابواب الرباعي الصحيح) و (ابواب اللفيف) قال فيـــه (وانما سميناه لفيفا لقصر ابوابه والتفاف بعضها في بعض ومن ذلك (فِعِلّى ، وفِعِّيلى ، فَعَلّيل ، فعلناء ••••) و (باب الحروف التي قلبت وزعم قوم من النحويين انها لغات) •

وهكذا نجد اللغويين العراقيين قد خاضوا في موضوعات اللغـــة المختلفة وصنفوا في كل فرع من فروعها وجمعوا الفاظ مايتعلق بحيـاتهم من انسان وحيوان وشجر ومياه ومتاع وعادوا الى كـــلامهم فتحدثوا عن اجزائه واقسامه وأبنيته وانواعها واصواتها وتصريفها واخيرا هذبوا جميع هذا ودرسوه وميزوا بين ماجاء منه متشابها في اللفظ مختلفا في المعنـى ، وما جاء منه متشابه المعنى مختلف اللفظ ، وما جاء منه متضاداً ، وعرّجوا على الغريب والوحشي المستنكر وتحدثوا عن الاشتقاق والمشتقات وما يؤخذ منها من اسماء مختلفة ، وأبنيتها ومعانيها وما يرد عليها من افعال بينوا ابوابها وما تشابه منها مجرده ومزيده في المعنى، ووقع فيه التباس ووهم من المتكلمين

باللغة فصنفوا فيه الكتب وعادوا الى مصادرها فألفوا فيها مصنفات كثيرة تحمل اسم المصادر وتتحدث عنها ، واخيرا فكروا في حصر المادة اللغوية العربية واحصاء ألفاظها التي يمكن ان ترد بتركيب اصواتها وتقليبها على الاوجه الواردة فيها وبيان المستعمل منها والمهمل ومحاولة ترتيب اصولها على طرق يسهل معها على المراجع العثور على مايريد في هذه المؤلفات الضخمة فلجأوا الى ترتيب المواد في ابواب تسير على نظام ايراد الاصوات في الكلمة وتقليباتها وتنظيمها في المعجم بحسب مخارج هذه الحروف من اقصى الحلق حتى الشفتين وحاول بعضهم ان يجد طريقة اخرى اسهل منها وهي ترتيب المواد بحسب الحرف الذي تبدأ به متبعا طريقة نصر بن عاصم في ترتيب الحروف عند اعجامه اياها وذلك هو الترتيب الالفبائي على ان يراعى ذلك الترتيب في جميع حروف الكلمة داخل ابواب البناء الواحد وتقليب الكلمة الى الاوجه التي كان يقلبها اليها الخليل وهي وجهان في الثنائي وستة في الثلاثي وأربعة وعشرون في الرباعي ومائة وعشرون في الخماسي يثبت منها المستعمل ويترك المهمل وقد اتبع ابن دريد هذا في الجمهرة .

كل هذا يدل على مدى اهتمام علماء العربية في العراق بلغة القرآن الكريم وعلى الجهد الذي بذلوه في سبيل تكامل هذه الخطوات من الخروج الى البوادي والسماع عن الاعراب والشعراء والحفظ والتدوين ثم الرواية والانشاد ثم الدرس والتتبع والاستنباط والمقارنة والتقعيد والتنظيم والترتيب والاحصاء والحصر واتباع اسهل الوسائل واوضح الطرق في سبيل ان تصل هذه اللغة سليمة سهلة المتناول الى من يحرص عليها ويتكلم بها ويؤلف ويعتز بها وبكتابها الكريم ونبيها العربي العظيم .

(٢)

الدراسات النحوية والصرفية

الدراسات النحوية فى البصرة

بدأت الدراسات النحوية والصرفية في البصرة الواقعة على طريق التجارة ، مما ادى الى وجود قوميات مختلفة فيها تتكلم بألسنة متعددة ولغات متباينة وهذه الاقوام التي انضوت تحت لواء الاسلام احتاجت الى تعلم كتاب الذين الجديد ولهذا كان علماء المسلمين حريصين اشد الحرص على تعليم اللغة العربية لهؤلاء الداخلين في الاسلام فكانت الحلقات والمواسم تعقد في مركزي البصرة الثقافيين : المسجد الجامع والمربد لاقراء القرآن وتفسير ألفاظه ومعانيه وبيان احكامه ودراسة اللغة العربية منظومة ومنثورة والاستعانة بها على كل ذلك في المسجد الجامع ، ولسماع الشعراء والخطباء من الاعراب الفصحاء الذين يردون المربد في المواسم حيث اللغة الفصيحة والاساليب السليمة البليغة التي تعين علماء العربية في تفسير آيات الكتاب المبين وتوضيح غريب الفاظه وعميق معانيه ٠

انشغل علماء المسلمين اول الامر باقراء القرآن ومنهم من اهتم بجمع اللغة من اصحابها الاصليين الفصحاء الساكنين في اواسط الجزيرة في نجد والحجاز وتهامة او أخذها عن الشعراء الفصحاء والاعراب القادمين الى المربد في مواسمه ٠ هذه اللغة التي كانت الزاد الذي غذى مجالس الاقراء بالمعاني والالفاظ ، وشجع على تتبع ظواهرها الصوتية والصرفية والنحوية ومقارنة ما جاء في قراءات الكتاب العزيز بها ، هذا التتبع الذي ادى الى نشأة النحو وتطوره الى مانراه عليه اليوم ٠

نشأة النحو ودوافعها

نشأ النحو كما نشأ غيره من العلوم مبهما مختلفـــا في واضــــعه وفي الدوافع التي ادت الى وضعه ونشأته ، وفي اول ما وضع فيه من آراء واصول ، وفي الزمان الذي كانت عنده البداية • نشأ في حلقات القراء والمفسرين الذين دفعتهم اليه رغبتهم في نشر كتاب الله بين المسلمين وتوضيح معانيــه واحكامه لهم كي يستطيعوا ان يقوموا بمتطلبات هذا الدين الحنيف فيأتمروا بأوامره وينتهوا بنواهيه ويحللوا ما حلل ويحرموا ما حرم • وحثهم على وضعه خوفهم على القرآن العظيم من التصـــحيف والتحريف واللحن مما يؤدي الى تغير معانيه واختلاف الاحكام المستنبطة منه ثم الى دروس هذه اللغة العظيمة في لغات الاقوام الاخرى فيضيع الدين وتزول العربية •

هذه الدوافع وغيرها حثت علماء المسلمين في بلد كالعراق وفي بيئـــة كبيئة البصرة على العناية بالقرآن ولغته وتوضيح ما يرصدون من ظواهر صوتية او صرفية او نحوية للدارسين الوافدين على حلقاتهم ومجالســـهم الملازمين لها والطارئين عليها •

وكان ابو الاسود الدؤلي (ـ٦٩هـ/٦٨٨م)احد هؤلاء العلماء الاعلام الذين اتبعوا طريقة عبدالله بن عباس (ـ٦٨هـ/٦٨٧م)في تفسير القرآن والاحتجاج على الفاظه وعباراته وتبيين معانيها بهذه اللغة المنقولة عن الفصحاء وقد كان شديد الملاحظة للتغييرات الصوتية اللفظية التي تصحب الظواهر الاعرابيـة وتختلف باختلاف المعاني التي يؤديها اختلاف موقع الكلمة في العبارة وكان يؤلمه ويؤلم اولياء الأمور من الخلفاء والولاة ماشاع من لحن في عبـــارات سمعوها من ألسن الناطقين بها ولاسيما في بيئتهم ـ بيئة البصرة ـ في بيوتهم وفي مجالسهم وفي اثناء مقابلاتهم للعرب والموالي مما دفع أبا الاسود برغبة صادقة منه وبحث من علي بن ابي طالب (رضي الله عنه) الى ان يتخذ الخطوة الاولى في سبيل ضبط لغة القرآن وصيانتهـــا من اللحن والتحريف فنقط

المصحف (نقط الاعراب) هذا النقط الذي نعده اكبر خطوة واصعب عمل استطاع انجازه ، لان معرفة المرفوع والمنصوب والمجرور والمجزوم والمنون وغيره تتطلب ممن يميز بينها ويضع لها العلامات المحددة في اماكنها في اجلّ كتاب واقدسه ان يكون ملاحظا للظواهر الصوتية متتبعا لها مميزا بينهـــا متثبتا مما يضع حافظا للمصحف على اصح قراءاته قادرا على التعبير الواضح والنطق السليم خبيرا بالفروق بين القراءات ملما بالمعاني التي توحيها هذه العلامات.وقد يسّر الله له اتمام هذه الخطوة التي تبعتها خطوات من مناقشات ومباحثات بينه وبين معاصريه من علماء القراءة والعربية وبينهم وبين الدارسين المتردّدين على حلقته ، ومن اسئلة عن الصحيح فيما سمعوا مما وقع فيــه اللحن من قراءات بعض الآيات وفي عبارات بعض الناطقين.هذا كله ادى الى ظهور ملاحظات واقوال وتفسيرات في موضوعات حددها المؤرخون بقولهم انه تحدث في: الرفع والنصب والجر والجزم ، وفي: انّ وأنّ وليت ولعل وكأن وانه.وضع باب الفاعل والمفعول والتعجب والاستفهام والعطف . ولم تكن هذه ابوابا كالتي نعرفها اليوم وانما هي ملاحظات لتصحيح قراءة او نطق للعبارات التي سرى اليها اللحن ولتوضيح هذه المسائل توضيحا بدائيا ، هذه المسائل وغيرها كونت ما سمي : (مختصر ابي الاسود) أو (التعليقة) التي اطلع عليها ابن النديم .

ويمكن القول بان بدايـة النحو كانت على يدي ابي الاسود الدؤلي (ـــ ٦٩هـ/٦٨٨م) العالم اللغوي البصري مقرىء القرآن الكريم ومفسره في البصرة ، وقد مر هذا بمرحلتين في زمانه :

الاولى : ملاحظة ضبط كلمات المصحف ووضع العلامات المميزة التي توضح الضبط الإعرابي وقد كانت في زمانه على هيئة نقط طورها الخليل الى مـا يعرف بالضمـــة والفتحـــة والكسـرة والوقف او الســـكون والتنوين .

الثانية : وضع بعض الملاحظات والتعليقات لتوضيح قراءات آيات وقع فيها اللحن وعبارات ملحونة سمعها من ابنته او من بعض الاعراب والموالي ، والذي دفعه الى هذه الملاحظات حاجته الى توضيح الصحيح لابنتـه وللدارسين للآيات التي وقع فيها اللحن وجرى فيها البحث في مجلسه أو دارت حولها مناقشات بينه وبين معاصريه من القراء وعلماء اللغـة وتلاميذه الذين واصلوا هذا النوع من البحث والملاحظة والاستنتاج والتتبع والاستنباط بعد وفاتـــه .

اوائل النحاة

نشر تلاميذ ابي الاسود آراءه واهتموا بتعليم النقط الذي وضعه للدارسين ونشروه في الاقطار الاسلامية وتابع بعضهم البحث والمناقشة والتتبع لمسائل النحو واخذوا يكتبون ما توصلوا اليه من جديد في مدونات يسجلون فيها سماعهم عنه وما جدّ عندهم كما فعل ابنه عطاء ومعاصره يحيى بن يعمر (ـ١٢٩هـ/٧٤٦م) اللذان دوّنا نحو ابي الاسود ووسعا في ابواب النحو، وبسط غيرهما من تلاميذه النحو وعينوا بعض ابوابه ودونوا ما توصلوا اليه من نتائج ، وقد ضاعت هذه المدونات ولم تصل الينا الا اخبار بعضها في كتب التراجم .

ورحل بعض طلاب ابي الاسود الى مدن غير البصرة وبلدان غير العراق ينشرون فيها ماتوصل اليه ابو الأسود وما أضافوه الى جهوده كمـــا فعل عبدالرحمن بن هرمز(ـ١١٧هـ/٧٣٥م)الذي رحل الى المدينة ثم الى مصر حيث علم النحو فيها وفي الاسكندرية ، وعليّ الجمل الذي ذهب الى المدينـــة ووضع كتابا في النحو استفاد منه الاخفش الاوسط ، وابن قسطنطين الذي وضع بمكة شيئاً من النحو وعمل شيئاً آخر بالبصرة ، وكما فعل يحيى بن يعمر الذي عينه الحجاج قاضيا في خراسان ولابد من ان يكون قد واصل بحثه

هناك واطلاعه اوبث ماتعلمه في مجلس ابي الاسود وماوضحه هو وعطاء بن ابي الاسود من قواعـد لظواهر نحويـــة جديدة ، وفعل مثل هؤلاء زهير الفرقبي (١٥٦ هـ/٧٧٢ م)والحر النحوي وسعد الرابية الذي اخذ النحو عن ابي الاسود ، وغيرهم ممن رحل الى الكوفة .

واستمر الحال في البصرة على هذا النحو من التتبع والدرس حتى جاء تلاميذ تلاميذ ابي الاسود من امثال عبدالله بن ابي اسحاق (١٢٧ هـ/٧٤٤ م) الذي وصل النحو عنده الى مرحلة متطورة واتضحت في زمنه مصـطلحات اخرى لموضوعات نحوية جديدة مثل : المبتدأ والخبر ، والفعل والفـــاعل والمفعول به ، والرفع والنصب والجر والقياس والاضمار والصـرف ومنع الصرف والاتباع والترحم ، ولجأ النحاة في زمانه الى الاسـتنباط من الكثير المسموع من كلام العرب الفصيح ووضع الاقيسة على ماورد فيـــه وعرف القياس عند ابن ابي اسحاق واستفاد منه في تنبيه الفرزدق على خروجه عن المألوف المطرد في كلام العرب ، وعرف عنده التأويل والتقدير فيما خالف الاقيسة مما ورد في اشعار الفصحاء الذين لاتمكن تخطئتهم أذ اخذ النحاة يبحثون عن تفسير يردون به هذه المخالفات الى ماعليـه قياس كلام العرب، وكانت في زمنه بداية استخدام العقل والرأي في هذه الاصول استخداما طبيعيا مقبولا وبرزت ظاهرة جديدة في الدراسات النحوية والصرفية هـي محاولة وضع قواعد واقيسة لامور مفترضة كالتسمية بالفعل او بالحرف او تسمية المذكر بلفظ المؤنث او عكس ذلك والتسمية بلفظ الجمع وبيان حكم هذه الاسماء من حيث الصرف ومنعه ومن حيث تثنيتها وجمعهااو تصغيرها وما الى ذلك .

وتطور النحو ومسائله عند عيسى بن عمر الثقفي (١٤٩ هـ/٧٦٦ م) تطورا ملحوظاً ، وبلغ مرحلة من التقدم كونت فيها مسائله وأبوابه مادة ألف منها كتابين ذكرتهما المصادر ، واطلع عليهما المبرد ، وقرأ منهما أوراقاً وهما كتابا

(الاكمال) و (الجامع) وقيل ان سيبويه اطّلع على (الجامع) وأطلع عليه الخليل ، واقتبس منه آراء عيسى بن عمر المبثوثة في كتابه فحفظ بعض آرائه من الضياع •

والجديد في نحو عيسى بن عمر استعماله مصطلحات غير ما كان معروفا ، منها : الحال ، والنداء ، والتنوين ، والرد الى الاصل • وتطورت الملاحظة للظواهر النحوية وان لم تذكر مصطلحات تدل عليها مثل رفع خبر (ليس) بعد (الا) في لغة تميم ونصبه في لغة الحجاز • وظهر الاهتمام بالاستفسار عن الظواهر النحوية المخالفة لما عرفه في كلام العرب ، وشيوع استعمال القياس على الكثير الغالب ، والاعتداد به في الاحكام والآراء النحوية ، وتخطئة الشعراء الخارجين عن الأقيسة العامة ، وكثرة التعليل وتطوره عما كان عليه عند ابن ابي اسحاق ، وتطور التأويل والتفسير، وظهر عنده تقدير العوامل فيما يرى في كلام العرب من منصوب بلا ناصب ، أو مرفوع بلا رافع ، وجدّت عنده ظاهرة إبطال الأقيسة التي وضعها اذا واجهه مسموع فصيح لقائل يعتد بفصاحته مخالف لهذه الأقيسة ، فهو يصحح قياسه ليشمل المسموع الجديد •

وفي زمن أبي عمرو بن العلاء (ـ١٥٤هـ/٧٧٠م) ظهرت آراء ناضجة في النحو والصرف تدل على تطور النحو والصرف وقواعدهما وأبوابهما عما كانت عليه عند سابقيه من شمول في الاستقراء ، وتعميم في الأحكام مما يدل على اطلاع واسع على كلام العرب شعره ونثره ، فقد اشتهر ابو عمرو برواية اللغة بنوعيها ، وظهر عنده الاهتمام بمسائل صرفية تتعلق بأبنية الافعال والاهتمام بتصحيحها متخذا مما جاء في القرآن الكريم منها هاديا ومقياسا لذلك الصحيح •

وظهر عند تلميذه يونس بن حبيب البصري(ـ١٨٢هـ/٧٩٨م) كثرة المحفوظ والمسموع من لغات العرب ونوادر كلامهم مما جمع بعضه في كتبه (معاني

القرآن) و (اللغات) و (النوادر الكبير) و (النوادر الصغير) ، هذا المسموع الذي ساعده عليه استقراؤه الخاص لكلام العرب ، واعتماده على فهمه وتتبعه ولما كان يحفظ من المادة اللغوية الفصيحة المتنوعة من منظوم الكلام ومنثوره مما لم يكن ينساه حتى شبهه بعضهم فيما نقل الزبيدي « بكوز ضيق الرأس لا يدخله شيء الا يعسر فاذا دخله لم يخرج منه » ولهذا كان يضع القاعدة والقياس على البيت الواحد من الشعر ان وثق بلغة الشاعر وفصاحته وصفاء قريحته كرؤبة ، وتبين عنده التفرد بالقول باستعمال الاسماء في معان لم ترد عند النحاة السابقين ولم يعرف اطرادها في كلام العرب مثل قوله باستعمال (الذي) حرفا مصدريا كـ (أن) و (ما) ودليله على ذلك ما فهمه من معناها في قوله تعالى : « وذلك الذي يبشر الله عباده » وظهرت عنده احكام تفرد بملاحظتها مما لم يتنبه عليه السابقون مثل انكاره القول بان (إمّا) الثانية في مثل (جاء اما زيد واما عمرو) عاطفة ورفضه عد (لكن) عاطفة في مثل : (ما جاء زيد ولكن محمد) محتجا على هذا بانه لا يتباشر في العربية حرفان لمعنى واحد كالعطف والاستفهام ولهذا قال فيه ابو عبيدة : « لم يكن عند يونس علم الا ما رآه بنفسه » وظهر عنده الاعتراف بالظواهر الواردة في المسموع الذي استقراه بنفسه سكت عن القياس عليها أو صرح به ، وكثر مارأيناه عند سابقيه من اللجوء الى التحليل والتأويل والتقدير في العبارات المسموعة عن اعراب موثوق بفصاحتهم او عن شعراء صفت قريحتهم وسلمت ألسنتهم من شائبة اللحن والعجمة وكانت لغاتهم مما يصح القياس عليه اذا وردت في هذه العبارات ظواهر خارجة عن القياس المبني على الكثير المطرد في كلام العرب المحتج به ، واستمر عنده ما ظهر عند سابقيه من وضع احكام مبنية على امور مفترضة صرفية كانت او نحوية واتضحت هذه الامور في المسائل التي نقلها سيبويه عنه في الكتاب وقارن بها اقوال الخليل وآراءه في المسائل نفسها ، وقف منها موقف المحايد او مال الى تفضيل قول منها على غيره .

نحــو الخليل

وهكذا وصل النحو الى الخليل بن احمد الفراهيدي (ــ١٧٥هـ/٧٩١م) شيخ الدراسات النحوية في البصرة الذي كان شديد الاهتمام بلغة العرب ولذا خرج الى بوادي نجد وتهامة والحجاز يسمع الأعراب ويحفظ عنهم اساليبهم الفصيحة ويسجل لغاتهم واقوالهم ، ولم يقتصر على ذلك وانما كان يحضر مواسم المربد وكان كثير السفر يحج بين عام وآخر ويقابل في الحجاز من تسنح له الفرصة بمقابلته من العلماء المقيمين فيها والوافدين عليهـــا لاداء فريضة الحج •

بلغ النحو على يدي الخليل مرحلة النضج والاستقرار في مصطلحاته ومسائله وقيل عنه انه اعظم نحوي حملته الارض بل اعظم نحوي على مدى العصور ومع انه لم يؤلف في النحو كتابا يتناسب وعلمه فيه ولم يترك فيه سوى كتابي « العوامل » و « الامالة » فان كتاب سيبويه ـ تلميذه الملازم له ـ يطفح بآرائه واقواله في مسائل علوم اللغة العربية المتنوعة من صوت وصرف ونحو وما اليها حيث كونت آراؤه عمود كتاب سيبويه ، واعتمدت على اقواله ابواب الكتاب الا القليل الذي بناه على اقوال يونس بن حبيب البصري وآرائه فقد وضع الخليل معظم مصطلحات النحو والصرف التي نعرفها اليوم مما لم يسبقه الى وضعه شيوخه كالمسند والمسند اليه والحذف والاستغناء والعوض والدعاء والنعت والبدل والاخبار وغيرها ومصطلحات ما يسمى اليوم بعلم الاصوات ، وعلى يديه تم وضع اصول النحو واقيسته حيث بناها على ما سمعه هو او احد شيوخه من افواه العرب الفصحاء الناطقين به بعد دراسته ومناقشته في حلقته التي كانت تعقد في المسجد الجامع بالبصرة والتي لم تقم بجانبها حلقة اخرى لدراسة علوم الغربية طوال حياته ، وفي حلقته هذه تطورت اصول النحو الاخرى كالتعليل والقياس المبني على الكثير المطرد من كلام العرب ، وكثر التأويل للشواهد الفصيحة الخارجة عن الأقيسة التي

ثبتت في زمنه ولم يعودوا يغيرونها بحسب المسموع الفصيح الموثوق بقائله ، وعمّق الاصول التي وضعها سابقوه ووضحت عنده التعليلات للظواهر التي تعرض في كلام العرب سواء اختلف فيها علماء العربية أم لم يختلفوا واهتم بالعامل النحوي وشروط عمله وحكم كل من العـــامل والمعمول من حيث التقديم والتأخير والحذف والذكر والتعدد ونحوها ، واتسع القول بتقدير العوامل في العبارات التي يستدعي لفظها ومعناها اللغوي تقدير عامل معين ينسجم والوضع الاعرابي ، وتكلم على الادوات وتحليل معناها وبيان اصلها الذي تطورت عنه ووسع القول في ذلك بما لم يســـبق اليه وكذا العبارات المركبة المسموعة على هيأة قوالب ثابتة تستعمل بمعان معينة ، وتبين في نحوه الاعتداد بالقراءات وتجنب الطعن فيها وفي القراء وكان يقيس عليها كلام العرب ويحمل الكثير منها على ما جاء في كلام العرب ووسع البحث في الابنية الصرفية والاساليب اللغوية والدراسة الصوتية .

وجاء بعده تلميذه سيبويه ـ عمرو بن عثمان (ـ١٨٠هـ/٧٩٦م) الذي بدأ حياته بتعلم القرآن والحديث وطلب سماع اللغة وروايتها عن حلقات اللغويين مثل عيسى بن عمر الثقفي وابي عمرو بن العلاء وابي الخطاب الاخفش الكبير وابي زيد الانصاري ويونس بن حبيب الا أنه لازم حلقة الخليل واختص به واخذ عنه علوم العربية نحوها وصرفها واصواتها وسار على طريقته فيما اتبعه من مناهج في تحديد الآراء وتعزيزها ، واهتم بتدوين آراء شيوخه وشيوخ استاذه الخليل وهم ابن ابي اسحاق وعيسى بن عمر وابو عمرو بن العلاء وأبو زيد الانصاري ويونس ومن كان يحضر حلقة الخليل من الرواة والشعراء وغيرهم وكان يناقش هؤلاء في آرائهم ويفاضل بينها ويرجح قولا على قول معللا هذا الترجيح او غير معلل وكانت شخصيته واضحه بينة الظهور في معظم مسائل الكتاب وابوابه .

وكان للكتاب منهج واضح بناه سيبويه وحدده ونظمه ورتب عليه العلوم التي حواها وتحدث فيهـــا مع خلوه من مقدمة يشرح فيهـــا ســـبب

التأليف او زمانه ويوضح فيها مصادره او سبب اتباعه هذا المنهج في التأليف .

رتب مواد كتابه ترتيبا منطقيا منظما ضم فيه الابواب المتعلقة بموضوع معين الى بعضها وجعل كتابه ثلاثة اقسام قدم منها ما رآه اولى بالتقديم فافتتح الكتاب بابواب تعد مقدمة للموضوعات النحوية تكلم فيها على اقسام الكلام واقسام الفعل وعلامات الاعراب والبناء ووضع اصولا عامة لمسائل النحو وابوابه ثم جاءت ابواب النحو متتابعة في القسم الاول من الكتاب تليها موضوعات تتعلق بالنحو والصرف كأبواب الجمع والتصغير والنسب ثم ما يختص بالصرف من ابواب ابنية الافعال والاسماء والمصادر وختم الكتاب بابواب في الدراسة الصوتية كالابدال والاعلال والوقف والابتداء والامالة وما اليها وكان آخر ما فصل البحث فيه باب الادغام الذي تكلم فيه على حروف العربية ومخارجها وصفاتها وما يحدث بينها من تغيير لاجل الادغام الذي اعتنى به خدمة لقراء القرآن لاهتمامهم به .

وهكذا تتضح لنا عقلية سيبويه التنظيمية ويتبين لنا احساسه بتميز هذه العلوم من بعضها ويظهر لنا حرصه على تدوين آراء شيوخه في هذه العلوم واختلافهم في بعض المسائل وموقفه من هذه الآراء بامانة علمية طبع عليها وعرف بها وكان يحتج بالقرآن الكريم كثيرا بحيث لا يكاد باب من ابواب كتابه يخلو من الاحتجاج بآياته او ألفاظه او قراءاته ولا سيما الابواب النحوية منه التي قد يعقد في بعضها الباب بأكمله على الآيات القرآنية البينة ، واحتج باحاديث نبوية معدودة لم يبن على معظمها قاعدة ، وانما جاء بها تقوية لما في كلام العرب ، أو لما في قراءات قرآنية ، ولم يصرح بانها من الاحاديث . اما كلام العرب منثوره ومنظومه فقد حرص على تأكيد سماعه هو او احد شيوخه اياه عن المتكلمين به أنفسهم مع التنبيه على فصاحته بذكر قبيلة المتكلم او الشاعر وهو في كل حال لا يخرج عن الزمان الذي حددوه للاحتجاج بكلام

الناطقين بالعربية وعن قبائل العرب التي لا يغفل سيبويه عن وصف لغاتها بأوصاف الفصاحة والجودة او الضعف والقلة كي ينبه عليها .

خصائص المنهج البصري

نستطيع ان نقف عند سيبويه وكتابه الذي يضم ثمرة الجهود التي بذلها هو واساتذته وشيوخهم منذ نشأة علوم العربية ، ولنا ان نجمل الخصائص التي تبينت في نحوهم بما يأتي :

١ ـ اعتمد البصريون على السماع واتخذوه دليلا وهاديا في وضع قواعد النحو والصرف والصوت وقد وجدنا علماء اللغة ورواتها ومؤسسي الدرس النحوي البصري وشيوخه وعلى رأسهم ابو الاسود الدؤلي وعبد الله بن ابي اسحاق وعيسى بن عمر وابو عمرو بن العلاء ويونس والخليل يبذلون جهودا جبارة في السماع عن العرب وفي تدوين ما يسمعون او حفظه سواء أكان ذلك بالخروج الى البوادي ام بالسماع عمن يفدون الى المربد في المواسم الادبية من الاعراب والخطباء والشعراء الفصحاء وعمن يحضرون مجالس الدرس من الاعراب والرواة .

ثم انشغلوا بهذا المسموع وعاشوا حياتهم في دراسته وتتبعهم لصوره ورصدهم للظواهر النحوية والصرفية والصوتية التي وردت فيه وقسموا هذه الظواهر الى ما هو مطرد شائع وما هو ظواهر قليلة اذا ما قيس الى الاصل المسموع في اللغات نفسها فعدوا المطرد الشائع من الفصيح اصلا يقاس عليه وبنوا عليه الاقيسة التي جعلوها ثابتة منذ زمن الخليل حيث اتخذت صورتها النهائية بعد ان كانت عند سابقيه تتبدل وتتغير اذا عارضها مسموع فصيح مخالف لها من اعرابي موثوق بفصاحته او شاعر مطبوع ، وفي زمنه سموا ما كان واردا في لغات العرب الفصيحة انفسها مما هو قليل

مخالف للشائع المطرد (مسموعا) يحفظ ولا يقاس عليه وأما ما خالف هذا الفصيح مما سمعوه من لغات اقل انتشـــارا او مما كان لغة ضعيفة رديئة لا يمكن القياس على ظواهرها فسموه لغات فان وقع في شعر او نثر وكان ظاهرة مخالفة للقياس الصحيح فهو الشاذ وان وقع في شعر وجاز ولم يقع في نثر فهو ضرورة •

٢ ــ وضعوا الأقيسة على الكثير المطرد من الظواهر الواردة في كلام الفصحاء المسموع من العرب المحتج بلغتهم وكان على رأس هذا المسموع لغة القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وجعلوا هذه الأقيســـة ثابتة منذ زمن الخليل ولم يغيروها بحسب الظواهر المسموعة بعد هذا التاريخ الذي حددوه بمنتصف القرن الثاني للهجرة في المنثور اي بنهاية العصر الاموي وبداية العصر العباسي • واشترطوا في اللغات التي يصح القياس عليها ان تكون فصيحة مختارة لذلك عدوا لغة قريش افصحها وهي التي نزل بها القرآن أما الشعر فقد احتجوا باشعار الطبقات الثلاث وهي طبقة الشعراء الجاهليين وطبقة المخضرمين وطبقة متقدمي الاسلاميين مثل : جرير والفرزدق والاخطل ، وبابن هرمة (ــ ١٧٦هـ/٧٩٢م) وقف في الاحتجاج بالشعر عندهم •

على هذين النوعين من كلام العرب المســـموع وبهذه الشروط وضـــع البصريون اقيستهم للظواهر التي اعتمدوا عليها واكثروا منها وفرعوها وبنوا عليها قواعد علوم اللغة العربية وجعـــلوا لهذا القياس اركانا ولهذه الاركان شروطا وقسموها اقساما وهكذا وضعوا اقيستهم على اصول ثابتة لا يغيرها ما يجدّ من مسموع •

٣ ــ وقفوا من القرآن الكريم وقراءاته موقف المدافع عما يرد فيه فقاسوا على آياته الظواهر الواردة في كلام العرب واجازوا قواعدها التي وردت في لفظه او في ما تواتر من قراءاته ولم يصدر عنهم ما يمكن ان يعد طعنا

في قراءة او تخطئة لقارىء ، شاذة كانت قراءاته او غير شاذة بحسب تقسيم ابي بكر بن مجاهد(ت ٣٢٤هـ/٩٣٦م) لها،لم يخرج عن ذلك احدمنهم فليس في كتاب سيبويه الذي يضم آراء شيوخه ويحوي شواهدهم وقواعدهم واصولهم ما نسبه اليهم المتأخرون من انهم اول من فعل ذلك وقد كان هذا اتهـاما باطلا لهؤلاء النحاة القـائمين على لغة القرآن الذين بذلوا الجهود الجبارة في سبيل ارساء قواعد هذه اللغة العظيمة والمحافظة على آيات كتابها العظيم من التحريف والتبديل والتصحيف واللحن وكان كل ما فعلوه امام بعض القراءات الخارجة انهم كانوا يخرجونها أما بتفسير وتقدير يتطلبه المعنى ويوحي به واما بعدّها واردة على احدى لغات العرب التي لم يبن البصريون عليها اقيستهم لضعفها او لقلة المتكلمين بها ومع ذلك فهي لغة عربية لها ظواهرها النحوية والصرفية والصوتية الخاصة بها وان كانت مما لا يصح القياس عليه لضعفها .

- اغفلوا الاحتجـاج بالحديث النبوي الشريف فلم يرد في كتب النحاة الاوائل اصـلا للاحتجاج ولم يعتمدوا عليه وحـده اعتمادا مباشرا في استنباط القواعد ووضع الأقيسـة النحوية والصرفية اذا ما خالفت ظواهره ما ورد في كلام العرب الفصيح او في لغة القرآن الكريم ولا يزال الباحثون مختلفين في الاسباب التي ادت بالنحاة الى اهمال الاحتجاج بالحديث النبوي وترك القياس عليه في ظواهر النحو او الصرف وربما كانت علّة ذلك أنّ الحديث النبوي لا يخرج بأية حال في اسـاليب تعبيره وأبنيته عن الوارد في لغة القرآن وكلام العرب الفصيح ولغات العرب التي تكلم الرسول بلغاتهـا مع وفودها ولذا لم يحتاجوا الى ان يعدوه نوعا خارجا عنها .

ويمكن القول بعد هذا ان البصـريين كانـوا يعـدون السمـاع عن الفصحاء المعتد بلغاتهم الاصـل في الاحتجاج وان وجد القياس فاذا اجتمع

القياس والسماع في الظاهرة الواحدة واتفقا اخذوا بهما معا وان اختلفا أخذوا بالسماع وفضلوه على القياس واستعملوا المسموع ولم يقيسوا وان لم يرد المسموع المخالف للقياس كان القياس هو الاصل ٠

٥ ـ أوّلوا الظواهر التي وردت عن بعض العرب الفصحاء او عن شاعر فصيح مطبوع ممن يحتج بأقوالهم او في قراءة قارىء غير متواترة مما خالف اقيستهم ولم يستطيعوا تخطئته او نسبته الى اللحن فلجأوا الى التفسير والتأويل في المعنى او الى تقـــدير محذوف يصـــح معه المعنى ويوافق الأقيسة التي وضعوها وفق شروط معينة ولم يغيروا اقيستهم تبعا لهذا الوارد القليل او النادر ٠

٦ ـ عللوا تعليلا سهلا اقرب الى الطبيعة والفطرة كثيرا من الظواهر النحوية والصرفية والصوتية وكانت تعليلاتهم تنساب بلا تعقيد او مبالغة وتجري سلسة طيّعة بلا اعنات او تداخل ولم تكن تعليلات النحاة البصريين الاوائل حتى زمن المبرد متأثرة بما عند علماء الكلام والمناطقة من جدل واخذ بالعلل الثواني والثوالث ومبالغة في التأويل ، لان هؤلاء النحاة وجدوا ووجدت آراؤهم وبحوثهم ومناقشاتهم وتعليلاتهم قبل ان تنتشر المترجمات وكتب علم الكلام والفقه والفلسفة وغيرها من العلوم التي كانت تعتمد على الاقناع بالحجج والبراهين المنطقية ، وانما تبين أثر اساليب هذه العلوم في نحاة بغداد ، عند المبرد ومعاصريه ولاحقيه ٠

وكان ابو العباس محمد بن يزيد المبرد(ـ٢٨٥هـ/٨٩٨م)آخر أئمةالدرس النحوي البصري الذي استقاه من شيوخه في البصرة ورحل به الى سامراء ثم بغداد فأذاعه وعرّف الدارسين البغداديين به وثبّت اصوله وقواعده وأقيسته واوجد لكتاب سيبويه قراء ودارســـين وشارحين اهتموا به فقرأوه واقرأوه وناقشوا مسائله وقارنوا بينه وبين مسائل النحو الكوفي واعادوا له هيبته ومكانته في مجالس الدرس النحوي في بغداد ٠

ولد المبرد بالبصرة وفيها نشأ وتلقى العلوم الدينية واللغوية وشغف بالنحو والصرف واخذهما عن ابي عثمان المازني (ــ ٢٤٧ هـ/٨٦١ م) وابي عمر الجرمي (ــ ٢٢٥هـ / ٨٣٩م) وهما تلميذا الاخفش سعيد بن مسعدة (ــ ٢١٥ هـ / ٨٣٠م) وكان يتصدر حلقة استاذه المازني وهو حديث السن يقرأ عليه كتاب سيبويه واستاذه جالس بين المستمعين معجب بقدرة المبرد وذكائه وتمكنه في مسائل الكتاب .

ذاعت شهرته في البصرة ووصلت الى مجالس الخلفاء في بغداد وسامراء ولم يكن في بغداد يومئذ سوى ثعلب الكوفي الذي كان يحدث عندهم بما يحفظ من نحو الكسائي والفراء ويردد ما يقولان ولهذا نجد المتوكل في سامراء يرسل باستدعاء المبرد من البصرة ليحكم في خلاف وقع بينه وبين وزيره الفتح بن خاقان بعد ان سمع بذكائه وتمكنه فوقع جوابه من نفس المتوكل ووزيره موقعا حسنا وبقي ملازما له حتى قتل . فدخل المبرد بغداد واستطاع بذكائه ان يلفت اليه انظار الدارسين فيها وان يجمع حوله عددا كبيرا من طلاب ثعلب وغيرهم بطريقته الجديدة في شرح مسائل النحو والصرف والاستدلال عليها والتعليل لمسائلها والاحتجاج لها ونقضها واعادة تصحيحها بما ادهش الدارسين البغداديين وفتح له طريقا في مجالس الدرس يعلم فيه النحو البصري ولا سيما كتاب سيبويه ويوجد له حلقة تُعنَى بنشر آرائه وتثبيت اركان هذا النحو الجديد على بغداد مع انه نشأ ونما وبلغ مرحلة النضج والاكتمال قبل ان يوجد النحو الكوفي .

زاد المبرد على اصول النحو البصري وخصائصه التي عرفناها قدرته على الجدل والمناقشة والاستدلال والتأويل والتعليل والاحتجاج له ثم للخصم ولم يكن ليستطيع كل هذا لولا اطلاعه على هذه الاساليب في الاقناع ولولا تعمقه في مسائل النحو البصري ولولا الشواهد اللغوية التي كان متمكنا منها حافظا لها هذا الحفظ الذي ساعده على الاجابة عن كل ما يسأل عنه والافتاء

في اية مسألة لغوية او نحوية او صرفية او صوتية يوجه اليه السؤال فيها .

وترك كتابا ضخما في النحو يعد الثاني بعد كتاب سيبويه من حيث الضخامة والشمول الا انه سماه « المقتضب » ليدل على انه لا يصل الى ما وصل اليه « الكتاب » ولم يهتم المبرد باقرائه تلاميذه او نشره بين الناس وانما بقي ملازما « الكتاب » يعنى بنشره وشرح مسائله وغوامضه . وكان المبرد قد اعتمد في « المقتضب » على مسائل الكتاب ومادته في جميع الابواب وان خالفه في بعض المسائل والفروع وغير في ترتيب ابواب المقتضب وموضوعاته عما كانت عليه في الكتاب فأخل بها ولم يحسن لا في المنهج ولا في المادة نفسها ومع هذا فقد اثبت محقق « المقتضب » أن معظم ما نسبته اليه كتب التراجم والتأريخ من آراء يرد بها على سيبويه ويخطّىء اقوانه ومسائل كتابه او يعارضه فيها عار عن الصحة فقد كان متفقا مع سيبويه في معظمها وانما دفعهم الى وضعها ونسبتها اليه اقدامه على نقد كتاب سيبويه في (مسائل الغلط) وقد نسبت اليه آراء قال بخلافها غير انه وقف في وجه سيبويه لانه قبل قول الخليل من غير تعليل فقد كان شديد الاهتمام بالتعليل وكانت له يد طولى فيه وكان من المجتهدين فيه حتى كانت المطالبة بالعلة السلاح الذي شهر في مناقشته للزجاج ومن معه من تلاميذ ثعلب الذين اعتادوا السماع والحفظ والرواية والدرس البعيد عن التعليل .

وشاعت عند المبرد بعض المصطلحات الجديدة التي لم تكن عند البصريين ولم تكن من مصطلحات الكوفيين من ذلك تسميته (الحال) المفعول فيه و (الضمير المنفصل المؤكد للمتصل) الصفة و (جواب الشرط) الخبر و (التوكيد المعنوي) النعت و (النهي) النفي . وبقيت الاصول عنده هي اصول البصريين من اهتمامه بالقياس على الكثير الغالب في كلام العرب ، وتصريحه بأن القياس المطرد لا تعترض عليه الرواية الضعيفة ، وتجنب القياس على الشاهد المفرد والرواية النادرة وكان يقول : « اذا جعلت النوادر والشواذ غرضك واعتمدت عليها في مقاييسك كثرت زلاتك » .

فهو يعتمد على المسموع ايضا فان لم يكن هناك سماع لجأ الى القياس فان ورد المسموع ترك القياس فيهذا المسموع بعينه ولم يقس عليه نظائرد مما يرد في كلامهم وانما يقيسها على الكثير الشائع فان لم يكن لهذا المسموع القليل في كلام العرب نظائر جرى عليها قياس مطرد ، وكان هذا هو كل المسموع في بابه صح ان يعد اصلاً في القياس تبنى عليه القواعد كما فعل سيبويه حين وضع قاعدة النسب الى (فَعُولة) (فَعَلِيّ) قياسا على كلمة واحدة وردت في كلام العرب كله وهي (شنوءة) التي سمع النسب اليها (شنئي) ولم يسمع كلمة اخرى على هذا الوزن فقاس عليها النسب الى (ركوبة) : (ركبيّ) لو استعملت اسما منسوبا اليه •

وصفوة القول : ان الدراسة النحوية عند المبرد لم تتغير عما كانت عليه عند سيبويه وشيوخه في الاصول والشواهد وكل الذي جدّ هو الميل الى الاحتجاج والاكثار من التعليل المنطقي والتأويل والتجديد في بعض المصطلحات عما كانت عليه عند سابقيه •

الدراسات النحوية في الكوفة

نشأت في الكوفة كما نشأت في البصرة دراسة لعلوم العربية وان تأخر ظهورها قرناً من الزمان ، وتكون فيها مركز ثان لهذه الدراسات عده كثير من القدماء والمحدثين منافسا للبصرة في هذا العلم مع تفرعه عنه واعتماده عليه فقد نشأت الدراسات اللغوية والنحوية والصرفية فيها قبل نشأتها في معظم الأمصار الاسلامية بعد نشوء العلوم الدينية وتبلورها وانتشارها على أيدي قراء القرآن والدارسين لقراءاته وعلومه فقد اهتمت الكوفة بالعلوم الدينية منذ تأسيسها وكان القائمون بها جماعة من الصحابة ارسلهم عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الى الكوفة لتعليم اهلها القرآن وعلوم الدين كما كان متبعا في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وكان في الكوفة عبدالله بن مسعود

الذي التف الناس حوله يسمعون القرآن ويطلعون على اسباب نزوله واوقاته واماكنه ويسمعون فتاواه الشرعية ويأخذون بها •

تكون في الكوفة نوعان من الدراسة :

أولهما : لاقراء القرآن والبحث في علومه واشتهر من علمائه يحيى بن وثاب (ــ ١٠٣ هـ /٧٢١م) وسليمان الأعمش (ــ ١١٢ هـ ٧٣٠م) وعاصم ابن ابي النجود (ــ ١٢٨ هـ / ٧٤٥م)وحمزة بن حبيب الزيات (ــ ١٥٦هـ/ ٧٧٢م) وعلي بن حمزة الكسائي (ــ ١٨٣هـ / ٧٩٩م) وكان عاصم وحمزة والكسائي من القراء السبعة المشهورين •

أما النوع الثاني فقد تخصص بالتشريع وبرز من رجاله أبو حنيفة النعمان(ــ١٥٠هـ/٧٦٧م) الذي اشتهرت مدرسته وكان زعيمها الأكبر عبدالله بن مسعود الذي اتبع منهج عمر بن الخطاب في الاجتهاد بالراي في الشريعة فيما لم يكن فيه نص من قرآن او سنة وهؤلاء هم مؤسسو مدرسة الراي في الكوفة •

أوائل النحاة

الذي يعنينا من كل ما تقدم مدرسة الاقراء التي نشأ عنها الدرس النحوي في الكوفة وكان من رجالها الكسائي الذي اخذ القراءة عن شيوخه عن عبدالله ابن مسعود ثم تصدر للاقراء في الكوفة بعد شيخه حمزة بن حبيب الزيات فكان الناس يكثرون عليه حتى لا يضبط الاخذ عنه فيجمعهم في مجلس ويجلس على كرسي يتلو القرآن من اوله الى آخره وهم يسمعون ويضبطون واهتم الكسائي باللغة ليخدم قراءته ويطورها ويبتعد بها عما آخذه من شيخه حمزة بن حبيب الزيات • وكان في الكوفة الى جانب اهتمام العلماء الواسع بالقرآن وعلومه اهتمام باللغة العربية من منظوم ومنثور فقد شاركت الكوفة بنوع آخر من الرواية اللغوية يختلف عما كان في البصرة من رواية للغة دراسة لها وبذل للجهود المضنية في سبيل ارساء قواعد النحو والصرف .

وغيرهما من علوم العربية ، كان هذا النوع رواية الشعر والاهتمام به لما اختصت به الكوفة من وجود القبائل العربية التي كانت تمثل الطبقة العليا في المجتمع الكوفي فكانت تهتم برواية الشعر وتدوينه للتغني بمفاخر الآباء والاجداد وللمناظرة والمساجلة فيما بينها فانصرف اهل الكوفة عن شؤون الحياة الاخرى واهتموا بالشعر فساهموا في الحفاظ على هذا التراث الضخم من اشعار العرب جاهليين واسلاميين وتنميته بحيث اصبح عدة الدارسين وعمدتهم في الدرس اللغوي والنحوي الذي شاركت فيه الكوفة في عهد متأخر عن البصرة .

كان الكسائي ابرز من ادخل الدراسات النحوية واللغوية الى الكوفة ونشطها وان كان قبله عدد ممن سمتهم كتب التراجم بالنحاة الا أن دورهم لم يكن ظاهرا في ذلك وكانوا اقرب الى المعلمين المؤدبين منهم الى النحاة المتخصصين الباحثين في علوم اللغة المختلفة من نحو وصرف وصوت وقراءة وما اليها وكان من اشهر هؤلاء الدارسين سعد بن شداد الكوفي ويعرف (سعد الراية) لموضع كان يجلس فيه لتعليم النحو ، اخذ عن ابي الاسود الدؤلي، وتوبة الملائي وهو من اعلم اهل الكوفة بالنحو وكان معاصراً لعاصم المقرىء (ـ ١٢٨هـ / ٧٤٥م) أي انه من طبقة تلاميذ ابي الاسود ايضا والارجح انه اخذ عنه وربما كان من شيوخ الرؤاسي ومعاذ بن مسلم الهراء (١٨٧هـ /٨٠٢م أو ـ ١٩٠هـ / ٨٠٥م) شيخي الكسائي والفراء ومنهم حمران بن أعين الطائي قرأ على ابي الاسود وكان ضعيفا في النحو ، ومنهم زهير الفرقبي (ـ ١٥٦هـ / ٧٧٢م) الذي عدّته المصادر في النحويين الكوفيين مع انه اخذ عن ابي الاسود .

كل هؤلاء اشارت اليهم المصادر اشارات عابرة ، منهم من اخذ عن ابي الاسود ومنهم من اخذ عن تلاميذه ، واشتهر بالنحو شيخ معاصر لزهير الفرقبي هو ابو معاوية شيبان بن عبدالرحمن التميمي النحوي (ـ١٦٤هـ/٧٨٠م أو ـ ١٧٠هـ / ٧٨٦م) وهو عالم بصري اشتغل بالقراءة والحديث والنحو

انتقل من البصرة الى الكوفة وفتح امام تلاميذه فيها ميدان الدرس النحوي الجديد على هذه البيئة واخذ عنه معاذ بن مسلم الهراء وربما اخذ عنه ابو جعفر الرؤاسي والكسائي ثم رحل الى بغداد في خلافة الهادي حيث توفي هناك وكان ابو معاوية معاصرا لابي عمرو بن العلاء والخليل ولا ندري ان كان لقي الخليل واستفاد من علمه أم لا ٠ وبهؤلاء يتصل نحو ابي الاسود الدؤلي البصري المؤسس لهذه الدراسات بشيوخ النحو الكوفيين الذين عدّتهم كتب التراجم نحاة مثل معاذ بن مسلم الهراء الذي اخذ عن شيبان ، وعن معاذ هذا أخذ ابو جعفر الرؤاسي وعنه اخذ الكسائي والفراء شيخا الدرس النحوي الكوفي ٠

اخذ ابو جعفر الرؤاسي عن ابي عمرو بن العلاء ايضا وتقدم في النحو من بين ابناء بيئته فكان اعلمهم به في زمانه حتى قال عنه الكسائي « ما وجدت في الكوفة احدا اعلم بالنحو من ابي جعفر الرؤاسي » مع قلة علمه بالنحو ٠

والذي يمكن ان يعد نحويا في الكوفة الكسائي على بن حمزة (ـ١٨٣هـ/٧٩٩م) شيخ الاقراء فيها الذي حضر مجلس الخليل واطلع على النحو البصري في مجالسه ثم خرج الى بوادي نجد والحجاز وتهامة وسمع ودون وعاد الى البصرة ومربدها ومجلس يونس ومنها الى الكوفة حيث سمع الاعراب النازلين حولها وشعراءهم وشعراء القبائل النازلين فيها وكوّن من هذا المجموع اللغوي مادة يدرسها ويلاحظ الظواهر الصوتية والصرفية والنحوية فيها يدونها ويضع لها القواعد والاقيسة كي يستطيع بهذا أن يحسّن من قراءته فيختار القراءة التي شاعت ظواهرها واعتمدت على الوارد في هذه المدوّنات اللغوية التي بين يديه كالاعلال والابدال والادغام والامالة والوقف والابتداء والهمز والتسهيل وما اليها وبهذا نستطيع ان نعد الكسائي

(ـ ١٨٣ هـ) أول من ثبّت أركان الدرس النحوي في الكوفة لاسباب منها :

١ ـ انه اول من تنبه الى ان ما عند المؤدبين والمعلمين لا يمثل النحو العربي الذي ظهر في مجالس الدرس النحوي في البصرة منذ زمن ابي الاسود حتى زمن الخليل وسيبويه ويونس الذين بلغ النحو عندهم مرحلة النضج والكمال في المنهج والاصول والمادة والشواهد والاقيسة ووجد علم الكوفيين بالنحو لا يزال قاصرا عن ان يفي بحاجة الدراسات القرآنية التي كان مهتما بها منصرفا اليها اول امره عاملا على تطويرها بما سمعه ودوّنه .

٢ ـ انه درس هذه المادة المسموعة المحفوظة والمدونة مما سمعه البصريون ومما لم يسمعوه من لغات أعراب الكوفة او أعراب البوادي ممن لم يصل اليهم سماع الخليل وشيوخه ولا شك في ان لهذا المسموع ظواهر جديدة تختلف من لهجة الى اخرى تخالف ما وجده البصريون في اللغات التي درسوها ووضعوا قواعدها وبنوا عليها أقيستهم ، هذه الظواهر الجديدة التي جاءت في هذه اللغة ادت بالكسائي الى ان يضع لها أقيسة تخالف أقيسة البصريين التي وضعوها وفق حدود خاصة وشروط معينة في القبائل التي يؤخذ عنها وفي المكان الذي يسمع من سكانه وفي الزمان الذي يقف عنده الاحتجاج وينتهي به وضع القواعد والأقيسة يضاف الى ذلك ان الكسائي اتبع مبدأ القياس على كل مسموع ومن اية قبيلة كان وفي اية بيئة ، من البوادي ومن حواضر الكوفة وبغداد فيما بعد وكان يقول :

انما النحو قياس يتّبع ... وبه في كل علم ينتفع

فلم يتحدد ببيئة ولا بزمان ولا بفصاحة ولهذا كثرت عنده القواعد

وتعددت الأقيسة وتشعبت وتنوعت ولهذا وجِّه الطعن الى أقيسته من البصريين المتشددين في المسموع المقيس عليه وفي شروطه .

٣ ـ انه وضع أقيسة لظواهر لم ترد في اللغة التي بين يديه لا في منثورها ولا في منظومها وانما وضعها قياسا على الشبيه والمقابل والمغاير والمضاد وما الى ذلك مع الافتقار الى المثل والدليل المسموع مما ادى به الى ان يتفرد بأقيسة ويقول بآراء خالف فيها البصريين وخالفه فيها اقرب تلاميذه اليه وحامل لواء النحو الكوفي من بعده يحيى بن زياد الفراء (ـ٢٠٧هـ/٨٢٢م) ويتضح لنا ذلك غاية الاتضاح بالرجوع الى كتب النحاة المتأخرين الذين ينقلون الرأي عن الكسائي وما يخالفه عن الفراء في الكثير الغالب كما في كتب رضي الدين الاسترابادي وابن يعيش والسيوطي وغيرهم .

٤ ـ انه أخذ بالقراءات جميعها متواترها وشاذها وعد ما فيها من ظواهر صحيحا يجوز القياس عليه وهذا مبني على مبدئه في القياس على كل مسموع وان كان بيتا مفردا لا تبنى على مثله القواعد وعلى هذا فالقراءة مهما بلغت من الضعف والشذوذ اصل موجود ثابت يتداوله بعض القراء وهي افضل في القياس واصح من الشاهد الشاذ أو المفرد ومن القياس على امور مفترضة لا شاهد فيها ولا دليل عليها .

وزاد تلميذه الفراء امورا اتضحت في النحو الكوفي مما خالفوا فيه النحو البصري منها :

١ ـ وضع مصطلحات جديدة لبعض ابواب النحو والصرف ومسائلها رأى انها اقرب دلالة على الموضوع او الظاهرة من مصطلحات البصريين ، من ذلك تسميتهم (التمييز) التفسير والتبيين و (الصفة) : النعت و (المنصرف) : ما يجري و (الجر) الخفض او الاضافة و (النفي) الجحد مع ان هذه الالفاظ التي جعلوها مصطلحات انما استخلصوها من

عبارات سيبويه والفاظه التي استعملها في شرح هذه الموضوعات في كتابه .

ووضعوا لبعضها الآخر مصطلحات لم يكن البصريون قد وضعوا له مصطلحات مثل (نائب الفاعل) و (ان واخواتها) و (الفعل اللازم والمتعدي) وغيرها ، وجمعوا في بعضها اكثر من ظاهرة مصطلح عليها عند البصريين فجمعوا في (الخلاف) ما عرف عند البصريين بأبواب (المفعول معه) و (الفعل المنصوب بـ « ان » مضمرة وجوبا في جواب الطلب بعد فاء السببية وواو المعية) و (الظرف الواقع خبرا او صفة) وغيرها ، وجاء بعضها غير محدد عندهم ولم يستطيعوا توضيحه او فهمه وافهامه للآخرين مثل : (التقريب) الذي استعمله الفراء وثعلب مع بقائه مضطربا غير واضح ولا محدد عندهما ولا عند الآخرين . ووضعوا نوعا آخر من المصطلحات لغير هذه الاغراض وانما لمجرد الانفراد بمصطلح يتميز به نحوهم من النحو البصري ويثبتون به لنحوهم وصرفهم وجودا مستقلا مع ان مصطلحات البصريين في الغالب اكثر دلالة على جوهر الموضوع وحقيقة الظاهرة من ذلك : تسميتهم (المضارع) المستقبل و (اسم الفاعل) الفعل الدائم و (العطف) النسق و (البدل) الترجمة و (الضمير) المكني او الكناية و (ضمير الفصل) العماد و (ضمير الشأن) المجهول و (الحال) القطع .

٢ ـ ترك القول بالتأويل البعيد والتعليل والتفسير مما اضطر اليه البصريون ولجأوا اليه عندما صادفتهم بعض الشواهد الموثوقة والعبارات الفصيحة والقراءات القرآنية الخارجة عن الكثير الشائع في كلام العرب مما لا يمكن الطعن في قائليه لكي يردوا هذا الخارج بالتقدير والتأويل الى القياس الصحيح والاسلوب الفصيح معنى ولفظا . أما الكوفيون فلم تكن بهم حاجة الى ذلك لما في منهجهم من التساهل ولتجويزهم

ـ ولا سيما الكسائي ـ القياس على كل مسموع مفردا كان أم شائعا ، فصيحا ام غير فصيح •

٣ ـ قولهم بتقسيمات جديدة في بعض موضوعات النحو والصرف وابوابهما من ذلك عدّهم اقسام الكلم ثلاثة : الاسم والفعل والاداة وهي عند البصريين : اسم وفعل وحرف وقد أمنوا بتغييرهم (الحرف) الى (الاداة) دخول حروف الهجاء ضمن هذا التقسيم • ومنه جعلهم الفعل ثلاثة انواع : الماضي والمستقبل والدائم (وهو اسم الفاعل العامل عند البصريين) وهو ثلاثة انواع ايضا عند البصريين هي : الماضي والمضارع والامر الذي لم يعدّه الكوفيون قسما ثالثا وانما عدّوه من المضارع المجزوم بلام الامر وقالوا باعرابه ، وهو مبني عند البصريين وقد زاد هذا التقسيم والاختلاف النحو تعقيدا واضطرابا حيث كثرت التقديرات في اعراب الامر عندهم وتضاربت الاقوال في (اسم الفاعل) فهو مرة (فعل دائم) واخرى (اسم فاعل) كما ناقضوا أنفسهم واختلفت مواقفهم مما أشبه اسم الفاعل في الاشتقاق او في عمله عمل الفعل مثل : (اسم المفعول) و (صيغ المبالغة) و (الصفة المشبهة باسم الفاعل) و (المصدر العامل) ولم يستقرّوا على تسمية لها عندما تكون عاملة ولم يسموها : (الفعل الدائم) مع قولهم بعملها كاسم الفاعل وخالفوا البصريين في عدّ الرباعي المجرد ثلاثيا مزيدا مع اضطرابهم في وزنه وفي تحديد الحرف الزائد فيه فقال البصريون في مثل (جعفر) انه رباعي مجرد وزنه (فعلل) وقال الكوفيون انه ثلاثي مزيد لكنهم اختلفوا في الحرف الزائد وفي وزنه فذهب بعضهم الى انه (فعلل) وجعله اخرون (فعلر) وتوقف فريق ثالث عن القول بالزائد فيه واذا سئل عن وزنه قال : لا أدري •

٤ ـ مخالفتهم البصريين في بعض الاصول النحوية من ذلك ان البصريين قالوا بالعامل النحوي في كل ظاهرة نحوية وقدّروا عاملا في كل

معمول يرد في الكلام منصوبا او مرفوعا او مجروراً او مجزوماً ولم يكن له عامل ظاهر وقالوا بانه لابد لكل معمول من عامل :ن لم يكن ظاهرا فهو مقدر او محذوف في حين اجاز الكوفيون مجيء اسماء وافعال منصوبة ولا ناصب لها وجمعوها تحت مصطلح (الخلاف) او (الصرف) ويبدو لي انه عامل معنوي عندهم • وقال البصريون : لابد لكل فعل من فاعل ان لم يكن ظاهرا فهو مقدر او مستتر ولا يجوز حذفه ، واجاز الكسائي ان يكون محذوفا • ووضع البصريون اصولا لكل من العامل والمعمول منها : انه لا يتوالى معمولان على عامل واحد ، ولا يعمل العامل في الاسم وضميره من جهة واحدة واجاز الكوفيون ذلك الى غير ذلك من الامور التي اعطت للآراء الكوفية نوعـــا من المخـــالفة لآراء البصريين واوجدت لهم ظـواهر نحوية واصـــولا ومصطلحات كونت بمجموعها ما عرف بالنحو الكوفي •

وانما اعتمد الكوفيون ولا سيما شيخاهما الكسائي والفراء فيما قالوا به من مسائل نحوية او صرفية على ما عند البصريين مما اطلعوا عليه بالرحلة الى البصرة وحضور مجلس الخليل ويونس والاستماع الى الشعراء والخطباء في مواسم المربد والاتصال بعلماء النحو البصريين كالاخفش الاوسط سعيد ابن مسعدة في بغداد الذي جاء اليها معاتبا واستقر فيها مؤدبا لاولاد الكسائي واستطاع الكسائي والفراء ان يحصلا منه على نسخة من كتاب سيبويه سراً، فاطّلعوا على نحو الشيوخ كيونس والخليل وتلميذهما سيبويه مع ما يضمه الكتاب من آراء شيوخهم جميعا ولهذا لم يعان الكوفيون ما عاناه مؤسسو النحو البصري في سبيل جمع المادة وتبويبها وتنقيتها ودراستها ومقارنتها بلغة القرآن وظواهر قراءاته واستنباط قواعد لهذه الظواهر ووضع الأقيسة لها مبنية على الكثير الغالب من كلام العرب الفصحاء بعد لغة القرآن الكريم وجمع المتشابه من هذه الظواهر في ابواب محدّدة وضعوا لمعظمها مصطلحات تميزها وتدل عليها ووضع الاصول التي يجب اتباعها في كل هذا مما وجده

الكوفيون مهيأ لهم فانصرفوا الى أمور جديدة ميزت نحوهم بخصائص تفرده عن النحو البصري .

موارد النحو الكوفي

تكونت المادة التي اعتمدوا عليها في مجموع ما سمي بالنحو الكوفي من :

١ ـ النحو البصري كما تلقوه عن عيسى بن عمر والخليل ويونس بن حبيب والاخفش الاوسط وكما سمعوه في مجالسهم عنهم وعن غيرهم وكما وجدوه في كتاب سيبويه .

٢ ـ لغات الاعراب التي جمعها البصريون واعتمدوا عليها في وضع قواعد نحوهم وصرفهم وارساء اصولها وهي متوافرة فيما اخذه الكوفيون عنهم وألفوا فيه مصنفاتهم وفيما اثبته البصريون في مصنفاتهم اللغوية وهي اللغات الفصيحة التي لم تختلط بلغات الحواضر .

٣ ـ مادة لغوية مكونة من لغات القبائل الاخرى ممن سمع عنهم الكسائي في بادية نجد والحجاز وتهامة ، والقبائل التي كانت تسكن بجوار الكوفة كتميم واسد ونزار ومن جاور بغداد من اعراب الحطمية وغيرهم .

٤ ـ الشعر العربي الذي احتج به البصريون من شعر شعراء الطبقات الثلاث الاول : الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين من طبقة جرير والفرزدق والاخطل مضيفين اليه ما كان يروى في الكوفة من اشعار شعراء القبائل التميمية والاسدية والنزارية التي كان يتفاخر بها ابناء هذه القبائل ، وما كان يرويه الرواة في الكوفة من اشعار الطبقات الثلاث ومن اشعار المعاصرين لهم ممن يحضرون مجالس الخلفاء والوزراء والولاة في الكوفة ثم في بغداد .

٥ ــ القراءات القرآنية مطلقا متواترها وشاذها لان ذلك داخل في منهجهم المبني على التوسع في الرواية والاخذ بمعظم ما ورد في اللغة .

كانت هذه اصول الاستشهاد ومصادره في النحو الكوفي اوردناها بعد ذكر اهم ما تميزت به آراء الكسائي او النحو الكوفي الذي يتمثل في آرائه وآراء تلميذه يحيى بن زياد الفراء (ــ٢٠٧هـ/٨٢٢م) الذي ولد بالكوفة وكان يتردد فيها عند نشـــأته على مجالس الدرس لمختلف العلوم التي كانت لها حلقات فيها كالفقه واللغة والقراءات والحديث وغيرها وكان يستمع الى رواة الاشـــعار والاخبار والايام . تتلمذ في اول حياته على ابي جعفر الرؤاسي وحفظ مسائله وبدأ يعلّم ما توصل اليه من آراء في اللغة والنحو في بلده الكوفة ثم قابل الكسائي في بغداد عندما رحل اليها بتشجيع من اســـتاذه الرؤاسي وحضر حلقته وسأله في مسائل حاول بها أعناته الا أن الكسائي كان واسع الصدر فأجابه بما اقنعه وارضاه وكسب به صداقته اذ توثقت بعدها الصلة بينهما فتلازما واخذ الكسائي يصحبه في مجالسه مع الخلفاء والوزراء ورجال الدولة مما زاد في حصيلته اللغوية والنحوية الا انه لم يكتف بهذا فرحل الى البصرة ليطلع على اخبار النحو البصري ويتعرف الى رجاله وهناك جلس في حلقة يونس بن حبيب وشارك فيما كان يدور من مناقشات وفيما يجري البحث فيه من مسائل لغوية ونحوية وصرفية وغيرها من بحوث عمقت اطّلاعه على هذه الدراسات وكان لمقابلته سيبويه ولقائه الاخفش الاوسط وقراءته كتاب سيبويه الذي لم يكن يفارقه اثر كبير في توسع افقه وشمول معرفته لمعظم ما عرف به النحو البصري من اصول وشواهد وآراء ومسائل وتابع في الكثير الغالب منها اقوال البصريين وآراءهم واستفاد من اطلاعه على منهجهم ومنهج الكسائي في التقعيد والقياس ونهجه منهجا وســـطا لا هو بالمتساهل في شواهده ووضعه الأقيسة على النادر والشاذ والمفرد والمفترض ايضا كما كان يفعل الكسائي ولا هو بالمتشدد تشدد البصريين في اصول نحوهم وشواهده واقيسته وانما كان يخالف الاثنين فيما لا يرتضيه ، وكان

قد تساهل في شواهده وفي بناء القواعد ووضع الأقيسة لكنه مع ذلك ميز بين الفصيح والنادر والشاذ واللغة والضعيف والرديء والمستقبح والمستنكر من اللغات .

وكان موقفه من القراءات القرآنية اكثر تحديدا من موقف شيخه وان كان قد تزمت في بعض القراءات واعلن تخطئته للقراء في بعضها الآخر وصرح بنسبة قراء بعض المدن الاسلامية الى الوهم والخطأ في قراءات اخرى مما لم يكن يلجأ اليه شيوخ النحو البصري ولم يجرأوا على التصريح به ، وكان الفراء قد نقل عن الكسائي ـ شيخه ـ بعض هذه التخطئة وهذا التوهيم مع ان المؤرخين والباحثين المتأخرين ولا سيما المحدثون يعدون البصريين اول من خطأ القراء وطعن في قراءاتهم . وقد اتضحت آراؤه هذه فيما الفه من كتب كان اشهر ما وصل الينا منها كتاب « معاني القرآن » وألف كتابا اخر عدّ اضخم كتبه واهمها الا انه لم يصل الينا هو « كتاب الحدود » ومع هذا وذاك الف كتبا ورسائل اخرى نحوية وصرفية ولغوية منها « كتاب البهيّ » و « اللغات » و « المصــادر في القرآن » و « الجمع والتثنية في القرآن » و « الوقف الابتداء » و « الفــاخر » و « آلة الكــاتب » و « النــوادر » و « المقصور والممدود » و « المذكر والمؤنث » .

و « معاني القرآن » اشهر ما وصل الينا من مؤلفاته وكان قد سماه « تفسير مشكل اعراب القرآن » وهذه التسمية اصدق واصلح لما في مادة الكتاب . قال تلميذه ثعلب : « لم يعمل احد قبله مثله ولا احسب ان احدا يزيد عليه » وهو يمثل قمة النضج اللغوي والنحوي عند الفراء اذ املاه سنة ٢٠٤هـ /٨١٩م وكانت وفاته سنة ٢٠٧ هـ / ٨٢٢م وهذا يعني انه الفه بعد ان اكتمل عمله وبلغ النحو ومسائله واصوله عنده مرحلة متقدمة من النضج وأملى الكثير من الرسائل في موضوعات نحوية وصرفية ولغوية وقرآنية كان اشهرها « الحدود » .

كان منهج الفراء في « معاني القرآن » واضحا تبينت فيه نظرته الى اصول النحو وقواعده واقيسته وموقفه من كل من اصول البصريين وشيخه الكسائي. ومن احكامهم التي اطلقوها معتمدين فيها على هذه الاصول التي عممها وأشاعها فيه وفي كتبه النحوية والصرفية الاخرى وتبينت فيه آراؤه الواضحة الكثيرة في امور متشعّبة متنوعة وذلك لانه كان قد أملى « معاني القرآن » املاء على تلاميذه والمستمعين اليه في مجلسه وقيل انه حظي باهتمام جميع المثقفين من رواة ولغويين ونحاة وقراء وفقهاء وقضاة ومحدثين اذ حضروا املاءه واستمعوا اليه .

وتتجلى اهميته في كونه اول كتاب يصل الينا في (معاني القرآن) لكوفي. يوضح مشكلات عباراته وقراءاته ويتعرض لمسائل لغوية ونحوية وصرفية في كثير من آياته وان وصل الينا عن البصريين قبله « معاني القرآن » لمعاصره الاخفش الأوسط سعيد بن مسعدة (ـ ٢١٥ هـ / ٨٣٠م) الذي استقر في بغداد مؤدبا الاولاد الكسائي ونسخ له وللفراء نسختين من كتاب سيبويه . والذي الف كتابه هذا قبل الفراء اي بين (١٨٠هـ / ٧٩٦م) و (١٨٩هـ / ٨٠٤ م) والف الفراء كتابه سنة ٢٠٤ هـ /٨١٩ م .

وتبدو اهمية كتاب الفراء ايضا في انه اول كتاب يحمل الينا آراء كثيرة في علم النحو وغيره من علوم العربية لشيخه الكسائي ويحفظ لنا آراء الفراء نفسه في كثير من مسائل هذه العلوم فهو وكتاب « مجالس ثعلب » لتلميذه يعدّان الكتابين الوحيدين اللذين اوصلا الينا الكثير من آراء شيوخ النحو الكوفي : الكسائي والفراء وثعلب كما يحفظ لنا الكثير من آراء شيوخهما بصريين وكوفيين ومجموعة كبيرة من القراءات والشواهد اللغوية منثورة ومنظومة مع ما وضعه الفراء وشيخه الكسائي من مصطلحات لمسائل كتابه .

اتبع الفراء فيه منهج ايراد بعض الآيات المقروءة بأوجه مختلفة يوضح ما جاء فيها من ظواهر لغوية او نحوية او صرفية او صوتية يرى انه لابد له

من التنبيه عليها بما يراه ولهذا لم يتعرض لجميع الآيات القرآنية بالشرح والتفسير واقتصر على ما رأى فيه مشكلا منها ، ويضم الكتاب مادة لغوية كثيرة متنوعة منها ما أحتج به لتوضيح معنى او توجيه قراءة وجهها هو او احد النحاة او اللغويين وهذه الشواهد متنوعة منها ما هو آيات قرآنية او قراءات يفسر بها آيات الكتاب العزيز او قراءاته التي احب ان يتحدث عن شيء فيها وقد يكون الشاهد لتفسير ما شابهه من الآيات او ما خالفه او ما نسخه او وضحه او لتبيين سبب النزول او زمانه او مكانه او لتصحيح قراءة او توضيح حكم شرعي او اجتماعي او غيرها وقد يستفيد من الآيات او الشواهد في تبيين معنى لغوي او تفسير كلمة غريبة او توضيح ظاهرة نحوية او صرفية او صوتية او بلاغية او عروضية .

ويمكن أن تتبين في « معاني القرآن » امورا منها :

١ ـ انه يتعرض للقراءات بالشرح والتوجيه والاستدلال سواء أكانت متواترة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أم كانت قراءة قوم من أهل البدو أم كانت لغة واردة ومقيسة في غير الموضع المحتج به .

٢ ـ انه يستخدم التعليل للظواهر الواردة في الآية من حذف واقع لغير علة نحوية كالجزم مثلا او تصريفية كالتقاء الساكنين ومن اتباع حرف في حركته لحركة حرف آخر متقدم عليه او متأخر عنه كما في قراءتي « الحمد لله » ـ بضم الدال واللام الاولى ـ و « الحمد لله » بكسر الدال واللام الاولى عند بعض الأعراب .

٣ ـ انه كان يقيس على المثال الواحد الوارد عن العرب ان وثق بلغتهم كما في قياسه على ابيات رواها ابو ثروان .

٤ ـ انه يستدل بأمثلة واردة عن العرب لاثبات علّة علل بها الحكم الوارد فيما يتحدث عنه او في نقيضه او مخالفه .

٥ ـ انه يجيز الاستدلال بالقليل الوارد عن العرب ويجعله اصلا للقياس عليه إن اعتدّ بفصاحته .

٦ ـ انه يستعمل اسلوب الحجاج الفقهي في عرضه لارائه بأن يثبت حكما ويرد عليه بحجة مناقضة يثبتها وينقض بها الحكم الاول ثم يعود ليثبت الحكم الاصلي بحجة اخرى مقوية له وهذه هي طريقة المبرد التي توصل بها الى جمع الناس حوله وتعريفهم به في مسجد بغداد الا أن الفراء استعمله في كتابه لانه املاه على مستمعين يناقشون ويجادلون .

٧ ـ انه يستعمل اسلوب التفصيل بعد الاجمال حيث يعدد الاوجه اولا او الاحكام مجملة ثم يأخذ في تفصيلها والكلام عليها وجها بعد وجه .

٨ ـ انه يهتم بوضع احكام عامة وأقيسة مطردة ينبه عليها القارىء او السامع مستنبطة من الموضع او من غيره من كلام العرب الفصيح المطرد الكثير الاستعمال ، وقد ترد الظاهرة في شاهد واحد فصيح . جاء كل هذا باسلوب سهل واضح بعيد عن التعقيد والغموض في اغلب مواضعه وقد تأتي بعض عباراته متداخلة تميل الى التعقيد الا انها مع ذلك مفهومة واضحة .

أما موقفه من اصول النحو كالسماع والقياس فقد كان أميل الى موقف البصريين في كثير من المسائل وذلك أنه لم يكن يلجأ الى القياس على الشاهد المفرد الا فيما ندر ، وعندما يقتنع بفصاحة قائله مخالفا بذلك شيخه الكسائي في هذا الاصل وقد يسمع شاهدين في الظاهرة ومع ذلك لا يجيزها لخروجها عن الكثير المطرد وقد يذكر قراءة تحمل ظاهرة نحوية او صرفية تخالف المطرد في كلام العرب وما تواتر من القراءات فيردها وينسب القارىء بها الى الوهم وان كانوا قراء مدينة معينة أو أهل بلد بعينه وقد يُخَطّىء القارىء

وهذا الموقف لم يكن عند سيبويه ولم يتبعه شيوخه وانما ظهر بوضوح وفيه عند من الاماكن في « معاني القرآن » عند الفراء او الكسائي فهو في ترك الاحتجاج بالقراءات الشاذة ورفضه القياس عليها واللجوء الى تأويلها وافق البصريين وخالف الكسائي الذي اجاز الشاذة مع توهيمه قراءات اصح منها ٠

وسار على خطى هذين الشيخين تلميذهما ابو العباس احمد بن يحيى ثعلب(ـ٢٩١هـ/٩٠٣م) كان اول ما ابتدأ بقراءته من كتب الفراء (الحدود) وهو في الثامنة عشرة من عمره بعد ان طلب العربية واللغــة وهو في ســن السادسة عشرة ، رأس الناس في النحو وهو في الخامسة والعشرين قرأ كتاب سيبويه على نفسه ولذلك لم يفهمه او لم يصبح عالما به كالفراء الذي قرأه على العلماء وقرأ غيره من كتب النحو البصري ك « المسائل » للاخفش الاوسط ومع اطلاعه على كتب النحو البصري كان يقال انه : « لم يكن يعلم مذهب البصريين ولا مستخرجا للقياس ولا طالبا له وكان يقول : قال الفراء وقال الكسائي فاذا سئل عن الحجة والحقيقة لم يأت بشيء » وانما كان اعتماده في علمه على حفظه لآراء شيخيه النحوية واللغوية وللروايات اللغوية والاشعار التي كان يحتج بها في مناظراته ومجالسه وقد تبينت صورة ذلك في كتابه « مجالس ثعلب » ٠

عاش ثعلب في بغداد في ظل ذوي الجاه والثراء الذين كانوا يدعونه لتثقيفه اولادهم ، وثق به شيوخه واعتمدوا عليه ومنهم اســتاذه اللغوي الراوية ابن الاعرابي (ـ ٢٣١هـ/٨٤٥م) واصبح ثعلب شيخ الدرس النحوي الكوفي في بغداد حاضرة الخلافة العباسية بعد وفاة الفراء ولم تكن بغداد تعرف في زمانه احدا غير ثعلب وشيخيه اللذين يروي آراءهما ويمليها على الدارسين في حلقته حتى جاء الى بغداد شيخ بصري هو ابو العباس محمد بن يزيد المبرد (ـ٢٨٥هـ/٨٩٨م) الذي ادخل الى بغداد لاول مرة كتاب سيبويه ونحو البصريين واصبح الدارسون للنحو في بغداد يطلعون على النحويين

ويتعرفون على المنهجين واصبح الطلاب يترددون على الشيخين ويقارنون بين اصول هذين المذهبين .

وصل الينا من كتبه كتاب « مجالس ثعلب » الذي اعتمد فيه على رواياته عن ابن الاعرابي ولم يكن للكتاب منهج موحد لا في العرض ولا في الموضوعات وفيه انواع مختلفة من الروايات والقصص والحوادث التاريخية والادبية واللغوية واخبار العاشقين او الشعراء الشجعان والزهاد وكلام على ارجوزة لراجز او ابيات لشاعر او خبر في لحن وقع في كتاب موجه الى خليفة ، مع أخبار مختلفة متنوعة لحوادث تجري غالباً ما لا يكون بينها ترابط في الموضوع مع تتابعها .

وترد في المجالس مسائل نحوية الا انها لم تكن في ابواب منظمة مفصلة او في موضوعات متكاملة ولا في جزء معين من الكتاب او في باب منفرد في كل مجلس ترد فيه وان كانت هناك عبارات تبين رأيه في فصاحة قريش ومقارنتها بالقبائل الاخرى او يحتج بما قاله الفراء في ذلك او في عيوب لغات قبائل اخرى كالكسكسة والتلتلة والكشكشة وغيرها .

وتبدو فيه متابعته للفراء متابعة شبه كلية في موقفه من الآراء النحوية والاصول والأقيسة فهو يرد على سيبويه او الخليل برأي الفراء او برأي الفراء والكسائي ان كانا متفقين في الرأي ، وقد يتفق الكسائي وسيبويه فيرد عليهما برأي الفراء وربما يعرض رأي سيبويه والفراء ويسكت عن الرد وقد يكتفي ثعلب بعرض آراء الطرفين .

ومع كل هذه المتابعة والاعتداد بآراء الفراء نجد ثعلبا ينفرد بآراء أيد فيها البصريين ولا سيما في اصول القياس وفي اللجوء الى التأويل فيما خالف القياس من شعر الفصحاء وكلامهم والتزم مصطلحات الكوفيين ، وتابعهم في معظم المسائل والظواهر النحوية .

الدراسات النحوية في بغداد

كانت نشأة الدراسات النحوية واللغوية وتطورها منذ زمن ابي الاسود في البصرة والكوفة ، ونهضة الرواية اللغوية للشعر العربي في الكوفة من بواكير الثقافة العقلية الواسعة التي شهدها العراق منذ بداية انتشار الاسلام فيه وانتشرت وتنوعت بعد تمصير المدينتين العظيمتين وكان لتشجيع الخلفاء العباسيين منذ زمن ابي جعفر المنصور للعلماء والائمة اثر ظاهر في مواصلة البحث والتعمق فيه فاشتهروا وازدهرت علومهم في بغداد وقد جاوز تشجيع الخلفاء هؤلاء العلماء الى غيرهم من المشتغلين بالعلوم الصرفة ، وتم نقل هذه العلوم من اليونانية وغيرها في عصر الخلفاء العباسيين اما قبل هذا فقد كان اهتمام العرب منصبا على العلوم الاسلامية واللغوية على اختلاف فروعها التي نشأت ونمت وتحددت معالمها واصولها في عصر الدولة الاموية كعلم القراءات والتفسير والحديث والفقه وعلوم اللغة العربية كل هذه العلوم كانت قد نشأت ونمت وتطورت ونضجت قبل عصر الترجمة ودخول الثقافات الاجنبية واختلاطها في اذهان علماء هذه الامصار الاسلامية فبقيت علومها عربية اسلامية اصيلة في نشأتها ومادتها ومناهج درسها ولم تؤثر فيها هذه الترجمات تأثيرا مباشرا وكانت عناية الخلفاء بالترجمة والمترجمين قد أثارت غضب العلماء المسلمين فأغلظوا القول للخلفاء الذين اخذوا يجهدون في استرضائهم ولا سيما الفقهاء منهم والمحدثون وشمل علماء اللغة واهل الادب ورواة الاخبار والنحاة واختص الرشيد بتقريب الفقهاء وعلماء العربية وكان يتتبع في مكاتباته ما يقع من لحن حتى قال لاحدهم « لا تكتبن الي كتاباً حتى تعرضه » أي علىَ علماء العربية .

بدأ علماء الدراسات الاسلامية والعربية بتدوين علومهم في المدة التي جرى فيها انشاء مدينة بغداد وتم تدوين كتب الادب واللغة والنحو والتاريخ وايام العرب.أما بغداد فقد تسربت اليها الثقافة عن طريق علماء الكوفة واصحاب

اللغة والنحو فيها لانها اقرب اليها من البصرة ولاسباب اخرى كثيرة واصبح علماء الكوفة حاشية الخلافة العباسية ومؤدبي اولاد الخلفاء ومستشاريهم في الامور الفقهية والشرعية واللغوية والنحوية فقد كان الكسائي اول نحوي لغوي يستدعيه المهدي الى عاصمة الخلافة ليؤدب الرشيد ثم لازمه ملازمة الظل مما شجعه على ان يواصل بحثه وتدريسه فذاع صيته في بغداد واشاع النحو الكوفي بين الدارسين فيها واعقبه على مجالس الدرس النحوي في بغداد تلميذه الفراء الذي لازم الكسائي بعد ان ترك بلده الكوفة وتعلم عليه وصاحبه وتصدر مجلس الدرس فيها بعد وفاته .

التقاء المنهجين في بغداد

كان مما يميز الدرس النحوي في بغداد ايام الخلافة العباسية شيوع النحو الكوفي بمنهجه واصوله على يدي الكسائي ثم الفراء وبعدهما ثعلب الذي بقي في بغداد زمنا يدرس نحوهما وكان الدارسون فيها لا يعرفون غير هذا النحو الذي يحفظه عنهما ويرويه محتجا عليه بمحفوظه الواسع من اللغة وكان قد قدم الى بغداد بعض النحاة واللغويين البصريين لكنهم لم يستطيعوا مقاومة تمركز الكوفيين فيها وتعصب الوزراء ومن حولهم من الحاشية لهم ولم يتمكنوا من تثبيت اقدامهم فيها لنشر النحو البصري يضاف الى ذلك تحكيم الاعراب الساكنين في اطراف بغداد في المسائل التي يتناظر فيها نحاة البلدين ولغويوها فيحكمون للكوفيين دائما لانهم الاقوى ولانهم نحاة دار الخلافة وبلد السلطان ولان الكوفيين يعتمدون على لغات هؤلاء الاعراب في استنباط بعض الظواهر ووضع القواعد والأقيسة عليها كما حدث في المناظرة التي جرت بين الكسائي وسيبويه في مجلس الرشيد ، الى ان جاء المبرد الى بغداد قادما من سامراء بعد مقتل المتوكل الذي استدعاه الى سامراء ليكون مستشاره في الامور النحوية واللغوية ولا سيما ما يعرض منها في القراءات القرآنية ويحكم في مسائل الخلاف التي تقع بينه وبين وزرائه فيها

فلما دخل بغداد لم يجد من يعرفه فيها او يعينه او يمهد له امور العيش فيهـا غير انه استطاع بدهائه وذكائه وما عرف به من سعة اطلاع على مسائل النحو وتضلع فيهاوحفظ لشواهدها وتمرس بأساليب الحجاج والتعليل والقياس والتأويل ان يفسح له مكانا بين النحاة الكوفيين واصحابهم في بغداد وعرف كيف يجتذب اليه اكبر عدد من تلاميذ ثعلـب الذين اذهلهم واثار دهشتهم ونال اعجابهم بما عرضه امامهم من اساليب جديدة على الدرس النحوي في بغداد فانحازوا اليه وانصرفوا عن شيخهم ثعلب ونبذ كثير منهم كتب النحو الكوفي ولازموا المبرد ملازمة مكنتهم من الاطلاع على ما في هذا النحـو الاصيل الذي كان معزولا عن مجالس الدرس في بغداد ولم يصل اليهم منه الا ما تعرض له نحاة الكوفة برد" او تخطئة او استدراك او تصحيح مما يشوه صورته في اذهانهم ويرغبهم عنه ، وشهدت بغداد اشتداد المنافسة بين انصار المذهبين النحويين واتباعهما ممثلين في علمين من اعلامهما عُدّا آخر شيوخ البلدين وعلميهما الشهيرين اللذين انتهت اليهما رئاسة الدرس النحوي وهما : ابو العباس محمد بن يزيد المبرد (ــ ٢٨٥هـ/٨٩٨م) حامل لواء النحو البصري، وابو العباس احمد بن يحيى ثعلب (ــ ٢٩١ هـ /٩٠٣م) ممثل النحو الكوفي.

لقد استطاع المبرد ان ينفض عن اذهان الدارسين في بغداد ما أصابها من ركود وجمود لاعتماد ثعلب على الحفظ والرواية في تدريسه ونقل ما يحفظه من اقوال الكسائي والفراء مدللا عليها بمنظوم الكلام العربي ومنثوره مما ادى الى ركود اذهانهم وعدم شحذها بالقياس والتنظير والبحث عن العلل والتفسير واستنباط الاحكام منها فكان للمنهج الجديد الذي طرأ على الدرس النحوي في بغداد الاثر البعيد في اجتذاب الدارسين اليه لكي يطلعوا عليه ويستطيعوا المقارنة بين المنهجين .

الدارسون البغداديون

تكونت من تلاميذ الشيخين ثعلب والمبرد طبقة من الدارسين تنوعت

ميولهم ونزعاتهم واحتدم الصراع بينهم مدة من الزمن فمنهم من كان بصري النزعة في التعليم والتلقي وفي الآراء والاتجاه ومنهم من كان كوفي المذهب سـواء اخذوا عن الشـيخين أم لازموا أحدهمـا ، ومنهم من أخذ عن الشيخين واختار من آرائهما معا ولم ينحز انحيازا ظاهرا الى احدهما الا ان هذا الاختيار منهما مع التوسط بينهما كان قليلا لان الانحياز كان الطابع الغالب على الدارسين الذين مزجوا المنهجين بسبب حدة الخلاف التي كانت قائمة بينهما ورغبة مؤيدي كل منهما في التقدم والتفوق والاشتهار ، وبقي الامر كذلك حتى قضى الشيخان نحبهما وخلا الدارسون الى انفسهم وعادوا الى النحو الذي تعلموه والعلم الذي اخذوه بعد ان انكسرت حدة العصبية لاحد الفريقين فأخذوا يعرضون علم المذهبين ومنهجيهما وآراءهما وينظرون في شواهدهما واصولهما واقيستهما ليتعرفوها ويتعمقوا النظر فيها ويقارنوا بينها من حيث الصحة والخطأ والقوة والضعف وكان ذلك في بداية القرن الرابع الهجري كي يستطيعوا ان يبنوا احكامهم على اسس متينة صلبة وكان لا يزال في هؤلاء الدارسين فئة تلقت عن البصريين وحدهم واخرى تلقت عن الكوفيين ونشأ نحوها بصريا خالصا او كوفيا خالصا او اختار بعضها مع هذا من آراء الفريق المخالف كابن قتيبة الذي تلقّى عن البصريين ولم يأخذ عن كوفي ومع ذلك خلط في كتبه فأخذ عن الكوفيين مع غلوه في البصريين ووجدت فئة ثالثة معهما اخذت النحو عن الفريقين وخلطت المذهبين وانحاز فريق منها الى البصريين وآخر الى الكوفيين ام لم تخلط المذهبين وظل منها البصري ومنها الكوفي مع سماعهم عن الشيخين وأخذهم بمنهج المذهبين كالزجاج الذي اخذ عن ثعلب اولا وكان معتمد شيخه في مجادلة كل من يحاول الجلوس للدرس النحوي في مسجد بغداد وفض حلقته وابعاد الناس عنه فلما ظهر المبرد الرجل الغريب في مسجد بغداد وذهب لمناقشته وفض حلقته اعجب به وانحاز اليه ولازمه وهجر كتب النحو الكوفي ومع ذلك لم يخلط المذهبين في كتبه وظل بصريا .

وتبينت عند هؤلاء الدارسين البغداديين ثلاثة اتجاهات :

الاول : اتجاه من ظل بصريا سواء أكان بصريا ام لم يكن وسواء اخذ عن شيوخ المدرستين ام عن البصريين وحدهم وكان من اشــهر هؤلاء ابو اسحاق ابراهيم بن السري الزجاج(ـ٣١١هـ /٩٢٣م) من اكابر اهل العربية ترك كتبـا مهمة في اللغة والنحـو والصرف منها : « المعاني في القرآن » و « الفرق بين المؤنث والمذكر » و « فعلت وافعلت » و « الرد على ثعلب في الفصيح » و « شرح ابيات ســيبويه » و « ما ينصرف وما لا ينصرف » و « النوادر » .

ومنهم ابن السراج ابو بكر محمد بن السري (ـ٣١٦هـ/٩٢٨م) كان احدث غلمان المبرد قرأ عليه كتاب سيبويه واليه انتهت الرياسة في النحو بعد موت الزجاج صنف كتبا مشهورة منها : « الجمل » و « الاصول في النحو » و « الاشتقاق » و « شرح كتاب سيبويه » .

الزجاجي ابو القاسم عبدالرحمن بـن اسحاق (ـ ٣٣٧ هـ/٩٤٨ م) المنسوب الى شيخه الزجاج لملازمته اياه واتصاله الدائم به رحل الى دمشق وسكن فيها بعد تعلمه في بغداد وانتفع الناس بعلمه . الف في النحو كتبا من اهمها « الجمل » و « الايضاح في علل النحو » و « شرح خطبة ادب الكاتب لابن قتيبة » .

ومنهم: المبرمان ابو بكر بن محمد بن علي العسكري (ـ ٣٤٥هـ/٩٥٦م) قرأ كتاب سيبويه على المبرد واكثر الاخذ عنه وكان قيما بالنحو ، صنف : « شرح كتاب ســيبويه » لم يتم و « شرح شــواهده » و « شرح كتاب الاخفش » و « النحو المجموع على العلل » وغيرها .

وقرأ ابن درستويه ابو عبدالله بن جعفر (ـ٣٤٧هـ/٩٥٨م) على المبرد كتاب سيبويه وبرع فيه ولقي ثعلبا واخذ عنه . الف كتبا كثيرة في النحو من

اشهرها « شرح الفصيح » و « المذكر والمؤنث » و « المقصور والممدود » و « كتاب الكتّاب » و « اسرار النحو » لم يتمه و « شرح المقتضب » لم يتمه و « النصرة لسيبويه على جماعة النحويين » .

وكان من اشهرهم الحسن بن عبد الغفار النحوي المشهور بابي علي (ـ٣٧٧هـ/٩٨٧م) تنقل بين بغداد والموصل بعد ان تلقى علم النحو فيهما ورحل الى حلب .. ثم عاد الى بغداد حيث توفي فيها . ألف كتبا مهمة اشهرها « الاغفال » و « شرح ابيـــات الايضـــاح » و « الشـــيرازيات » و « الحلبيـــات » و « التذكرة » .

ومنهم تلميذه ابو الفتح عثمان بن جني(ـ٣٩٢هـ/١٠٠١م) الذي ولد في الموصل وفيها نشأ ودرس على احمد بن محمد الموصلي ثم دخل بغداد في سن مبكرة ودرس النحو وغيره من علوم العربية وعاد الى الموصل يدرّس ما تعلمه في مسـجد بغداد وهو شـــاب صنف كتبا مهمة اشهرها « الخصائص » و « اللمع » و « التصريف الملوكي » و « المنصـــف » وهو شرح كتاب « التصريف » للمازني و « المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها » و « التمام في تفسير اشعار هذيل مما أغفله ابو سعيد الســـكري » و « سر صناعة الاعراب » .

الثاني : اتجاه من ظل كوفيا سواء اكان ممن اخذ عن شيوخ المدرستين ام ممن اخذ عن الكوفيين وحدهم ومن اشهر هؤلاء : ابو موسى الحامض سليمان بن محمد بن احمد(ـ٣٠٥هـ/٩١٧م) من تلاميذ ثعلب ومختص به ومن اكابر أصحابه كان نحويا بارعا شديد العصبية للكوفيين له كتب في النحو واللغة اشهرها « مختصر في النحو » و « خلق الانسان » و « الوحوش » و « النبات » .

ومنهم : ابو بكر محمد بن القاسم الانباري (٣٢٨هـ/٩٣٩م) نسبة الى (الأنبار) الواقعة على الفرات ولد في بغداد وكان ابوه من اعلام الادب ومن

الرواة الثقات في عصره من اهل سامراء اخذ عنه علوم اللغة وكان شديد الذكاء فطنا واسع الاطلاع خلّف الكثير من المصنفات في فنون شتى وكان يملي من حفظه على عادته في كل ما يُكتب عنه من العلم في كتبه المصنّفة على كثرتها وضخامتها وتنوع مادتها ومن اشهرها « الاضداد » و « ايضاح الوقف والابتداء » و « الزاهر في معاني كلمات الناس » و « شرح الالفات المبتدءات في الاسماء والافعال » و « شرح القصائد السبع » و « مسألة في التعجب » و « الهاءات في كتاب الله » و « المذكر والمؤنث » و « مختصر في الالفات » و « الامالي » وغيرها .

الثالث : اتجاه من خلط المنهجين البصري والكوفي في مؤلفاته وآرائه واختار منهما سواء اخذ عن شيوخ البلدين او اقتصر في الاخذ عن شيوخ احدهما ، كان من اشهرهم ابو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ـ٢٧٦هـ/٩٨٦م) ولد في الكوفة ونسب الى الدينور لتوليه القضاء فيها وكان صادقا فيما يرويه عالما باللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه ومن تصانيفه « المعارف » و « عيون الاخبار » و « ادب الكاتب » .

ومنهم ابن كيسان ابو الحسن محمد بن احمد ابراهيم (ـ٢٩٩هـ/٩١١م) عاصر المبرد وثعلبا واخذ عنهما فحفظ اصول النحو الكوفي في كتب الكسائي والفراء ثم اخذ عن المبرد وكان اشهر تلاميده وظل وفيا لشيخيه لم ينحز لاحدهما وينصرف عن الاخر فقد كان يحضر الحلقتين ويدرس نحو المذهبين ويختار منهما ما يراه ولهذا نجد المؤرخين والمترجمين متأرجحين في عده بصريا مرة وكوفيا اخرى ، تأثر في منهجه بالمبرد فلجأ الى التعليل والتحليل والتأويل وسلك مسلك المتأخرين الذين تأثروا بالفلاسفة وعلماء الكلام وشارك علماء عصره في الاهتمام بما يدور بين الدارسين من اساليب التعليل للمسائل النحوية ولظواهر اللغة فانصرف الى تأليف كتاب يحمل اسم « المختار في علل النحو » . ومنهم الاخفش الصغير ابو الحسن علي بن سليمان

النحوي(ـ٣١٥هـ/٩٢٧م) الذي اخذ عن المبرد وثعلب وغيرهما، سافر الى مصر ثم الى حلب حيث درس النحوين ثم عاد الى بغـــداد وتوفي فيها له كتاب « الانواء » و « التثنية والجمع » و « الجراد » .

وممن خلط المذهبـــين ابو بكر احمد بن الفرج بن شـــقير النحوي (ـ٣١٧هـ/٩٢٩م) الف «مختصر نحو» و « مقصور وممدود » و « المذكر والمؤنث » . وفي طبقته ابن الخياط ابو بكر محمد بن احمد بن منصـــور (ـ٣٢٠هـ/٩٣٢م) له من الكتب كتاب «النحو الكبير » و «معاني القرآن» و « المقنع » و « الموجز » . ومنهم ابو عبدالله ابراهيم بن محمد بن عرفة المعروف بنفطويه (ـ٣٢٣هـ/٩٣٤م) ألف في النحو واللغة وغيرهما ومن اشهر كتبه « المقنع في النحو » و « الرد على من زعم أن العرب تشتق بعض الكلام من بعض » و « المصادر » وغيرها .

خصائص النحو البغدادي

تميز النحو عند الدارسين البغداديين بالخلط بين المذهبين في المنهج والاصول والقواعد والأقيسة والمصطلحات ، ويمكننا بدراسة نحوي من كل اتجاه للمذهب البغدادي ان نستخلص خصائص عامة لهذا النحو ، وبدراسة ابن جني وشيخه ابي علي من الاتجـاه الاول وابي بكر بن الانبـــاري من الاتجاه الثاني وابن كيسان من الاتجاه الثالث أمكن القول بأنهم :

١ ـ نقلوا عن الفريقين فقد كان ابو علي النحوي(ـ٣٧٧هـ/٩٨٧م) يكثر النقل عن البصريين ويسميهم (اصحابنا) ويعتمد على منهجهم كثيرا وعلى نحوهم المتمثل بكتاب سيبويه في الآراء والشواهد واسلوب البحث و المناقشة ويتابع سيبويه في التأويلات والاحكام وفي تبويب موضوعات كتاب «التكملة» وفي مســـائل الخلاف بين البصريين ومقابليهم الذين ســـماهم (البغداديين) ويريد بهم ـ فيما يبدو ـ الكوفيين الذين

ترأسوا الدرس النحوي في بغداد واستقروا فيها كالكسائي والفراء ، واخذ بآراء عدد من النحاة البصريين كأبي عمرو بن العلاء ويونس والاخفش الاوسط وابي عمر الجرمي والمبرد وغيرهم ، واعتمد على رواة بصريين في شواهد اللغة كأبي زيد الانصاري وابي عبيدة والاخفش الكبير ومع هذا فقد اخذ عن الكوفيين ايضاوان لم يصرح بتسميتهم بالكوفيين ، وكان اكثر الآراء انتشارا في كتبه آراء ثعلب التي كان يوثقها ويستشهد بها ولا يرد عليها كما يفعل مع بعض البصريين واتخذ من ثعلب طريقا للرواية عن العلماء الرواة كالاصمعي ، ونقل آراء معدودة للنحاة الكوفيين الآخرين كالكسائي والفراء ولرواتهم كابن الاعرابي وابي عمرو الشيباني •

ونجد ابا بكر بن الانباري (ــ٣٢٨هـ/٩٣٩م) يعتمد على آراء الكسائي والفراء وان كان ينقل عن البصريين ولاسيما سيبويه الا انــه يرد عليه باقوال الكسائي والفراء ان خالفاه ويعرض رأيه مع رأيهما ان اتفقا معه وكان يتابع الآراء الكوفية ولا سيما آراء الفراء في معظم مسائل النحو والصرف وان خالفهم في المنهج والشواهد وفي كثير من الاصول • ووقف ابن كيسان موقفا وسطا من النحوين فأخذ بآراء البصريين عندما اقتنع بها وبآراء الكســـائي أو الفراءاو ثعلب عندما رآها اقرب الى الصحة وان كان تأثره بالمبرد وبطريقته كبيرا •

٢ ـ كثر عندهم اللجوء الى التحليل والتأويل والحجاج والجدل المصحوب بالاستدلال والتعليل فاتضح عند ابي علي وابن جني (ــ٣٩٢هـ/١٠٠١م) الاكثار من التعليل والمبالغة والاسراف في استعماله كما اهتم به واعتمد عليه ابن كيسان(ــ٢٩٩هـ/٩١١م) كثيرا مما دفعه الى تأليف كتابه «المختار في علل النحو » لانه وجد معاصريه قد جعلوا من العلة محور بحوثهم ولا تكاد تمر مسألة او ظاهرة لغوية او نحوية او صرفية او صوتية

لا تعلل واتضـــح عند ابن الانباري انواع العلل الثلاثة التي ذكرها ابو القاسم الزجاجي(ـ ٣٣٩هـ/٩٥٠م) في كتابه «الايضاح في علل النحو» وهي : التعليمية والنظرية والجدلية واستعان بها في تعليل المسائل التي احتاج فيها الى وضع الادلة او استنباط الأقيسة او اطلاق الاحكام اذ لابد له من تعليل كل ظاهرة يتحدث عنها وكان لمناهج العلوم المترجمة اثر كبير في ظهـــور هذه الاســـاليب في بحـــوث نحاة هذا العصر ومؤلفاتهم .

٣ ـ لجأوا الى التأويل والتقدير في العبارات والشواهد الفصيحة والآيات القرآنية التي يوحي ظاهرها بالخروج عن الكثير المطرد الشائع في كلام العرب وبمخالفة الأقيسة الموضوعة وكان ابو بكر بن الانباري خير من اتضـــح عنده هذا النوع من التقدير والتـأويل لانه مع ميله الى الكوفيين لم يكن يلجأ الى كسر الأقيسة الموضـــوعة وتغييرها لمجيء ما يخالفها وان كان عن شاعر فصيح او اعرابي صريح او آية قرآنية متواترة وانما كان يحاول رد هذا المسموع الى ما عليه القياس المطرد باللجوء الى التقدير والتـــأويل وكان هذا منهج ابي عمرو بن العلاء والخليل .

٤ ـ جدّ عند البغداديين استعمال اســـلوب تقسيم الموضوع الى اجزائه واحواله وانواعه ثم حدّ كل جزء منها بما يميزه من الاجزاء او الانواع الاخرى ثم البدء بالإستدلال عليها والاحتجاج لها والتعليل لما هو محتاج الى التعليل منها وقد كثر هذا عند ابن الانباري وابن كيسان واستعمله ابو علي وابن جني ايضا .

٥ ـ تأثر بعض هؤلاء بالفاظ اهل المنطق وعلم الفلسفة اللذين شـــاعت الفاظهما ومصطلحاتهما في هذا العصر فأخذوا يستعملون في كتبهم

اللغوية والنحوية الفاظا مثل : العرض والجوهر والعلة وعلة العلة والدليل والحجة وما اليها .

٦ ـ اهتم بعضهم باختيار الفصيح مما يسمع من كلام العرب والتثّبت منه ومن فصاحة الناطقين به من الاعراب واعتنى بالتمييز بين لغات القبائل ووضع شروطا للمتكلمين من سكان المدن وسكان البادية وكان كتاب « الخصائص » لابن جني خير دليل على هذا الاهتمام بالمسموع وتمييزه فيه بين المتكلمين من اهل المدن والحضر .

٧ ـ اهتم بعضهم بالأمثلة الموضوعة للتدريب على مسائل النحو والصرف وكان المبرد اول من ذكر في كتابه « المقتضب » فصولا للتدريب على مسائل نحوية من باب (كان) و (الأخبار بالذي وفروعه) وغيرهما وكان ابن جني في « المنصف » والمبرد في « المقتضب » اول من وضع الامثلة غير المسموعة للتدريب على تصريفها الى ابنية المشتقات او الى اوزان اخرى وان كان ابن جني قد اهتم بالموضوعات الصوتية والصرفية اهتماما كبيرا وكان الغرض من هذه الابواب تعليم الدارسين مسائل هذه العلوم وتدريبهم عليها وتنبيههم على دقائقها .

٨ ـ تبين عندهم استعمال مصطلحات المذهب الذي يميلون اليه ، فقد كان ابو علي وابن جني ، يستعملان مصطلحات البصريين في الكثير الغالب ، وتابع ابو بكر بن الانباري الكوفيين في مصطلحاته ، وان استعمل بعض مصطلحات البصريين ، ومال ابن كيسان الى المصطلحات البصرية مع استعماله المصطلح الكوفي . واستعمل بعضهم مصطلحات او الفاظا خاصة به لم يسبق للبصريين او للكوفيين استعمالها ، وظهر ذلك بوضوح عند ابي بكر بن الانباري الذي كان يستعمل لجمع (المكني) وهو (الضمير) عند البصريين : (المكاني) . والكوفيون يجمعونه (المكنيات) او يقولون (كناية) و (كنايات) . واستعمل (عتيق

كلام العرب) ويريد به الفصيح المطرد منه ، و (التعرّب) للاعراب ، و (عرّبت تعريب الاسماء) اي : اعربت اعراب الاسماء . واستعمل تسمية (صاحب الفعل) للفاعل . الى غير ذلك .

٩ ـ اهتم بعضهم بالعامل النحوي ووضعوا له الاحكام والاصول ، وقد ظهر ذلك جليا عند ابن كيسان الذي تأثر بالبصريين فلم يجز تقديم المعمول على العامل ، ورأى أن تغيّر معنى الجملة انما يكون لتغير العامل ، كما ان تغير العامل يؤثر في تغير معنى الجملة ، ولكل صورة من صور التعبير عامل مؤثر أدى اليها ، الى غير ذلك من الاحكام والاصول .

١٠ـ كان لمعظم هؤلاء آراء خاصة بهم لم يسبقوا الى القول بها من بصري او كوفي ، منها ما كان في اصول النحو كقول ابن كيسان بأن البناء هو الاصل الذي يعمّ المعرب وغيره ، وان المعرب مخرج منه ، فخرج منه الى الاعراب الاسماء المتمكنة لحاجتهم الى اعرابها للمعاني التي صرفوها فيها ، وضارعتها الأفعال فأدنيت منها ولم تلحق بها وقصرت عنها . وتباعدت الحروف التي للمعاني فلزمت الاصل الذي بنيت عليه ، وهذا القول مخالف لرأي البصريين وهو أن الاعراب اصل في الاسماء فرع في الافعال ، والبناء أصل في الافعال والحروف فرع في الاسماء ، ولما ذهب اليه الكوفيون من كون الاعراب اصلا في الاسماء والافعال .

ومما تفرد به ابن كيسان ايضا في فروع النحو قوله بان (النون) في المثنى وجمع المذكر السالم عوض من التنوين في المفرد . الى ما هنالك من أقوال وآراء خاصة به .

وكان لابي بكر بن الانباري آراء اجتهادية ايضا منها ما كان تعليلا او تفسيراً لظواهر متشابهة في الاسماء المبنية وفي الافعال كتفسيره البناء على الضم في بنية الكلمة او في آخر الاسم المبني بانه انما وجد لقيامه مقام شيئين ، قال وهو يتحدث عن ضم اول الفعل عند البناء للمجهول : « وانما ابتدئت

ألف ما لم يسم فاعله بالضم لدلالة الفعل الذي هي في اوله على (فاعل) و (مفعول) اذ (ضُرِبَ) لا يخلو من دلالة على (ضارب) و (مضروب) فكان ضم اوله دلالة على تضمنه معنيين كما قالوا : (زيد حيث عمرو) فألزموا (حيث) الضم لقيامها مقام محلين كقوله : زيد في مكان فيه عمرو ، وقالوا (نحنُ قمنا) فضموا (نحن) في جميع الاحوال لتضمنه معنى التثنية والجمع . فكان التعليل للبناء على الضم بانه للدلالة على معنى مركب قولا جديدا لم يسبق ابن الانباري اليه .

١١- تابع ابن كيسان الكوفيين ولا سيما الكسائي في القياس على الشاهد الواحد الفصيح المسموع من ذلك اجازته جمع (احمر) و (سكران) : (احمرون) و (سكرانون) قياسا على قول الشاعر :

فما ولدت بنات بني نزار   حلائل اسودين واحمرينا

ولم يكتف بهذا وانما اجاز بلا سماع جمع (حمراء) و (سكرى) : (حمراوات) و (سكريات) قياسا على المقابل المسموع في هذا الشاهد المفرد وهو جمع المذكر السالم وهذا ما كان يذهب اليه الكسائي ويجيزه مما لم يقله البصريون مع ان ابن كيسان كان يميل اليهم في اختياراته النحوية والصرفية .

وهكذا نجد الدارسين البغداديين لا يتابعون مذهبا من المذهبين متابعة خالصة وانما كانوا يختارون الرأي الذي يرون صحته وقد يقولون بقول ثالث لم يقل به احدهما وهذه من اهم ميزات النحو البغدادي وخصائصه مع زيادة في التعليل والتحليل والتأويل والحجاج والاستدلال .

واستمر النحاة بعد هؤلاء البغداديين يأخذون النحو عنهم بصريين كانوا ام كوفيين أم بغداديين خلطوا المذهبين ومالوا الى احدهما ام لم يخلطوا وجاء تلاميذهم فساروا سيرتهم ولم يعد هناك مذهبان فقط ولم يعد

المترجمون والمؤرخون يفردون كتبا في نحاة بلد معين بعد منتصف القرن الرابع وانما اتجه التأليف اتجاهين : سار احدهما على الترتيب الزمني بحسب وفيات النحاة واللغويين مثل « نزهة الالباء في طبقات الادباء » لابي البركات ابن الانباري (ــ٥٧٧هـ/١١٨١م) وسار الآخر على الحروف الالفبائية لاسماء هؤلاء الاعلام مقدمين من اسمهم (محمد) و (احمد) على غيرهم في الغالب كما فعل القفطي (ــ٦٢٤هـ/١٢٢٦م) في « انباه الرواة على أنباه النحـاة » والسيوطي (ــ ٩١١هـ/١٥٠٥م) في « بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» .

وكانوا يشيرون في ترجمات هؤلاء الى البلد الذي ولدوا فيه او نسبوا اليه والى المدن والبلدان التي رحلوا اليها واستقروا فيها او تنقلوا بينها والى الاعمال التي تولوها والعلوم التي درّسوها وصنفوا فيها ويهتمون بذكر النحو الذي حفظوه أو عنوا بتدريسه والتأليف فيه ولهذا لم تكن هناك مذاهب تنسب الى بلد معين ، ومعظم هؤلاء الدارسين يرحلون الى بغداد وفيها يتلقون معظم العلوم ولا سيما النحو والصرف واللغة من علمائها البغداديين الذين هضموا نحو المذهبين ومنهم من يستقر فيها يقرىء النحو واللغة ويؤلف فيهما ومنهم من يعود الى بلده او يرحل الى مدينة اخرى او بلد آخر ينشر فيه علومه .واشتهر من نحاة بغداد في النصف الثاني من القرن الرابع الحسن بن داود المعروف بابن النقار النحوي الاموي الكوفي ، صلى في جامع الكوفة ثلاثا واربعين سنة وبها مات سنة ٣٥٢هـ/٩٦٣م . اضطلع بعلم العربية وصنف فيه « اللغة في مخارج الحروف » و « اصول النحو » .

وممن اخذ عن ثعلب وكان احفظ معاصريه لنحو الكوفيين محمد بن الحسن بن مقسم ابو بكر العطار النحوي(ــ٣٥٥هـ/٩٦٥م) صنف «الاحتجاج في تفسير القراءات » وكتابا في النحو و « المقصور والممدود » و « المذكر والمؤنث » و « الوقف والابتداء » و « مجالسات ثعلب » .

وكان عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري(ـ٣٧٦هـ/٩٨٦م) قد اخذ عن البصريين ولم يكن بين شيوخه كوفي ومع ذلك نقل في كتبه آراء للكوفيين وخلط . نزل بغداد وولى قضاء الدينور فنسب اليها صنف في علوم شتى ، قد تقدم ذكره في البغداديين .

وممن مال الى البصريين واهتم بكتاب سيبويه والف فيه كتبا مهمة الحسن بن عبدالله بن مرزبان ابو سعيد السيرافي(ـ٣٦٨هـ/٩٧٨م) درس ببغداد علوم القرآن والنحو واللغة ، اخذ النحو عن ابن السراج ومبرمان ، صنف « شرح كتاب سيبويه » الذي اشتهر به و « شواهد سيبويه » و « المدخل الى كتاب سيبويه » و « الاقناع في النحو » و « الفات القطع والوصل » و « اخبار النحويين البصريين » .

ومنهم الحسين بن احمد بن خالويه (ـ٣٧٠هـ/٩٨٠م) درس النحو على ابن دريد ونفطويه وابي بكر بن الانباري وابي عمر الزاهد صنف « الجمل في النحو » و « الاشتقاق » و « اعراب ثلاثين سورة » و « الالفات » و « المقصور والممدود » و « المذكر والمؤنث » و « ليس في كلام العرب » و « اشتقاق خالويه » .

وهكذا نجد أن معظم نحاة هذا القرن قد أخذوا عن تلاميذ المبرد وثعلب وتلاميذهم وظلوا بغداديين يميلون الى البصريين او الكوفيين ويأخذون بلا انحياز وظلوا يؤلفون في النحو والصرف واللغة ويشرحون كتب سابقيهم ويؤلفون عليها الردود وغيرها .

اما نحاة القرنين الخامس والسادس والنصف الاول من القرن السابع فقد كانوا قليلي التأليف اذا ما قورنوا بسابقيهم وكان معظمهم يرحل من موطنه الى بغداد لتلقي العلوم ولا سيما النحو والصرف عن علمائها ويستقر بعضهم فيها يقرىء ويؤلف ويرحل آخرون الى بلدهم الاصلي او الى بلدان

اخرى يتنقلون فيها يأخذون ويؤخذ عنهم ولم يقتصر تعلم النحو والصرف واللغة على اهل المدن الثلاث ـ البصرة والكوفة وبغداد ـ وانما اهتم به ابناء المدن العراقية الاخرى فكان منهم البصري كمحمد بن عيسى المعروف بالخيشي النحوي (ـ٤٣٨هـ/١٠٤٦م) قرأ على ابي علي وابي عبدالله الاعرابي وابن جني وبرع في النحو ، سكن واسط مدة وقدم بغداد واقام فيها الى ان مات . ومحمد ابن عبيد الله بن ابي البقاء البصري ابو الفرج (ـ٤٩٩هـ/١١٠٥م) قاضي البصرة النحوي وكثيرون غيرهما .

وكان منهم الكوفي كابراهيم بن محمد الهاشمي الحسيني النحوي (ـ٤٦٦هـ/١٠٧٣م) كانت له معرفة حسنة بالنحو واللغة سافر الى الشام ومصر فأقام بها مدة ثم رجع الى وطنه الكوفة وفيها توفي . واحمد بن يحيى بن ناقد (ـ٥٥٩هـ/١١٦٣م) كانت له يد طولى في النحو اقرأه في الكوفة وبغداد وصنف فيه وتخرج به جماعة من البلدين .

ومنهم البغدادي كأبي الحسين محمد بن جعفر بن هارون التميمي النحوي (ـ٤٠٢هـ/١٠١١م) صنف مختصرا في النحو والملح والنوادر . وغالي بن عثمان بن جني النحوي بن النحوي (ـ٤٥٧هـ/١٠٦٤م) روى عن ابيه ابي الفتح واخذ عنه وعن غيره من مشايخ بغداد . ومحمد بن هبة الله ابي الحسن بن الوراق النحوي شيخ العربية ببغداد (ـ٤٧٦هـ/١٠٨٣م) تفرد بعلم النحو وانتهى اليه علم العربية .

واشتهر من نحاة بغداد في النصف الاول من القرن السادس ثلاثة كان لهم اكبر الاثر في نشر علم النحو واللغة فقد قاموا بالتدريس في بغداد سنين طويلة وعنهم اخذ معظم نحاة هذا القرن ولغويوه وهم : ابن الخشاب عبدالله ابن احمد بن نصر النحوي (ـ٥٧٦هـ/١١٨٠م) . كان أعلم أهل زمانه بالنحو وعدّ في درجة ابي علي صنف كتبا كثيرة منها « شرح الجمل للجرجاني » و « شرح اللمع لابن جني » لم يتم و « الرد على ابن بابشاذ في شرح الجمل »

و « الرد على التبريزي في تهذيب الاصلاح » و « شرح مقدمة الوزير ابن هبيرة في النحو » .

والجواليقي موهوب بن احمد بن الخضر ابو منصور البغدادي (ـ٥٤٠هـ/١١٤٥م) ولد في الجانب الشرقي من بغداد وتلقى علوم عصره وتعمق في اللغة والنحو واشتهر بهما وصنف كتبا مهمة من اشهرها : « المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم » و « شرح ادب الكاتب » و « تكملة اصلاح ما تغلط فيه العامة » و « فتاوى في مسائل نحوية متعددة » و « شرح مقصورة ابن دريد » و « مختصر صحاح اللغة للجوهري » و « ما جاء على فعلت وأفعلت » و « المختصر في النحو » و « المختصر في شرح أمثلة سيبويه » و « غلط الضعفاء من الفقهاء » وغيرها .

وابن الشجري هبة الله بن علي بن محمد ابو السعادات (ـ٥٤٢هـ/١١٤٧م) كان أوحد زمانه في علم العربية ومعرفة اللغة وله في النحو « ما اتفق لفظه واختلف معناه » و « شرح اللمع » و « شرح التصريف الملوكي » وكلاهما لابن جني . ولد ببغداد وكان من اشهر علمائها بالنحو واللغة والادب والصرف صنف فيها « الحماسة الشجرية » و « الامالي الشجرية » و « مختاراته » و « الانتصار » وعن هؤلاء الثلاثة معا او عن بعضهم اخذ معظم نحاة القرن السادس ببغداد ممن ارتحلوا اليها لتلقي العلم من اية مدينة من مدن العراق او بلد من بلدان العالم العربي والاسلامي وكان من اشهر تلاميذهم البغداديين الحسن بن علي بن بركة بن عبيدة - بفتح العين - النحوي (ـ٥٨٢هـ/١١٨٦م) من اهل الكرخ قرأ على ابن الشجري والجواليقي وصار من النحاة المشهورين . ومحمد بن الحسين بن علي الجفني البغدادي المعروف بابن الدباغ النحوي اللغوي (ـ٥٨٤هـ/١١٨٨م) تصدر لاقراء النحو واللغة وله رسائل فيهما . واحمد بن هبة الله بن علي الزوال (ـ٥٨٦هـ/١١٩٠م) قرأ اللغة والنحو على علماء عصره وشرح « الفصيح » وجمع كتابا سماه

« اسرار الحروف » . وابراهيم بن مسـعود بن حسان النحوي المعروف بالوجيه الصغير(ـ٥٩٠هـ/١١٩٣م) وكان من اهل الرصافة ببغداد حفظ كتاب سيبويه ومات شابا .

وكان ملك النحاة الحسن بن صافي بن عبدالله بن نزار (ـ٥٦٨هـ/١١٧٢م) المولود ببغداد من اشهر معاصري الجواليقي وكان يعد من ائمة النحاة صنف كتبا في النحو والتصريف اهمها : « الحـاوي في النحو » و « العمدة في النحو » و « المقتصد في الصرف » و « المسـائل العشر المشـكلات الى الحشر » .

وجاء بعدهم من البغداديين المعروفين زيد بن الحسن بن عصمة بن حارث ذي رعين الاصـغر الامام تاج الدين ابو اليمن الكندي النحوي اللغوي(ـ٦١٣هـ/١٢١٦م)ولد ببغداد وقرأ العربية على ابن الخشاب وابن الشجري والجواليقي وقدم دمشق وأفتى ودرّس وصنّف وأقرأ النحو واللغة . أقرأ كتاب سيبويه وشرحه وشرح الايضاح .

وعبد الله بن الحسين بن عبد الله الامام ابو البقاء العكبري محب الدين (ـ٦١٦هـ/١٢١٩م) الضرير النحوي قرأ العربية على ابن الخشاب وغيره واقرأ النحو واللغة صنف كتبا منها : « اعراب القرآن » و « اعراب الحديث » و « اعراب الشـواذ » و « التعليق في الخـلاف » و « شرح الفصـيح » و « شرح الايضـاح » و « شرح التكملة » و « شرح اللمع » و « شرح ابيات الكتاب » و « لباب الكتاب » و « ايضاح المفصل » و « اللباب في عـلل البناء والاعراب » و « الترصيف في التصريف » و « الاشـارة » و « التلخيص » و « التلقين » و « التهذيب » و الاربعة في النحو ، و «ترتيب اصلاح المنطق على حروف المعجم » كان ضريرا تقرأ عليه كتب الفن حتى اذا حصلت في وعيه أملى ما يشاء عليها .

ولم تبق علوم العربية محصورة في هذه المدن الثلاث ولا مقصورة على ابنائها وانما عرف بالنحو واللغة واشتهر من علمائها رجال من ابناء المدن العراقية الاخرى .

فمن النهروان برع في النحو سليمان بن عبد الله بن محمد الحلواني ابن ابي طالب النحوي (ــ٤٩٤هـ/١١٠٠م) قدم بغداد وقرأ بها النحو واللغة وكان اماما فيهما جال في العراق ينشر النحو في مدنه واستوطن اصبهان صنف « القانون » في اللغة عشر مجلدات لم يصنف مثله و « شرح الايضاح » . واحمد بن صدقة ابو بكر الضرير النحوي حكى عن ابي عمر الزاهد .

ومن واسط ظهر عدد من النحاة منهم علي بن طلحة بن كردان النحوي يعرف بابن السحناني (ــ٤٢٤هـ/١٠٣٢م) فضله الواسطيون من النحاة على ابن جني والربعي صنف « اعراب القرآن » وغسله قبل موته .

وحبشي بن محمد بن شعيب الشيباني ابو الغنائم الضرير النحوي ، قدم بغداد واستوطنها الى ان مات سنة (ــ٥٦٥هـ/١١٦٩م) اخذ عن ابن الشجري ولازمه حتى برع في النحــو وبلغ فيه الغـاية واصــبح متمكنا منه قيما به وبغوامضه . وعبد الله بن ابي الفتح بن امامة بن السند ابو المفاخر الواسطي النحوي (ــ٥٩٤هـ/١١٩٧م) كان امام الجامع الازهر بالقاهرة عارفا بالنحو .

ومن اشهر من انجبتهم واسط من النحاة المبارك بن المبارك بن سعيد بن ابي السعادات الوجيه ابو بكر بن الدهان النحوي الضرير (ــ٦١٢هـ/١٢١٥م) قدم بغداد فأقام بها وقرأ على ابن الخشاب ولازم ابن الكمال الانباري وتولى تدريس النحو بالنظامية سنين فتخرج عليه جماعة وكان حاد الذهن اماما في النحو واللغة والتصريف وكثير من العلوم الاخرى .

ومن الحلة عرف رجال برعوا في النحو واللغة منهم محمد بن علي بن احمد الحلي النحوي المشهور بابن حميدة (ــ٥٥٠هـ/١١٥٥م) كانت له معرفة جيدة

بالنحو واللغة قرأ على ابن الخشاب ولازمه وصنف كتبا منها : « شرح ابيات الجمل لابن السراج » و « شرح اللمع لابن جني » و « كتاب في التصريف » و « الروضة في النحو » و « الادوات في النحو » و « الفرق بين الضـــاد والظاء » و « شرح المقامات الحريرية » . ومحمد بن عبدالله بن حمدان العراقي الحلي(ـــ٥٦١هـ/١١٦٥م) امام‌عالم بالنحو صنف: «المنتظم في‌سلوك الادوات » و « مسائل الامتحان » ذكر فيه العويص من النحو و « الفرق بين الراء والغين » اقام باربل ورحل الى بلاد العجم وقدم بغداد صبيا .

والحسين بن هدّاب بن محمد بن ثابت الضرير النوري نســـبة الى (النورية) من قرى الحلة السيفية ـ من سقي الفرات ـ سكن بغداد وكان يقرىء النحو واللغة‌والقراءات توفي(ـــ٥٦٢هـ/١١٦٦م) . ومحمد بن‌علي بن شعيب بن‌بركة عزالدين بن‌الدهان(ـــ٥٩٠هـ/١١٩٣م) كانت‌له يد طولى‌في علم النحو مات بالحلة . والحسن بن معالي بن مسعود بن الحسين الباقلاني الحلي النحوي‌شيخ‌العربية في وقته‌توفي‌سنة(ـــ٦٣٧هـ/١٢٣٩م) قدم‌بغداد في صباه وقرأ النحو على ابي البقاء العكبري وغيره وانتهت اليه الرئاسة في علم النحو فيها .

ومن الانبـــار ظهر نحـــاة ولغـــويون متعددون كان من اشـــهرهم ابو بكر بن‌الانباري(ـــ٣٢٧هـ/٩٣٨م) من تلاميذ المبرد وثعلب تقدم ذكره في نحاة بغداد .

وعبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ابو البركات كمال الدين الانباري النحوي(ـــ ٥٧٧هـ/١١٨١م)قدم‌بغداد في‌صباه‌واستقر فيها يقرىء النحو واللغة مع ابن الخشاب وابن الشجري والجواليقي اشتهر من كتبه : « الانصاف في مسائل‌الخلاف بين‌النحويين البصريين والكوفيين» و«الاغراب‌في جدل‌الاعراب» و « لمع الادلة » و « منثور الفوائد » و « كتاب الالف واللام » و « الوجيز في التصريف » و « غريب اعراب القرآن » و « حلية العقود في الفرق بين

المقصور والممدود » و « زينة الفضلاء في الفرق بين الضاد والظاء » و « شرح القصائد السبع الطوال » و « فعلت وأفعلت » وغيرها كثير .

وأولهم في الاشتهار بالنحو والعربية القاسم بن محمد بن بشار ابو محمد الانباري(ـ٣٠٤هـ/٩١٦م) كان ثقة صاحب عربية صنف « خلق الانسان » و « خلق الفرس » و « الامثال » و « المقصــور والممدود » و « المذكر والمؤنث » و « غريب الحديث » و « شرح السبع الطوال » .

واحمد بن علي بن قدامة ابو المعالي(ـ٤٨٦هـ/١٠٩٣م) قاضي قضاةالأنبار النحوي احد العلماء المشهورين بالنحو الف فيه كتابا .

وسلامة بن عبدالباقي بن سلامةالضرير ابو الخير (ـ٥٩٠هـ/١١٩٣م)كانت له حلقة يقرىء بها القرآن والنحو ، من اهل الانبار وسكن مصر .

ومن تكريت احمــد بن محمد بن النقيب البغــدادي الثقــافة ولد في تكريت وبها نشأ وقدم بغداد وقرأ النحو على الجواليقي ، نظم في النحو وغيره والف ، ولي حسبة بغداد سنة ٥٣٧هـ / ١١٤٢م .

ومن الموصل ابو الفتح عثمان بن جني النحوي(ـ٣٩٢هـ/١٠٠١م) . وعمر ابن ثابت ابو القاسم الثمانيني النحوي الضرير (ـ٤٢٢هـ/١٠٥٠م) وهو من (ثمانين) بلدة بالموصل وهي اول قرية بنيت بعد الطوفان بناها الثمانون الذين خرجوا من السفينة وسميت بهم . اخذ عن ابن جني وصنف « شرح اللمع » و « شرح التصريف الملوكي » و « المفيد في النحو » . وسعيد بن المبارك بن علي الامام ناصح الدين بن الدهان النحوي(ـ ٥٦٩هـ/١١٧٣م) كان من اعيان النحاة المشهورين بالفضل ومعرفة العربية صنف في اللغة والنحو وغيرهما ومن اشهر مصنفاته « شرح الايضاح » و « شرح اللمع لابن جني » في عدة مجلدات و « الدروس في النحو » و « الرياضة في النكت النحوية » و « الفصول في النحو » و « الضاد والظاء » و « الاضداد » و « العقود في

المقصور والممدود » و « النكت والاشارات على السنة الحيوانات »
و « ازالة المراء في الغين والراء » .

ومن وصف بانه موصليّ اربليّ احمد بن الحسين بن احمد بن معالي الشيخ شمس الدين بن الخباز الاربلي الموصلي النحوي الضرير (-٦٣٧هـ/١٢٣٩م) كان استاذا بارعا وعلامة زمانه في النحو واللغة له المصنفات المفيدة منها « النهاية في النحو » و « شرح ألفية ابن معط » مات بالموصل .

ومن اربل علي بن القاسم النحوي الشيباني الاربليّ (-٦٢١هـ/١٢٢٤م) كان عنده فضل معرفة بنحو وقته .

ومحمد بن ابي الوفاء بن احمد بن طاهر العمري يعرف بابن القبيضي اخذ النحو والقراءة عن مكي بن زبّان ودرّس النحو باربل مدة ، كان موجودا سنة (- ٦١٠ هـ / ١٢١٣م) .

ومحمد بن يوسف بن محمد بن قائد الخطيب البحراني المولد الاربليّ الاصل الاديب النحوي (-٥٨٥هـ/١١٨٩م) اصله من اربل ولد في البحرين وخرج الى اربل وكان اماما في العربية أكب على علم النحو فبلغ منه الغاية وكان يحل مشكله بنفسه قرأ على موفق الدين بن ربّان اصول ابن السراج وكثيرا من كتاب سيبويه وداوم مطالعة الكتب النحوية الى ان صار اماما في النحو .

وغير هؤلاء كثير من النحاة واللغويين الذين نشأوا في مدن العراق المختلفة ورحلوا الى بغداد وغيرها وتنقلوا طالبين الدرس والتدريس وتركوا المصنفات النافعة في النحو والصرف واللغة وغيرها من علوم العربية فواصلوا مسيرة واضعي النحو العراقيين منذ زمن ابي الاسود حتى زمانهم .

انتشار النحو

منذ زمن ابي الاسود الدؤلي (- ٦٩هـ/٦٨٨م) مؤسس النحو البصري والنحاة يرحلون من البصرة ثم من الكوفة وبغداد الى الامصار ينشرون

ما وضعوه من علوم وما توصلوا اليه من مسائل ومناهج في البحث النحوي واللغوي وكان من اوائل من رحل من البصرة عبد الرحمن بن هرمز المدني الذي ذهب الى المدينة ثم الى مصر فالاسكندرية ، ورحل ابو عمرو بن العلاء (ـ١٥٤هـ/٧٧٠م)الى دمشق وتوفي في الطريق، وكان الخليل بن احمد الفراهيدي (ـ١٧٥هـ/٧٩١م) يحج سنة ويغزو سنة يلتقي في سنوات حجه ببعض علماء مكة والمدينة او القادمين اليها للتجارة او للحج او لتلقي اصول الفقه وعلوم الدين وكان من هؤلاء التلاميذ المهلبي الذي اخذ عن الخليل ، واخذ عنه النحو ولاد المصادري التميمي وهو بصري سكن مصر مما يدل على انتشار النحو البصري بدراساته وشيوخه ودارسيه ووصوله الى مختلف الامصار الاسلامية سواء عن طريق من رحل الى المدينة والاسكندرية ومصر وغيرها من العراقيين او من رحل الى العراق من المصريين ثم عادوا يحملون معهم ما دونوا وسمعوا من دراسات في علوم العربية ، او عن طريق من التقى بهم الخليل او الفراء في مكة والمدينة . وتزخر كتب الطبقات وكتب اخبار النحويين واللغويين باسماء النحاة المصريين والقرويين والمغاربة والاندلسيين والشاميين الذين رحلوا الى البصرة او بغداد او الكوفة واخذوا عن نحاتها قراءة او تدوينا او حملوا معهم ما وجدوه من مدونات النحاة العراقيين الى بلدانهم ودرسوها ونشروا نحوها وزادوا فيه .

كان من اشهر من رحل الى مصر من البغداديين ابو علي احمد بن جعفر الدينوري (ـ٢٨٩هـ/٩٠١م) الذي اخذ عن ثعلب والمبرد، نزل مصر واستقر بها والف كتابا في النحو سماه « المهذب » ذكر فيه المسائل التي اختلف فيها البصريون والكوفيون ، فأدخل النحو البصري ممثلا بكتاب سيبويه وتعليقات المبرد فكان اول كتاب تعرفه مجالس الدرس النحوي في مصر . وكان محمد ابن ولاد التميمي(ـ٢٩٨هـ/٩١٠م)ممن حمل كتاب سيبويه الى مصر ايضا فأثار نشاطا ملحوظا والتزم به عدد كبير منهم، ورد بعضهم على المبرد الذي الف

« مسائل الغلط » في الرد على سيبويه فألف احمد بن محمد بن ولاد (ـ ٣٣٢هـ/٩٤٣م) كتاب «الانتصار» للرد على المبرد في رده على سيبويه .

ودخل النحو الكوفي الى مصر عن طريق أبي الحسن الاغر الذي سمع منه بعض الاندلسيين بمصر وكان قد قرأ النحو على الكسائي .

ولم يقتصر الامر على هؤلاء النحاة الراحلين من مصر واليها وانما وجد نحاة تنقلوا في اكثر من بلد من هؤلاء الاخفش الصغير علي بن سليمان (ـ٣١٥هـ/٩٢٧م) الذي رحل من بغداد الى مصر ثم الى حلب فبغداد . ومنهم الوليد بن محمد التميمي المصادري(ـ٢٦٣هـ/٨٧٦م) اصله من البصرة ونشأ بمصر ودخل العراق ولم يكن بمصر شيء من كتب النحو واللغة قبله واخذ عن المهلبي تلميذ الخليل بالمدينة ثم عن الخليل ولازمه بالبصرة ثم انصرف الى المدينة ثم عاد الى مصر . ومنهم: ابو بكر بن المزرع(ـ٣٠٣هـ/٩١٥م) الذي اخذ عن شيوخ البصرة ومنها رحل الى مصر وروى عنه اهلها ثم نزل بطبرية من ارض الشام وروى بها الكثير واستوطنها الى ان مات . ومنهم ابو جعفر احمد بن محمد بن اسماعيل بن يونس المرادي النحاس المصري النحوي (ـ٣٣٨هـ/٩٤٩م) رحل الى العراق من مصر واخذ فيها عن ابي اسحاق الزجاج وسمع من جماعة من العراقيين ببغداد منهم ابو بكر بن الانباري ونفطويه والاخفش الصغير. ومنهم ابو علي النحوي(ـ٣٧٧هـ/٩٨٧م) الذي انتقل من بلده الى بغداد حيث اتصل بابي بكر بن مجاهد وابي اسحاق الزجاج النحوي اللغوي البغدادي المنشأ البصري المنهج في النحو ، وبابن الخياط البغدادي وابي بكر المبرمان وابي بكر بن دريد وابي بكر بن السراج تلميذ الزجاج وغيرهم واخذ عنهم النحو واللغة ومن بغداد انتقل الى الموصل ثم الى حلب وطوف في بلاد الشام أذ مضى الى طرابلس وزار المعرّة واتصل برجالها ونحاتها واهل العلم فيها ثم ارتحل الى دمشق ثم عاد الى بغداد ومنها سافر الى شيراز ثم رجع الى بغداد ، وهو في كل بلد من هذه البلدان يناقش ويعلم ويتعلم

ويؤلف ويصل علم هذه البلدان ببعضها فخدم علوم العربية وابناء هذه البلاد التي نقل اليها بتنقله علوم بعضها ، علوم العربية وغيرها .

وفعل مثله تلميذه ابن جني(ــ٣٩٢هـ/١٠٠١م) الذي ولد بالموصل وانتقل الى بغداد فخلب فالعراق . ومنهم من رحل الى العراق من الاندلس او من غيرها كأبي موسى الهوّاري" الذي رحل بعد(ــ١٣٨هـ/٧٥٥م) الى البصرة ولقي الاصمعي وأبا زيد الانصاري وداخل الاعراب في مجالسها واصطحب معه ما حصل عليه من الكتب وما دونه منها ولكنها فقدت في السفر . وكان الغازي بن قيس (ــ١٩٩هـ/٨١٤م) من المؤدبين بقرطبة رحل الى البصرة وادرك الاصمعي ونظراءه وعاد الى الاندلس بعد ان اخذ عنهم . ومنهم جودي بن عثمان (ــ١٩٨هـ /٨١٣م) الذي رحل الى العراق ولقي الكسائي والفراء وكان اول من ادخل كتاب الكسائي الى الاندلس وترك مؤلفا في النحو كان له صدى لما سمعه منهما . ومنهم الحسين بن الوليد بن نصر أبو القاسم بن العريف النحوي الاندلسي (ــ٣٩٠هـ/٩٩٩م) رحل الى المشرق واقام بمصر اعواما ثم عاد الى الاندلس ومات بطليطلة . ومنهم حمد بن محمد بن ابراهيم بن الخطاب ابو سليمان الخطابي(ــ٣٨٨هـ /٩٩٨م) رحل الى العراق والحجاز وزار خراسان وخرج الى ما وراء النهر . ومنهم خطاب بن مسلمة بن محمد بن سعيد بن بترى بن اسماعيل ابو المغيرة الايادي(ــ٣٧٢هـ/٩٨٢م) كان بصيرا بالنحو والغريب حج ، وسمع بمصر من احمد بن سعود الزنبري النحوي وابي جعفر النحاس وبمكة من ابن الاعرابي اللغوي شيخ ثعلب .

ومن المتأخرين خزعل بن عسكر بن خليل العلامة تقي الدين ابو محمد الشناني النحوي اللغوي(ــ٦٢٣هـ/١٢٢٦م) دخل بغداد وقرأ بها على ابي البركات ابن الانباري اكثر مصنفاته ثم قام بالقدس يقرىء القرآن والعربية زمانا ثم ذهب الى دمشق وسكنها الى ان مات . ومنهم حمد بن حميد بن محمود ابو محمد الدنيسري" (ــ٦٣٢هـ/١٢٣٤م) قدم بغداد ثم رحل الى ميافارقين من ديار بكر ومات فيها .

وعن طريق هؤلاء وغيرهم انتقل النحو من العراق الى المدينة ومصر والاسكندرية والشام وشمال افريقية والاندلس واخذ النحاة يتدارسونه ويوسعون البحث فيه ويقارنون بين الآراء ممثلة بكتاب سـيبويه وكتب اللغويين البصريين وبكتب الكسـائي والفراء وثعلب واللغويين الكوفيين ومؤلفات تلاميذهم في بغداد ، ويستخلصون من هذه الكتب جميعا آراء كونت كتبا مستقلة مطولة ومختصرة ويضعون اصولا ومناهج مبنية على ذلك النحو الذي كان العراق منبعه والشمس التي شع نورها فغمر هذه البقاع وأنبت دراسات لنحاة كبار أزهرت وأثمرت آراء ونظريات ومناهـج خاصة بهم زادت النحو العربي سعة وأغنت البحث فيه اقوالا وبحوثا جديدة تمثلت في كتب ابن مضاء وابن مالك وابن الحاجب وابي حيان وابن هشام وامثالهم ممن أضافوا الى التراث العربي الاسلامي زادا بقي على مر العصور .

المصـــادر

أحمد امين :

(١) ضحى الاسلام ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٣٧١هـ ــ ١٩٥٢ م ٠

الاخفش الاوسط : أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي البلخي البصري ٠

(٢) معاني القرآن ، تحقيق : فائز فارس ، الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م بالكويت ٠

الأزهري : ابو منصور محمد بن احمد

(٣) تهذيب اللغة : طبعة مصر ١٩٦٦ وما بعدها ٠

ابن الانباري : كمال الدين ابو البركات عبدالرحمن بن محمد

(٤) الاغراب في جدل الاعراب ، تحقيق : سعيد الافغاني ــ مطبوع مع لمع الادلة ــ الطبعة الثانية ، بيروت ١٣٩١ هـ ــ ١٩٧١م

(٥) الانصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين ٠ تحقيق: محمد محيي‌الدين عبدالحميد ــ الطبعة الثانية ، القاهرة ــ ١٩٥٣ م ٠

(٦) لمع الادلة : مطبوع مع الاغراب المتقدم ــ ط ٠٢ بيروت ١٣٩١ هـ ــ ١٩٧١م

(٧) نزهة الالباء في طبقات الادباء ــ تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي بغداد ١٩٥٩ م

ثعلب : ابو العباس احمد بن يحيى ٠

(٨) فصيح ثعلب ــ جمعه هو وشروحه وعلق عليه محمد عبدالمنعم خفاجي الطبعة الاولى ــ بالقاهرة ١٣٦٨ هـ ــ ١٩٤٩ م

(٨أ) مجالس ثعلب ، تحقيق عبدالسلام هرون ، الطبعة الثانية ٠ دار المعارف بمصر ٠

الجاحظ : ابو عثمان عمرو بن بحر ٠

(٩) البيان والتبيين ، تحقيق : عبدالسلام هرون مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م) ــ ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠ م)

الجزري : ابن الاثير مجد الدين ابو السعادات المبارك بن محمد ٠

(١٠) النهاية في غريب الحديث والأثر ، تحقيق : طاهر احمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي ، دار احياء الكتب العربية الطبعة الاولى بمصر ١٣٧٧ هـ

ابن جني : ابو الفتح عثمان ٠

(١١) التصريف الملوكي ، تحقيق : محمد سعيد بن مصطفى النعسان ٠ دار المعارف بمصر ٠ الطبعة الثانية ١٣٩٠ هـ ــ ١٩٧٠م

(١٢) الخصائص ، تحقيق : محمد علي النجار ٠ دار الكتب ، القاهرة ١٣٧١ هـ ــ ١٩٥٢ م

(١٣) المنصف في شرح التصريف للمازني ، تحقيق : ابراهيم مصطفى وعبد الله امين مطبعة الحلبي بمصر • الطبعة الاولى ١٣٧٣ هـ ــ ١٩٥٤ م

الجواليقي : ابو منصور موهوب بن احمد •

(١٤) المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم ، تحقيق : احمد محمد شاكر الطبعة الاولى ١٣٦١ هـ ــ ١٩٤٢ م

الجوهري : اسماعيل بن حماد •

(١٥) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق : احمد عبد الغفور عطار . مطابع دار الكتاب العربي ، مصر •

حاجي خليفة :

(١٦) كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ، استانبول ١٣٦٠ هـ ــ ١٩٤١ م

الحديثي : خديجة عبد الرزاق •

(١٧) ابنية الصرف في كتاب سيبويه ، الطبعة الاولى بغداد ١٣٨٥ هـ ــ ١٩٦٥ م

(١٨) الشاهد واصول النحو في كتاب سيبويه ، مطبوعات جامعة الكويت (٢٧) الكويت ١٣٩٤ هـ ــ ١٩٧٤ م

(١٩) موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث الشريف ، وزارة الثقافة والاعلام بغداد ، سلسلة دراسات (٢٦٥) ١٤٠١هـ ــ ١٩٨١م

ابن خلكان : ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد •

(٢٠) وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان • تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد القاهرة ١٣٦٧ هـ ــ ١٩٤٨ م

ابن دريد : ابو بكر محمد بن الحسن الازدي •

(٢١) جمهرة اللغة ، طبعته بالاوفسيت مكتبة المثنى ــ بغداد

ابن رشيق : ابو علي الحسن القيرواني الازدي •

(٢٢) العمدة في محاسن الشـــعر وآدابه ونقده ، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد • الطبعة الثانية ــ المكتبة التجارية بمصر ١٣٧٤ هـ ــ ١٩٥٥م

الزبيدي : ابو بكر محمد بن الحسن •

(٢٣) طبقات النحويين واللغويين • حققه محمد ابو الفضل ابراهيم • الطبعة الاولى القاهرة ١٣٧٣ هـ ــ ١٩٥٤ م

الزجاجي : ابو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق •

(٢٤) الايضـــاح في علل النحو • تحقيق الدكتور مازن المبارك • الطبعة الثانية بيروت ١٣٩٣ هـ ــ ١٩٧٣ م

(٢٥) مجالس العلماء ــ تحقيق عبدالسلام هرون . الكويت ١٩٦٢ م

ابن السكيت : ابو يوسف يعقوب بن اسحاق •

(٢٦) اصلاح المنطق ، شرحه وحققه احمد محمد شاكر وعبدالسلام هرون .دار المعارف بمصر ١٩٧٠ م

ابن سلام الجمحي : محمد .
(٢٧) طبقات فحول الشعراء ، تحقيق : محمود محمد شاكر . مطبعة المدني . القاهرة ١٩٧٤ م
سيبويه : عمرو بن عثمان .
(٢٨) الكتاب ، تحقيق : عبد السلام هرون . الطبعة الاولى ـ القاهرة .
السيد : عبد الرحمن .
(٢٩) مدرسة البصرة النحوية نشأتها وتطورها ، دار المعارف بمصر ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م
السيرافي : ابو سعيد الحسن بن عبد الله .
(٣٠) اخبـــار النحويين البصريين ، تحقيق طه محمد الزيني ومحمد عبد المنعم خفاجي . الطبعة الاولى . القاهرة ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥ م
السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن .
(٣١) الاشباه والنظائر في النحو ، تحقيق : طه عبدالرؤوف سـعد ، القاهـرة ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م
(٣٢) الاقتراح في علم اصول النحو ، تحقيق : د . احمد محمد قاسم . الطبعة الاولى القاهرة ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م
(٣٣) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، حققه : محمد ابو الفضل ابراهيم الطبعة الاولى القاهرة ١٣٨٤ هـ ـ (٦٤ ـ ١٩٦٥ م)
(٣٤) المزهر في علوم اللغة وانواعها . حققه احمد جاد المولى ومحمد ابو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي ج ١ الطبعة الثالثة و ج ٢ الطبعة الثانيـــة القاهرة ..
الصفدي : صلاح الدين خليل بن ايبك .
(٣٥) الوافي بالوفيات ، تحقيق : س . ديدرنغ ج ٥ ـ وتحقيق : هلموت ريتر ج ١ ـ ج ٤ ـ الطبعة الثانية ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١ م
ابن الصلاح .
(٣٦) مقدمة ابن الصلاح ومحاسن الاصطلاح ، تحقيق : الدكتورة عائشـــة عبدالرحمن . مطبعة دار الكتب بالقاهرة ١٩٧٤ م
الطنطاوي : الشيخ محمد .
(٣٧) نشأة النحو وتاريخ اشهر النحاة . الطبعة الرابعة . القاهرة ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٤ م
ابن فارس : ابو الحسين احمد .
(٣٨) الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، تحقيق : مصطفى الشويمي بيروت ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٤ م
الفراء : ابو زكريا يحيى بن زياد .
(٣٩) معاني القرآن : ج ١ تحقيق : احمد محمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار القاهرة ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥ م ، ط ١ ، وج ٢ تحقيق محمد علي

النجار الدار المصرية للتاليف والترجمة والنشر ١٩٦٦ م ، وج ٣ تحقيق : د ٠ عبدالفتاح اسماعيل شلبي وعلي النجدي ناصف ٠ الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٣ م

الفراهيدي : الخليل بن احمد ٠

(٤٠) كتاب العين ، تحقيق : الدكتور مهدي المخزومي والدكتور ابراهيم السامرائي ٠ وزارة الثقافة والاعلام ـ بغداد ـ ١٩٨٠ وما بعدها ٠

القالي : ابو علي اسماعيل بن القاسم البغدادي ٠

(٤١) البارع في اللغة ، تحقيق : هاشم الطعان ، الطبعة الاولى بيروت ١٩٧٥ م

القفطي : جمال الدين ٠

(٤٢) انباه الرواة عن أنباه النحاة ، حققه محمد ابو الفضل ابراهيم ٠ القاهرة ١٣٦٩ هـ (١٩٥٠ م) ـ ١٣٩٣هـ (١٩٧٣ م)

ابن القوطية : ابو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز ٠

(٤٣) كتاب الافعال ، تحقيق : علي فودة ٠ الطبعة الاولى ٠ مطبعة مصر ١٩٥٢م

مازن المبارك :

(٤٤) النحو العربي : العلة النحوية نشأتها وتطورها ٠ الطبعة الاولى ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥ م

المبرد : ابو العباس محمد بن يزيد ٠

(٤٥) المقتضب ، تحقيق : محمد عبدالخالق عضيمة ٠ القاهرة ١٣٨٥ هـ ـ ١٣٨٨ هـ

المخزومي : مهدي ٠

(٤٦) مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو ٠ بغداد ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥ م

ابن النديم : ابو الفرج محمد بن ابي يعقوب ٠

(٤٧) الفهرست ، تحقيق : رضا تجدد ٠ مكتبة الاسدي ، طهران ٠

نصار : الدكتور حسين ٠

(٤٨) المعجم العربي نشاته وتطوره ، الطبعة الثانية ، مكتبة مصر ١٩٦٨ م

ياقوت الحموي :

(٤٩) معجم الادباء ، تحقيق : د ٠ س ٠ مرجليوت ٠ القاهرة ٠

(٥٠) معجم البلدان ٠ دار صادر بيروت ١٣٧٤ هـ (١٩٥٥ م) ـ ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م)

يوسف خليف :

(٥١) حياة الشعر في الكوفة الى نهاية القرن الثاني للهجرة ٠ القاهرة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨ م

الفصل الخامس

البلاغة والنقد

د. احمد مطلوب

عميد كلية الآداب - جامعة بغداد

النشأة

لم يكن العراق قبل الاسلام بعيدا عن الشعر العربي ونقده ، فقد كانت الحيرة مرتع الشعراء وموطن الشعر ومحفل البلغاء ، وكان النابغة الذبياني وطرفة بن العبد وعمرو بن كلثوم وعدي بن زيد والاعشى وغيرهم يحومون حول الحمى ويملأون اطراف الصحراء شعرا يتردد في حواضر العراق وبواديه •

وكانت اسواق العرب قبل الاسلام تحفل بالشعر وناقديه وكان ذلك ينعكس على العراق فيساهم فيما يدور بين القبائل العربية • وقد كان للعرب قبل بزوغ الاسلام كثير من الاحكام النقدية ، ويستدل على ذلك بأمرين :

الاول : عقلي ، اذ لايمكن ان يصل الشعر الى ماوصل اليه في ذلك العهد من نضج واكتمال في بناء القصيدة ووضوح اغراضها وايقاعها وقوافيها

من غير ان تكون هناك اصول عامة تعارف عليها الشعراء واتخذوها مقياسا لهم • ومهما تحدث الباحثون عن السليقة الصافية والذوق السليم ، ومهما وصفوهم بالفطنة والذكاء ، فان العقل لينكر كل الانكار ان يكون ذلك من غير ثقافة ودربة ومعرفة بالاصول التي تضيء لهم الطريق وتفتح امامهم سبل القول وطرائق التعبير •

الثاني : نقلي ، وهو ماأثر عنهم من اقوال تناقلتها كتب التراث مما كان يدور في اسواق العرب ومحافلهم الشعرية من احكام نقدية تتصل بالمعاني واللغة والوزن والقافية • وكان للنابغة الذبياني دور عظيم في تلك الاحكام ، فقد كانت تضرب له قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء وتعرض عليه اشعارها ، وكان يبدي رأيه ويصدر احكامه على الشعراء ومهما تشكك بعض المعاصرين فيما روي عن القدماء فانه ليس ببعيد ان تصدر مثل تلك الاحكام المعتمدة على الفطرة الصافية والذوق السليم ، وهي احكام ليس فيها تعليل ينكر ولاغرابة تبعث على التكذيب •

ان الاحكام التي سجلتها كتب التراث تلقي ضوء على الحياة العقلية قبل الاسلام وترسم صورة واضحة لتلك الحياة التي كانت تحث الخطى نحو مشرق النور يوم ظهور محمد العربي (صلى الله عليه وسلم) في مكة المكرمة مؤذنا بعصر للعرب جديد •

لقد كان الشعراء يأخذون بما يقال عن شعرهم فيجودونه بالتنقيح والتثقيف ، واشتهر بينهم من كان يجيل عقله في القصيدة حولا كاملا ويقلب فيها الرأي اتهاما لعقله وتتبعا على نفسه كزهير بن ابي سلمى الذي اشتهر بالحوليات ، والحطيئة الذي كان يقول : « خير الشعر الحولي المحكك » • وكان هذان الشاعران وغيرهما يجهدون انفسهم في نظم القصائد التي يقدمونها الى الاشراف او ينشدونها يوم الحفل ، فاذا قالوا في غير ذلك اخذوا عفو الكلام وتركوا المجهود •

واخذت العناية بالشعر ونقده تزدهر بعد ان حرر العرب المسلمون ارض الرافدين واعادوا اليه وجه المشرق الوضاء ، وكانت البصرة وسوقها المربد ، وكانت الكوفة وسوقها كناسة تمد الشعر بحياة جديدة ، وكان الشعراء يفدون الى المصرين الاسلاميين ويقطنون فيهما ، او يمرون بالسوقين ليشهدوا المحافل وقد اجتمع فيها الشعراء من كل صوب وهم ينشدون قصائدهم او يستمعون الى الاحكام النقدية . وكان ذو الرمة يقف في المربد فبينما كان ينشد مرة اذ هو بخياط يطالعه ويقول : ياغيلان :

أأنت الذي تستنطق الدار واقفاً

من الجهل هل كانت بكنّ حلولُ

فقام ذو الرمة زماناً ثم عاد فقعد في المربد ينشد فاذا الخياط قد وقف عليه ثم قال له « أأنت الذي شبهت عنزا بقفرة ؟ ... » ويمضي في نقده فينتبه ذو الرمة الى ماوقع فيه وتداركه في شعر آخر . ووقف الشاعر نفسه في الكناسة بالكوفة وانشد حائيته ، فلما اتى على قوله :

اذا غيّر النأي المحبين لم يكد

رسيسُ الهوى من حبّ ميّة يبرحُ

ناداه ابن شبرمة: «ياغيلان اراه قد برح». فشنق بناقته ــ أي كف بزمامها ــ وجعل يتأخر بها ويفكر ثم عاد فأنشد قوله : « اذا غير النأى المحبين لم اجد » وقالوا : ان ابن شبرمة أخطأ حين انكر على ذي الرمة ماانشد وأخطأ الشاعر حين غير شعره ، انما هذا مثل قول الله ــ عزوجل ــ : « ظلمات بعضها فوق بعض اذا اخرج يده لم يكد يراها » أي : لم يرها ولم يكد .

وكان جرير والفرزدق والراعي النميري يفدون الى المربد ، وكان للاخيرين وجلسائهما حلقة باعلاه يجلسون فيها، وكانت القصائد التي تلقى في

هذه السوق تثير السامعين وتدفعهم الى ابداء الرأي من استحسان او تقويم يجعل الشاعر يفكر فيما قال ويعيد النظر فيه . وكانت المساجد ودور السراة في البصرة والكوفة محافل للعلم ، وكان يجتمع فيها الشعراء ومحبو الادب وفي تلك المساجد والدور كان النقاش يعلو وكانت الاحكام النقدية تنطلق . ومن اشهر تلك المجالس دار بشر بن مروان في الكوفة ثم البصرة ، وكان الشعراء يجتمعون فيها ، وكان العلماء يتحدثون فيثير نفوسهم للقول . وكان بشر من اكثر فتيان قريش سخاء ونجدة ، وكان ممدحا فمدحه جرير والاخطل والفرزدق وكثير وأعشى بني شيبان ، وكان يغري بين الشعراء وهو الذي اغرى بين جرير والاخطل فحمل سراقة على جرير حتى هجاه ، وثارت بينهما نقائض دفعت الآخرين الى الدخول فيها ، واجتمع الفرزدق وجرير والاخطل عند بشر فقال للاخطل : احكم بين الفرزدق وجرير . قال : اعفني ايها الامير . قال : احكم بينهما فاستعفاه بجهده ، فأبى الا ان يقول فقال : هذا حكم مشؤوم . ثم قال : « الفرزدق ينحت من صخر وجرير يغرف من بحر » ، فلم يرض جرير بذلك وكان سبب الهجاء بينهما .

ولكن معظم ماقيل في المربد والمجالس لم يكن نقدا علميا يستند الى التعليل وانما هو ملاحظات تصدر عن الذوق المهذب او عما يحسه السامع اذلم تكن هناك قواعد بلاغية او اصول نقدية توجه الشعراء . وما ان اطل القرن الثاني للهجرة حتى كانت الحواضر تتمخض عن حركة علمية ، وقد شهد هذا القرن بداية التدوين والتأليف وظهرت بعض الكتب والرسائل التي تشير الى البلاغة والنقد مثل «كتاب المعاني» لمؤرج السدوسي (ـ ١٩٥هـ/٨١٠م) و «كتاب الفصاحة» لابي حاتم السجستاني (ـ ٢٠٠هـ/٨١٥م). وظهر اللغويون والنحاة وكانت لهم يد طولى في تطور البلاغة والنقد واستطاعوا ان يسيطروا على مناهج الدرس ويرفعوا لواء المحافظة .

واخبار الخصومة بين الشعراء واللغويين والنحاة مستفيضة ، من ذلك ان ابن ابي اسحاق اعترض على الفرزدق لرفع « مجلف » في قوله :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع

من المال الا مسحتا أو مجلف

فقال : علام رفعت «مجلف» ؟ فرد الفرزدق : على مايسوؤك وينوؤك ، علينا ان نقول وعليكم ان تتأولوا . وانه قال للفرزدق ايضا : انك اسأت في قولك :

مستقبلين شمال الشام تضربهم

بحاصب كنديف القطن منثور

على عمائمنا يلقى وارحلنا

على زواحف تزجى مخها رير

وانما هو « رير » ــ بالرفع ــ . وكان يكثر الرد عليه فقال فيه :

فلو كان عبدالله مولى هجوته

ولكن عبد الله مولى مواليا

فرد عليه : « انها مولى موال » .

وكان الخليل بن احمد الفراهيدي(ــ١٧٥هـ/٧٩١م) يقول لابن مناذر : « انتم ــ معشر الشعراء ــ تبع لي وانا سكان السفينة ، ان قرظتكم ورضيت قولكم نفقتم ، والاكسدتم » . فقال ابن مناذر : « والله لاقولن في الخليفة قصيدة امتدحه بها ولا احتاج اليك فيها عنده ، ولا الى غيرك » .

وكان الشعراء يستهينون احيانا بالنحاة ولايقبلون احكامهم كثعلب الذي لم يروا له علما بالشعر ونقده ، فقد رأى البحتري أحدهم ومعه دفتر

فقال : ماهذا ؟ فقال الرجل : شعر الشنفرى . قال البحتري : والى اين تمضي به ؟ فقال : اقرأه على ابي العباس احمد بن يحيى . قال البحتري : رأيت ابا عباسكم هذا منذ ايام فلم أَرَ له علما بالشعر مرضيا ولا نقدا له ، ورأيته ينشد ابياتا صالحة ويعيدها الا انها لا تستوجب الترديد والاعجاب بها .

ولكن ــ على الرغم من ذلك ــ كان للنحاة واللغويين في هذا القرن اثر في النقد ، وقد حمل الشعراء والكتاب راية النقد الى جانبهم وكانت لهم آراء تدل على مكانتهم العلمية وقدرتهم على النقد والبيان ، ويروى ان بشارا كان ينقد الشعر ويشير الى جيده ورديئه ، وانه انشد قول الشاعر :

وقد جعــل الاعــداء ينتقصوننا

وتطمع فينــا ألســن وعيون

الا انما ليلــى عصــا خيزرانــة

اذا غمزوهــا بالأكــف تلين

فقال : والله لو زعم انها عصا مخ او عصا زبد ، لقد كان جعلها جافية خشنة بعد ان جعلها عصا ، الا قال كما قلت :

ودعجاء المحاجــر مــن معــد كــأن حديثهــا ثمــر الجنــان

اذا قامــت لمشيتهـــا تثنــت كــأن عظامهــا مــن خيــزران

وقال : لم ازل منذ سمعت قول امرىء القيس في تشبيهه شيئين بشيئين في بيت واحد حيث يقول :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا

لدى وكرهــا العناب والحشــف البالي

اعمل نفسي في تشبيه شيئين بشيئين في بيت واحد حتى قلت :

كأن مثار النقـع فـوق رؤوسنا

وأسيافنا ليـل تهـاوى كواكبـه

وكانت ثمرة تلك الجهود ظهور كتب نقدية تمثل الاتجاهات اللغوية والنقدية ، وكانت تلك الكتب أول ماظهر في عهد التدوين وقد اهتمت بجمع الملاحظات البلاغية والنظرات النقدية وفتحت السبيل للنقاد في العهود اللاحقة، ثم ظهرت الكتب التي اخذت تعنى بالقواعد والتحديد ، وهي كتب البلاغة ، ثم كانت الدراسات القرآنية والموازنة بين الشعراء .

وماكاد القرن الثاني يودع أيامه الاخيرة حتى بدأت الآراء تظهر واخذت الدراسات تزهر ، وقد شارك في حركة التطور المتكلمون واللغويون والنحاة والكتاب والشعراء ، وكان لكل فريق من هؤلاء منهجه واسلوبه وان كانوا يلتقون في هدف واحد هو خدمة التراث والحفاظ عليه وانشاء الادب الجديد . ومن اقدم المتكلمين الذين رويت لهم آراء نقدية بشر بن المعتمر (ـ٢١٠هـ/٨٢٥م) صاحب الصحيفة المشهورة التي تحدث فيها عن التجربة وما يبذله الاديب من معاناة في تخير اللفظ وانتقاء المعنى ، واشار الى المنازل التي يمر بها وهو يهم بالكتابة او يوغل . قال : « فـان ابتليت بان تتكلف القول وتتعاطى الصنعة ولم تسمح لك الطباع في اول وهلة ، وتعاصى عليك بعد اجالة الفكرة ، فلا تعجل ولا تضجر ودعه بياض يومك وسواد ليلك ، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك فانك لا تعدم الاجابة والمواتـاة ان كانت هناك طبيعة او جريت من الصناعة على عرق . فان تمنع عليك بعد ذلك مـن غير حادث شغل عرض ومن غير طول اهمال فالمنزلة الثالثة ان تتحول مـن هذه الصناعة الى أشهى الصناعات اليك وأحقها عليك ، فانك لم تشتهه ولم

تنازع اليه الاوبينكما نسب ، والشيء لايحن الا الى من يشاكله » . وهذه الوصية من احسن مايوصى به الاديب واوضح ما يطلب ممن ليس له عـرق في الادب .

ومن اللغويين والنحاة الذين ساهموا في البلاغة والنقد ابو زكريا يحيى ابن زياد الفراء(ــ٢٠٧هـ/٨٢٢م) صاحب «معاني القرآن» الذي عني فيـه بالتراكيب اللغوية والاعراب والاساليب واشار الى بعض الفنـون البلاغية كالتشبيه والمثل والاستعارة والمجاز والكناية والاستفهام وخروجه عن معناه الاصلي والانتقال من مخاطبة الشاهد الى الغائب والتقديم والتأخير .

وابو سعيد عبدالملك بن قريب الاصمعي (ــ٢١٦هـ/٨٣١م) الذي كانت له آراء نقدية تمثل ذوقه والعهد الذي عاش فيه . وقد تجلى ذلـك في كتابـه « فحولة الشعراء » الذي جمـع فيه آراءه ، وفي اقوالـه التي روتها كتب التـراث .

وابو العباس محمد بن يزيد المبرد (ــ٢٨٥هـ/٨٩٨م) صاحب « كتاب الكامل » الذي ذكر فيه كثيرا من الآراء النقدية والمسائل البلاغية وكانت دراسته للتشبيه من أعمق ماعرفته الكتب الاولى ، فقد قرر أن للتشبيه حدا ، فالاشياء تتشابه من وجوه وتتباين من وجوه ، وانما ينظر الى التشبيه مـن حيث وقع ، فاذا شبه الوجه بالشمس فانما يراد الضياء والرونق ولايراد به العظم والاحراق ، والعرب تشبه النساء ببيض النعام تريد نقاء لونه ونعومته ، وتشبه المرأة بالشمس والقمر والغصن والكثيب والغزال والبقرة الوحشية والسحابة البيضاء والدرة . وتشبه على اربعة أضرب : تشبيه مفرط ، وتشبيه مصيب ، وتشبيه مقارب ، وتشبيه بعيد يحتاج الى التفسير ولايقوم بنفسه ، وهو اخشن الكـلام .

وكان المبرد اول من قسم التشبيه مثل هذا التقسيم ، ومثل لانواعه

ولكن الحدود لم تكن واضحة بين لون وآخر ، وكان استحسانه او استهجانه يقوم على الفهم اللغوي وماتعارف الناس عليه .

وابو العباس احمد بن يحيى ثعلب (ــ ٢٩١هـ/٩٠٣م) مؤلف « قواعد الشعر » الذي تحدث فيه عن الشعر واركانه وفنونه واقسامه ، وهي عنده اربعة : أمر، ونهي ، وخبر، واستخبار.وهذه الاصول تتفرع الى مدح وهجاء ومراث واعتذار وتشبيب وتشبيه واقتصاص اخبار . ومن مقاييسه في استجادة الشعر استقلال البيت بمعناه واستقلال كل شطر من شطريه بمعناه ليصبح مثلا سائرا . وليس في الكتاب تحليل وايضاح لما في الكلام من صور ادبية جميلة وايحاءات بديعة ، وقد اشار القدماء الى ان ثعلبا ليس بالناقد الذي يستطيع الحكم على الشعر ، لانه اهتم باللغة والنحو ووقف عند تخصصه فيهما ، ولم يدع التقدم في علم شعر المحدثين .

ولقد افاد اللغويون والنحاة النقد على الرغم من انهم اتجهوا وجهة لغوية ويتجلى عملهم في أمرين :

الاول : انهم جمعوا ماقاله المتقدمون وحفظوه في كتبهم .

الثاني : انهم ساهموا في النقد بحدود مارسمه منهجهم اللغوي .

ومن وقفاتهم النقدية حديثهم عن الاغلاط اللغوية والنحوية وهي مسألة مهمة لانها تمثل الخطوة الاولى في فهم النص ونقده ، ومن ذلك ماأخذه عيسى بن عمر على النابغة الذبياني قوله :

فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقع

والصواب ان يقول « ناقعا » لانه حال . ومنه ماأخذه ابن ابي اسحاق على الفرزدق في رفع « مجلف » وحقه النصب ، وكسر « رير » وحقه الرفع. وحديثهم عن الاوزان والقوافي ومايقع في الشعر من اقواء ــ وهو

اختلاف حركة الروي ــ كقول النابغة الذبياني :

أمــن آل ميــة رائــح او مغتد عجــلان ذا زاد وغــير مزوّدِ
زعم البوارح أن رحلتنا غــدا وبذاك حدثنا الغداف الاســودُ

وفطن الشاعر الى ذلك عندما غنيت ابياته فقال « وبذاك تنعاب الغداف الاســود » .

أوسناد ــ وهو ان يردف بيت ويترك آخر ــ كقول الشاعر :

اذا كنــت في حاجــة مرســلا فارســل حكيمــا ولا توصــه
وان باب امــر عليك التــوى فشــــاور لبيبــا ولا تعصــه

فالواو في « توصه » ردف والصاد حرف الروى ، والبيت الثاني ليس بمردف ، وهذا عيب .

وحسب اللغويين ان الخليل بن احمد الفراهيدي كان على رأس هذه الطبقة وهو الذي ضبط الاوزان وحدد القوافي .

ومن وقفاتهم كلامهم على الصياغة والاسلوب وتحديدهم ضروب المعاني وتبيان القديم والجديد ، ومن ذلك اعجاب محمد بن سلام بالشعر الرائع الاسلوب الحسن الصياغة فقد سئل ، أي البيتين عندك اجود قول جرير :

الستم خــير مــن ركــب المطايا
واندى العالمــين بطــون راح

ام قول الأخطــل :

شمس العــداوة حتى يســتقاد لهم
واعظم الناس احــلاما اذا قــدروا

فقال : بيت جرير احلى واسير ، وبيت الاخطل اجزل وارزن .
وكانوا ينطلقون في تفضيلهم من امور منها :

الاول : جودة لغة الشعر وفصاحتها واصالتها .

الثاني : جودة الشعر وارتباطه باصول الشعر العربي .

الثالث : كثرة الشعر الذي ينسب الى الشاعر .

وكان تأثير الكتاب والشعراء اعمق من تأثير اللغويين والنحاة لانهم الصق بالبلاغة والنقد واقرب الى فن القول ، ومن اشهرهم ـ وان كان لغويا ـ محمد بن سلام الجمحي (ـ ٢٣١هـ/٨٤٥م) صاحب كتاب « طبقات فحول الشعراء » الذي قسمه الى طبقات الشعراء الجاهليين وطبقات الشعراء الاسلاميين وذكر في كل قسم عشر طبقات في كل طبقة اربعة شعراء وافرد لمن لم يدخل فيها مكانا فصير اصحاب المراثي طبقة ثم شعراء القرى العربية وهي : المدينة ومكة والطائف واليمامة طبقة ، ثم تحدث عن شعراء يهود وهم في المدينة واكنافها .

واسسه التي سار عليها في هذا التقسيم :

١ ـ الزمان : قسمهم الى جاهليين واسلاميين .

٢ ـ المكان : قسمهم الى شعراء المدينة ومكة والطائف والبحرين ، اما اليمامة فلم يعرف فيها شاعراً مذكورا .

٣ ـ الجودة : قدم الشعراء الكبار كأمرىء القيس والنابغة الذبياني وزهير والاعشى واوس بن حجر وبشر بن ابي خازم وكعب بن زهير في الجاهليين وكجرير والفرزدق والاخطل والراعي والبعيث المجاشعي والقطامي وكثير عزة وذي الرمة في الاسلاميين .

٤ ـ الكثرة : وقد ذكر بعض الشعراء الذين لم يرو عنهم الا القليل كعبيد ابن الابرص الذي وضعه في الطبقة الرابعة من الجاهليين وقال :

« وعبيد بن الابرص قديم الذكر عظيم الشهرة وشعره مضطرب ذاهب لا اعـرف الا قوله :

اقفـر مـن اهلـه ملحـوب فالقطبيـات فالذنـوب

٥ ـ الفنون : ذكر طبقة اصحاب المراثي وطبقة الرجاز الاسلاميين .

٦ ـ الجنس والدين : كطبقة يهود ولم يحدد سماتها لانها ليست جنسا خاصا ، وقد قال : « وفي يهود المدينة واكنافها شعر جيد » ، وذكر ثمانية شعراء منهم السموأل وكعب بن الاشرف ودرهم بن زيـد ، وبحث في كتابه قضية الانتحال ، وقال ان في الشعر المسموع ماهـو مفتعل موضوع لاخير فيه ولاحجة في عربيته ولاادب يستفاد ولامعنى يستخرج ولامثل يضرب ولامديح ولاهجاء مقذع ولا فخر معجب ولانسيب مستظرف ، وكان سبب الوضع العصبية والرواة . وقـد اثار هذا الرأي حركة نقدية في القرن العشـرين ، وتعرض للانتحال المستشرق مرغليوث والدكتور طه حسـين وغيرهما ممن بحثـوا في الادب وتوثيق نصوصه .

وتحدث عن الدربـة والممارسة وقال ان كثرة المدارسة لتعدي علـى العلم ، وان للشعر صناعة وثقافة يعرفها اهل العلـم والصناعات ولايعرف التمييز بين الاشياء الا الخبير العالم وكذلك الشعر لايقف على جماله وحسنه ولا يعرف رديئه من جيده الا الناقد البصير .

ومن الكتاب ـ وان كان متكلما ـ عمرو بن بحر الجاحظ (ـ٢٥٥هـ/٨٦٨م) صاحب المؤلفات الكثيرة ، وكتاباه « البيان والتبيين » و « الحيوان » يتصلان اتصالا وثيقا بالبلاغة والنقد ، وطريقته في معالجة الموضوعات لا تختلف كثيرا عن طريقة معاصريه ، فهو لم يفرد فصلا لكل موضوع وانما نثر المسائل نثرا . واهم ماعرض له قضايا البلاغة ، كالفصاحة والتشبيه والاستعارة والكنايـة

والجناس والطباق ، وذكر بعض ما يتصل بالنقد مثل كلامه على الشعر وتفضيله الجيد الرائع وان كان حديثا على الساقط الرديء وان كان قديما . ومن ذلك رأيه في الغريزة والبيئة والعرق وهي مما يعتمد عليها الشعر في الجماعات ، قال « والقضية التي لا احتشم منها و لااهاب الخصومة فيها ان عامة العرب والاعراب والبدو والحضر من سائر العرب اشعر من شعراء الامصار والقرى من المولدة والنابتة وليس ذلك بواجب لهم في كل ماقالوه . وقد رأيت ناسا منهم يبهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها ، ولم ار ذلك قط الا في راوية للشعر غير بصير بجوهر مايروى ، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان وفي أي زمان كان » .

وتحدث عن السرقات وانتهى الى ان التشبيه المصيب والمعنى العجيب والبديع المخترع عرضة لان يأخذه المتأخر عن المتقدم ، وان المعنى يتنازعه الشعراء فتختلف الفاظهم واعاريض اشعارهم ولايكون احد منهم احق بذلك المعنى من صاحبه . قال : « ولا يعلم في الارض شاعر متقدم في تشبيه مصيب تام وفي معنى غريب عجيب او في معنى شريف كريم ، او في بديع مخترع الا وكل من جاء من الشعراء، بعده او معه، ان هو لم يعد على لفظه فيسرق بعضه او يدعيه بأسره فانه لايدع ان يستعين بالمعنى ويجعل نفسه شريكا فيه كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء فتختلف الفاظهم واعاريض اشعارهم ولا يكون احد منهم احق بذلك المعنى من صاحبه او لعله ان يجحد انه سمع بذلك المعنى قط وقال انه خطر على بالي من غير سماع كما خطر على بال الاول . هذا اذا قرعوه الا ماكان من عنترة في وصف الذباب فانه وصفه فاجاد صفته فتحامى معناه جميع الشعراء فلم يعرض له احد منهم . ولقد عرض له بعض المحدثين ممن كان يحسن القول فبلغ من استكراهه لذلك المعنى ومن اضطرابه فيه انه صار دليلاً على سوء طبعه في الشعر . قال عنترة :

جادت عليه كل عين ثرة ... فتركن كل حديقة كالدرهم

فترى الذباب بها يغني وحده هزجا كفعل الشارب المترنم
غردا يحك ذراعه بذراعه فعل المكب على الزناد الاجذم

... ولم اسمع في هذا المعنى بشعر ارضاه غير شعر عنترة » . وهذا حكم نقدي يظهر قدرة الجاحظ على معرفة الجيد ، وهو نابع من ذوق سليم وثقافة واسعة وموازنة دقيقة.وقد جعله هذا الفهم ينظر الىالكلام نظرة جديدة لاتعتمد على ماقيل في اهمية اللفظ والمعنى وانما على الصياغة والاسلوب . والشعر عنده « صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير » أي ان النظم اساس المفاضلة . وكان لهذا الرأي أثر في البلاغة والنقد ، فقد بنى عليه عبدالقاهر الجرجاني كتابه « دلائل الاعجاز » الذي فصل القول فيه عندما تعرض للنظم وأثره في الكلام وسر اعجاز القرآن الكريم ..

ومنهم ابو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة (ــ٢٧٦هـ/٨٨٩م) الذي ذكر في كتابه « تأويل مشكل القرآن » ما خفي على العامة الذين لا يعرفون الا اللفظ وظاهر دلالته على معناه ، واولى البلاغة عناية كبيرة وتحدث عن فنونها المختلفة . وكان كتاب « الشعر والشعراء » يمثل اتجاها جديدا في القرن الثالث لعنايته بالشعراء القدامى والمحدثين . وفي هذا الكتاب كثير من الآراء النقدية ، ومنها ان فضل الشعر يرجع الى جودته لا الى قدمه او حداثته لان الله لم يقصر العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ولاخص بها قوما دون قوم بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر وجعل كل قديم حديثا في عصره . والشعر عنده اربعة اضرب :

الاول : ضرب حسن لفظه ومعناه كقول الشاعر :

في كفه خيزران ريحه عبق من كف اروع في عرنينه شمم
يغضي حياء ويغضى من مهابته فما يكلم الا حين يبتسم

الثاني : ضرب حسن لفظه وحلا فاذا انت فتشته لم تجـد هناك فائدة فـي المعنى كقـول القائل :

ولما قضينا من منى كل حاجـة   ومسّح بالا ركان من هو ماسح

وشدت على حدب المهارى رحالنا   ولم ينظر الغادي الذي هو رائح

اخذنا باطراف الاحاديـث بيننا   وسالت بأعناق المطي الاباطـح

ووقف ابن جني وعبد القاهر عند هذه الابيات وقفة طويلة وحللاهـا تحليلا لغويا ينم على فهم دقيق لها وادراك لمعانيها العميقة والفاظها الرقيقة . وكانا محقين فيما ذهبا اليه ، لان هذه الابيات جمعت حسن اللفظ وروعة المعنى وجمال الصورة ورقة الاسلوب .

الثالث : ضرب جاد معناه وقصرت الفاظه عنه كقول لبيد :

ما عاتب المرء الكريم كنفسـه   والمرء يصلحه الجليس الصـالح

الرابع : تأخر معناه وتأخر لفظه كقول الاعشى في امرأة :

وفوهـا كاقاحـي   غـذاه دائـم الهطـل

كما شـيب بـراح با   رد مـن عسـل النحل

وهذا تقسيم حسن غير ان ابن قتيبة لم يميز تمييزا واضحا بين هـذه الاضرب ، ولم يذكر العلة التي جعلته يقيم هذا التقسيم العقلي الدقيق وان كان واضحا انه اتخذ من اللفظ والمعنى الى ذلك سبيلا ، ولم يوفق في الحكم عـلى الابيـات .

ومن المسائل التي تحدث عنها قضية الشعر المتكلف والمطبوع، وقد وضع للشاعر المطبوع سمات يستدل عليه منها ويعرف بها ، فهو من سمح بالشعر واقتدر على القوافي وجاء به متلائما ، عليه رونق الطبع ووشي الغريزة . ومن علامات التكلف في الشعر وان كان جيدا مايظهر فيه من طول تفكير صاحبه

وشدة العناء ورشح الجبين وكثرة الضرورات وحذف ما بالمعاني حاجة اليه وزيادة ما بالمعاني غنى عنه . ومن تلك المسائل تنبهه الى حالة الشاعر النفسية وذكره العوامل التي تعوق المطبوع عن القول والتدفق ، واشارته الى الاوقات التي يسرع فيها أتيّ الشعر ويسمح فيها ابيّه ، ومن ذلك اول الليل قبل تفشي الكرى ، ومنها صدر النهار قبل الغداء ، ومنها الخلوة في الحبس والمسير، ولهذه العلل تختلف الاشعار . وتكلم على مراعاة الحالة النفسية في السامعين ، ومن هذه الناحية علل بناء القصيدة العربية من استهلالها بالبكاء على الاطلال ثم الانتقال الى وصف الرحلة والنسيب ليميل نحوه القلوب ويصرف اليه الوجوه وليستدعي اصغاء الاسماع اليه ، لان التشبيب قريب من النفوس .

التطور

لم تقف البلاغة والنقد عند هذه الرسوم وانما تطورت في العصر العباسي الذي كان ميدانا لظهور كثير من الاتجاهات الشعرية بعد ان شهدت الحياة العربية لونا جديدا لم تألفه من قبل . وحمل الشعراء دعوة التجديد واتخذها الكثيرون سبيلا لهم في فنون قصائدهم واغراضها فكانت سمة المجددين الذين وقفوا من القديم موقفا فيه كثير من التحدي والخروج عليه وكان التجديد يتجلى في امور اهمها : الصياغة والموضوعات والاعاريض .

واهتم النقاد بهذا التجديد واولوا المحدثين عناية كبيرة ، فالمبرد ـ مثلا ـ الف « كتاب الروضة » واختار فيه من الشعر المحدث ، وفعل مثله هارون بن علي المنجم في « كتاب البارع » وابن المعتز في « طبقات الشعراء » . وجمع بعضهم دواوين الشعراء المحدثين فصنع احمد بن طيفور شعر بكر بن النطاح ودعبل ومسلم والعتابي ومنصور النمري وابي العتاهية وبشار .

وصنع الصولي ديوان ابن الرومي وابـي تمام والبحتري وابن عيينة وابن شراعة والصنوبوي ودعبل وابن المعتز ومسلم بن الوليـد .

وكان من اهتمامهم بالشعر الجديد أن استشهدوا به في المعاني ، قال ابن جني : « المولدون يستشهد بهم في المعاني كما يستشـهد بالقدماء في الالفاظ » ، غير ان اللغويين وقفوا منه موقفا آخر فقد اسـتهانوا بالحركة الجديدة ، ونظروا اليها نظرة ريبة وانكار . روي أن اسحاق بن ابراهيم الموصلي أنشـد الاصمعي :

هل الـى نظرة اليـك سـبيل فيروى الصـدى ويشفى الغليل
ان ماقـل منـك يكثر عنـدي وكثـير ممـن تحـب القليـل

فقال الاصمعي : لمن تنشدني ؟ قال لبعض الاعراب . قال : « واللـه هذا هو الديباج الخسرواني » . قال : فانهما لليلتهما . فقـال : « لاجرم ، والله ان اثر الصنعة والتكلف بين عليهما » . وكان ابـن الاعرابي من اشد اللغويين تعصبا على المحدثين ، فقد انشد شعرا لابي تمام فقال : « ان كان هذا شعرا فما قالته العرب باطل » . وقرئت عليه ابيات لابي تمام على انها لبعض شعراء هذيل وهي :

وعـاذل عذلتـه فـي عذلـه فظـن انـي جاهل مـن جهلـه

فقال لقارئها : اكتب لي هذه فكتبها له . قال احسنة هي ؟ قال : ماسمعت بأحسن منها . قال القارىء : انها لابي تمام . فقال : « خرّق خرّق » .

ولكن هذا الموقف من الاصمعي وابن الاعرابي لايعني جهلهما اهميـة الجديد وقيمته وانما كانا ينظران الى الشعر من خلال اللغة والنحو فقد خشيا ان تختلط العربية بغيرها وتدخلها الفاظ واساليب اعجمية تفسدها وتغـير معالمها وتفقدها بلاغتها وسحر بيانها . وهما لم يستهجنا الجديد الا لما فيـه

من تقليد ، ولو جاء شعر الموصلي وابي تمام من اعرابي لقبلاه لانه يمثل الاصالة ويعبر عن الاحساس الصادق اما ان يأتي من هذين الحضريين فينظما شعرا ينحوان فيه منحى الاعراب فهذا ما لايقبلانه لان الذي يورده الاعرابي وهو محتذ على غير مثال احلى في النفوس واشهى الى الاسماع واحق بالرواية والاستجادة مما يورده المحتذي والمقلد .

ونشأ من ذلك صراع بين القديم والجديد ، وحينما كان النقاش محتدماً كان النقاد يحددون خصائص الشعر القديم ويوضحون سمات الشعر الجديد . ومن اهم سمات الاول التمسك بالقديم والسير على مذاهب الاقدمين في التعبير والتصوير . واهم خصائص الثاني قربه من الذوق الحضري وتعبيره عن الحياة الجديدة وما يخفق في قلوب الشعراء من آمال وآلام . وقد صور ابن طباطبا العلوي والصولي هذين الاتجاهين فقال الاول : « ومع هذا فان من كان قبلنا في الجاهلية الجهلاء وفي صدر الاسلام من الشعراء كانوا يؤسسون اشعارهم في المعاني التي ركبوها على القصد للصدق فيها مديحا وهجاء وافتخاراً ووصفا وترغيبا وترهيبا الا ماقد احتمل الكذب فيه في كلم الشعر من الاغراق في الوصف والافراط في التشبيه ، وكان مجرى مايوردونه منه مجري القصص الحق والمخاطبات بالصدق فيحابون بما يثابون او يثابون بما يحابون . والشعراء في عصرنا انما يحابون على مايستحسن من لطيف مايوردونه من اشعارهم وبديع ما يغربونه من معانيهم وبليغ ماينظمونه من الفاظهم ومضحك مايوردونه من نوادرهم وانيق ماينسجونه من وشي قولهم دون حقائق مايشتمل عليه من المدح والهجاء وسائر الفنون التي يصرفون القول فيها . فاذا كان المدح ناقصا عن الصفة التي ذكرناها كان سببا لحرمان قائله والمتوسل به . واذا كان الهجاء كذلك ايضا كان سببا لاستهانة المهجو به وامنه من سيره ورواية الناس له واذاعتهم اياه وتفكههم بنوادره ولاسيما واشعارهم متكلفة غير

صادرة عن طبع صحيح كأشعار العرب التي سبيلهم في منظومها سبيلهم في منثور كلامهم الذي لا مشقة عليهم فيه » . وقال الثاني : « ان الفاظ المحدثين منذ عهد بشار الى وقتنا هذا كالمنتقلة الى معان ابدع والفاظ اقرب وكلام ارق وان كان السبق للاوائل بحق الاختراع والابتداء والطبع والاكتفاء ، وانه لم تر اعينهم مارآه المحدثون فشبهوه عياناً ، كما لم ير المحدثون ماوصفوه هم مشاهدة وعانوه مدة دهرهم من ذكر الصحارى والبر والوحش والابل والأخبية فهم في هذا ابدا دون القدماء كما ان القدماء فيما لم يروه ابدا دونهم ... ولان المتأخرين انما يجرون بريح المتقدمين ويصبون على قوالبهم ويستمدون بلعابهم وينتجعون كلامهم وقلما اخذ واحد منهم معنى من متقدم الااجاده . وقد وجدنا في شعر هؤلاء معاني لم يتكلم القدماء بها ومعاني اومأوا اليها ، فأتى بها هؤلاء واحسنوا فيها . وشعرهم مع ذلك اشبه بالزمان ، والناس له اكثر استعمالا في مجالسهم وكتبهم وتمثلهم ومطالبهم » .

وكانت الخصومة بين انصار البحتري وانصار ابي تمام اهم ماشغل النقاد، وكان ابو بكر محمد بن يحيى الصولي(ـ٣٣٥هـ/٩٤٦م) ممن التزم بالجديد في نقد الشعر ، وقد فضل ابا تمام والف « كتاب اخبار ابي تمام » للدفاع عنه وقال ان خصومه صنفان :

الاول : هم الذين يجهلون شعره ولا يستطيعون فهمه ولذلك عابوه واسرفوا في التعصب عليه والتمسك بالقديم ، لان اشعار الاوائل قد ذللت لهم وكثرت لها روايتهم ووجدوا ائمة قد ماشوها لهم وراضوا معانيها فهم يقرأونها سالكين سبيل غيرهم في تفاسيرها واستجادة جيدها وعيب رديئها . والفاظ القدماء وان تفاضلت فانها تتشابه وبعضها آخذ برقاب بعض فيستدلون بما عرفوه منها على ماأنكروه ويقوون على صعبها بما ذللوه ولم يجدوا في شعر المحدثين ائمة كأئمتهم ولارواة كرواتهم الذين تجتمع فيهم شرائطهم ، ولم

يعرفوا ماكان يضبطه ويقوم به وقصروا فيه فجهلوه فعادوه وقد قيل « الانسان عدو ماجهل » .

الثاني : هم المعاندون الذين يتخذون من تجريحه سبيلا الى المجد وسببا لنباهة واستجلابا لمعرفة اذ كان ساقطا خاملا فألف في الطعن عليه كتبا واستغوى عليه قوما ليعرف بخلاف الناس وليجري له ذكر في النقص اذ لم يقع له حظ في الزيادة ومكسب بالخطأ اذ حرمه من جهة الصواب وقد قيل « خالف تذكر » . وهذا مما يقع في كل زمان ويحدث في كل مكان ، فكثيرا مايكون الحقد او اكتساب الشهرة دافعا الى اتخاذ موقف معاد ، ولكن في الاول من الاسباب التي ذكرها الصولي مبالغة لان ابن الاعرابي والاصمعي والمبرد وثعلبا لم يكونوا جاهلين ولكنهم كانوا يحرصون على لغة العرب ونقائها فجاءت احكامهم صارمة .

وقد ذكر الصولي كثيرا من الاصول النقدية قبل ان يتحدث عن ابي تمام ويدافع عنه ومن ذلك تقديره لشعر المحدثين من حيث لغته واسلوبه ومعانيه ومطابقته لاحوال العصر . وابو تمام عنده قمة الشعر لانه ابدع واحسن واجاد ، ولا يقلل من قيمته بعض السقطات او التقصير . ولو وقف الصولي على شعر شاعره المفضل وحلله ووازن بينه وبين الشعراء الكبار لوصل الى نتائج طيبة ولرسم صورة واضحة لهذا المجدد ، ولكنه اندفع بقوة يرد آراء النقاد ويفند اقوال الطاعنين .

وفي كتابه « اخبار ابي تمام » قضايا اخرى منها موقفه من ثقافة الناقد ، فهو يرى ان لاينصب نفسه للحكم على الشعر وتمييز الالفاظ من لم يكن اعلم الناس بالكلام منظومه ومنثوره واقدر الناس على شيء متى اراده منه واحفظهم لاخذ الشعراء واعلمهم بمقاصدهم ، وموقفه من الشعر المكشوف فقد تحدث عنه وذكر له امثلة استجادها ووازن بينها وفضل بعضها على بعض . وموقفه من الشعر والدين فهو يرى ان الكفر لا ينقص من رتبة

الشعر ولا يذهب بجودته ، قال عن ابي تمام : « وقد ادعى قوم عليه الكفر بل حققوه وجعلوا ذلك عيبا للطعن على شعره وتقبيح حسنه ، وماظننت ان كفرا ينقص من شعر ولا ان ايمانا يزيد فيه »• وهذا ماذكره القاضي الجرجاني (ـ٣٩٢هـ/١٠٠١م) بعد ذلك وهو يتحدث عن المتنبي، قال: «فلو كانت الديانة عيارا على الشعر وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر لوجب ان يمحى اسم ابي نواس من الدواوين ويحذف ذكره اذا عدت الطبقات ، ولكان اولاهم بذلك اهل الجاهلية ومن تشهد الامة عليه بالكفر ، ولوجب ان يكون كعب ابن زهير وابن الزبعرى واضرابهما ممن تناول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعاب من اصحابه بكما خرسا وبكاء مفحمين • ولكن الامرين متباينان والدين بمعزل عن الشعر » •

ومن آرائه موقفه من السرقات ، فالشاعر اذا اخذ معنى وزاد عليه ووشحه ببديعه وتمم معناه كان احق به والشاعران اذا تعاورا معنى ولفظا او جمعاهما ان يجعل السبق لأقدمهما سنا واولهما موتا ، وينسب الاخذ الى المتأخر ، لان الاكثر يقع كذلك ، وان كانا في عصر واحد الحق باشبههما كلاما فان اشكل ذلك تركوه لهما • واشار الصولي الى ثلاثة انواع من السرقات هي : سرقة اللفظ ، وسرقة المعنى ، وسرقة اللفظ والمعنى ، وتحدث عنها في ضوء موازنته بين ابي تمام والشعراء الاخرين •

وكان ابو القاسم الحسن بن بشر الآمدي(ـ٣٧٠هـ/٩٨٠م) ممن التزم بعمود الشعر في نقده ، وكان يؤثر الشعر المطبوع على المصنوع وقد الف كتاب «الموازنة بين ابي تمام والبحتري» ليضع الشاعرين حيث ينبغي ان يوضعا في الشعر العربي بعد ان رأى الخصومة بين انصار الشاعرين قد بلغت مداها • وتحدث عن مذهبيهما في الشعر فوجد في اكثر ماسمعه ورآه من رواة اشعار المتأخرين ان شعر ابي تمام لا يتعلق بجيده جيد امثاله ورديئه مطرح ولهذا كان مختلفا لايتشابه ، وان شعر البحتري صحيح السبك حسن الديباجة

ليس فيه سفساف ولا رديء مطروح ولهذا صار مستويا يشبه بعضه بعضا» ولم يتفق النقاد على ايهما اشعر كما لم يتفقوا على احد مما وقع التفضيل بينهم من شعراء الجاهلية والاسلام المتأخرين ، وذلك كمن فضل البحتري ونسبه الى حلاوة النفس وحسن التخلص ووضع الكلام في موضعه وصحة العبارة وقرب المأتى وانكشاف المعاني ، وهم الكتاب والاعراب والشعراء المطبوعون واهل البلاغة ، ومثل من فضل ابا تمام ونسبه الى غموض المعاني ودقتها وكثرة مايورده مما يحتاج الى استنباط وشرح واستخراج وهؤلاء اهل المعاني والشعراء اصحاب الصنعة ومن يميل الى التدقيق وفلسفي الكلام وان كان كثير من الناس قد جعلهما طبقة وذهب الى المساواة بينهما • ورأى الآمدي ان الامر ليس كذلك بل « انهما لمختلفان ، لان البحتري اعرابي الشعر مطبوع وعلى مذهب الاوائل ومافارق عمود الشعر المعروف وكان يتجنب التعقيد ومستكره الالفاظ ووحشي الكلام ، فهو بأن يقاس باشجع السلمي ومنصور النمري وابي يعقوب الخريمي المكفوف وامثالهم من المطبوعين اولى ، ولان ابا تمام شديد التكلف صاحب صنعة ويستكره الالفاظ والمعاني ، وشعره لايشبه اشعار الاوائل ولا على طريقتهم لما فيه من الاستعارات البعيدة والمعاني المولدة فهو بأن يكون في حيز مسلم بن الوليد ومن حذا حذوه احق واشبه ، وعلى اني لا أجد من اقرنه به لانه ينحط عن درجة مسلم لسلامة شعر مسلم وحسن سبكه وصحة معانيه ويرتفع عن سائر من ذهب هذا المذهب وسلك هذا الاسلوب لكثرة محاسنه وبدائعه واختراعاته » • وبعد ان اوضح مذهب كل من الشاعرين وضع منهج موازنته ومضى يتحدث عن كثير من القضايا البلاغية والنقدية من ذلك ان الشعر صناعة وان النقد صناعة تحتاج الى ذوق وممارسة ودربة وليس لمن لم يعد نفسه لذلك ان يخوض في نقد الشعر واصدار الحكم عليه • وفي ضوء ذلك تحدث عن اللغة والنحو وصور البلاغة كالتشبيه والاستعارة والكناية والجناس والطباق والمبالغة وحسن التقسيم • وكان عرضه لها يعتمد على الذوق والموازنة بين الاشعار لاعلى التعريفات

المنطقية والحدود العقلية كما فعل علماء البلاغة وعالج موضـــوع السرقات وقال انها باب مايعرى منه احد من الشعراء الا القليل وانها ليست من كبير المساوىء ولا بأس بان يتفق شاعران ينشآن في بيئة واحدة ولذلك كان لا يتهم الشاعر بالسرقة مالم تكن ظاهرة جلية ، لان الفكرة قـــد تكون عامة معروفة ولكن الشاعر المجيد يستطيع ان يعبر عنها تعبيرا جديدا . وهذا ما فعله ابو تمام اذ صاغ الافكار وعبر عنها باسلوبه ، ولم يكن اتفاقه في المعاني مع غيره عيبا كبيرا يلام عليــه .

وكان عمود الشعر اهم القضايا التي ابرزها الآمدي لانه ممن التزم به وكان يؤثر الشعر المطبوع على الشعر المصنوع ويعيب على الشعراء الاغراق والابداع والميل الى وحشي الالفاظ والمعاني . وقد انطلق من هذا الايمان في موازنته وكلامه على شعر البحتري وابي تمام ، وارســى اصول عمود الشعر وان لم يحدده تحديداً دقيقا.وكان يكثر من العبارات التي تدل على تمسكه بهذا العمود ومن ذلك قوله : « النهج المعروف والسنن المألوف » وقولــه « فهذه هي الطريقة المعروفة في كلام العرب » وقوله : « وهذا خلاف ماعليه العرب وضد مايعرف من معانيها » وقوله : « ولكنه استعمل الاغراب فخرج الى مالا يعرف في كلام العرب ولامذهب سائر الامم » وقوله : « وهذا جهل ممن قاله بمعاني العرب » . ثم حدد طريقة العرب بقوله : « وليس الشـــعر عند اهل العلم به الا حسن التأتي وقرب المأخذ واختيار الكلام ووضع الالفاظ في مواضعها وان يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله وان تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له وغير منافرة لمعناه فان الكلام لايكتسي البهاء والرونق الا اذا كان بهذا الوصف وتلك طريقة البحتري ».

وكانت هذه الكلمات منطلق النقاد في تحديد عمود الشعر ، فقد وضع الآمدي خصائص الشعر الجيد وهـــي :

١ ــ الوضوح الذي يشير الى المعنى بكل جلاء .

٢ ــ حسن الاختيار والتدقيق فيما يقال •

٣ ــ استعمال الالفاظ استعمالا دقيقا •

٤ ــ العناية بالتشبيهات والاستعارات ، وأن تكون مرتبطة بما اخذت منه ارتباطا واضحا او ارتباطا لا يجعلها بعيدة •

٥ ــ ان تكون تلك التشبيهات والاستعارات غير منافرة للمعنى وغير بعيدة عن الادراك •

وهذه صفات الشعر الحسن ، وهي طريقة البحتري ومذهبه اما ابو تمام فقد خرج عليها واختط لنفسه مذهبا آخر كان امتدادا للشعراء المحدثين •

واثر تحديد الآمدي لعمود الشعر في النقاد فقد اخذ به القاضي الجرجاني(ــ٣٩٢هـ/١٠٠١م)الذي كان يتخذ من الذوق السليم وفهم العرب للشعر مقياسا للحكم ، ويتضح ذلك في قوله : « وكانت العرب انما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق منه لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، وبده فاغزر ، ولمن كثرت سوائر امثاله وشوارد ابياته ، ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ، ولا تحفل بالابداع والاستعارة اذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض » • واخذت قضية عمود الشعر صورتها الأخيرة في قول المرزوقي(ــ ٤٢١هـ/١٠٣٠م): « انهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته والاصابة في الوصف ــ ومن اجتماع هذه الاسباب الثلاثة كثرت سوائر الامثال وشوارد الابيات ــ والمقاربة في التشبيه ، والتحام اجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما » • وظل ذلك مقياسا للشعر الجيد ، والشاعر المفلق من لزم الابواب السبعة وبنى شعره عليها ، ومن لم يجمعها كلها فبقدر سهمته منها يكون نصيبه من التقدم والاحسان •

وما ان انتهى الصراع بين انصار البحتري وانصار ابي تمام حتى قام صراع من نوع آخر ، وكان ميدانه شعر المتنبي الذي شغل الدنيا ، وقد بدأ الصراع او الخصومة في بداية القرن الرابع للهجرة ووقف بعض الادباء الى جانب المتنبي وفضله على الشعراء ووقف بعضهم ينتقصه وينسب اليه كثيرا من العيوب وكانت الخصومة تختلف عن الخصومة بين انصار الطائيين اللذين يمثلان اتجاهين في الشعر مختلفين ، اذ الخصومة هنا ليست من اجل مذهب فني وانما هي في المتنبي وطبعه وشهرته . وقد تجلت الخصومة منذ اتصاله بسيف الدولة الحمداني ولقائه بالشعراء والنقاد في بلاطه وزادت حدة بعد ان اصبح شعره على كل لسان . وممن الف في نقد شعره الصاحب بن عباد (ـ ٣٨٥ هـ/٩٩٥م) وابن وكيع التنيسي (ـ ٣٩٣ هـ/ ١٠٠٢ م) والعميدي (ـ ٤٣٣هـ / ١٠٤١م) ، ولكن ابا علي محمد بن الحسن الحاتمي(ـ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م) كان من اشد النقاد انفعالا واكثرهم تعصبا على المتنبي ، وقد الف في نقده رسالتين :

الاولى : الرسالة الموضحة التي كتبها بعد ان عاد الشاعر الى بغداد واقام فيها زمنا .

الثانية : الرسالة الحاتمية فيما وافق المتنبي في شعره كلام ارسطو في الحكمة وفيها تغير موقفه السابق وحاول ان يتحدث عن الشاعر حديثا فيه اظهار لمعرفته بالحكمة وفضله على غيره .

ويتضح موقف الحاتمي من المتنبي في كثير من القضايا منها : خروج الشاعر على اساليب القول في المعنى واستعماله الالفاظ الجافية ، وخروجه على اللغة ونحوها وصرفها ، وغثاثة بعض شعره وعدم التماثل والتناسق فيه ، وعدم احسانه في بعض مبادىء قصائده او تخلصه من غرض الى آخر ومبالغته غير المحمودة ، واستعارته الباردة وتشبيهاته الرديئة وطباقه الغث واعجابه بالتصغير وقلق قوافيه ونبوها ، وسرقاته التي تتجلى في ضربين :

الاول : سرقاته من كلام العرب واغارته على الشعر الجيد .

الثاني : اخذه من كلام ارسطو في الحكمة او موافقته له .

وللحاتمي « حلية المحاضرة في صناعة الشعر » وهو كتاب مهم تعرض فيه لكثير من قضايا البلاغة والنقد ، وله فيه آراء تدل على فهمه للشعر وتذوقه . ولعل من ابرز القضايا التي ذكرها تصوره لمبدأ التناسق في الشعر ، قال : « فان القصيدة مثلها مثل خلق الانسان في اتصال بعض اعضائه ببعض فمتى انفصل واحد عن الآخر او باينه في صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه وتعفي معالم جماله ووجدت حذاق الشعراء وارباب الصناعة من المحدثين محترسين من مثل هذه الحال احتراسا يجنبهم شوائب النقصان ويقف بهم على محجة الاحسان حتى يقع الاتصال ويؤمن الانفصال وتأتي القصيدة في تناسب صدورها واعجازها وانتظام نسيبها بمديحها كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة لا ينفصل جزء منها عن جزء » .

وكان ذلك مقياسا دقيقا ، ولو اخذ النقاد به لابتعدوا عن النظرة الجزئية في احكامهم ، ولاستطاعوا ان يوضحوا بناء القصيدة ويحللوها تحليلا يعتمد على التناسق والارتباط بين أجزائها .

الاستقرار

لم يكد القرن الرابع يودع اعوامه الاخيرة حتى خفت الخصومة بين القدماء والمحدثين واصبح النقد قواعد ثابتة واصولا ذات رسوم يرجع اليها المنشئون ، واخذت البلاغة تطغى عليه وتحوله عن مساره الذي سلكه عدة قرون وان كانت البلاغة ليست درسا جديدا فقد عرفها العرب منذ عهد مبكر وكانت قضاياها تمتزج بالنقد وترفده. ولعلعبدالله بن المعتز(٢٩٦هـ/٩٠٨م) كان من اوائل الذين نظروا الى البلاغة نظرة عملية قوامها التحديد ووضوح الهدف ، فقد الف كتاب « البديع » وذكر فيه بعض ماوجد في الكتاب العزيز

والحديث الشريف وكلام العرب من بديع ، وليعلم ان المحدثين ومن تبعهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا الى هذا الفن ولكنه كثر في اشعارهم فعرف في زمانهم وسمي بهذا الاسم فاعرب ودل عليه ، وانهم لم يسبقوا المتقدمين الى شيء من ابوبه . وقسم كتابه الى بابين :

الاول : البديع ، وهو الاستعارة والتجنيس والمطابقة ورد اعجاز الكلام على ما تقدمها والمذهب الكلامي .

الثاني : محاسن الكلام وهي ثلاثة عشر : الالتفات ، والاعتراض ، والرجوع ، وحسن الخروج ، وتأكيد المدح ، وتجاهل العارف ، والهزل يراد به الجد ، وحسن التضمين ، والتعريض والكناية ، والافراط في الصفة وحسن التشبيه ، ولزوم مالا يلزم ، وحسن الابتداء .

وهذه الفنون التي استقاها من كلام العرب تدل على ان البديع فن اصيل وانه روح اللغة العربية ومادتها .

ولايخلو الكتاب من نظرة نقدية تتجلى في فصله بين الامثلة الجيدة والرديئة ، فهو — مثلا — بعد ان ذكر امثلة رائعة للاستعارة قال : « وهذا وامثاله من الاستعارة مما عيب من الشعر والكلام وانما نخبر بالقليل ليعرف فيتجنب » ثم مضى يذكر استعارات رديئة من نثر العرب وشعرهم .

وله رسالة في « محاسن شعر أبي تمام ومساويه » وكتاب « طبقات الشعراء » وقد تعرض فيهما للمحدثين واطلق بعض الأحكام النقدية الدالة على ذوقه الرفيع وفهمه للشعر وصلته بالحياة الجديدة التي كان ابناء عصره يحيونها في رغد حينا وفي اضطراب حينا آخر .

والف قدامة بن جعفر (ـ٣٣٧هـ/٩٤٨م) كتاب « نقد الشعر » بعد ان لم يجد احدا يؤلف في هذا الموضوع . والشعر عنده « قول موزون مقفى يدل

على معنى » : وفي ضوء هذا التعريف حدد منهج كتابه فتحدث عن اللفظ والمعنى والوزن والقافية وما يحدث بينها من ائتلاف . وكان هذا المنهج دقيقا في تقسيمه وان قيده في ذكر الاقسام وامثلتها كفساد التفسير الذي اوجدته القسمة العقلية ولم تكن له امثلة فاضطر الى ان يأتي بمثال واحد جاء به بعض الشعراء من اهل زمانه وهو :

فيا ايها الحيران في ظلم الدجى
ومن خاف ان يلقاه بغي من العدى
تعال اليه تلق من نور وجهه
ضياء ومن كفيه بحرا من الندى

ولم يأت بهذا المثال البارد لولا القسمة العقلية التي اقتضت ان يكون للتفسير وجهان : فاسد وصحيح .

وكتاب « نقد الشعر » امتداد لبديع ابن المعتز وصورة لثقافة العصر التي اخذت تمتزج بها الوان جديدة بعضها مقتبس من منطق ارسطو وفلسفة اليونان ، ولكن قدامة لم ينقل نقلا وانما تمثل ماكان سائدا واستفاد من المنهج العقلي الذي اخذ يلون الدراسات الادبية فصاغ هذا الكتاب الجديد الذي اخذ من التراث العربي اصوله ومادته ومن ابن المعتز وثعلب مصطلحاته وحدوده واضاف فنونا جديدة كصحة التقسيم وائتلاف اللفظ مع المعنى وائتلاف اللفظ مع الوزن وائتلاف المعنى مع الوزن وائتلاف القافية مع مايدل عليه سائر البيت واعتدال الوزن وتلخيص الاوصاف والتوازي والمضارعة واتساق البناء .

وكان معاصره ابو الحسين اسحاق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب صاحب « البرهان في وجوه البيان » اقرب الى المنهج العقلي في تبويبه والاخذ مما عرف من كتب اليونان واستقر في كتب الفقهاء ، ولكنه لم يبتعد

عن الاصالة العربية عند كلامه علـى فنـون البلاغة كالتشبيه والاسـتعارة والامثال والحذف والمبالغة والاختراع ، ولم يخرج على اصول العرب عند حديثه عن الشعر وأغراضه والنثر وأنواعه . ويعد كتاب « البرهان » اهـم كتاب تعرض للنثر العربي فقد قسـمه الى خطابة وترسل واحتجاج وحديث ، وذكر نعوت الخطابة وخصائص اساليبها متأثرا بما كتبه الجاحظ في « البيان والتبيين » . ثم تحدث عن ادب الجدل والحديث الذي يجري بين الناس في مخاطباتهم ومجالسهم ومناقلاتهم وهو وجوه كثيرة منها :

الجد والهزل ، والسخف والجزل ، والحسن والقبيح ، والملحـون والفصيح . والخطأ والصواب ، والصدق والكذب ، والنافع والضار ، والحق والباطل . والناقص والتام ، والمردود والمقبول ، والمهم والفضول ، والبليغ والعيي . وكان كلامه على الكتّاب وافيا ، ويعد احسن مصدر عن كاتب الخط ومايحتاج المحرر الى استعماله والخط وانواعه ، وكاتب اللفظ ، وكاتب العقد ، وكاتب العامل ، وكاتب الجيش ، وكاتب الحكم ، وصاحب الشرطة ، وكاتب التدبير والصدقة وصاحب الخبر والحاجب .

وكان ابو هلال العسكري (ــ٣٩٥هـ/١٠٠٤م) احسن من بحث البلاغة والنقد في القرن الرابع ، فقد الف « كتاب الصناعتين » ليضع صورة واضحة لفني الشعر والنثر ، ويوقف المنشـئين على اصـول هذين الفنين ليأخذوا بهـا وينطلقوا منها في الكتابة والابداع . وقد اعتنى بالتنظيم العلمي وحصر الاحكام البلاغية والنقدية بعد ان كانت مفرقـة في كتب المتقدمين . واتبع في بحثـه اسلوبا تقريريا ، فهو يتناول التعريفات والتقسـيمات او يضع القاعدة ثم يشرحها ويمثل لهـا .

وهذه طريقة قدامة مع فرق واضح هو اهتمام ابي هـلال بالتحليل والاكثار من الامثلة وبذلك استطاع ان يكسب كتابه طابعا علميا ويضفي عليه نزعة ادبية .

ولم يقف عند الحدود التي رسمها السابقون وانما زاد ستة فنون على ماأوردوه وهي التشطير ، والمجاورة ، والتطريز ، والمضاعفة ، والاستشهاد ، والتلطف ، واضاف اليها المشتق بعد نظم هذه الانواع .

وشغلت قضية اعجاز القرآن الكريم الدارسين والف علي بن عيسى الرماني (ـ٣٨٦هـ/٩٩٦م) رسالة «النكت في اعجاز القرآن» وقد تحدث فيها عن وجوه الاعجاز . والبلاغة عنده على ثلاث طبقات : منها ماهو اعلى طبقة ومنها ماهو في ادنى طبقة ، ومنها ماهو في الوسائط بين اعلى طبقة وادنى طبقة . فما كان في اعلاها طبقة فهو معجز وهو بلاغة القرآن ، وماكان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس .

وليست البلاغة افهام المعنى ، لانه قد يفهم المعنى متكلمان احدهما بليغ والآخر عيي ، وليست بتحقيق اللفظ على المعنى لانه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره ونافر متكلف وانما هي « ايصال المعنى الى القلب في احسن صورة من اللفظ » واعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن . ولايضاح المسألة تحدث عن بعض الفنون البلاغية وتعرض لبعض المسائل النقدية باسلوب علمي دقيق يدل على نضج ووعي عظيمين . ومن بديع مبحثه كلامه على التلاؤم وهو « نقيض التنافر » والتلاؤم تعديل الحروف في التأليف والتأليف على ثلاثة اوجه : متنافر ومتلائم في الطبقة الوسطى ومتلائم في الطبقة العليا . فالتأليف المتنافر كقول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبر

... واما التأليف المتلائم في الطبقة الوسطى ـ وهو من احسنها ـ فكقول القائل :

رمتني وستر الله بيني وبينها ... عشية آرام الكناس رميم
رميم التي قالت لجيران بيتها ... ضمنت لكم الا يزال يهيم
الا رب يوم لو رمتني رميتها ... ولكن عهدي بالنضال قديم

والمتلائم في الطبقة العليا القرآن كله وذلك بين لمن تأمله » . وذكر فائدة التلاؤم فقال : « والفائدة في التلاؤم حسن الكلام في السمع وسهولته في اللفظ وتقبل المعنى له في النفس لما يرد عليها من حسن الصورة وطريف الدلالة » .

وكان ابو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ـ٤٠٣هـ/١٠١٢م) اشهر من تعرض لاعجاز كتاب الله ، وكان كتابه « اعجاز القرآن » اعمق دراسة للبلاغة والنقد . وقد تحدث فيه عن كلام العرب وقسمه الى الشعر والكلام الموزون غير المقفى والكلام المعدل المسجع والمرسل .

ونعرض للنقد وقال انه من الامور الصعبة التمييز ، والاتفاق فيه صعب لان الناس متفاوتون في المعرفة ولو اتفقوا فيها لم يجز أن يتفقوا في معرفة هذا الفن او يجتمعوا في الهداية الى هذا العلم لاتصاله باسباب خفية وتعلقه بعلوم غامضة الغور كثيرة المذاهب . ونقد الكلام لايتأتى الا للعارف بالصنعة ولذلك كان الباقلاني يكرر الدعوة الى المعرفة والتدريب على هذا الفن لان من لم تكن له ثقافة واسعة وموهبة عظيمة ينبغي ان يجلس في مجلس المقلدين ولايعطي احكاما ، لانه غير قادر على التمييز بين الكلام .

وناقد الشعر يعرف انواعه ويضع يده على الجيد منه او الرديء ، ومتى تقدم في هذه الصنعة لم يخف عليه وجه من وجوه القول ولم تشتبه عنده الطرق ، فهو يميز قدر كل متكلم بكلامه وقدر كل كلام في نفسه ويحله محله ويعتقد فيه ماهو عليه ويحكم فيه بما يستحق من الحكم.وزاد الباقلاني المسألة ايضا فقال : « والعالم لا يشذ عنه شيء من ذلك ولا تخفى عليه مراتب هؤلاء ولا تذهب عليه اقدارهم حتى انه اذا عرف طريقة شاعر في قصائد معدودة فأنشد غيرها من شعره لم يشك ان ذلك من نسجه ولم يرتب انها من نظمه . كما انه اذا عرف خط رجل لم يشتبه عليه خطه حيث رآه من بين الخطوط المختلفة ، وحتى يميز بين رسائل كاتب وبين رسائل غيره وكذلك

امر الخطب • فإن اشتبه عليه البعض فهو لاشتباه الطريقتين وتماثل الصورتين كما قد يشتبه شعر ابي تمام بشعر البحتري في القليل الذي يترك ابو تمام فيه التصنع ويقصد به التسهل ويسلك الطريقة الكتابية ويتوجه في تقريب الالفاظ وترك تعويص المعاني ويتفق له مثل بهجة اشعار البحتري والفاظه • ولا يخفى على احد يميز هذه الصنعة سبك ابي نواس من سبك مسلم ولا نسج ابن الرومي من نسج البحتري ، وينبهه ديباجة شعر البحتري وكثرة مائه وبديع رونقه وبهجة كلامه الا فيما يسترسل فيه فيشتبه بشعر ابن الرومي ويحركه مالشعر ابي نواس من الحلاوة والرقة والرشاقة والسلاسة حتى يفرق بينه وبين شعر مسلم • وكذلك يميز بين شعر الاعشى في التصرف وبين شعر امرىء القيس وبين شعر النابغة وزهير وبين شعر جرير والاخطل والبعيث والفرزدق •

وكل له منهج معروف وطريق مألوف ولا يخفى عليه في زماننا الفصل بين رسائل عبد الحميد وطبقته وبين طبقة من بعده حتى أنه لا يشتبه عليه مابين رسائل عبد الحميد وبين رسائل اهل عصره ومن بعده ممن برع في صنعة الرسائل وتقدم في شأوها حتى جمع بين طرق المتقدمين وطريقة المتأخرين وحتى خلص لنفسه طريقة وانشأ لنفسه منهاجا فسلك طريقة الجاحظ وتارة طريقة السجع وتارة طريقة الاصل ، وبرع في ذلك باقتداره وتقدم بحذقه . ولكنه لا يخفى مع ذلك على اهل الصنعة طريقه من طريق غيره وان كان قد يشتبه البعض ويدق القليل وتغمض الاطراف وتشذ النواحي » ثم قال « وكذلك لا يخفى عليهم معرفة سارق الالفاظ ولا سارق المعاني ولا من يخترعها ولا من يلم بها ولا من يجاهر بالاخذ ممن يكاتم به ولا من يخترع الكلام اختراعا ويبتدهه ابتداها ممن يروي فيه ويجيل الفكر في تنقيحه ويصبر عليه حتى يتخلص له مايريد وحتى يكرر نظره فيه » • وقال : « وكذلك لا يمكن ان يخفى عليهم الكلام العلوي واللفظ الملوكي كما لا يخفى

عليه الكلام العامي واللفظ السوقي • ثم تراهم ينزلون الكلام تنزيلا ويعطونه ـ كيف تصرف ـ حقوقه ويعرفون مراتبه فلا يخفى عليهم مايختص به كل فاضل تقدم في وجه من وجوه النظم من الوجه الذي لا يشاركه فيه غيره ولا يساهمه سواه ••• ثم انهم يعلمون ايضاً من له سمت بنفسه ورفت برأسه ومن يقتدي في الالفاظ او في المعاني او فيهما بغيره ويجعل سوءه قدوة له ومن يلم في الاحوال بمذهب غيره ويطور في الاحيان بجنبات كلامه » •

وهذا كلام عارف بانواع الشعر والنثر حاذق للاساليب مميز لاتجاهات الادب ، وقد اراد الباقلاني ان يضع هذه الصفات امام الناقد ليأخذ بها عند حكمه على الادب •

واهتم بتحليل النصوص الادبية ووازن بين الشعراء وتحدث عن فنون البلاغة ورأى ان كتاب الله معجز بغيرها لانها اذا وقع التنبيه عليها امكن التوصل اليها بالتدريب والتعود والتصنع لها ، وذلك كالشعر اذا عرف الانسان طريقه صح التعمل له وأمكنه نظمه •

لقد استطاع الباقلاني من خلال بحثه في مسألة اعجاز القرآن أن يعرض كثيرا من القضايا البلاغية والنقدية ، وكان ذا منهج واضح ويعد ابرز ناقد في القرن الرابع للهجرة ، لانه لم يقف عند الجزئيات كما فعل غيره ؛ ولم يستهوه البديع الذي هام به الشعراء والنقاد وانما نظر الى السورة او القصيدة او الخطبة او الرسالة نظرة شاملة وحللها تحليلا رائعا ووقف عندها موضحا ما فيها من جمال ومنبها الى مالها من تأثير في النفوس •

والف ابن ناقيا البغدادي (ـ ٤٨٥هـ/١٠٩٢م) كتابا فريدا في بابه هو «الجمان في تشبيهات القرآن » ولكنه لم يدرس هذا الفن دراسة علمية وانما عرض له عند كلامه على آيات القرآن التي تضمنت تشبيهات ، وقارن بين انواعه في كلام العرب فجاء معرضا للاساليب الرائعة والكلام البديع •

وكثر التأليف في ذلك العهد ولكن اعظم بلاغي ناقد ظهر في نهاية القرن السادس للهجرة ضياء الدين بن الاثير (ـ٦٣٧هـ/١٢٣٩م) الذي اتضحت في مؤلفاته صنعة الكتابة التي كانت لها اهمية كبيرة . واهم كتبه « المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر » و « الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور » ، و « الاستدراك » .

والبلاغة ـ عنده ـ هي تعلم الكتابة والحكم على المعاني والاستعارة والتشبيه والتجنيس والسرقات وغيرها من الفنون الاخرى ، أي انها امتداد لبلاغة ابن المعتز وقدامة وابي هلال . وهي كلها علم واحد هو علم البيان الذي هو « بمنزلة اصول الفقه للاحكام » .

وقد بنى كتابه الكبير « المثل السائر » على مقدمة ومقالتين ، والمقدمة في اصول علم البيان ، والمقالة الاولى في الصناعة اللفظية كالفصاحة والسجع والجناس والترصيع ولزوم مالا يلزم والموازنة واختلاف صيغ الالفاظ واتفاقها والمعاظلة اللفظية والمنافرة بين الالفاظ في السبك . والمقالة الثانية في الصناعة المعنوية كالاستعارة والتشبيه والتجريد والتقديم والتأخير والايجاز والاطناب والسرقات .

ولم يخرج ابن الاثير في كتابه « الجامع الكبير » عن هذا المنهج وان اخر الكلام على الصناعة اللفظية . والف بعد ان حلّق في هذين الكتابين «الاستدراك» الذي كان جديدا في منهجه وآرائه وصورة عملية تكشف عن منهجه في النقد وتطبيق آرائه التي شرعها وأرسى اصولها في « المثل السائر » و « الجامع الكبير » .

ومنهج ابن الاثير في البلاغة يعتمد على تعريف الفن وتحليله وتقسيم الموضوع تقسيما بعيدا عن طريقة المتكلمين والفلاسفة الذين كان شديد النفور منهم . وكان يكثر من الامثلة ويحللها ويقف عندها ويتخير النصوص الطويلة

وينظر اليها نظرة شاملة وبذلك تفوق على كثير من البلاغيين والنقاد الذين كانوا لايهتمون بجمال النص وسحره كثيرا .

ولابن لاثير آراء كثيرة من ذلك رأيه في الزمن والنقد ، فهو يرى ان التقدم الزمني ليس دليلا على تقديم شاعر او تفضيل شاعر فانجريرا والفرزدق والاخطل اشعر ممن تقدم من شعراء الجاهلية وبينهم وبين اولئك فرق كبير ، وان ابا تمام والبحتري والمتنبي اشعر من الثلاثة ، وليس عنده أشعر منهم في جاهلية ولا اسلام وهم « لات الشعر وعزاه ومناته » الذين ظهرت على ايديهم حسناته ومحسناته ، وقد حوت اشعارهم غرابة المحدثين وفصاحة الاقدمين ، وجمعت بين الامثال السائرة وحكمة الحكماء . قال : « اما ابو تمام فانه رب معان وصيقل ألباب واذهان .. واما ابو عبادة البحتري فانه احسن من سبك اللفظ على المعنى واراد ان يشعر فغنى ولقد حاز طرفي الرقة والجزالة على الاطلاق .. واما ابو الطيب فانه اراد ان يسلك مسلك ابي تمام فقصرت عنه خطاه ولم يعطه الشعر من قياده ماأعطاه لكنه حظي من شعره بالحكم والامثال واختص بالابداع في وصف مواقف القتال » .

ووضع للمفاضلة بين الشعراء قواعد واصولا ، وكان يرى انها تقع بين الكلامين سواء أكانا متفقين في المعنى ام مختلفين ، فاذا كانا متفقين فان المفاضلة بينهما ظاهرة مكشوفة كقول بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته

وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

وقول سلم الخاسر :

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور

فالحكم بين هذين البيتين وبين مثلهما من المعاني المتفقة انما تقع في اللفظة خاصة وذلك يوجد في شيئين :

احدهما : يتعلق بنظم الكلام الذي هو سبك الالفاظ بعضها مع بعض .
والآخر : يتعلق بالايجاز .

ورأى ان المفاضلة تتم بين المعنيين المختلفين ايضا وان كانت في المتفقين ايسر خطبا . ووضع قاعدة للمفاضلة وهي ان ننظر الى قصيدتين لشاعرين ونختار جيد هذه وجيد هذه ، فمن كان جيده اكثر بالنسبة الى رديئه حكم له بالفضيلة . او ان ننظر في ديوان هذا وديوان هذا ويجري الامر على ماتقدم من قصيديهما ومثال ذلك ان يكون ديوان احدهما خمسة آلاف بيت منها اربعة آلاف جيدة وديوان الآخر ستة آلاف ومنها اربعة آلاف جيدة ، فالفضيلة المحكوم بها في هذا المقام لصاحب الخمسة دون الستة ولكنه قال « ان هذه مفاضلة مجازية ، لان الاقوال لا تكال بالقفزان وتحشى بها الغرائر ، فرب بيت واحد يعدل مائة بيت » .

ومن بديع موازناته ماذكره عن قصيدتي البحتري والمتنبي في وصف الاسد ، وهما قصيدتان مشهورتان مطلع الاولى :

اجدّك مايتفك يسرى لزينبا
خيال اذا آب الظلام تأوبا

ومطلع الثانية :

في الخد ان عزم الخليط رحيلا
مطر تزيد به الخدود محولا

وبعد ان ذكر روائع ابيات القصيدتين في الاسد قال : « وسأحكم بين هاتين القصيدتين ، والذي يشهد به الحق وتنقيه العصبية اذكره وهو ان معاني ابي الطيب أكثر عددا وأسدّ مقصدا ، ألا ترى ان البحتري قد قصر مجموع قصيدته على وصف شجاعة الممدوح وفي تشبيهه بالاسد مرة وتفضيله عليه

اخرى ، ولم يأت بشيء سوى ذلك ، واما ابو الطيب فانه أتى بذلك في بيت واحد وهـو قولـه :

امعفـر الليـث الهزبـر بسـوطه

لمن ادخرت الصـارم المصـقولا

ثم انه تفنن في ذكر الاسد فوصف صورته وهيئته ووصف احواله في انفراده في جنسه وفي هيئته واختياله ووصف خلق بخله مع شجاعته وشبه الممدوح به في الشجاعة وفضله عليه بالسخاء ، ثم انه عطف بعد ذلك علـى ذكر الانفة والحمية التي بعثت الاسد على قتل نفسه بلقاء الممدوح ، واخرج ذلك في احسن مخرج وابرزه في اشـرف معنى . واذا تأمل العارف بهذه الصناعة ابيات الرجلين عرف ببديهة النظر ماأشرت اليه . والبحتري وان كان افضل من المتنبي في صوغ الالفاظ وطلاوة السبك فالمتنبي افضـل منه في الغوص على المعاني مما يدلك على ذلك انه لم يعرض لما ذكره في ابياته الرائية لعلمه ان بشرا قد ملك رقاب تلك المعاني واستحوذ عليها ولم يترك لغـيره شيئا يقوله فيها . ولفطانة ابي الطيب لم يقع فيما وقع فيه البحتري من الانسحاب على ذيل بشر ، لانه قصر عنه تقصيرا كثيرا . ولما كان الامر كذلك عدل ابو الطيب عن سلوك الطريق وسلك غيرها فجاء فيما اورد مبرزا » .

وهذا تحليل للقصيدتين بديع لم يعرفه النقد القديم ، فابن الاثير لـم يقف عند الموازنة العابرة وانما ابدى رأيه المؤيد بالحجة الناصعة ، واوضح تأثر البحتري بقصيدة بشر بن عوانة التي مطلعها :

افاطم لو شـهدت ببطن خبـت

وقد لاقى الهزبر اخاك بشـرا

وكان شديد الاهتمام باظهار مايتفق فيه الشاعران وما يختلفان فيـه وتتجلى هذه النزعة في موازنته بين قصيدة ابي تمام في رثاء ولدين صغيرين

وقصيدة المتنبي في رثاء طفل صغير . قال بعد ان ذكر كثيرا من ابيات القصيدتين : « فتأمل ايها الناظم الى ماصنع هذان الشاعران في هذا المقصد الواحد وكيف هام كل منهما في واد منه مع اتفاقهما في بعض معانيه وسأبين لك ما اتفقا فيه وما اختلفا واذكر الفاضل من المفضول فأقول : اما الذي اتفقا فيه فان ابا تمام قال :

لهفي على تلك الشواهد فيهما

لو اخرت حتى تكون شمائلا

واما ابو الطيب فانه قال :

بمولودهم صَمْتُ اللسان كغيره ولكن في أعطافه منطق الفصل

فاتى بالمعنى الذي اتى به ابو تمام وزاد عليه بالصناعة اللفظية وهي المطابقة في قوله « صمت » و « منطق الفصل » . وقال ابو تمام :

نجمان شاء الله الا يطلعا

الا ارتداد الطرف حتى يأفلا

وقال ابو الطيب :

بدا وله وعد السحابة بالروى

وصد وفينا غلة البلد المحل

فوافقه في المعنى وزاد عليه بقوله : « وصد وفينا غلة البلد المحل » ، لانه بين قدر حاجتهم الى وجوده وانتفاعهم بحياته .

واما ما اختلفا فيه فان ابا الطيب اشعر فيه من ابي تمام ايضا وذلك ان معناه امتن من معناه ومبناه احكم من مبناه وربما اكبر هذا القول جماعة من المقلدين الذين يقفون مع شبهة الزمان وقدمه لا مع فضيلة القول وتقدمه

ولبو تمام وان كان اشعر عندي من ابي الطيب ، فان ابا الطيب اشعر منه في هذا الموضع • وبيان ذلك انه قد تقدم على ما اتفقا فيه من المعنى ، واما الذي اختلفا فيه فان ابا الطيب قـال :

عزاءك سـيف الدولـة المقتدى به

فانك نصـل والشـدائدللنصل

وهذا البيت بمفرده خير من بيتي ابي تمام اللذين هما :

ان تـرز في طـرفي نهار واحـد　　رزأيـن هاجـا لوعـة وبلابلا

فالثقل ليـس مضـاعفا لمطيـة　　الا اذا مـا كان وهمـا بازلا

فان قـول أبي الطيب « والشدائـد للنصـل » أكرم لفظا ومعنى من قول ابي تمام : ان الثقل انما يضاعف للبازل من المطايا • وقوله ايضا :

تخـون المنايا عهـده في سـليله

وتنصره بـين الفوارس والرجل

وهذا اشرف من بيتي ابي تمام اللذين هما :

لاغرو ان فننـان مـن عيدانـه　　لقيـا حمامـا للبريـة آكـلا

ان الاشاء اذا أصاب مشذب　　منه اتمهل ذرى واث أسافلا

وكذلك قال ابو الطيب :

الست من القوم الـذي من رماحهم

نداهم ومن قتلاهم مهجة البخل

تسـليهم علياؤهم عـن مصـابهم

ويشغلهم كسب الثناء عن الشغل

«وهذان البيتان خير من بيتي ابي تمام اللذين هما :

شمخت خلالك ان يواسيك امرؤ

او ان تذكر ناسيا او غافلا

الامواعظ قادها لك سمحة

اسجاح لبك سامعا او قائلا

ولم يخرج ابن الاثير عن منهجه في الموازنة ولم يثنه عن تفضيل ابيات المتنبي اعجابه بابى تمام او تقدم زمانه ، وهذا من فهمه لمهمة النقد والنقاد ودورهم في الادب .

ولابن الاثير آراء في الالفاظ والمعاني والصور الشعرية تدل على تعمقه في دراسة البيان العربي ووقوفه على اجمل مافيه وابدعه وتأثره بالاساليب الرائعة التي تهز النفوس وتثير المشاعر . وكان شديد الاعتزاز برأيه مما اثار عليه النقاد فألف ابن ابي الحديد(ـ٦٥٥هـ/١٢٥٧م) « الفلك الدائر على المثل السائر » وتتبع آراءه ورد بعضها ، ونقده في كتابه « شرح نهج البلاغة » وفند اقواله في بعض المسائل . والف محمود بن الحسين السنجاري (ـ٦٥٠هـ/١٢٥٢م) كتابا رد فيه آراء ابن ابي الحديد وسماه «نشر المثل السائر وطي الفلك الدائر » . ووقف النقاد بعد ذلك في الاقاليم العربية بين مؤيد لابن الاثير ومعارض له ومتحامل عليه كصلاح الدين الصفدي(٧٦٤هـ/١٣٦٢م) في كتابه « نصرة الثائر على المثل السائر » .

وكان المظفر بن الفضل العلوي (ـ٦٥٦هـ/١٢٥٨م) آخر بلاغي يشهده العراق قبل ان تجتاح بغداد عاصفة المغول المدمرة . وقد الف كتاب « نضرة الاغريض في نصرة القريض » وتحدث فيه عن الشعر وأحكامه وأقسامه وفضله ومـا يجب ان يتوخاه الشاعر ويتجنبه ويطرحه ويتطلبه . وليس في هذا الكتاب جديد لانه جاء متأخرا ولكنه ـ على الرغم من ذلك ـ عرض لقضايا البلاغة

والنقد عرضا علميا ونسقها تنسيقاً بديعاً وحللها تحليلاً جميلا ، واولى فنون البديع عناية كبيرة ووقف عند الشعر وقفات تدل على ذوق رفيع وناقش المؤلفين وابدى رأيه في بعض الامور . وليس ذلك قليلا من مؤلف عاش والرياح العاتية تهب على العراق من الشرق والاحوال مضطربة والأمن غير مستتب ، وقد انتهت حياته بانتهاء الحكم العباسي في بغداد .

الاصالة

بنى العرب صرحا شامخا في البلاغة والنقد وكانت لغتهم البديعة ترفدهم بكل طريف لما لها من قدرة عجيبة على التفنن في الصياغة والتعبير وكان الشعر العربي الذي يمتد الى اكثر من قرنين قبل الاسلام مادة علوم اللغة وكان النقد يأخذ منه قواعده واصوله ومصطلحاته . ولم يكد القرن الرابع للهجرة يودع اعوامه حتى استقر للعرب تراث بلاغي ونقدي عظيم ، وكان لابد لمن يبحث فيه ان يقف على هذا الموروث ويقومه ويحدد اصوله . وقد ذهب فريق من الباحثين الى انه منقول عن اليونان والفرس وذهب فريق آخر الى انه عربي اصيل . وكان الدكتور طه حسين من اوائل الذين تحدثوا عن الاثر اليوناني في البيان العربي وقرر انه في اول نشأته وفي عهد الجاحظ تتبين فيه ثلاثة عناصر هي : العنصر العربي ، والعنصر الفارسي الذي يميل الى البراعة والظرف في القول والهيئة ، والعنصر اليوناني الذي يتصل بالمعاني من حيث دقتها والعلاقة بينها وبين الالفاظ وانتهى الى انه « كان في جميع اطواره وثيق الصلة بالفلسفة اليونانية اولا والبيان اليوناني اخيرا ، واذن لايكون ارسطو المعلم الاول للمسلمين في الفلسفة وحدها ولكنه الى جانب ذلك الاول في البيان » . وقد بنى رأيه على كثير من الظن ، ومن ذلك تصوره لكتاب البديع وصلته بارسطو ، قال : « لم اطلع على كتاب البديع هذا ولكن الذين نقلوا عنه اكثروا مع ذكره كثرة تمكننا من تصوره فهو عبارة عن تعداد

لانواع البديع مع الاستشهاد لكـل نوع منها بشواهد من كـلام القدماء والمعاصرين لابن المعتز ، ومع الموازنة بين هذه الشواهد بعضها وبعض . وهم يقولون ان ابن المعتز احصى في كتابه ثمانية عشر نوعا من انواع البديع من يدرسها في كتاب معاصره قدامة بن جعفر وفي كتب الذين جاؤوا بعده يلحظ فيها لامحالة اثرا بينا للفصل الثالث من كتاب « الخطابة » . وبعبارة ادق للقسم الاول من الفصل الثالث وهو الذي يبحث في العبارة » . وبعض كلام الدكتور طه صحيح لانه اقتبسه ممن تحدثوا عن بديع ابن المعتز لكن تصوره لعلاقة الكتاب بخطابة أرسطو نوع من الظـن يخالف حقيقة كتاب البديع . وتلقف الباحثون كلامه واداروه في كتبهم وعرضوا لمثل ماعرض له فكان منهم الموجز وكان منهم المطيل كالدكتور ابراهيم سلامة الذي بنى كتابه « بلاغة ارسطو بين العرب واليونان » على ماجاء به الدكتور طه حسين .

ولم يقف الدكتور طه عند ارتباط البيان العربي بالبيان اليوناني وانما دفع طلابه الى تلمس ذلك الارتباط بالفرس ليجهز على مابقي من اصـالة للعرب وليحقق مقولته . واوصى الدكتور زكي مبارك بالرجوع الى تأريخ آدابالفارسية ليعرف من هم الكتاب الفرس الذين اوحوا الى كتاب العرب فنون البديع كالسجع والتورية والطباق والجناس . ولم يطع التلميذ استاذه لانه يؤمن بأن « الزخرف عنصر اصيل في اللغة العربية » .

ان البيان العربي ليس يونانيا ولا فارسيا وانما هو فن أصيل عـرف قبل الاسلام وشاع في كلام العرب وكتاب الله وحديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم تطور في عصر ازدهار الفكر العربي وأصبح فناً ذا قواعد واصول . وأوضح مايظهر اصالة هذا البيان ان العرب عرفوا منذ عهد مبكر اساليب التعبير التي ادخلها البلاغيون في علم المعاني كالايجاز الذي كانـوا يعدونه « البلاغة » او كانوا يأمرون كتابهم به لانه « بالقلوب أوقـع والى الحفظ أسرع وبالالسن أعلـق وللمعانـي اجمـع » ، والاطناب والتكرار

والاحتراس والمساواة التي كانت تأتي عند مقتضى الحال لتعبر عن الفكر بدقة ووضوح وكان الفصل والوصل من الاساليب المعروفة وكان اكثم بن صيفي يطلب من كتابه ان يفصلوا بين كل معنى منقض ويصلوا اذا كان الكلام معجونا بعضه ببعض . وكانت موضوعات علم البيان وهي المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية من اكثر الفنون دورانا في كلام العرب واليها استند الشعراء في تصويرهم المعاني وماأوحى اليهم خيالهم من بديع الشعر وروائعه . وكان العرب قبل الاسلام وبعده يلونون كلامهم بصور البديع لانهم وجدوه جزء مهما في الصياغة يعبر عن المعنى تعبيرا دقيقا ويضفي على الالفاظ ايحاء يثير في النفوس اجمل الصور . ولم يكن هذا الفن فارسيا ، لان الفرس لم يكن لهم علم بلاغة وانما اخذوا اصوله من البلاغة العربية بعد زمن طويل من نشأتها . وقد رد ابن المعتز مالهج به المولدون وماذكروه عن هذا الفن الذي ظنوا انه محدث وقال : « قد قدمنا في ابواب كتابنا هذا ماوجدناه في القرآن واللغة واحاديث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكلام الصحابة والاعراب وغيرهم واشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون «البديع» ليعلم أن بشارا ومسلما وابا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا الى هذا الفن ولكنه كثر في اشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فاعرب عنه ودل عليه » . وليس ادل من كلام ابن المعتز على اصالة البيان العربي ، فقد ارجع فن القول الى كلام العرب وكتاب الله الخالد واحاديث نبينا العظيم .

فالبديع فن عربي لاريب في ذلك وان الفرس اخذوه من العرب ، وان الجاحظ لم يكن مغاليا حينما قال : « والبديع مقصور على العرب ومن اجله فاقت لغتهم كل لغة واربت على كل لسان» . وانما كلامه حقيقة ناصعة لا ينكرها الا من كان جاحدا او كان شديد الخصام .

ان البلاغة والنقد عند العرب اصيلان واوضح دليل :

١ ـ ان الفنون البيانية التي درسها البلاغيون والنقاد كانت عربية تمتد الى ماقبل الاسلام ، وان القرآن الكريم توج البيان العربي ببيانه الذي اعجز العالمين .

٢ ـ ان كتابي ارسطو في « الشعر » و « الخطابة » لم يترجما الا في القرن الثالث او بعده، وكانت صور النقد قد ظهرت قبل ذلك ووجد في كلام العرب قبل الاسلام مايدفع التأثر بالبيان الاجنبي من آراء في الالفاظ والمعاني وعيوب الشعر . ولم يكن كلام ارسطو واضحا عند العرب فلم يأخذوا منه مايعينهم على رسم منهج نقدي او تصور بلاغي على الرغم من تأثرهم بمنطقه . ولم يظهر الاثر اليوناني الا في كلام الفلاسفة المسلمين عند تعرضهم لهذين الكتابين والا في كتاب « منهاج البلغاء وسراج الادباء » لحازم القرطاجني وهو من رجال القرن السابع . ولكن كتب هؤلاء الفلاسفة كالكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وكتاب القرطاجني لم يعبأ بها احد او يتأثر بها وظلت جزء من الفهم الفلسفي العام من غير ان تجد لها مجالا في البلاغة والنقد .

٣ ـ ان الفرس لم تكن لهم كتب بلاغية ونقدية قبل ان يدخلوا في دين الله ، واقدم كتبهم في هذا الفن وضعت في القرن الخامس للهجرة وما بعده ويتضح في أهمها مثل كتاب « ترجمان البلاغة » للرادوياني و « حدائق السحر » لرشيد الدين الوطواط ان الفرس نقلوا عن العرب مصطلحاتهم وتعريفاتهم وامثلتهم . وقد اعترفوا بهذا النقل وقالوا انهم وضعوا كتبهم على غرار الكتب العربية بعد ان لم يجدوا في لغتهم كتابا يرجعون اليه .

٤ ـ ان النقد العربي لم يتعرض للادب الاجنبي ولو كان العرب متأثرين به او مطلعين عليه اطلاعا يؤهلهم للتأثر لظهر ذلك جليا بل لتغير الادب العربي ودخلته الوان لم يعرفها قبل اتصاله بالفكر الاجنبي . ان ارتباط

النقد بكلام العرب يدل على ان ما ترجم من اليونان لم يؤثر فيه وان كانت هناك اشارات الى افلاطون وارسطو او شعر اليونان • ولكن هذه الاشارات لاتحدد منهجا ولاترسم طريقا • وقد ضاق البحتري حينما رأى بعضهم يتكلف المنطق فقال :

كلفتمونا حـــدود منطقكـم ... في الشعر يكفي عن صدقه كذبه
ولـم يكـن ذو القـروح يلهـج بالمنطق ، مانوعـه ومـا سـببه
والشعر لمـح تكفـي اشـارته ... وليس بالهـذر طولـت خطبه

وسخر ضياء الدين بن الاثير ممن كان يعجب بكلام اليونان وقال :

« ولقد فاوضني بعض المتفلسفين في هذا وانساق الكلام الى شيء ذكر لابي علي بن سينا في الخطابة والشعر ، وذكر ضربا من ضروب الشعر اليوناني يســمى اللاغوذيا وقام فاحضر كتاب الشفاء لابي علي ووقفني على ماذكره ، فلما وقفت عليه استجهلته فانه طول فيه وعرض وكأنه يخاطب بعض اليونان وكل الذي ذكره لغو لايستفيد به صاحب الكلام العربي شيئا » • ثم قـال « ان اليونان انفسهم لما نظموا مانظموه من اشعارهم لم ينظموه في وقـت نظمه وعندهم فكرة في مقدمتين ولا نتيجة ، وانما هذه اوضاع توضع ويطول بها مصنفات كتبهم في الخطابة والشعر وهي كما يقال : فقاقع ليس لها طائل كأنها شعر الابيوردي » •

وكلام ابن الاثير تصوير دقيق لواقع الادب العربي ونقـده ، فالعرب على الرغم من معرفتهم لكتب ارسـطو لم يتأثروا بها في بيانهم ولم يضعوا قواعدهم النقدية والبلاغية في ضوء « الشعر » و « الخطابة » لانهم كانوا ينفرون من فلسفي الكلام ويرونه خروجا على الذوق العربي ولذلك فضـل بعضهم البحتري على ابي تمام لانه « اعرابي الشعر مطبوع وعلى مذهـب الاوائل ، وما فارق عمود الشـعر المعروف ، وكان يتجنب التعقيد ومستكره

الالفاظ ووحشي الكلام » ولان « ابا تمام شـديد التكلف : صاحب صنعة ويستكره الالفاظ والمعاني وشعره لايشبه أشعار الاوائل ولاعلى طريقتهم لما فيه مـن الاستعارات البعيدة والمعاني المولـدة » . أي ان البحتري لـم يخرج على عمود الشعر الذي حدده الاوائل فكان الشاعر المفضل عند الذين قالوا : « واذا كانت طريقة الشاعر غير هذه الطريقة وكانت عبارته مقصـرة عنها ولسانه غير مدرك لها حتى يعتمد دقيق المعاني من فلسفة يونان او حكمة الهند او ادب الفرس ويكـون اكثر مايورده منها بالفاظ متعسفة ونسـج مضطرب وان اتفق في تضاعيف ذلك شيء من صـحيح الوصـف وسـليم النظر قلنا له : قد جئت بحكمة وفلسـفة ومعان لطيفة حسـنة فان شـئت دعوناك حكيما او سميناك فيلسوفا ولكن لا نسـميك شـاعرا ولا ندعوك بليغا ، لان طريقتك ليست على طريقة العرب ولا على مذاهبهم فان سميناك بذلك لم نلحقك بدرجة البلغاء ولا المحسنين الفصحاء » .

لقد قيل الكثير في هذا الاثر المزعوم ولكن الحقيقة تبقى ناصعة على الرغم من كل شيء وهذه الحقيقة تشير الى امور منها :

١ ــ ان البيان العربي كان اصيلا في نشأته وتطوره .

٢ ــ ان الاثر الاجنبي تسرب الـى ذلـك البيـان ولكنه لم يجد فيه مرتعاً خصـبا فانكفأ وعاد حسيرا .

٣ ــ ان الذوق العربي لم يقبل ادب اليونان ، ولـو قبله نعرف الملحمة والمسرحية والفنون الاخرى .

ويظل البحث في هذه المسألة ممتدا ولكنه لن ينكر ماللعرب من اصالة في البيان الا جاحد ، او يثبت لليونان او الفرس من تأثير الا مرتد آثم .

الخلاصـــة

كانت تلك حياة البلاغة والنقد التي بدأت في العراق ثم امتدت الـى الاقاليم العربية والامصار الاسلامية ، وقد اتضح انها مرت بعدة مراحل اذ بدأت بملاحظات بيانية واحكام عامة تعتمد على الذوق ثم خطت خطوات واسعة واصبح الذوق احد ركني النقد ، وصارت القواعد والاصول العلمية ركنه الثاني وكـان القرن الثالث للهجرة (التاسع الميلادي) عصر وضع تلك القواعد والخوض في فنون البيان المختلفة بعد ان كان الحـديث قبل ذلك محصورا في الشعر .

وكان الجاحظ من اوائل الذين عنوا بالخطابة والنثر الى جانب عنايته بالشعر ، وسار البلاغيون والنقاد على هداه فكان للنثر نصيب من الدراسـة والاستشهاد به . ولم يكن التخصص في هذا القرن واضحا اذ كانت البلاغة والنقد يبحثان معا ، وكانت الاحكام اللغوية والنحوية تأخذ نصيبا وافرا منها ، وكانت العناية بالقديم والتعصب له اوضح مايكون في ذلك العهد . ولكن هذه الاتجاهات المختلفة حينا والمتداخلة حينا آخر شهدت نوعا مـن التخصص في القرن الرابع وما بعده فقد الف قدامة بن جعفر كتاب « نقـد الشعر » بعد ان لم يجد كتابا يبحث فيه ، قال : « ولم اجد احدا وضع في نقد الشعر وتخليص جيده من رديئه كتابا ، وكان الكلام عندي في هذا القسم اولى بالشعر من سائر الاقسام المعدودة ، لان علم الغريب والنحو واغراض المعاني محتاج اليه في اصل الكلام العام للشعر والنثر وليس هو باحدهما اولى منه بالآخر ، وعلما الوزن والقوافي ـ وان خصا الشـعر وحـده ـ فليست الضرورة داعية اليهما لسهولة وجودهما في طباع اكثر الناس من غير تعلم ... فأما علم جيد الشعر من رديئه فان الناس يخبطون في ذلك منذ تفقهوا في العلم فقليلا مايصيبون . ولما وجدت الامر على ذلك وتبينت ان الكلام في هذا الامر اخص بالشعر من سائر الاسباب الأخر ، وان الناس

قد قصروا في وضع كتاب فيه رأيت ان اتكلم في ذاك بما يبلغه الوسع » .
وكان ثعلب قد الف قبل ذلك كتاب « قواعد الشعر » ولكنه لايصل الى كتاب قدامة في العرض والتحديد .

واخذت القواعد والاصول تستقر واصبح البلاغيون والنقاد يمثلون اتجاهات واضحة ، وظهرت الدراسات القرآنية المعتمدة على الذوق وفنون البيان ، ووضعت كتب الموازنة بين الشعراء ، وكاد النقد اللغوي يفقد مكانته الاولى ، واخذ النقد العلمي يظهر ، وبدأت حركة جديدة من التأليف تقوم على التخصص وبدأ الادباء يأخذون المبادرة بعد ان كان الرواة واللغويون والنحاة اصحاب الميدان .

وتطورت البلاغة والنقد وظهرت دراسات اعجاز القرآن الكريم وهي صورة جلية لما اثاره كتاب الله من جدل بين العلماء والادباء وقد اثرت هذه الدراسات وكانت اساسا لكتب البلاغة والنقد ولاسيما كتاب «اعجاز القرآن» للباقلاني الذي كان رائدا في العرض والموازنة والتحليل . وظهرت كتب نقد الشعر والاهتمام به والموازنة بين الشعراء وكتب نقد النثر التي كانت امتدادا لما كتب الجاحظ وتعبيرا عما استجد بعد ذلك من الوان الكتابة والتعبير . ولعل اهمها كتاب « البرهان في وجوه البيان » الذي طبع باسم « نقد النثر » ونسب الى قدامة بن جعفر . ولو قيض للبلاغة والنقد ان يخطوا خطوات جديدة لكان لهما شأن عظيم ودور كبير في الحياة الادبية ، ولكن العهود المتأخرة كانت نزاعا على ملك وصراعا بين اقوام . وقد اثر ذلك في الادب ففقد رونقه واصالته ، وترنقت مقاييسه واحكامه .

ولم يكن امام المتأخرين غير الاهتمام بالقواعد فاصبحت البلاغة والنقد علماً لا يخدم الادب ولا ينمي الملكة الادبية ويصقل المواهب .

ان البلاغيين والنقاد في العراق قدموا للغة العربية اروع ماعرفته القرون السابقة وبنوا اعظم مايبنيه مؤمن بلغته ورسالة امته . وكانوا في كل

ماعرضوا له صادقين ؛ لانهم لم يلتمسوا القواعد والاصـول في غير الادب العربي ، ولذلك جاءت احكامهم معبرة عن الواقع ومصورة للحياة الادبية احسن تصوير ، وحسبهم أنهم اقاموا صـرحا شامخا ووقفوا على كثير من القضايا التي تشغل الادباء في تلك القرون ومن اهمها :

١ ــ اللفظ والمعنـى ٠
٢ ــ بناء القصـيدة ٠
٣ ــ عمـود الشـعر ٠
٤ ــ الموازنـة ٠
٥ ــ السـرقة ٠
٦ ــ الصدق والكذب ٠
٧ ــ الشعر والاخـلاق ٠
٨ ــ المطبوع والمصنوع ٠

وهذه القضايا وغيرها نبعت من الادب العربي والحضارة التي قامت في بغداد وامتدت شرقا وغربا لتبدد دياجير الظلام وتبعث في الامم الحياة الحرة الكريمـة ٠

ولم تكن البلاغة والنقد الاصورة عربية لم تتأثر في دور نشأتها بالثقافات الاجنبية ، لانهما ظهرا في كنف اللغويين والنحاة وحملهما الكتاب والشعراء ، ولم يستطع اصحاب الثقافة الاجنبية ان يوجهوهما على الرغم من تسـرب كتابي « الشعر » و « الخطابة » لارسطو الى بعض الكتب والنقل منهما او الاشارة الى الشعر اليوناني ٠ لقد عرف العرب «الشعر» و «الخطابة» ولكن نقدهم ظل بعيدا عن مقاييسهما أو حذرا منهما ، وظل مرتبطا بالادب العربي ٠ ولو انهم تأثرو بهذين الكتابين تأثرا كبيرا لتغيرت صـورة الادب ولدخلت

انواع ادبية لم يعرفوها ، ولذلك بقي النقد محتفظا بالقيم العربية لانه انبثق من التراث الاصـــيل .

وكان القرآن الكريم اصفى منبع استقى منه البلاغيون والنقاد قواعدهم واحكامهم ، وكان الشعر العربي اصدق مقياس رجعوا اليه ، وكانــت آراء السابقين اكبر عون في التأليف . وقد استطاعوا خلال قرون قليلة ان يبنــوا صرح البلاغة والنقد ويقيموا ادبا عربيا في الفاظه ومعانيه غير عابئين بما كان يظهر من نزعات تريد ان تحرف الفكر والادب . وسيظل مابنوه اصيلا ينير درب النقاد وهم يرسمون حياة النقد الادبي المعاصر ويقدمون للامة خير زاد عرفته الاقوام ، وليست قضايا النقد العربي القديم ببعيدة عن قضايا النقد في هــذه الايام وان اتخذت لهــا مسارب جديدة وتنوعت لتلائم صــورة الادب الجديـــد .

المصـــادر

الآمدي : ابو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى

١ ـ الموازنة بين شعر ابي تمام والبحتري . تحقيق السيد احمد صقر . دار المعارف ـ القاهرة

ابن الاثير : ضياء الدين

٢ ـ الاستدراك . تحقيق حفني محمد شرف . القاهرة ١٩٥٨ م .

٣ ـ الجامع الكبير . تحقيق الدكتور مصطفى جواد والدكتور جميل سعيد . بغداد ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦ م .

٤ ـ المثل السائر . تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد . القاهرة ١٣٥٨ هـ ـ ١٩٣٩ م .

الاصفهاني : ابو الفرج

٥ ـ الاغاني . طبعة دار الكتب المصرية وطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة .

الاصمعي : عبدالملك بن قريب

٦ ـ فحولة الشعراء . تحقيق محمد عبدالمنعم خفاجي وطه محمد الزيني . القاهرة ١٩٥٣ م . وطبعة ش . توري بمقدمة الدكتور صلاح الدين المنجد ـ بيروت ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٧١ م .

الباقلاني : ابو بكر محمد بن الطيب

٧ ـ اعجاز القرآن . تحقيق السيد احمد صقر . القاهرة .

ثعلب : ابو العباس احمد بـن يحيى

٨ ــ قواعد الشعر . تحقيق محمد عبدالمنعم خفاجـي . القاهرة ١٣٦٧ هـ ــ ١٩٤٨ م

الجاحظ : ابو عثمان عمرو بـن بحر

٩ ــ البيان والتبيين . تحقيق عبد الاسـلام محمد هارون . القاهـرة ١٣٦٧ هـ ــ ١٩٤٨ م

١٠ ــ الحيوان . تحقيق عبدالسلام محمد هـارون . القاهـرة ١٣٥٦ هـ ــ ١٩٣٨ م

الجرجاني : القاضي علي بن عبـد العزيز

١١ ــ الوساطة بين المتنبي وخصومه . تحقيـق محمد ابو الفضل ابراهيـم وعلي محمد البجاوي . الطبعة الثالثة ــ القاهرة .

الجمحي : محمد بـن سـلام

١٢ ــ طبقات فحول الشعراء . تحقيق محمود محمد شاكر .القاهرة ١٩٧٤ م

الحاتمي : ابو علي محمد بن الحسـن بن المظفر الكاتب .

١٣ ــ حلية المحاضرة في صـناعة الشـعر . تحقيق الدكتور جعفر الكتانـي بغداد ــ ١٩٧٩ م . وتحقيق هلال ناجي . بيروت ١٩٧٨ م

١٤ ــ الرسالة الحاتمية . تحقيق فؤاد افرام البستاني . بيروت ١٩٣١ م.

١٥ ــ الرسالة الموضحة . تحقيق الدكتور محمد يوسـف نجم . بيروت ١٣٨٥ هـ ــ ١٩٦٥ م .

الرماني : ابو الحسن علي بن عيسى

١٦ ــ النكت في اعجاز القرآن . (مطبوع في كتاب ثلاث رسـائل في اعجاز القرآن) تحقيق محمد خلف الله أحمـد والدكتور محمـد زغلول . القاهـرة ــ دار المعارف .

الصولي : ابو بكر محمد بـن يحيى

١٧ ــ اخبار ابي تمام . تحقيق خليل محمود عساكر ومحمد عبده عزام ونظير الاسلام الهندي . القاهـرة .

١٨ ــ اخبار البحتري . تحقيق الدكتور صالح الاشتر الطبعة الثانية ــ دمشق ١٣٨٤ هـ ــ ١٩٦٤ م.

ابن طباطبا : محمد بن احمد العلوي

١٩ ــ عيار الشعر . تحقيق الدكتور طه الحاجري والدكتور محمد زغلول سلام . القاهرة ١٩٥٦ م

العسكري : ابو احمد الحسن بن عبد الله

٢٠ ــ المصون في الادب . تحقيق عبد السلام محمد هارون . الكويت .١٩٦٠م

العسكري : ابو هلال الحسن بن عبد الله

٢١ ــ كتاب الصناعتين . تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل ابراهيم . القاهرة ١٣٧١ هـ ــ ١٩٥٢ م .

العلوي : المظفر بن الفضل

٢٢ ــ نضرة الاغريض في نصرة القريض . تحقيق الدكتورة نهى عارف الحسن . دمشق ١٣٩٦ هـ ــ ١٩٧٦ م .

الفراء : ابو زكريا يحيى بن زياد

٢٣ ــ معاني القرآن . تحقيق محمد علي النجار واحمد يوسف نجاتي . القاهرة ١٣٧٤ هـ ــ ١٩٥٥ م .

ابن قتيبة :

٢٤ ــ تأويل مشكل القرآن . تحقيق السيد احمد صقر . القاهرة ١٣٧٣ هـ ــ ١٩٥٤ م .

٢٥ ــ الشعر والشعراء . تحقيق احمد محمد شاكر . الطبعة الثانية . القاهرة ١٣٨٦ هـ ــ ١٩٦٦ م.

قدامة بن جعفر :

٢٦ ــ نقد الشعر . تحقيق كمال مصطفى . الطبعة الثانية . القاهرة ١٣٨٢هـ ــ ١٩٦٣ م

٢٧ ــ نقد النثر ــ المنسوب اليه ــ الطبعة الرابعة ــ القاهرة .

القيرواني : ابن رشيق

٢٨ ــ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . الطبعة الثانية . القاهرة ١٣٧٤ هـ ــ ١٩٥٥ م.

المبرد : ابو العباس محمد بن يزيد

٢٩ ــ الكامل . تحقيق الدكتور زكي مبارك . القاهرة ١٣٥٥ هـ ــ ١٩٣٦ م

المرزباني : ابو عبيد الله محمد بن عمران

٣٠ ــ الموشح . تحقيق علي محمد البجاوي . القاهرة ١٩٦٥ م.

المرزوقي : ابو علي احمد بن محمد بن الحسن

٣١ ــ شرح ديوان الحماسة . تحقيق احمد امين وعبد السلام محمد هارون. القاهرة ١٣٧١ هـ ــ ١٩٥١ م.

ابن المعتز :

٣٢ ــ البديع . تحقيق كراتشكوفسكي . لندن ١٩٣٥ م.

٣٣ ــ طبقات الشعراء . تحقيق عبد الستار احمد فراج . دار المعارف ــ القاهـــرة .

ابن وهب : ابو الحســن اسحاق بن ابراهيم بن سليمان

٣٤ ــ البرهـــان في وجـوه البيـــان . تحقيق الدكتور احمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي . بغداد ١٣٨٧ هـ ــ ١٩٦٧ م .

الفصل السادس

الشعر والنثر

د . قحطان رشيد صالح
المؤسسة العامة للآثار والتراث

الشعر

الشعر قبل الاسلام : اوليته واصالته

لم يتفق مؤرخو الادب العربي ودارسوه على تاريخ محدد لنشأة الشعر العربي واولياته بيد انهم يكادون يجمعون على ان ابعد تاريخ لنضجه واستوائه لا يتعدى حدود ١٥٠ ـ ٢٠٠ سنة قبل الاسلام . فالنصوص الشعرية الكاملة مبنى ومعنى لقدامى الشعراء مماوصل الينا لا يمكن ان تكون هي البدايات الاولى لما دارت به ألسنة الشعراء، فليس معقولا او مقبولا ان يبدأ الشعر على هذا النحو من الاكتمال بل المعقول والمقبول ان يكون قد مر بمراحل الطفولة والنشوء وما تتطلبه من محاولات فنية من الصياغة وانعام النظر قبل بلوغه حد الارتقاء والاستواء . وتروي لنا كتب الادب والسيرة ان شعراء المرحلة الشعرية الناضجة يشيرون في اثناء ابياتهم الى انهم مسبوقون الى هذا الفن وانهم يقتفون آثار من سبقهم ويحذون حذوهم .

وكان هذا الشعر في صورته الكاملة اداة طيعة استطاع الشعراء من خلالها ان يصوروا لنا مجتمعاتهم واحوالهم ومعاناتهم واسلوب عيشهم ، وكل ماله صلة بحياتهم ، فكان الشعر العربي اللوحة المشرقة التي انعكست على صفحاتها الصورة المتكاملة للحياة العربية وكان فن القول هذا ديوان فخرهم ، وأحد اعز ماخلفوه من مكونات تراثهم الحضاري لانه اللون الحيوي الذي اجتمعوا عليه ، فكان واحدا من ابرز سمات وحدتهم القومية ومخلفاتهم الانسانية الرفيعة فلقد كان هذا الفن التعبيري قومي السمات ، واحد الاغراض والخصائص سواء ماكان فيه في مضارب الجزيرة العربية ام في العراق ام في اليمن ام في بلاد الشام غير ان البيئتين الاوليين كانتا غنيتين بالعطاء الشعري من حيث كمه الكثير ونوعه الاثير واذا كانت سمات الشعر العربي مشتركة في بيئاته المختلفة بحكم مقومات الوحدة القومية الى حد كبير فانه في العراق كان صورة لحياة هذا الاقليم فضلا عن كونه ملتحم الاواصر مع تياراته الاخرى في نجد والجزيرة وغيرها ، اصيلا في نشأته بعيدا عن المؤثرات الاجنبية لاسيما الفارسية منها .

الشعر فى الحيرة

وكان العراق العربي موطن الشعر الرفيع ومركزا فكريا متقدما قبل العصر الاسلامي ، وقد تركزت الحركة الشعرية الواسعة في مدينة الحيرة عاصمة المملكة اللخمية التي كانت مستقر ازهر الحضارات العربية في عصر ما قبل الاسلام ، فهي منتدى الشعر والغناء والمكان الامين الذي حفظ فيه الشعر الذي جمع ، وما روي من اخبار العرب وانسابهم ، فكل ذلك كان مدونا محفوظا في بيع الحيرة ، يقول أحد الرواة : اني كنت استخرج أخبار العرب وأنساب آل ربيعة .. من بِيَع الحيرة ، وفيها ملكهم وامورهم كلها ..

وهذا ابن سلاّم يقول في طبقاته : (وقد كان عند النعمان بن المنذر من الشعر الجاهلي ديوان فيه اشعار الفحول وما مدح به هو واهل بيته فصار ذلك الى بني مروان او ماصار منه) واذن فالعراق وحاضرته الحيرة كان مركزا ثقافيا ، له دور كبير في عملية حفظ الشعر ، والموروث الادبي العربي منذ سنين متقدمة ، ذلك ان الحيرة بلغت ذروة المجد والقوة حين ضمّت تحت جناحيها معظم القبائل العربية مابين نجد والبحرين حتى لنجد جوستنيان صاحب بيزنطة يقيم الصلح مع المنذر الثالث ويدفع له الفدية تماما مثل مافعله مع المحتل الفارسي في المدائن • فالحيرة كانت واسعة السلطان دانت لها اليمامة والبحرين وعمان وقبائل بكر وتغلب في العراق وقبائل نجد ، وكانت فيها الحياة مزدهرة ، وذات سوق تجارية كبيرة ، وكل ذلك هيأها للتحضر ومن هنا نجد الحيرة تحتل مكانا واسعا في اقاصيص العرب واخبارهم واشعارهم ، فطالما تحدثوا عن ملوكها وقصورها ومظاهر عزها ، وعدا الشعراء الذين اقاموا في الحيرة كأبي دواد الايادي وعدي بن زيد ، فان كثيرين منهم كانوا يفدون عليها مثل عمرو بن قميئة والمسيب بن علس والحارث بن حلزّة وعمرو بن كلثوم واوس بن حجر والمنخل اليشكري ولبيد والاعشى والنابغة وغيرهم •

والدارس لشعر العراق الذي تقدم الحيرة مثاله الدقيق يجده ذا اتجاهات وسمات لا تختلف اختلافا كبيرا بشيء عن الشعر العربي عامة وفي بيئاته الاخرى : مكة والمدينة والشام واليمن ذلك ان تراثنا الشعري كان وما يزال المرآة الصافية التي تتراءى من خلالها صورة المجتمع الحقة بكل ابعاد الحياة وألوانها ، فهذا الشعر فيض الوجدان وانعكاس الشعور وهو دائم التأثر بالبيئة التي تحتضن منشئيه ، وكذلك كان الشعر في الحيرة واطراف العراق الاخرى • اذ تنوعت اغراضه وفنونه واتسعت معانيه وتفاوت اسلوبه بين الجزل المتين والسهل

القريب وهو في جميع اتجاهاته عبّر اصدق تعبير عن أضرب الحياة سياسيّها وقوميّها واجتماعيّها .

من خلال استعراضنا للفنون الشعرية نجدها قد صورت هموم الشاعر وآماله مما له صلة بشخصه او قومه ، واولها المديح : وهو من اقدم الاغراض الشعرية ويصور جزء كبير منه المثالية الخلقية لدى العربي ، فالشاعر حين يمدح فانما يمدح وفاءً لذمة ، واعترافا بجميل ورسما للشخصية العربية التي تتمثل بها القيم المتوارثة في البأس والعطاء وحماية الجار وتلبية الصريخ وغيرها ويلقانا هنا الكثير من شعراء هذا الفن وفي طليعتهم النابغة الذبياني والاعشى والمثقّب العبدى ولهذا الاخير قصيدة يمدح بها النعمان بن المنذر بكرم الارومة وسعة الملك الذي شمل قبائل من العرب فاشاد بقوة سلطانه وتقدمه على الملوك فقال :

فان أبا قابوس عندى بلاؤها	جزاء بنعمى لا يحلّ كنودها
رأيت زناد الصالحين نمينه	قديما كما بذّ النجوم سعودها
ولو علم الله الجبال عصينه	لجاء بامراس الجبال يقودها
فان تك منا في عمان قبيلة	تواصت باجناب وطال عنودها
فقد ادركتها المدركات فاصبحت	الى خير من تحت السماء وفودها
الى ملك بذّ الملوك فلم يسع	أفاعيله حزم الملوك وجودها

وقد عنى الشعراء بقصائد المديح وصاغوها صياغات تامة من حيث بناؤها وافكارها .. ولسنا بصدد الاطالة في ايراد امثلة اخرى من المديح فهي كثيرة ولكن الحديث في هذا الفن يقودنا الى شعر الاعتذار الذي نشأ في صحبة المديح ولصق به ، وفي هذا الشعر تمتزج عاطفة الخوف وعاطفة الرجاء والنابغة الذبياني سيد هذا الفن دون منازع واعتذارياته قصائد صادقة

قالها يدفع عن نفسه مصفيا الود للنعمان بن المنذر معتذرا عما نمـي اليه من اخبار نحلها اياه قالة السوء ومن روائع هذا الشعر قول النابغة :

اتاني ابيت اللعن انك لمتني ... وتلك التي اهتم منها وانصب

حلفت فلم اترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب

لئن كنت قد بلغت عني خيانة ... لمبلغك الواشي أغش واكذب

وانك شمس والملوك كواكب ... اذا طلعت لم يبد منهن كوكب

فان اك مظلوما فعبدا ظلمته ... وان اك ذا عتبى فمثلك يعتب

وتنساب القصيدة كلها على هذا اللون من الوضوح والسهولة وقرب المأخذ والبعد عن التعقيد ، ويشعر القارىء من خلالها باصالة الشاعر وقدرته على الصياغة وتمكنه من هذا الفن الشعري الذي يجمع بين الثناء والاستعطاف وصدق الحس ، فضلا عن انه أتى فيها بمعان متميزة وتشبيهات طريفة ، وعما نحسه فيها من دقة الشعور ورهافته .

وكان الفخر اقرب الفنون الشعرية الى نفوس الشعراء ، فيه الاعتداد بالفرد والقبيلة وفيه متسع للحديث عن البطولة والرجولة بحماسة واقتدار وسرد في ذكر المحامد والانساب والاصول والاعتزاز بكل قيمة عربية تأصلت بالنفس وعرفت بها البيئات العربية وقد يكون هذا الفن مقرونا بالمديح او الذم او التغني بالانتصار وهو غرض برع به الشعراء العرب لانه مدار حديثهم عن علو الهمة والطموح نحو الامثل فشعر الحرب والحماسة (اهم موضوع استنفد قصائدهم فقد سعرتهم الحرب ومدها شعراؤهم بوقود جزل من التغني ببطولتهم ، وانهم لا يرهبون الموت فهم يترامون عليه تحت ظلال السيوف والرماح مدافعين عن شرف قبائلهم وحماها) فمن غنائهم بالشيم الكريمة والمثل الرفيعة قول ربيعة بن مقروم بن قيس :

وان تســألينى فانــي امــرؤ أهــين اللئيــم واحبــو الكريمـا
وابنــي المعالــي بالمكرمــات وارضــي الخليــل واروى النديما
ويحمــد بذلــي لــه معتــف اذا ذم مــن يعتفيــه اللئيـــا

ويقول الاعشى مخلدا مجد قومه وبطولتهم في موقعة ذي قار المشهورة، التي انتصر فيها العرب على كسرى وجنوده نصرا عزيزا خالدا ملأ العـرب فخرا واعتزازا من قديم حتى يومنا هذا فهو يفتخر فيقول :

وجنــد كسرى غداة الحنو صبحهم منا كتائب تزجي الموت فانصرفوا
اذا امالــوا الــى النشاب ايديهم ملنا ببيض فظــل الهــام يختطف
وخيل بكر فمــا تنفــك تقتلهــم حتى تولوا وكــاد اليــوم ينتصف
لو ان كــل معــدٍ كــان شاركنا في يوم ذيقار ما اخطاهم الشرف

فالابيات المتقدمة تصور نزوع الشاعر القومي وهو يســجل اعتزازه بظفر العرب ويملؤه التمني ان لو شارك العرب كل العرب في هذا اليــوم الخالد المجيد لنالهم الشرف جميعا ولكنها المعركة التي ارهصت للاندحــار الفارسي امام جيوش التحرير العربية التي انطلقت في ظلال الراية العربيــة الاســـلامية .

وكثيرا ما كان الرثاء يتصل بشعر الحروب والغارات اذ كان الشعراء يعمدون الى تأبين قتلاهم والاشادة بمآثرهم ومحامدهم ووصفهم وصــفا جميلا وذكرهم ذكرا مجيدا ، وقد برع غير واحد من الشعراء وواحدة من الشواعر بهذا الفن ، وشهرة الخنساء قائمة في عالم الشعر على اساس اقتدارها في الرثاء وتمكنها من التعبير الشجي عن لواعج همها وعظيم غمهــا وشــدة معاناتها فلقد رثى الشــعراء أبناءهم واخوانهــم وآباءهم وبنــي قومهــم واشادوا بهم احسن ماتكون الاشادة وندبوهم خير مايكون الندب فكــان

ذلك سببا في بقاء الذكر الحميد وخلود الاموات ومن الرثاء الصادق ماقاله المنخل اليشكري الهذلي واسمه مالك بن عويمر في ابنه أثيلة يوم قتلته بنو سعد حين خروجه للغارة عليهم مع جماعة من بني قومه :

ما بال عينك تبكي دمعها خضل	كما وهى سرب الاخرات منبزل
تبكي على رجل لم تبل جدته	خلى عليها فجاجا بينها خلل
وقد عجبت وهل بالدهر من عجب	انى قتلت وانت الحازم البطل
السالك الثغرة اليقظان كالئها	مشي الهلوك عليها الخيعل الفضل
والتارك القرن مصفرا انامله	كأنه من عقار قهوة ثمل
فاذهب فأي فتى في الناس احرزه	من حتفه ظلم دعج ولا جبل
اقول لما اتاني الناعيان به :	لا يبعد الرمح ذو النصلين والرجل
رمح لنا كان لم يفلل ننوء به	توقى به الحرب والعزاء والخلل

والابيات صورة حية لما يحس به الآباء حين يجيئهم نعي ابنائهم ، فيها الحزن والاسى وفيها اللوعة المكبوتة كما تتطلب ذلك رجولة العربي وفيها وصف للولد البطل والمقاتل المرهوب والمقدام الذي يدفع عن قومه المكاره والعدوان وهذا المثل من الرثاء ومثله كثير في شعرنا القديم يقدم لنا صورة من حياة العرب الاجتماعية وعلاقاتهم ببعضهم .

واكثر الشعراء لهذا العصر من ضرب الحكمة الخالدة وسوق الموعظة الحسنة في ثنايا قصائدهم او في مقطوعات افردوها لنقل تجاربهم في الحياة وقول المعاني المهذبة وكان شعر الرثاء والشكوى والاحساس بالضيم ، اوسع مجال لمثل هذا اللون من حيث الحديث الهادىء الرزين الذي يدل في بعض مايدل على عمق في الحياة العقلية وذهنية متميزة بالادراك الرصين واستخلاص العبرة من نوائب الدنيا واحداثها . والافوه الاودي وزهير وعدي

ابن زيد العبادي التميمي وعلقمة بن عبدة التميمي وغيرهم اشهر من قال فاحسن القول في هذا المنحى الحيوي الانساني ، يقول عبدة بن الطبيب :

والمرء ساع لامر ليس يدركه والعيش شح واشفاق وتأميل

ومن هذا اللون في ضرب المثل ، وطلب الاعتبار ابيات عدى بن زيد يحكي قصة الزباء وجذيمة الابرش وقصير المطالب بثأره فهو يقول :

دعا بالبقة الامراء يوما جذيمة عصر ينجوهم ثبينا

فطاوع امرهم وعصى قصيرا وكان يقول لو تبع اليقينا
ودست في صحيفتها اليه ليملك بضعها ولان تدينا
فاردته ورغب النفس يردى ويبدى للفتى الحين المبينا
وخبرت العصا الابناء عنه ولم ار مثل فارسها هجينا
وقدمت الاديم لراهشيه والقى قولها كذبا ومينا
ومن حذر الملاوم والمخازى وهن المندبات لمن منينا
اطف لانفه الموسى قصير ليجدعه وكان به ضنينا
فاهواه لمارنه فاضحى طلاب الوتر مجدوعا مشينا
وصادفت امرأ لم تخش منه غوائله ومامنت امينا
فلما ارتد منها ارتد صلبا يجر المال والصدر الضغينا
أتتها العيس تحمل مادهاها وقنع بالمسوح الدارعينا
ودس لها على الانفاق عمرا بشكته وماخشيت كمينا
فجللها قديم الاثر عضبا يصك به الحواجب والجبينا
فاضحت من خزائنها كأن لم تكن زباء حاملة جنينا
وابرزها الحوادث والمنايا واي معمر لا يبتلينا

اذا امهلـن ذا جـد عظيـم عطفـن لـه ولـو فرطـن حينـا
ولـم اجـد الفتـى يلهـو بشيء ولـو اثـرى ولـو ولـد البنينـا

والابيات تقدم مثالا في النفس القصصي لدى الشعراء العراقيين القدامى من حيث الالتزام بالسرد ومتابعة الاحداث وتناولها تناولاً متسلسلا يقـدم قصة الزباء التاريخية تقديما متكاملاً .

والغزل من اوسع الفنون الشعرية ، تحدث فيه الشعراء الغزلـون عن اقاصيص حبهم وساعات غرامهم وذكريات شبابهم وتناولوا المرأة بالوصف من حيث اخلاقها وجمالها وبناء جسدها ملونين ذلك بالحنين والاشواق الجامحة والعواطف الجياشـة ، وشعراء الغـزل كثر بينهم مـن كان عفيف القول صافي الود وبينهم من تناول النواحي المادية في المرأة بعيدا عن روح الحـب الصادق الوفي ومن امثلتهم المرقشان الاكبر والاصغر والمنخل اليشكري وهو من ندامى النعمان بن المنذر ولعل قصيدته الرائية الرائعة من ارق الغزل واحلاه اذ يقول :

ولقـد دخلـت علـى الفتـا ة الخـدر فـي اليـوم المطيـر
الكاعـب الحسـناء .. تـر فـل بالدمقـس وبالحـرير
فـدفعتـها فتدافعـت مشـي القطـاة الـى الغدير
ولثمتهـا فتنفسـت كتنفس الظبـي البهيـر
فدنـت وقالـت : يامنخ ـل ما بجسمـك من حـرور
ما مـس جسـمي غـير حبّـ ـك فاهدئـي عنـي وسيري

والمثال المتقدم شعرذاتي تحدث فيه الشاعر عن بعض حالاته الخاصـة بعيدا عن القبيلة ومهامها والحياة ومشاغلها فجاء حديث اللقاء سهلا مرنا محببا لنفس القارىءولعل هذه السهولة الاسلوبية ذات صلة بفن الغزل الرقيق من جهـة

وبلين حياة المنخل الذي عاش في احضان الحياة اللينة في حيرة النعمان مـن جهة اخرى فسالت اياته بلا التواء وانتظمت بغير ارتباك ولانريد ان نطيل في هذا اللون الشعري لانه حديث طويل قلما اغفله شاعر اذ لا يكاد ديوان احدهم يخلو منه ، وهذه المجموعات الشعرية كالمفضليات والاصمعيات تقدم لنامثـلا كثيرة منه فالمرأة كانت وستظل ملهمة الشاعر وستظل حديثه الحلو الـذي لا ينتهي وهتافه الذي لاينقطع .

واتسع فن الوصف ايما اتساع اذ شمل كل ماوقعت عليه عيونـهم في باديتهم وحاضرتهم فقد تناولوا فيه صحراءهم شمسها ورمالها واخطارهـا ووصفوا خيولهم ونياقهم خلقها وسيرها وصحبتها فهم يشبهونها بالقصور المنيفة تارة وبالسفن تارة اخرى وتحدثوا عن الحيوان ، لونه وصوته واعضاء جسمه كالضباع والوعول والحيات والطيور والتفتوا الى بيئتهم الطبيعية فوصفوا لنا خضرتها واشجارها وامطارها وكثرة مياهها وتغنوا بجمالها ويدخل في هذا الباب نعت المرأة والخمرة ومجالسها ووصف الحروب والاسلحة ولان الوصف يدخل القصيدة مع كل فن : الغزل والحماسة ،والخمريات والرثاء والهجاء والفخر فقد طغى على كل الفنون الاخرى فجاءت في الديوان الشعري لوحات جميلة تحكي جوانب من الحياة العربية ومن خلال هذا الفن نستطيـع أن نجـد الشـعر ممثـلا للجوانـب السـياسية والاجتماعيـة والاقتصادية مـن حيـاة العـرب وهـذا الاسـود بن يعفـر النهشلي وهـو مـن ندامـى النعمان بن المنذر يستعيد ذكرى الشباب ويصف منه جانبا من حياة اللهويوم كان يتردد على الخمارين والسقاة فهو يقول :

ولقـد لهوت وللشباب لـذاذة	بسـلافة مزجـت بمـاء غـوادي
يسـعى بها ذو تومتـين مشـمر	قنـأت انامـلـه من الفرصـاد
والبيض تمشي كالبدور وكالدمـى	ونـواعـم يمشـين بالارفـاد

والبيض يرمين القلوب كأنها ادحي بين صريمة وجماد
ينطقن معروفا وهن نواعم بيض الوجوه رقيقة الاكباد
ينطقن مخفوض الحديث تهامسا فبلغن ماحاولن غير تنادي

والابيات المتقدمة قطعة من قصيدة طويلة وهي صورة حسنة التصوير جميلة التشبيهات واضحه المعاني بلغ فيها الشاعر ماأراد من حديث عن هذا المجلس بخمره وسقاته وقيانه وهو لم يقف عند حدود الصورة الشكلية انما تعداها للحديث عن التهامس وخفت الاصوات .

سمات وخصائص

وصفوة القول : ان من اولى سمات الشعر في الحيرة انه مثل الحياة العربية خير تمثيل اذ تناول الوانها المختلفة فتحدث في شعر المديح والسياسة عن الحكم والحاكمين والقائمين على شؤون الناس كما تناول في شعر الهجاء والنقد بعض المظاهر السلبية في حياة الافراد في عملية نقدية تهدف الى البناء ورسم الصورة الكاملة للشخصية العربية المطلوبة كما ان هذا الشعر قدم صورة للحياة الذاتية ومتطلباتها من خلال الغزل والخمريات واللهو باعتدال بلا افراط وبرزت الحياة العقلية متطورة متقدمة من خلال ماقدمه الشعراء من آراء سديدة وحكم صائبة وامثال منتزعة من صميم الحياة فكانت هذه كلها بمجموعها عامل توجيه وارشاد وتعليم ولعلها في هذا تمثل بدايات شعر الزهد والشعر التعليمي اللذين ازهرا في عصور تالية وكان شعر الحماسة والفخر مصورا للحياة القبلية من جانب ولعلاقات العرب بالمحتلين ، لا سيما الفرس من جانب آخر ، ويعد شعر الاعشى وشعر لقيط بن يعمر الايادي مثالا حيا ومعبرا عن هذه العلاقات وقوة العرب في وجه الطغيان الفارسي وبدايات ثورتهم على هذا الطغيان .

وان من سماته الاخرى : تمام الصياغة الفنية وقدرته على التعبير في تراكيب رائعة توفرت لها عناصر الكمال والجمال من حيث الوفرة في التشبيهات المنتزعة من البيئة وتنوع اضرب الاستعارة كالذي وجدنا امثلتــه في القصائد والمقطوعات التي تقدم ذكرها فقد اولى الشاعر شعره عناية كبيرة اذ كـــان يدقق ويمحص ويتخير في كثير من نصوصه هذا فضلاً عن ضروب المحسنات البديعية طباقا وجناسا مما نمق به عباراته وزينها •

وقد مرت بنا الاشارة الى الروح القصصي الذي انتظم بعض هـــذه القصائد كما في الذي تقدم من شعر عدي بن زيد والمنخل اليشكري،فضلا عن ان الشاعر راوح بين السهولة والرقة مرة والمتانة وشيء من الاغراب البعيد عن التعقيد والمعاضلة مرة اخرى والذي يظهر للباحث في الحياة الجاهلية ان خلاصة الفكر والشعور قبل الاسلام قد مخضت فكان الشعر العربــي في الجاهلية زبدتها وخلاصتها حتى ليستطيع ان يعده اثمن التراث التاريخي الذي خلفته تلك العصور، فقيمة الشعر العظيمة انه الاداة الفنية الناضجة التي استطاع الشعراء عن طريقها التعبير عن معالم حيــاة امتهم باللفظ المنتقــى والــوزن الشعري المتناغم مع الفكرة والمعنى والمحافظة على رسوم القصيدة العربيــة التي تواضــع عليها ارباب الشعــر ، فكــان كمــا قال عمر بن الخطــاب (رضي الله عنه) : « علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه » .

ومما تميز به شعر الحيرة ، وكان من سماته البارزة ، ان بعض الشعراء كأوس بن حجر والنابغة الذبياني ، مال الى العناية بشعره ، واخذه بالتنقيــح والتجويد والتثقيف ، وعدم الاخذ بكل ما يجيء به الخاطر دون مراجعة او معاودة نظر ، فلقد كان هناك حرص على ان يكــون ذلك الشعــر بلفظــه الانيق الجزل وعبارته الناضجة وتنوع معانيه ، وهو اتجاه كانت له آثــاره على الشعراء بعد هذه المرحلة •

ومن ذلك ايضا ، الاهتمام الواضح بالصورة الشعرية وتفصيلها وكشف المعاني من خلال هذا التفصيل كشفا بينا كالذي نجده في قصيدة النابغة التي مدح بها عمرو بن الحارث الغساني ومطلعها :

كليني لهم يا أميمة ناصب   وليل أقاسيه بطيء الكواكب

وما نقرأه في مقدمة داليته التي يمدح بها النعمان بن المنذر ، اذ يقول مصورا قوة ناقته وسرعتها مشبها اياه بثور وحشي قاتل كلب صياد :

كأن رحلي وقد زال النهار بنا   يوم الجليل ، على مستانس وحد
من وحش وجرة ، موشيّ أكارعه   طاوي الحصير ،كسيف الصيقل الفرد
سرت عليه من الجوزاء سارية   تزجي الشمال عليه جامد البرد
فارتاع من صوت كلاّب فبات له   طوع الشوامت من خوف ومن صرد
فبثهنّ عليه واستمر به   صمع الكعوب بريئات من الحرد
وكان ضمران منه حيث يوزعه   طعن المعارك عند المحجر النجد
شكّ الفريصة بالمدى فأنفذها   طعن المبيطر اذ يشفي من العضد
كأنه خارج من جنب صفحته   سفود شرب نسوه عند مفتأد
فظل يعجم اعلى الروق منقبضا   في حالك اللون صدق غير ذي أود

وهكذا يطيل في وصف المعركة التي دارت بين هذا الثور وكلب الصياد المدرب . وهو بعد هذا يتوسع في تفصيل جوانب من نوازع الحيوان وتشبثه بالحياة من خلال التشبيهات الدقيقة التي وشى بها ابياته .

ومن هذه السمات المميزة ان الشاعر الحيري كان يحاول التجديد في المعاني وفي عرضها عرضيا مستوفيا من خلال استلهامه الحياة الحضرية التي عاشتها الحيرة . وذلك واضح في تناول مظاهر الترف ولين العيش ، خاصة ما يتصل بشعر الخمرة الذي يعد عدي بن زيد العبادي فيه رائدا كبيرا شأنه

في ذلك شأن الاعشى وكأن خمريات عدي هذه كانت المثال الذي احتـــذاه الشعراء من بعده كالوليد بن يزيد وابي نواس واخرين . وبذلك كان شعر الخمرة الحيري ذا تأثير كبير على القصيدة الخمرية في عصور لاحقة .

الشعر فى العراق

واشرق نور الاسلام واتجهت رايات التحرير نحو العراق وكان الهتاف الحماسي الذي صاحب حملات التحرير اول صـــوت شعري ينطلق في العراق بعد الاسلام فقد كان الشعراء الفرسان يتحمسون ويحمسون ويرتجزون بعالي الشعر يذكرون به حربهم ضد الفرس المحتلين ، فكان هناك الفخـــر بالشجاعة والانتصار ورثاء الشهداء والاطالـــة في ذكر المغاني الاسلامـــية التي آمن بها المقاتلون اذ كان طبيعيا ان يصور الشعر هذه الملاحم البطوليـــة على صفحته لتبقى خالدة ابد الدهر باخيلتها ومعانيها وبنائها الرصين المتـــين يقول عمرو بن شاس الاسدي في واحد من اناشيد الفخـــار والانتصـــار في القادسية :

جلبنا الخيل مـــن اكنـــاف نيـــق ... الى كسرى فوافقهـــا رعــــــالا
قتلـــنا رستما وبنـــيه قســـــرا ... تثـــير الخيـــل فوقهـــم الهيــــالا
تركننـــا منهـــم حيـــث التقينـــا ... فئامـــاً ما يريـــدون ارتحـــالا
وفـــر البيـــرزان ولـــم يحـــام ... وكان علـــى كتيبتـــه وبـــــالا
ونجـــى الهـــرمزان حـــذار نفـــس ... وركض الخـــيل موصـــلة عجالا

الابيات المتقدمة حديث عن الفوز العظيم وبلاء المقاتلين وهزيمـــة جيش العدو وقتل قادته وفرار من آثر النجاة ويلاحظ ان معظم ماقيل كـــان شـــعر مقطعات قصار فليس الظرف ظرف اطالـــة واطنـــاب وانما هي الابيات التي تتناسب مع الموقف الحربي حماسة وفخرا ، فضلا عن ان الرجز كان هـــو

الايقاع الطاغي والصوت المدوي . وهكذا يتبين لنا ان الشعر في العـراق صاحب حروب التحرير ، وسجل أحداثها وخلد وقائعها ، ولكن في شيء قليل من العناية بالناحية الفنية في ايامها الاولى ، غير ان الشاعر راح يهيء لقصيدته بمرور الايام ، عناصر النضج الفني من حيث بناؤها والتعبير عن خواطر النفس واصالة الشعور كالذي صنعه أعشى همدان في جانب من شعره ، الذي تتبين فيه العناية الكبيرة بمقدمة القصيدة وانسياب المعاني فضلاً عن طول النفس الشعري ، وفي ذلك دليل على تطور هذه القصيدة في هذه المرحلة المتقدمة من حياة العراق في ظل الاسلام .

وتدور الايام وتنتقل الخلافة الاسلامية الى الكوفة في ركـاب الخليفة الراشد الرابع علي بن ابي طالب (رضي الله عنه) وينشغل القوم بالحروب ويظل شعر الحماسة والفخر هو الذي يدور على ألسنة الشعراء ، اذ ضعف الى حد كبير شعر المديح والهجاء والغزل واللهو وذلك يرجع الى زهد القائمـين على امور الدولة بمثل هـذا اللون من الشعر ، ولانهم كانوا لا يرفقون بمن يتناول بشعره المعاني البعيدة عن روح الدين والقيم الفاضلة والفكر الاثير الحميد .

وتتساقط السنون سراعا وتقوم الدولة الاموية في الشام ويتحول العراق الى مركز للمعارضة واصطراع المذاهب السياسية ويبرز الشعر السياسي قويا على ألسنة الكثيرين من الشعراء العراقيين مثـل عمران بن حطان والكميت الاسدي والطرماح بن حكيم ولكن ذلك لا يعني ان شعر المديح الذي يحمل في طياته التأييد للخلفاء والولاة قد خبت ناره اذ كان هناك الاخطل المولود في الحيرة والفرزدق المولود في البصرة واخرون من الشعراء العراقيين يفدون على الخلفاء في دمشق فضلا عن التشجيع الذي لقيه الشـعراء مما ادى الى ازدهار قصيدة المديح والغزل والرثاء والهجاء الضاري ومظاهر اللهو والتعابث .

لقد تجاذبت الشعر في هذه المرحلة تيارات المحافظة والتجديد والتطور . وتمثلت هذه المحافظة بتمسك الشعراء الى حد كبير باصوله وفنونه الاولى ، ولكنه تأثر من ناحية اخرى بالحياة الجديدة ، وما استجد فيها من عوامل سياسية واجتماعية وثقافية . لقد كان شعرا اصيلا وليد بيئته العراقية الصميمة بما كانت عليه من تيارات سياسية واتجاهات وتقاليد وعراقة بالحضارة ولذلك ظل الشعر العراقي محافظا على المقومات القديمة للشعر لغة واساليب وفنونا لأن العراق هو الملاذ الوحيد للعربية واهلها من الجهة الشرقية وعند حدوده من الشرق ، يتغير اللون والوجه واللسان فكل ذلك جعله مدخرا للعروبة بماضيها الجاهلي وحاضرها الاسلامي لان اقل تسامح او تساهل في هذه المقومات الجنسية والقومية يعرض كيانه العربي للانهيار وينذره بغلبة الجوار الاعجمي عليه وكأن الشعر العراقي اصبح استمرارا للشعر الجاهلي اذ حافظ فحول شعرائه على تقاليده ومثله الاصيلة ، كما انه في جانب منه مثّل حياة الرفض والمعارضة من خلال شعر الفخر والهجاء والحماسة اذ كان الشعر السياسي مزدهرا ومؤثرا وكانت شخصية العراق فيه واضحة بارزة على اشد مايكون الوضوح والبروز والتأثير .

كما انه مثل في جانب آخر منه تأييد الدولة والوقوف بقوة الى جانب خلفائها وامرائها ودعا الى الزهد بالحياة والتمسك بالقيم والفضائل التي جاء بها الاسلام والحث على الجهاد في سبيل الله فكان بذلك صفحة تربوية هادفة كالذي نجده في شعر عمران بن حطان والطرماح بن حكيم وغيرهما .

وكان للحياة الحضرية وماشاع فيها من مظاهر اللهو اثر في تصوير الشعر للحياة الاجتماعية بجانبها العابث اللاهي في حدود فكان الشعر العاطفي والذاتي يتسع لتسجيل هذه المظاهر لاسيما في مدينة الكوفة التي كان لقربها من مدينة الحيرة والحجاز اثر في اقتباسها لهذا اللون من الحياة فشاعت مجالس الغناء والشراب والظرف ولم تكن البصرة اقل شأنافيهذا المضمار اذ كثرت فيهامثل

هذه المجالس والمنتديات ، ومن اشهر شعراء الخمرة سحيم بن وثيل وحارثةبن بدر والاقيشر الأسدي الذي يقول :

كميت اذا فضــت وفي الكأس وردة

لهـــا في عظـام الشـاربين دبيـب

وتأثر الشعر الى حد كبير بالحياة العقلية الجديدة ومادتها القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف والافكار والعقائد الاخرى فراح يعتمد في بعض فنونه اسلوب الحجاج والحـوار والمناقشة لاسيما في هاشـميات الكميـت الاسدي وشعر المذاهب الدينية والسياسية ، كما انه مثل جانبا من الحيـاة الاجتماعية القائمة على التهاجي والنقد وكان في طليعة شـعراء هذا الجانب جرير والفرزدق والاخطل الذين كانوا وراء نمو فن النقائض نموا واسعا اذ راح هؤلاء الشعراء يتناظرون في حقائق القبائل ومفاخرهـا ومثالبها وهـي مناظرات كانت تتخذ سوق المربد مسرحا فالشـعراء يذهبون هناك ويذهب اليهم النـاس ويتحلقون من حولهم ليروا من تكون له الغلبـة على زميله او زملائـه .

وكانت هذه النقائض لوناً مميزاً من ألوان المناظرات والجدل الشعري الذي دلل على قدرة في التحاور وطول في النفس . وأنها قدمت لنا شيئاً مـن تاريخ القبائل العربية ، من خلال استلهام شعراء النقائض للتاريخ العربي ، اذ كان الشاعر يأخذ نفسه لمعرفة كل مايتصل بالذين يدافـع عنهم ، وأولئـك الذين يرميهم بسهام نقده . فضلا عن أن هذا الجدل الطويل كان أثراً من آثار استلهام قدرة العقل العربي على الحوار ونقض الحجة بالحجة . وبذلك لـم تكن النقيضة عملا سهلا ، بل كانت انجازا معقدا ، لانها اصبحت لوناً مـن ألوان المناظرة الفنية للفوز برضا الجمهور المتلهف لحضور هذه المواقف في سوق المربد ، وكذلك رضا الممدوحين الذين كانت تساق لهم أطراف من المديح

الذي تتضمنه هذه القصائد • وهذه القدرة على الجدال وتوليد المعنى كان الصفحة الجديدة في سجل الهجاء والنقد الذي تمتد جدوره بعيدا في الزمن العربي الطويل •

وبعض الينابيع من شعراء العراق لهذا العصر كالفرزدق مثلا ، كان مصدرا من مصادر اللغة ، لأن جانبا من اهتماماته في نظم قصيدته كان ينصب على العناية بلغته واختيار الفاظ قصيدته،والاتيان بالكثير من المفردات البعيدة والفصيحة في الوقت نفسه ، وبذلك قدم للغويين مادة غنية ، فكان شعره مصدرا ثرا من مصادرهم ، ومن هنا كان احد الحفظة للغة العربية حتى قالوا عنه : « لولا شعره لذهب ثلث لغة العرب » •

ومن مظاهر الشعر العربي في العراق لهذا العصر وخصائصه ، هذه الروح الاسلامية التي اتسع لها ، فراح يصور الفضيلة الدينية وتقوى الحاكمين ونشر العدل ، ويردد كذلك المعاني الجديدة ترديدا مرنا تطويه هذه المسحة الواضحة القريبة بناء والفاظاً ، كالذي نجده في قول عبدة بن الطبيب يوصي أبناءه :

ونصيحة في الصدر صادرة لكم	مادمت أبصر في الرجال واسمع
أوصيكم بتقى الاله فإنه	يعطي الرغائب من يشاء ويمنع
وبير والدكم وطاعة أمره	إن الأبر من البنين الأطوع
إن الكبير إذا عصاه أهله	ضاقت يداه بأمره ما يصنع

وكان فحول الشعراء العراقيين لهذا خاصة الأخطل ، يعنون بصقل شعرهم وتهذيبه ، واعادة النظر فيه ، متأثرين في ذلك شعراء عراقيين سبقوهم في هذا الاتجاه كأوس وعدي وقد مرت الاشارة اليهما • وحتى الفرزدق ،فانه كان يخضع في بعض انماطه الى تأثير أهل اللغة ، ولذلك كان يقول وهو يعبّر عن معاناته للوصول الى الابداع الفني المطلوب « أنا أشعر الناس ، وربما

أتت عليّ ساعة ، ونزع ضرس أسهل عليّ من قـول بيت » ولعل في هـذا ما يقود الى الاعتقاد الى أن شعر الفحول قد توجه توجها محافظا من حيث انتقاء الألفاظ الرصينة والعبارة العذبة . ومن هنا عظم اهتمام اللغويين بشعر الفرزدق وذي الرمة والرجاز وفي مقدمتهم رؤبة بن العجاج .

كان قيام الدولة العباسية ايذانا بانتقال الادب العربي شعره ونثره نقلة واسعة واصبحت بغداد عاصمة الحكم مركزا ثقافيا لايضاهى اذ تحولت اليها ضروب العلم والمعرفة من مدينتي الكوفة والبصرة فورثت بغداد عن هذيـن المركزين الرئيسين من مراكز الحضارة العراقية مافيهما من فلسفة وعلم كـلام وتأليف في امور اللغة والنحو والادب ثم زادت على ذلك الكثير الكثير من جديدها بعد ان غدت مركز الاشعاع الحضاري ثم صارت بعد زمن قصير مقر الفحول من اللغويين والنحاة والشعراء والنثار من المقيمين فيها والوافدين عليها من الامصار العربية كالشام والجزيرة . وكان استقرار الحكم في بغداد وثبات اركان الدولة وتقريب الخلفاء للعلماء والمؤدبين والشعراء والكتاب هو العامل الاساس في ازدهار فنون القول في بغداد وتقدمها على غيرها من المدن العربية كالبصرة والكوفة اللتين كانتا ملتقى المتكلمين واصحاب الرأى واهل اللغـة والادب ومنتدى الشعراء قبل قيام الدولة الجديدة سواء في ذلك ماكان يدور في هذه المدن ام في الاسواق الادبية القريبة كسوق المربد في جنوبي غربـي البصرة ، وهكذا بدأنا نشهد حركة أدبية نشيطة ، واقبالا كبيرا على العناية بضروب المعرفة حفظا ودرسا وتأليفا .

جمع الشعر :

لقد كان من مظاهر الازدهار الأدبي في العراق ، هذا العدد الكبير مـن الرواة والاخباريين واللغويين والأدباء ، الذين حفظوا تراث الأمة ورووا الشعر وتناقلوه ، ودونوا ماتلقفته آذانهم في مجالس العلماء والأدباء ، أو قرأوه في بطون الدفاتر والمخطوطات . وهكذا خلفوا لنا هذه المجاميع النفيسة مـن

الشعر ، التي اصبحت فيما بعد مصادر لكل المهتمين بهذا الفن الرفيع على مر العصور • وكان عملهم في هذا الشأن مجيدا وعظيما إذ حفظوا لنا نتاج القرائح العربية قبل الاسلام وبعده • ويعد المفضل الضبي ١٧٨هـ إمام المتقدمين في اختيار عيون الشعر القديم ، وبعده كانت اختيارات ابي سعيد عبدالملك بن قريب الاصمعي ٢١٦ هـ المعروفة بالاصمعيات • وبعده جمهرة أشعار العرب لابي زيد محمد بن أبي الخطاب •

ولون آخر من الاختيارات الشعرية عرف بالحماسات ، وكان أبو تمام الطائي الرائد في هذا المجال ، اذ خلف لنا مجموعته النفيسة التي اطلق عليها أسم الحماسة وقد ضمت أبواباً مختلفة ، وعلى غرار ماصنع أبو تمام صنع آخرون من حفظة الشعر ورواته فخلفوا لنا حماساتهم ومنها :

١ ــ حماسة ابي عبادة البحتري ٢٨٤هـ وحماسة الخالديين وهما من شعراء سيف الدولة الحمداني ، وحماسة ابي هلال العسكري ٣٩٥هـ وحماسة الاعلم الشنتمري ٤٧٦هـ والحماسة الشجرية لابي السعادات الشجري ٥٤٢هـ ، وحماسة شميم الحلي ٦٥٣هـ • هذا الى جانب مصادر عظيمة اخرى للشعر في مختلف أيامه كأغاني ابي الفرج وديوان المعاني للعسكري والشعر والشعراء لابن قتيبة والأوراق للصولي ومعجم الشعراء للمرزباني •• والى جانب هؤلاء ، كان آخرون يعنون بجمع الشعر المعاصر لهم ، وكان من أولى هذه المجموعات كتاب « البارع في أخبار الشعراء المولدين » لهارون بن علي المنجم البغدادي ٢٨٨هـ وهو مفقود • وقد أرخ فيه لشعراء القرن الثالث الهجري • ثم جاء الثعالبي ٤٢٩ هـ فأرخ في يتيمة الدهر لشعراء المئة الهجرية الرابعة • ثم جاء الباخرزي ٤٦٧ هـ فخص كتابه « دمية القصر » بشعراء القرن الخامس ، وبعده كان « وشاح الدمية » لابي الحسن البيهقي

٥٦٥ هـ ، ثـم زينة الدهـر لابي المعالـي الانصاري ٥٦٨ هـ ، وأرخ العماد الاصفهـاني ٥٩٥ هـ في خريدته لشعراء المئـة السادسـة ، ثم أخـرج أبو البركات الموصلي ٦٥٤ هـ اختياراته المعروفة بـ « عقد الجمـان » هذا الى جانب كتب عامة أخرى تتصل من جهة وأخرى بهذا العمل الرفيع .

وتوالى هذا المنحى الكبير من اجل حفظ الشعر العربي من الضياع حتى بعد سقوط الدولة العباسية .

لقد اجتمع للعـراق الخالد جمـال الطبيعة والموروث العقلي والادبي وطاقات مبدعة في كل علم وفن فضلا عن السعة في المادة والثراء وادت الحياة الجديدة الى تطور واسع في فنون الشعر والنثر نوعا ولغة واساليب عرض من غير ان يؤدى ذلك الى انحسار الاتجاه المحافظ الذي ساد الوسط الشعري من حيث بناء القصيدة ومتانة اللغة ويمكن بيان اتجاهات الشعر لهذه المرحلة على الوجـه الآتـي :

اولا ــ الاتجاه الشعري العـام

ويتمثل بتجدد القديم ، وتلونه بألوان الحضارة الجديدة ، واستيعابه للحياة المتغيرة في ظل المجتمع الجديد ، ويتمثل هـذا الاتجاه بمجموعة مـن الفنون الشعرية التي يكاد يشترك فيها الكثيرون من الشعراء يعبرون مـن خلالها عن ذواتهم ومعاناتهم وعواطفهم وعلاقاتهم بالمجتمع والبيئة وصدى هذه البيئة في نفوسهم وما تجيش به من جميل القول ورائع الفن ورقيق الشعور ، وكان الوصف : وهو من اوسع الاغراض الشعرية وأقدمها فكثيرا ماطالعنـا وصف الاطلال والاثار في اوائل القصائد الشعرية وطالما وجدنا الشاعر يعني بوصف رحلته وحال رفاقه ووصف الصحراء ومجاهلها واحوالها وقد حافظ الكثيرون من الشعراء على هذا النهج غير ان الحياة العربية الجديدة جعلتهم يكثرون من وصف القصور والبرك والطبيعة الحية والصامتة كالشجر والمطـر

والرياح فضلا عن وصف الالبسة والاطعمة ومظاهر الترف الاخرى • وبرز شعراء عراقيون كبار في هذا الفن يقف في طليعتهم ابن المعتز وابن الرومي وعلي ابن الجهم الذي وصف احد قصور المتوكل في سامراء وما فيه من فن وعمارة وزخارف ونقوش وعظمة قبابه وانطلاق نافورته فهو يقول :

صحون تسافر فيهـا العيـون — وتحسـر عـن بعـد اقطارهـا
وقبـة ملـك كـأن النجـو — م تفـضي اليهـا باسرارهـا
لهـا شرفـات كـأن الربيـع — كساهـا الرياض بانوارهـا
نظمـن الفسيفس نظـم الحلى — لعـون النسـاء وابكارهـا
وفـوارة ثأرهـا فـي السـماء — فليسـت تقصـر عـن ثارهـا
تـرد علـى المـزن ما انزلـت — على الارض من صوب مدرارها

ويظل الغزل فن العواطف الانسانية الخالدة اذ تغنى به الشـعراء على امتداد عمر الزمن ولا يكاد يخلو منه ديوان شاعر غير انه اصاب في بغداد حظا كبيرا من الشيوع والسعة وكان منه تيار الغزل المادي الصريح الذي نقـرأ امثلته في شعر بشار وابي نواس ومطيع بن اياس وتيار ثان هو الغزل العذري العفيف الذي عاش شعراؤه في طهر ونقاء بعيدين عـن المادية الحسية ومـن شعرائه علي بن آدم والمؤمل بن جميل والعباس بن الاحنف الذي كان اشهر شاعر عذري في العصر العباسي • وقد تميز غزلـه بالطبع والظرف وعذوبة المعاني ولطف الالفاظ والسهولة الممتنعة من ذلك قوله :

أزيـن نسـاء العالمين اجيبـي — دعـاء مشوق بالعـراق غريب
كتبت كتابـي ما اقيـم حروفه — لشـدة اعوالي وطـول نحيبي
اخـط وامحـو ما كتبت بعبرة — تسح على القرطاس سح غروب
ايـا فوز لو ابصرتني ماعرفتني — لطـول نحولي بعدكم وشحوبي

وانت مـــن الدنيا نصيبي فان امت فليتـــك من حور الجنان نصيبي
ساحفظ ماقد كان بيني وبينكم وارعاكم فـــي مشهدى ومغيبي
وكنتـــم تزينون العراق فشانـــه ترحلكـــم عنـــه وذاك مذيبـــي

وادى تسلل العناصر الاجنبية الى المجتمع العربي الى ظهور تيار الغزل بالذكر وهو تيار طارىء ضيق الحدود خدش حياء المجتمع وكدر صفاءه ومن هنا عافته النفوس الكبيرة ولم يقل فيه شاعر عربي اصيل •

وظلت فنون الشعر الاخرى كالرثاء والخمريات والهجاء والفخر تدور على ألسنة الشعراء وتتفاوت في قوتها وتأثيرها واتساعها حســب الظروف ، والمؤثرات العامة وبرز فيها شعراء كثيرون كأبي تمام وابن الرومي والشريف الرضي الذين خلفوا لنا امثلة في الرثاء الصادق الاصيل وكأبي نواس والحسين ابن الضحاك واضرابهما ممن مالوا الى حياة المجون والتعابث واللهو وكأبـــن الرومي وعلي بن بسام وغيرهما في فن الهجـــاء وكالمتنبي والشريف الرضي والطغرائي الذين اعلوا صوت الفخر وكانوا ابرع المنشدين فيه •

ثانيا ــ الاتجاه الاجتماعي

ويمثل هذا الاتجاه مجموعة من المظاهر الاجتماعية تتفاوت بين القـــوة والضعف وسعة الافق وضيقه وكان لها اثارها في نفوس الشعراء وكان ابرزها شعر الزهد والتصوف ، وتعود البدايات الاولى لهذا الاتجاه الشـــعري الى عصر ما قبل الاسلام اذ اننا نقرأ في شعر عدي بن زيـــد اطرافاً منه وتتضح بعدئذ العناصر الاسلامية في هذا اللون الشعري لدى الطرماح بن حكيم وبذلك يكون العراق هو الاقليم الذي نشأ فيه هذا التيار ثم انتشرت موجاته ، ومع مرور الايام ظل تيار الحياة الجادة الوقور قويا مؤثرا اذ كان هناك الكثيرون ممن اتجهوا في حياتهم لخدمة الدين الاسلامي وذم المغريات الدنيوية والدعوة الى القناعة والرضا بالذي في اليد وقد تظافرت لهذا التيار الاجتماعي العوامل

الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية فادت الى اتساع اطار هذا الاتجاه الذي كان له ابعد الاثر في الشعر وزاد عدد شعرائه كأبي العتاهية ومحمود الوراق والحلاج وابي بكر الشبلي • ودار الحديث الزهدي بحس مرهف وروح صافية وعاطفة صادقة •

ويعد ابو العتاهية : واسمه اسماعيل بن القاسم من أقدر شعراء هذا الاتجاه وابرزهم ، ومن هنا نجده يوجه معظم شعره الى الدعوة الى الايمان وتقوى الله ولعل استعداده الفطري للزهد يفوق في قوته عوامل اخرى كثيرة وقد كان الانسان والحياة والموت مدار شعره الزهدي الذي لم يخل من نبرة تعليمية واذا كان ابو العتاهية قد قال الشعر في اغراضه المختلفة ، فانه في مرحلته هذه وقف شعره على الجانب الزهدي الذي عد من اجله الشاعر الديني الاول وربما قامت شهرته الشعرية من هذا الطريق فلقد طغت دعوته للقناعة والصلاح على كل حديث وها هو يصور لنا حياة الزهد الحقيقية في هذه الابيات الرقيقة العذبة فيقول :

رغيف خبز يابس   تأكله في زاويه
وكوز ماء بارد   تشربه من صافيه
وغرفة ضيقة   نفسك فيها خاليه
او مسجد بمعزل   عن الورى في ناحيه
خير من الساعات في   ظل القصور العاليه

ولقد كان للقرآن الكريم ابعد الاثر في قوة هذه النزعة لدى الشاعر حتى لنجده يقتبس الكثير من معانيه ويضمنها شعره الزهدي فضلا عن معاني الحكمة التي بثها بين ثنايا قصائده ومقطوعاته •

واذا كان شعر الزهد قريبا الى النفس مفهوما في معناه ولفظه ، فان القارىء للشعر الصوفي يسيح في خيال بعيد واجواء من الرمزية والغموض وقد بلغ هذا الشعر مستوى رفيعا من النضج كان من ملامحه ارتباطه بفلسفة معينة وفكر ومنهج في الحياة يقوم على فكرة العشق الالهي والفناء في الذات الالهية وان المتصوفة اولياء الله ، تقول رابعة العدوية البصرية :

يا طبيب القلب يا كل المنى جد بوصل منك يشفي مهجتي

ياسروري وحياتي دائما نشأتي منك وايضا نشوتي

قد هجرت الخلق جمعاً ارتجي منك وصلا فهو اقصى منيتي

والى جانب هذا التيار الجاد الرصين كان هنالك تيار اللهو والهزل : وقد سلك في هذا التيار المنحرف جماعة من الشعراء بينهم والبة بن الحباب وابو نواس ومطيع بن اياس وابان اللاحقي واخرون ممن اسرفوا في الخمريات والغزل المادي والاقبال على مصادر اللهو العابث من طرب وغناء ومجالس انس ساعدت عليها ظروف المجتمع الجديد ، فضلا عن نفر من الشعراء الذين اتخذوا الشعر الهزلي وسيلة للفكاهة والتندر والهجاء الساخر ، واعلام هذا اللون ابن الحجاج وابن سكرة وابن الهبارية ويبدو ان الفقر والضياع يكمنان وراء بروز هذه الظاهرة واتساعها .

ثالثا ـ الاتجاه العلمي والتعليمي

ويمثل هذا الاتجاه استجابة الشعر لدواعي التطور العلمي والثقافي وذلك مادفع الى نظم العلوم والمعارف باسلوب شعري تسهيلا لحفظها وتداولها وكان ظهور هذا الاتجاه اثرا من آثار الحياة العقلية المزدهرة ، وفي نشأته دلالة على تحضر المجتمع واتجاهه نحو الاهتمام بالعلوم بكل اضرابها واذا جاز لنا ان نعد الشعر الحكمي ضربا اوليا من الشعر التعليمي الموجه فذلك يعني ان ظهور البدايات الاولى له قديمة وعربية الاصول .

وقد سجلت مناهج هذا الاتجاه المسائل التاريخية كالذي فعله علي ابن الجهم وابن المعتز والامور السياسية ونظم الحكايات التعليمية كالذي فعله ابن الهبارية فضلا عن نظم قواعد النحو وعلوم الكيمياء والمذاهب الفلسفية والدينية ، يقول ابن المعتز العباسي (٢٩٦ هـ) في مزدوجة طويلة بعثها الى الخليفة المعتمد بالله سجل فيها بعد ذكر الله وحمده وبعثه الرسول الصادق الامين جانبا من الحياة السياسية المضطربة مشيرا الى عبث الخارجين على الدولة حتى ولي ملك الدولة امام عادل مد حبل الامن وسار في الناس السيرة المحمودة :

باسم الاله الملك الرحمن	ذي العز والقدرة والسلطان
الحمد لله على آلائه	احمده والحمد من نعمائه
ابدع خلقا لم يكن فكانا	واظهر الحجة والبيانا
وارسل الرسل بحق ساطع	قاهر كل باطل وقامع
وجعل الخاتم للنبوه	احمد ذا الشفاعة المرجوه
الصادق المهذب المطهرا	صلى عليه ربنا فأكثرا
مضى وابقى لبني العباس	ميراث ملك ثابت الاساس
هذا كتاب سير الامام	مهذبا من جوهر الكلام
اعني ابا العباس خير الخلق	للملك قول عالم بالحق
قام بامر الملك لما ضاعا	وكان نهبا في الورى مشاعا

وواضح ان هذا اللون من الشعر يفتقر الى المقومات الفنية كالخيال والصورة والعاطفة فهو ليس فنا مؤثرا ولا شعرا خالدا .

رابعا ــ الاتجاه السياسي

تتبين البدايات الاولى لهذا الاتجاه في شعر الاعشى الذي جرد من شعره

سلاحا للتعريض بالملك الكسروي وتهديده والخروج على طاعته ، ثم كــان مجيء الاسلام واتخاذ الشعراء المسلمين والمشركين للشعر وسيلة اعلامية ينال كل طرف من الطرف الثاني ويتوعده ويزرى به فاذا كان العصــر الامــوي استعرت نيران الاحزاب والمذاهب السياسية ممثلة بالشعراء المدافعين عــن الخلافة الاموية وبشعراء الخوارج والمعارضة العلوية فقد كان لكل شعراؤه المدافعون عنه الرادون على اعدائه ويبرز هنا شعراء كثر كالكميت بن زيــد وعمران بن حطان والطرماح بن حكيم والاخطل التغلبي •

وتدور الايام ويحتدم الصراع العلوي ــ العباسي حول الخلافة ويظهر شعراء السياسة كثرة ممثلين بمروان بن ابي حفصة ومنصور النمري وابــن المعتز ودعبل الخزاعي وآخرين فضلا عن الشعر الــذي أيّد بــه اصــحابه الثورات السياسية هنا وهناك •

واذا كانت الحالة السياسية الداخلية قد لونتها معارضة اصحاب المذاهب المناهضــة للدولــة فــان الحالــــة السياســـية الخارجيـــة كانــت تتلون بالتوتر مع البيزنطيين شمال الدولــة فكثيرا ماكان هــؤلاء ينقضون العهود ويعتدون على الحدود الشمالية فيتصدى لهم العباسيون ويضــربون على ايديهم بحزم ويسوقون لهم الحملات العسكرية الرادعة وكان عهد الرشيد وعهد ابنه المعتصم من اشد العهود صراعا عسكريا مع هؤلاء وكان على الشعر أن يصور هذا اللون السيـ ـي من احوال الدولة وذلك مانقرؤه في شــــعر مروان بن ابي حفصة يتحدث عن انتصارات الرشيد وفي شعر ابي تمام يتغنى بالانتصارات القومية ــ الاسلامية على البيزنطيين ايــام المعتصم واشــهر شعره في هذا المجال بائيته التي تعد بحق من اصدق الشعر السياسي والحربي لما صور وابدع واجاد واحسن ولانها القصيدة الرائعة التي جسدت هــــذا الانتصار العظيم وخلدته من خلال لغتها الصافية وبنائها الرصين واستقرائها

لاحداث التاريخ العربي ، الاسلامي ودقة تصوير الفوز العربي الاسلامي الكبير على اعدائهم . من ذلك قوله :

فتح الفتوح تعالى ان يحيط به	نظم من الشعر او نثر من الخطب
فتح تفتح ابواب السماء له	وتبرز الارض في اثوابها القشب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت	منك المنى حفلا معسولة الحلب
ابقيت جد بني الاسلام في صعد	والمشركين ودار الشرك في صبب
خليفة الله جازى الله سعيك عن	جرثومة الدين والاسلام والحسب
ان كان بين صروف الدهر من رحم	موصولة او ذمام غير منقضب
فبين ايامك اللاتي نصرت بها	وبين ايام بدر اقرب النسب
ابقت بني الاصفر المراض كاسمهم	صفر الوجوه وجلت اوجه العرب

خامسا ـ الاتجاه الفكري

كانت المناهج الفلسفية واراء المعتزلة واهل الكلام والمنطق اتجاها سلك فيه الشعراء لاسيما قادة هذه المناهج ممن كان شاعرا ، فتحدثوا عن المسائل الدينية والروحية والعقيدة الاسلامية باساليب تتميز بالجدل العقلي والمنطقي وكان لهذا الاتجاه اثره في استقطاب مجموعة من الشعراء الملتزمين واخرين سقطت في ثنايا شعرهم مصطلحات فلسفية والفاظ رددها المعتزلة وغيرهم وكأنها صارت خاصة بهم ويذكر في هذا الاتجاه كثيرون كالنظام وبشر بن المعتمر وابن شبل وابي بكر الشبلي وصفوان الانصاري ، يقول بشر في الفلسفة الطبيعية والخلق والعقل :

لو فكّر العاقل في نفسه	مدة هذا الخلق في العمر
لم يَرَ إلاّ عجبا شاملا	او حجة تنقش في الصخر
فكم ترى في الخلق من آية	خفية الجسمان في قمر

ابرزهـا الفكر على فكـرة	يحار فيهـا وضح الفجـر
للـه در العقـل مـن رائد	وصاحب في العسر واليسـر
وحاكم يقضـي على غائـب	قضـية الشـاهد للامـر

وواضح ان هذا الاتجاه جديد في الشعر العربي ادى اليه تعقد الحياة الفكرية وتشعب مناحيها وتنوعها واحتدام الجدل بين اصحاب المذاهب المختلفة جدلا عقليا ومنطقيا في الديانات وإن كان المعتزلة اختصوا بالعقيدة الاسلامية يدافعون عنها أمام اصحاب الديانات الاخرى واهل الملل والنحل التي تختلف واياهم فظلوا يكافحون كفاحا عقليا فلسفيا مَنْ لا يؤمنون بمبادئهم وقـد اتسع تأثيرهم ايما اتساع حتى لنجدهم يوقعون تحـت سلطانهـم المأمون والمعتصم والواثق وقد اتخذوا من المناظرة النثرية والجدل الشعري سلاحا ينافحون فيه عن عقيدتهم ويردون على خصومهم ويجادلونهم في افكارهـم يقول صفوان الانصاري مخاطبا بشار بن برد :

زعمت بان النار اكـرم عنصـرا	وفي الارض تحيا بالحجارة والزند
وتخلـق في ارحامهـا وارومهـا	اعاجيب لا تحصى بخط ولا عقد
وفي القعر في لج البحار منافـع	من اللؤلؤ المكنون والعنبر الورد

سادسا ـ الاتجاه القومي

يمثل جانب من شعر الاعشى ولقيط بن يعمر الايادي بدايات هـذا الاتجاه في عصر ماقبل الاسلام ثم جاء شعر حرب القادسية ليمثل نفحات من هذا الاتجاه في ظل الاسلام ، وتنهض الامة العربية لتقيم دولتها الكبيرة بعد حروب التحرير والفتح ويقوم حكم عربي يستنير بالشريعة الاسلامية السمحاء ويجيء عصر بني العباس لترتفع بعض الرؤوس الاجنبية مشاركة في سياسـة الدولة مستغلة تسامح الخلفاء وفسح المجال الرحب امام الجميع تطبيقا لمبدأ

العدل والمساواة ثم يتطور الامر بعدئذ الى محاولات لئيمة للنيل من مكـارم العرب وفضائلهم والتآمر على ملكهم ومحاولة التخلص من قادتهم ، غير أن الروح العربي يبقى قويا في مواجهة هذه المحاولات الشعوبية الحاقدة ممثـلا بشخصيات عربية من القادة والولاة والشعراء الذين استخدموا قصيدهـم وسيلة اعلامية للتنبيه والرد والدعوة لحماية السيادة العربية وحض العباسيين على اصطناع العرب والاعتماد عليهم كما في قول يزيد بن محمد المهلبي :

لما اعتقدتم اناسـا لاحفاظ لهـم ... ضعتم وضيعتم من كـان يعتقد

ولو جعلتم على الاحرار نعمتكم ... حمتكم الـذادة المنسوبة الحشد

قوم هم الاصل والاسماء تجمعكم ... والديـن والمجد والارحام والبلد

اذا قريش ارادت شـد ملكهـم ... بغير قحطان لم يبـرح بـه اود

ويتضح التطلع القومي في شعر المتنبي اذ كان ذلك عاملا رئيسا فـي ثورته على كثير من مظاهر الحياة السياسية في عصره من ذلك قوله :

وانما النـاس بالملـوك ومـا ... تفلح عـرب ملوكهـا عجـم

وتستفز الحروب الصليبية ابا المظفر الابيوردي (ـ٥٠٧هـ/١١١٣م) ويجد في ذلك ضيما يحيق بالعرب وعدوانا يصب على المسلمين فتثور في نفسه النخوة القومية والحمية العربية فيقول :

مزجنا دمـاء بالدموع السواجم ... فلـم نبق الا عرضـة للمراجم

وشر سلاح المرء دمـع يفيضـه ... اذا الحرب شبت نارها بالصوارم

وكيف تنام العين ملء جفونهـا ... على هبوات ايقظت كـل نائـم

واخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ... ظهور المذاكي او بطون القشاعم

ارى امتي لا يشرعون الى العدا ... رماحهم والدين واهي الدعائـم

يسومهم الروم الهـوان وانتم ... تجرون ذيل الخفض فعل المسالم

وهكذا ظل شعر البطولة والفروسية عالي الصوت حماسي الهتاف على امتداد العصر لان الدولة ظلت في حرب مع اعدائها المتربصين الساعين للنيل من استقلالها وسيادتها .

سابعا ـ الاتجاه الشعبي

وقد توجه اصحاب هذا الاتجاه من الشعراء باشعارهم الى الحديث عن هموم الطبقات الشعبية الفقيرة ومأساتها في الرزق وسوء معيشتها بلغة سهلة وباسلوب شعبي يقرب احيانا الى العامية لولا التزامه بقواعد الاعراب ويمثل هذا الاتجاه بلا ريب لونا من الوان المعارضة الشعبية للحكم من غير تصريح او مواجهة لانه لا يملك قوة المواجهة ولذلك سلك فيه اصحابه طريق الشكوى والسخرية وذم الزمان وهذا الاتجاه الشعري يمثل طرف المعادلة الشعرية الثاني الذي توجه به اصحابه الى دواوين الخلفاء واعتاب الامراء واهل السلطة مدحا وثناء ومؤانسة . وشعراء هذا الاتجاه كثيرون كثرة مفرطة لها دلالتها الاجتماعية والواقعية منهم ابو الشمقمق وابو العبر وابو فرعون الساسي الذي يقول في ابيات يتحدث فيها عن فقره وحاجته :

ليس اغلاقي لبابي ان لي فيه ما اخشى عليه السرقا
انما اغلقه كي لا يرى سوء حالي من يجوب الطرقا
منزل اوطنه الفقر فلو دخل السارق فيه سرقا
لا تراني كاذباً في وصفه لو تراه قلت لي : قد صدقا

فهذه الشعبية تلوح لنا اذن من خلال نوعية الغرض الشعري وما يعبر فيه عن احاسيس العامة ومشاعرهم من خلال تصوير الواقع المتعب والحالة المتدنية بلغة تلتقط اللفظ السهل اليسير بعيدا عن المفاصحة وطلب زخرف الكلام والصياغة البديعية والتزويق الفني لان الشاعر يهدف اول ما يهدف

الى تصريف همومه والتنفيس عن آلامه وحرمانه وتصوير أنمـاط العامـة ونوادرها وفكاهتها وحديث الغمز واللمز بين اوساطها •

لغة الشعر :

اعتمدت لغة الشعر في العصور العربية الاولى الفاظا متينة رصـينة قوية الرنين اذ كان قدامى الشعراء يصطفون هذه اللغة لانها لغتهم واداة التعبير في بيئتهم ولكن ذلك لا يعني ان الصياغة الشعرية كانت واحدة لدى الشعراء جميعاً وفي كل الفنون الشعرية على اختلافها فلفن المديـح لغتـه وللزهـد الفاظه وللخمريات صياغتها وللغزل عواطفه وبناؤه السهل وهكذا فيكاد يكون لكل غرض شعري لغته ولكل شاعر اسلوبه الخاص المتميـز ، كما كان بين الشعراء الجاهليين ، كعدي بن زيد والمنخل اليشكرى من بدا اسهل وارق من كثير من شعراء العصرين الاموي والعباسي كرؤبة بن العجاج والفرزدق وذى الرمة وبشار بن برد والمتنبي وغيرهم ممن نعثر على كثـير من الالفاظ الصعبة الغريبة في شعرهم •

وحين تطورت الحياة الاجتماعية وازدهرت الحياة العقلية وشاعت مظاهر الترف والنعومة تغير الاحساس بالالفاظ ومال الناس الى السهل والرقيق منها ونفروا من الصعب والغريب عن استعمالهم وبيئتهم وقد غلبت السهولة على لغة الشعراء العباسيين وبرزت ظاهرة فنية تميز اسلوبهم وتعابيرهم لاسيما في شعر الغزل والخمرية والشعر التعليمي والزهدى وربما بالغـوا في طلـب السهولة امعانا في الاتجاه الشعبي فاستعملوا بعض المفردات اليومية القريبة مـن العاميـة •

هذا فضلا عن شيوع استعمال مجموعة ضخمة من الالفاظ الدينيـة التي اشاعها القرآن الكريم والدين الاسلامي ومجموعة اخرى من المفردات التي يمكن ان يقال عنها انها علمية ومذهبية وفكرية بسبب اتخاذ الشـعر

وسيلة للتعليم وبث الافكار المختلفة الى جانب دخول بعض المفردات غير العربية بفعل العناصر الاجنبية التي خالطت المجتمع العربي •

ولكن فنونا شعرية معينة ظلت تتطلب قوة في الاداء ومتانة في الصياغة وانتقاء لجزل اللفظ لاسيما لدى شعراء مدرسة الادب الرفيع ممن تعالوا عن هذه السهولة المفرطة وبعدوا عن هذه الشعبية في التعبير لاسيما في شعر المديح والحماسة والفخر والسياسة وكل ما يمثل النفوس في طموحها وتعاليها كما يتضح ذلك في شعر ابي تمام والمتنبي والشريف الرضى والطغرائي بل نجد ان بعضهم يتعمد الاغراب ويقتنص اللفظ المعجمي كما كان يفعل الحيص بيص •

وليس من شك في ان طلب الالوان البديعية الذي شاع لدى اصحاب الصنعة الشعرية كان عاملا مؤثرا في اختيار بعض الالفاظ التي توفر للشاعر مايريده من جناس وطباق وتورية ومحسنات بديعية لفظية كانت ام معنوية كما شاع ذلك في شعر مسلم بن الوليد وابن المعتز والسرى الرفاء والخالديين وغيرهم •

معاني الشعر

وكان من نتاج الحياة الجديدة في هذا العصر ، ان احدث الشعراء تطورا كبيرا في افكار الشعر ومعانيه • وقد كانت الحضارة الجديدة ، وعقلياتهم الواسعة ، وثقافاتهم المتعددة الجوانب وانغماسهم في تيار الحياة ، وعمق تجاربهم ، وراء هذه الحركة الواسعة من التجديد والابتكار والتوليد الذي أصابته معاني الشعر • وقد تجلت هذه النقلة الواسعة في الافكار والمعاني بشكل واضح لدى عباقرة الشعراء وعظمائهم كبشار بن برد وأبي تمام وابن الرومي والمتنبي ، اذ تعمقت علومهم العقلية ، وكانت لهم مناهجهم ومذاهبهم في الحياة • فلقد نزع هؤلاء المبدعون الى التزود بألوان الثقافات والمعارف ،

ومن ثم راحوا يردون ما أخذوه واستوعبوه من هذه الثقافات أفكارا دقيقة، ومعاني يتسع فيها التعليل والابداع والمقايسة • يقول أبو تمام الطائي :

وإذا أراد اللـــه نشـــر فضيلـــة طويت أتـــاح لها لســـان حســـود

لـــولا اشتعال النـــار فيما جاورت ما كان يعـــرف طيـــب عرف العود

وكان ابن الرومي من الشعراء المبرزين في هذا الميدان ، اذ كان شاعرا دقيق الفكر ، عميق الغور ، غواصا على المعاني ، ذا عقلية خصبة قادرة على الابتداع والاستنباط وتشعيب المعنى الواحد وتفصيله • وكان كلفه بالتعليل من نتاج ثقافته الفكرية الواسعة • ومن هذه الألوان البديعة تعليله المنطقي لحب الأوطان اذ قال :

وحبّب أوطـــان الرجـــال إليهـــم مآرب قضاهـــا الشـــباب هنالكـــا

إذا ذكـــروا أوطانهـــم ذكّرتهـــم عهود الصـــبا فيهـــا فحنـــوا لذلكا

فقـــد ألفتـــه النفس حتى كأنـــه لهـــا جســـد إن بان غـــودر هالكا

وكان شاعر العراق والعرب ، المتنبي العظيم من أقدر الشعراء في عصره على الأتيان بالمعاني الجديدة ، واستخراج المعاني والافكار المبتدعة ، وليس ذلك غريبا على شاعر تعمقته ثقافـــة عصره بكل جوانبها ومعطياتها اللغويـــة والفلسفية فضلا عن فكر خصب وعقلية نافذة وقدرة ذاتية مجلية • ومن بديع أفكاره وجديدها قوله :

وما الموت إلا سارق دقّ شخصه يصول بلا كف ويسعى بلا رجل

ومن دقة معانيه وصوره :

ويوم كليـــل العاشقين كمنتـــه أراقب فيـــه الشمس أيان تغرب

وعينـــي إلى أذني أغرّ كأنـــه من الليل باق بين عينيـــه كوكب

وهذا الذي تقدم من امثلة لا يكفي للتدليل على ما سقناه من حديث عن قدرة الشعراء في مجال التوليد والاختراع ، فذلك مالايمكن الاحاطة به نظرا لاتساع الدائرة التي خاص فيها الشعراء العراقيون المبدعون الذين انتهت ليهم العبقرية الشعرية ، فتركوا لنا هذه الثروة النفيسة من النتاج الفكري الخالد الذي سيظل على الايام المدد الذي يستقي منه السائرون في طريق الشعر العربي في كل اقطاره فلقد ظل العراق على مدى قرون طويلة المنهل العذب لكل طلاب المعرفة والثقافة في كل الوانها .

العروض والقوافي

ليس من شك في أن العرب كانوا يعرفون الأوزان الشعرية وطبيعتها وما بينها من اختلافات ، ولكنهم لم يكونوا يسمونها بهذه الاسماء التي سميت بها بعدئذ في هذا العصر ، كما انهم لم يعنوا بدراسة البحور الشعرية دراسة محددة مقننة قبل الخيل بن أحمد الفراهيدي الذي اخترع علم العروض وابتدعه من غير سابقة سبقته . فسجل بذلك للعراق ريادة جديدة تضاف الى جملة كبيرة من الابتكارات في مجالات اللغة والأدب والعلوم التي كان موطنها العراق . فهذا العالم العظيم بنى العروض على خمس دوائر ، واستخرج من هذه الدوائر خمسة عشر وزناً اسماها بحورا . وبعد أن تمّ له ذلك أدخل كل الأوزان المستعملة في نطاق هذه البحور . وجاء بعده الأخفش ـ سعيد بن مسعدة ـ فاستدرك عليه الوزن السادس عشر . وقد كان هذا التقعيد في علم العروض عاملا كبيرا في تضييق دائرة الرخص في استعمال الزحاف والعلل . ولا يعني هذا ان امر العناية بالأوزان الشعرية قد توقف عند الخليل حسب : إذ أن اخرين من المعنيين بشؤون الشعر تناولوا جوانب منه والفوا فيه كابي نصر اسماعيل بن حماد الجوهري .

واذا كان الوزن أحد الأركان الرئيسة في الشعر العربي ، فإن القافية تشكل ركناً أساسياً آخر فيه . وقد عنى المهتمون بسلامة الشعر العربي واخراجه إخراجا ناضجا بالقافية ، واجمعوا على اهميتها في بناء القصيدة العربية وتأثير جرسها في الأذن ، واكتمال المعنى كذلك . ومن هنا نجدهم منذ القديم عابوا على الشعراء ان يقع في شعرهم الاقواء والايطاء والسناد وما الى ذلك من عيوب القافية . ويعد أبو عمرو بن العلاء من أوائل من تكلم بمجالسه عنها ، ولكن الخليل بن أحمد كان من المبدعين في تحرير الكثير من قواعدها واصطلاحاتها . وكان الاخفش من المهتمين بهذا الامر كذلك .

وإذا كانت البحور الشعرية تنقسم بحسب عدد تفعيلاتها الى أوزان طويلة وأخرى قصيرة خفيفة ، فان الأوزان الطوال كانت منذ أوائل الشعر العربي تطغى على غيرها سعة واستعمالا في نظم الشعر وكان الشعراء منذ ذلك الحين اكثر احتفالا بها من البحور القصار لان البحور الطويلة اكثر ملاءمة لقصيدة المديح والفخر والحماسة والرثاء .

وكان لشيوع الغناء اثره في موسيقى الشعر مما حدا ببعض الشعراء الى اختيار الاوزان القصيرة والخفيفة والمجزوءة في شعر الغزل والمجون خاصة لكونها اطوع في الاداء والتلحين .

وكانت القصيدة ذات القافية الواحدة هي الشائعة الا في الشعر المزدوج حيث تختلف القافية من بيت لبيت وتتحد في الشطرين المتقابلين وقد كثر نظم الشعر المزدوج مع نمو الشعر التعليمي وازدهاره وهو ما نقرأه في شعر ابي العتاهية وأبان اللاحقي وابن الهبارية وشاعت المسمطات وهي قصائد تتألف من ادوار ويتركب كل دور من اربعة اشطر او اكثر وتتفق شطور كل دور في قافية واحدة ماعدا الشطر الاخير فانه يستقل بقافية مغايرة تخففاً من

وحدة القافية مانقرأه في بعض شعر ابي نواس كما كثر نظم الرباعيات حيث تتفق القافية في الشطور الاولى والثانية والرابعة وتختلف في الشطر الثالث وهو ما نجده في شعر بشار وحماد عجرد وكان هناك من ينظم المخمسات حيث يؤتى بخمسة أقسمة على قافية ، ثم بخمسة اخرى على وزنها ولكن بقافية اخرى ، وهكذا . وهذا التلوين في الاوزان والقوافي يعود الى نزوع الشاعر الى التجديد في موسيقاه ليلائم بين فكرته ولحنه وليجيء شعره منسجما شكلا ومضمونا .

النثر

النثر ـ اوليته :

لا يستطيع الدارس ان يتحقق على وجه الدقة من تاريخ محدد لنشأة النثر الفني العربي الذي يراد منه التأثير في نفوس المتلقين من خلال الافكار المطروحة والصياغة الفنية والبناء الجميل ولكن المحقق (انه كان للعرب قبل الاسلام نثر فني يتناسب مع صفاء اذهانهم وسلامة طباعهم ولكنه ضاع لاسباب ، اهمها : شيوع الامية ، وقلة التدوين ، وبعد ذلك النثر عن الحياة الجديدة التي جاء بها الاسلام ودونها القرآن) .

ان الحياة العربية القديمة كانت تتطلب الوانا من هذا النثر لمجالسها ، ومنافراتها وشؤونها القبلية ومن هنا كانت الحياة توجب ظهور فنون حيوية كالخطابة والوصية والمثل اذ كان العرب يحتاجون الى الخطابة في خصوماتهم ومنازعاتهم ووفاداتهم على الملوك وفي الدعوة للحرب وفي شؤونهم اليومية كالزواج مثلا . ولان العرب اهل بديهة وارتجال وملكات بيانية فان الخطابة اصابت حظاً من السعة والازدهار واذا كانت نصوص كثيرة منها قد ضاعت مع الايام فان ما وصل الينا منها يكفي للتدليل على طول باعهم في هذا الفن

الكلامي ، والخطباء كثيرون لعل اشهرهم ممن وفد على النعمان بن المنذر في الحيرة وتكلم في حضرته أكثم بن صيفي التميمي وضمرة بن ضمرة وقد عرف اكثم بحكمته وكياسته وسيادته لقومه وكان من اجل ذلك يطلب اليه ان يكتب بما ينتفع به في الحياة من ارشاد وتوجيه ووصية . ويروى ان ملك هجر اونجران والحارث الغساني كانا يكتبان اليه ويطلبان منه ان يكتب لهما بما يستعينان به ومما يمكن الاستشهاد له في هذا المجال خطبة القاها امام النعمان في عاصمة ملكه فقال (ابيت اللعن ، قد علم قومي اني من اكثرهم مالا ، ولم اسل احدا مسألة ، ان المسألة من اضعف المكسبة وقد تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها ، ان من سلك الجدد أمن العثار ، ولم يجر سالك القصد ، واحسن القول اوجزه وخير الفقه ماحاضرت به) ويلاحظ ان مثل هذه النصوص الخطابية تعتمد الوضوح والسهولة لبلوغ الغاية وقد يسجع الخطباء وقد يترسلون فضلا عن ضربهم الامثال في ثنايا نصوصهم لتوكيد المعنى وتقوية الحجة .

وكما عنوا بالخطابة فانهم اهتموا بالامثال وقالوا الكثير منها مما استخلصوه من حياتهم وتجاربهم اليومية وهي في معظمها تلخص اقاصيص وضعت لهم واشهر الذين اكثروا من ضرب الامثال في خطبهم اكثم بن صيفي ولبيد بن ربيعة وعامر بن الظرب وهرم بن قطبة ومن هذه الامثال قولهم : مقتل الرجل بين فكيه ، من استرعى الذئب ظلم ، في الجريرة تشترك العشيرة.

واذا كانت هذه هي بدايات النثر الفني فان نزول القرآن الكريم كان ايذاناً برقي هذا الفن وازدهاره اذ اطّلع العرب على قمة رفيعة من النثر الادبي بهرهم اول الامر وبعد أن استوعبوه وتبينوا آياته راحوا يتأثرونه ويغرفون من معينه ويتعلمون منه في رسائلهم وخطبهم ووصاياهم وقد بلغت الخطبة الدينية ـ السياسية في صدر الاسلام مستوى من الاكتمال والنضج

والقدرة على الاداء ممثلة بما كان يصدر عن الرسول الكريم (ص) وخلفائه الراشدين (رض) من بعـــده .

النثر فى العراق

يبدأ النثر الفني في العراق مرحلته الجديدة في الكوفة بعد ان اتخذها الامام علي (رضي الله عنه) عاصمة لخلافته ويعد الخليفة الراشد الرابـع أحد قسم الخطابة والرسالة لهذا العصـــر ويمثل ما خلفــه في كتاب (نهــج البلاغة) امثلة رائعة بارعة في النثر الفني ممـــا كان يتناول فيه من امــور الدولة والرعية اذ انصبت على التوجيه والوصايا والعهود والتحريض على حرب الخارجين على الخلافة فضلا عن الكتابة الى الولاة بالشؤون العامــة وقد اعتمدت الاساليب المختلفة سجعا ومزاوجة وترسلا . وبرز في العراق خطباء مفوهون من امثال زياد بن ابيه والحجاج بن يوسف الثقفي والاحنف ابن قيس واخرين وقد تميزت هذه الخطب بالقوة ومتانة اللغة (وبأنها جزلة الالفاظ حلوة التعابير قليلة الغريب ، جليلة المقاصد والاغراض تجمع بــين الرصانة واللطف والمتانة والانسجام وكلها على وجه الاجمال عامرة بالسجع في غير تكلف حافلة بالازدواج دون ان تتقيد به معتدلة باستعمال المحسنات البديعية اعتدالا تاما) وكانت رسائل الامام علي وعهوده ومن نهج نهجه وحذا حذوه من الولاة والكتاب (من اسمى مثل البلاغة الصحيحة العالية التــي تستمد روعتها من سمو الفكر وصفاء الشعور وفصاحــة الالفاظ وجمــال الاداء ومن الاقتصار على القدر المعقول من المحسنات البيانية) ولعل في وصية الامام علي لابنه الحسن ما يوضح هذه المميزات الفنية والسمات التي كان عليها النثر في العراق خلال هذه المرحلة الى جانب ما تتضمنه من القيم الخلقيــة والدعوة الخيرة في العلاقات الانسانية والمثل الحميدة في التربيــة العربيــة الاسلامية فهو يقول (احمل نفسك من اخيك عند صرمه على الصلة ، وعند

صدوده على اللطف والمقاربة وعند جموده على البذل وعند تباعده على الدنو وعند شدته على اللين وعند جرمه على العذر حتى كأنك له عبد وكأنه ذو نعمة عليك واياك ان تضع ذلك في غير موضعه او ان تفعله بغير اهله لا تتخذن عدو صديقك صديقا فتعادى صديقك وامحض اخاك النصيحة حسنة كانت ام قبيحة ، وتجرع الغيظ فاني لم ار جرعة احلى منها عاقبة ولا الذ مغبة ولن لمن غالظك فانه يوشك ان يلين لك وخذ على عدوك بالفضل فانه احلى الطرفين .. ولا يكن اهلك اشقى الخلق بك ولا ترغبن فيمن زهد فيك ولا يكونن اخوك على مقاطعتك أقوى منك على صلته ولا يكونن على الاساءة اقوى منك على الاحسان) .

وظلت الرسالة في ظل بني امية تحتفظ بمقوماتها الأدبية ، وتتخذ وسيلة للتعبير عن كثير من معطيات الحياة السياسية والدينية ، وكان ولاة العراق كتاباً مجدين فضلا عن انهم كانوا يصطنعون كتاباً بلغاء يشاركونهم كتابة الرسائل الى عاصمة الخلافة أو عمالهم ، ولم تكن الرسائل الصادرة عن ديوان الدولة وحدها التي تتميز بالجودة والمتانة ، فرسائل غيرها كانت على مستوى رفيع كرسالة الحسن البصري الى الخليفة عمر بن عبدالعزيز التي كانت آية فنية رائعة .

وظل النثر الفني بمختلف فنونه يتسع ويتطور حتى اذا قامت الخلافة العباسية في العراق كان ذلك بداية لنهضة النثر الكبرى اذ تعددت انواعه وفروعه فاصبح فيه الى جانب النثر الادبي الرفيع نثر علمي ونثر فلسفي ونثر تاريخي وكما تغير النثر باقسامه والفاظه ولغته فانه تطور في معانيه وافكاره اذ اننا نجده يتحمل المعاني الفلسفية والعلمية والشرعية والمذهبية وقد استطاعت اللغة العربية ان تثبت قدرتها وعبقريتها في تمكنها من استيعاب كل هذه الالوان في الفكر الانساني واستساغة كل هذه الخواطر والمعاني

الجديدة ولم يخرجها ذلك عن قواعدها ومقوماتها الاصيلة فكان الاداء سليما بليغا باسلوب بعيد عن الغموض والجفاء سما عن الالفاظ المبتذلة ومال الى فصاحة اللفظ وجزالته وحرص على الملاءمة الدقيقة بين المفردات تحاشيا من النفور وعدم الانسجام وظلت اقسامه ثلاثة : السجع والازدواج والترسل .

موضوعات النثر واغراضه

وهي كثيرة متعددة واشهرها واوسعها شيوعا ما يأتي :

١ ـ الخطب : وقد نشطت الخطبة السياسية في اول عصر بني العباس لحاجتهم اليها في تأكيد حقهم في الخلافة وتوطيد اركان دولتهم وكان ابو العباس السفاح وابو جعفر المنصور وداود بن علي من ابرز خطباء هذا اللون ولكن مرور الايام اذن بضعف هذا اللون من الخطابة والخطبة الحفلية كذلك ، غير ان الخطبة الدينية احتفظت بقوتها وديمومتها لانها تستمد هذه القوة وهذه الديمومة من الدين الاسلامي الذي يحكم الخليفة باسمه وبظله يقول الخليفة الرشيد في خطبة دينية بليغة (عباد الله انكم لم تخلقوا عبثا ولن تتركوا سدى حصنوا ايمانكم بالامانة ودينكم بالورع وصلاتكم بالزكاة فقد جاء في الخبر ان النبي « ص » قال « لا ايمان لمن لا امانة له ، ولا دين لمن لا عهد له ، ولا صلاة لمن لا زكاة له » انكم سفر مجتازون وانتم عن قريب تنتقلون من دار فناء الى دار بقاء فسارعوا الى المغفرة بالتوبة والى الرحمة بالتقوى والى الهدى بالانابة فان الله تعالى ذكره اوجب رحمته للمتقين ومغفرته للتائبين وهداه للمنيبين) والخطبة رغم قصرها رائعة قوية تعتمد على انتقاء الجمل القصيرة المؤثرة مع جنوح واضح نحو السجع والاكثار من الالفاظ ذات المسحة الدينية .

٢ ـ المناظرات : احتدمت المناظرات بين الفقهاء والمتكلمين واصحاب الرأى والمذاهب وكان الحوار والجدل في المسائل الدينية والمذهبية يقودان الى تحصين النفس بالاصول الثقافية وسعة الفهم ليتمكن المناظر من التصدي لخصومه ومخالفيه والى العناية بصياغة الكلام صياغة بارعة والبحث عن المعاني الدقيقة والسبك المتين وقد كان لهذا النشاط الفكري والعقلي اثره الواسع في ان يخلف لنا الاقدمون هذا الفيض من نثر المناظرات الذي انعكس اثره على بعض كتاب المقالات كالتوحيدى والجاحظ •

٣ ـ التوقيعات : وهي عبارة موجزة بليغة كانت تصدر عن الخلفاء والوزراء لابداء الرأي في الشكاوى وغيرها مما يتقدم به الناس وكثيرا ماكانوا يوقعون بآية كريمة او بيت شعر او مثل او قولة مأثورة ، من ذلك توقيع السفاح في كتابة جماعة ممن شكوا احتباس ارزاقهم (من صبر في الشدة شارك في النعمة) وتوقيع المهدى لشاعر (اسرفت في مديحك فقصرنا في حبائك) وتوقيع الرشيد على رسالة لوالي خراسان (داو جرحك لا يتسع) •

٤ ـ الرسائل : وهذا فن نثري واسع ازدهر ايما ازدهار في الوانه الادبية والاخوانية والديوانية (الرسمية) وقد قطعت الرسائل الادبية (المقالات) شوطا بعيدا في التطور والكمال اذ كان الكتاب يتحدثون عن كل ما يتصل بالحياة والانسان من مسائل اجتماعية وفكرية وربما سياسية ودينية وقد ازدهرت الرسائل الاخوانية ونمت بفعل اقبال الكتاب على تصوير عواطف الافراد ومشاعرهم في المناسبات المختلفة كالاعتذار والتهنئة والتعزية وما اليها الى جانب الكتابة في كل مايعن لهم ويدور في ذهنهم ويجدونه اهلا لئن يكتب عنه وقد تقترب هذه الرسائل من الرسائل الادبية لفرط العناية بالصياغة واداء المعنى •

اما الرسائل الديوانية فهي التي تصدر عن ديوان الخليفة او الوزير او الوالي وقد كان على الكاتب الديواني الناجح ان يأخذ نفسه بالثقافة العامة لان هذه الرسائل تدور حول شؤون كثيرة تتصل بقضايا الحرب والجهاد والحج والاعياد واخبار الولايات وما اليها وتمثل هذه الرسائل مزجا رائعا بين الغرض الرسمي والفن التعبيري وابرز مميزات هذا اللون نصاعة البيان وتنسيق العبارة والجمع بين البلاغة والوضوح ومراعاة المناسبة من حيث الاطالة والايجاز وابرز كتاب الرسائل : الجاحظ وابراهيم بن المدبر وابو اسحق الصابي وابراهيم بن العباس الصولي والشريف الرضي .

والجاحظ : رجل عبقري وقمة بليغة و ذهن حاد وقلب ذكي تولى كتابة الديوان للمأمون ومكنه قدومه الى بغداد من الاتصال بارباب الادب والعلم والسياسة وكان المع كتاب عصره وهو يمثل ارقى ما بلغته الثقافة العربية الأسلامية في ذلك العصر وثقافته الواسعة المتعددة الجوانب هي التي هيأته لان يحتل هذه المكانة الرفيعة في النثر العربي ، واغراضه النثرية متعددة متنوعة فقد كتب في كبير الامور وصغيرها في المسائل الدينية والفكرية والعقلية والسياسية والاجتماعية اذ كان يأخذ من الكلام ماتجود به قريحته دون تكلف او صنعة وتعد كتبه بحق دائرة معارف متكاملة واشهر كتبه الحيوان والبيان والتبيين والبخلاء والرسائل وكان يقال ان (كتب الجاحظ تعلم العقل اولا والادب ثانيا) وان (كتبه رياض زاهرة ورسائل أفنان مثمرة) و (ان الناس عيال عليه في البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة) . لقد خطا الجاحظ بالكتابة الفنية خطوة جديدة نحو التعبير عن جميع الموضوعات في نصاعة بيان ومرونة اسلوب ومطابقة العبارة لمقتضى الحال مع ميل نحو الاستطراد والاطالة وتكرار العبارة وترديدها لتقوية الاسلوب وتوكيد المعنى وتلوين النغم الصوتي مع اعتماد واضح على التوازن

والازدواج لتحقيق هذه الغايات مع الاخذ بنصيب من السجع تارة والترسل تارة اخــرى ٠

ومن مقالاته البديعة النافعة قوله في وصف الكتاب (الكتاب وعاء مليء علما وظرف حشي ظرفا واناء شحن مزاحا وجدا وان شئت كان ابــين مــن وائل وان شئت كان اعيا من باقل وان شئت ضحكت من نوادره وان شئت عجبت من غرائب فرائده وان شئت الهتك طرائفه وان شئت اشجتك مواعظه ومن لك بواعظ مله وبزاجر مغر وبناسك فاتك وبناطق اخرس وببارد حــار ومن لك بشيء يجمع لك الاول والاخر والناقص والوافر والخفي والظاهر) وعلى هذا النسيج يستمر الجاحظ في بيان مكانة الكتاب وقيمته ولعل فيما قرأناه دليلا على خصائص نثر الجاحظ في تكرار المعنى ومرادفته وطلب غــير ثقيل لالوان البديع كالطباق والاسجاع ٠

٥ ــ المقامة : وهي حكاية قصيرة صيغت باسلوب ادبي وفني يودعها الكاتب فكرة ادبية او فلسفية او خاطرة وجدانية او لمحة من لمحات الدعابــة والهزل واكثر الدارسين يذهبون الى ان مبدعها هو بديع الزمان الهمداني (ت ٣٩٨هـ/١٠٠٧م) وهناك من يذهب الى ان البديع قلد فيها احاديث ابن دريد ٢٢١هـ/٨٣٥م ولكنه زاد عليها جمــالا في التصوير وقوة في الحبكــة القصصية ٠

ان المقامة فن من فنون القصص وذيوع هذا الفن يرجع الى انه وافق السليقة العربية التي تميل الى القصص القصيرة وتتمثل فيها أركان القصة القصيرة بشكلها المبسط وتدور المقامة حول رجل واحد بصير باساليــب المكر وهي من الناحية الفنية ذات اسلوب خاضع للذوق العام الذي يكلف بالسجع وبالمحسنات البديعية والى تضمين النثر حكما وامثالا واشعارا وهي تتضمن الكثير من الاراء والحكم التي تقال في الناس والزمان والحيــاة

واهم ماتختلف به المقامه س ... ... قائمه على الحوار والنقاش بين شخصين خياليين ومن حيث انها تدور حول بطل واحد • واشهر اصحاب المقامات البديع والحريري وابن نباتة وابن ناقيا البغدادي ولعل ذيوع هذا الفن الجميل يعود الى الحريري الذي انتشرت مقاماته في جميع الاقطار العربية وصارت مضرب المثل في الفصاحة والبيان ويلاحظ ان صاحب المقامة يعنى بارسال القصة وسوق الوصف وتنسيق الفكاهة والقضاء باحكام ادبيه وفلسفية من غير اهتمام كبير بالعقدة القصصية ولكن المقامة دون ريب تدلل على كمال الاقتدار في الصياغة الفنية لفظا وفكرة واسلوبا وخيالا و... ... تلاعب بالعبارة والالفاظ فضلا عن ان المنشيء كان ذا هدف اجتماعي واضح في كتابة المقامة لانها تمثل لونا مـن الـوان النقـد للاوضاع الاقتصادية والاجتماعية القائمة بل هي اسلوب نقد غير مباشر لهذه الاوضاع لا يملك القدرة على الافصاح والمواجهـة •

الحريري (٤٤٦ ــ ٥١٦ هـ / ١٠٥٤ ــ ١١٢٢ م) وهو ابو محمـد القاسم بن علي الحريري كاتب ومصنف له من الكتب (درة الغواص في اوهام الخواص) و (ملحة الاعراب في النحو) فضلا عن رسائله واشعاره ومقاماته •

وقـد كتـب خمسـين مقامـة حـذا فيهـا حـذو البديع ونالت شهرة واسعة جدا وقد جمع فيها بين حقيقة الجودة والبلاغـة ومما يدل على منزلة مقاماته كثرة شراحها كالشريشي والمطرزي وقد ترجمت قديما الى السريانية والعبرانية وترجمت حديثا الى لغات اوربية وغير اوربية وبطل رواياته رجل اسمه ابو زيد السروجي وكان الحريري يعزو روايـة المقامات الى رجل اسماه الحارث بن همام ومقامات الحريري موازنة بمقامات بديع الزمان ادق صنعة وافضل شعرا واكثر تعمقا في اللغة واوضاعها وامثالها وحوادث رجالهـا •

المقامة الاسكندرانية

قال الحارث بن همام : طحابي مرح الشباب وهوى الاكتساب الى ان

جبت مابين فرغانة وعانة اخوض الغمار لاجني الثمار . فبينما انا عند حاكم الاسكندرية في عشية عرية وقد احضر مال الصدقات ليفضه على ذوى الفاقات اذ دخل شيخ عفرية (خبيث ماكر) تعتله امرأة مصبية (ذات صبيان) فقالت ايد الله القاضي وادام به التراضي اني امرأة من اكرم جرثومة (اصل) واطهر ارومة وكان ابي اذا خطبني بناة المجد وارباب الجد سكّتهم وبكّتهم وعاف وصلتهم وصلتهم واحتج بانه عاهد الله تعالى بحلفة ان لا يصاهر غير ذى حرفة فقيض القدر لنصبي ووصبي ان حضر هذا الخدعة نادى ابي فاقسم بين رهطه انه وفق شرطه وادعى انه طالما نظم درة الى درة فباعهما ببدرة فاغتر ابي بزخرفة محاله وزوجنيه قبل اختبار حاله فلما استخرجني من كناسي ورحلني عن اناسي وجدته قعدة جثمة والفيته ضجعة نومة وكنت صحبته برياش وزى واثاث ورى فما برح يبيعه في سوق الهضم ويتلف ثمنه في الخضم والقضم وقد قدته اليك واحضرته لديك ليعجم عود دعواه وتحكم بيننا بما اراك الله فاقبل القاضي عليه وقال له : قد وعيت قصص عرسك فبرهن عن نفسك والا كشفت عن لبسك وامرت بحبسك فاطرق وقال :

انا امرؤ ليس في خصائصه	عيب ولا في فخاره ريب
وراس مالي سحر الكلام الذي	منه يصاغ القريض والخطب
اغوص في لجة البيان فاخـ	تار اللالي منها وانتخب
فاليوم من يعلق الرجاء به	اكسد شيء في سوقه الادب

ويسمع القاضي الابيات فيرق له ويفض المشكلة بقبضة من الدراهم يناولهما اياها ثم يوصيهما بالصبر عسى الله ان يأمر بالفتح من عنده .

٦ ــ القصة والحكاية : كان العرب منذ القديم يحبون السمر ويمضون اوقات فراغهم بسرد الحكايات والاقاصيص فاجتمع لهم من ذلك الكثير ومن هنا وجدنا الكتاب يعنون بهذا الجانب من النثر ويروون لنا في كتبهم امثلة

صالحة منها كالذي وصل الينا من روايات الاغاني ونشوار المحاضرة والفرج بعد الشدة للمحسن التنوخي والمحاسن والاضـداد والمحاسن والمسـاوىء لابراهيم البيهقي وحكايات ابن الانباري وقصص ابي الفرج الببغاء فضلا عن قصة (مئة يوم ويوم) وقصة (تحفة الظرفاء في حكايات الخلفاء) وهذه وقصة الف ليلة وغيرهما تشكل ركنا اساسا في ادب القصة في العصر العباسي ٠ وهذه الاقاصيص جميعا تعنى بالعرض وتتوفر فيها اركان القصة الرئيسة وتهـدف الى التسلية والتربية والاعتبار من خلال مادتها السهلة واسلوبها الواضـح المرن البعيد عن السجع والوان البديـع ٠

لقد اراد اصحاب هذه القصص ان يدونوا بعض الاوصاف وان يدفعوا بعض النوادر والفكاهات او ان يشرحوا بعض النظريات الفلسفية والادبيـة او ان يصفوا بعض الحوادث الغرامية وما الى ذلك مما يشوق القلوب والعقول والاذواق ، فدونوا لنا هذه الحكايات ووضعوا هذا الفيض من الاقاصيص التي تتفاوت في لغتها واساليبها وطرائق عرضها ومناحيها بين الجد الهـزل والمتانة والسخف والقوة والضعف والطول والقصر وهي في كل ذلك ثمـرة من ثمار الرقي العقلي والادبي ولون من الوان النثر الاصيل ومعين ثر للمتأدبين والدارسـين ٠

٧ ــ الكتابة النقدية : وكان النقد الادبي بابا واسعا من ابواب النثـر الفني وموضوعاته وذلك احد مظاهر تطور هذا النثر وتمكن النقاد من اتخاذه اداة للتعبير الادبي عن آرائهم في النصوص الشعرية والنثرية وفي الشـعراء والكتاب على حد سواء حتى صرنا نجد كتابا يتخصصون بهذا اللون مـن الادب وصرنا نجد هؤلاء ينسجون نثرا تتكامل فيه الاداة الفنية اسـلوبـا وتعبيرا وفكرة ومن هنا وصلت الينا مجموعة طيبة من كتب النقد الادبـي ومقالاته التي دلت في الوقت نفسه على المدى الرفيع الذي بلغه ادباء العصر ومن ابرزهم ابو القاسم الآمدي المولود في البصرة والمتوفى فيها سنة ٣٧١هـ/٩٨١م

والذي خلف لنا كتاب (الموازنة) الذي يعد من اشهر كتب النقد الادبي ومنهم ابو عبدالله المرزباني المولود ببغداد سنة٢٩٧هـ/٩٠٩م والمتوفى سنة٣٨٤هـ / ٩٩٤م وخير كتبه في هذا الباب (الموشح) وابوبكر الباقلاني المولود في البصرة والمتوفى سنة٤٠٣هـ/١٠١٢م واجود كتبه (اعجاز القرآن) واخرون كثيرون غيرهم وقد دارت آراؤهم حول مجموعة من اركان الادب ومقوماته مما يتصل بدراسة الشعر والنثر من حيث اسرار البيان وحسن الطبع وجودة الصنعة ودقة التصوير وحسن التشبيهات وصدق العاطفة فضلا عن دراسة المعاني والالفاظ وما يتعلق بهما من حيث التجديد والابتكار ومتانة الالفاظ ووحشيها والعناية بالانواع البديعية والصنعة الفنية والموازنة بين الشعراء من حيث سبقهم الى ابتكار المعاني والتجديد في الصياغة وتصرفهم في الاغراض الشعرية ومنحاهم اللغوي وتفننهم البديعي ومقدار احتفالهم بالصنعة الزخرفية والاخذ عن بعضهم ومكانتهم الشعرية وسيرورة قصيدتهم واهتمام الناس بهم وماكان بينهم من تنافس وخصومة ادبية والانقسام في تأييد هذا من الشعراء او ذاك ولعل قراءتنا لهذا النص النقدي الذي ساقه الآمدي في موازنته يطلعنا على جانب من هذه المماحكات الادبية والاساليب النقدية التي اعتمدت لاستخلاص الرأي والحكم على فحول الشعراء والمتقدمين منهم كالذي جرى بين من يؤيد ابا تمام الطائي وينتصر له وبين من يقف الى جانب البحتري الطائي ويقدمه على ابي تمام وهو مايرينا صورة مشرقة من الحجاج النقدي الرفيع .

قال صاحب ابي تمام : كيف يجوز لقائل ان يقول : ان البحتري اشعر من ابي تمام وعن ابي تمام اخذ وعلى حذوه احتذى ومن معانيه استقى . وتتلمذ له حتى قيل : الطائي الاكبر والطائي الاصغر واعترف البحتري بان جيد ابي تمام خير من جيده على كثرة جيد ابي تمام فهو بهذه الخصال ان يكون اشعر من البحتري اولى من ان يكون البحتري اشعر منه .

قال صاحب البحتري : اما الصحبة فما صحبه ولا تتلمذ له ولا روى ذلك احد عنه ولا نقله ولا رأى قط انه يحتاج اليه . الا اننا مع هذا لا ننكر ان يكون قد استعار بعض معاني ابي تمام لقرب البلدين وكثرة ماكان يطرق سمع البحترى من شعر ابي تمام فيعلق شيئا من معانيه معتمدا للاخذ او غير معتمد وليس ذلك بمانع ان يكون البحتري اشعر منه فهذا كثير قد اخذ عن جميل وتلمذ له واستقى من معانيه فما رأينا احدا اطلق على كثير ان جميلا اشعر منه بل هو ــ عند اهل العلم بالشعر والرواية ــ اشعر من جميل .

قال صاحب ابي تمام : فابو تمام انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه اولا واماما متبوعا وشهر به حتى قيل : مذهب ابي تمام وطريقة ابي تمام وسلك الناس نهجه واقتفوا اثره وهذه فضيلة عري عن مثلها البحتري .

قال صاحب البحترى : ليس الامر في اختراعه هذا المذهب على ماوصفتم ولا هو باول فيه ولا سابق له بل سلك في ذلك سبيل مسلم بن الوليد واحتذى حذوه وافرط واسرف وزال عن النهج المعروف والسنن المألوف .

قال صاحب ابي تمام : انما اعرض عن شعر ابي تمام من لم يفهمه لدقة معانيه وقصور علمه عنه وفهمته العلماء واهل النفاذ في علم الشعر واذا عرفت هذه الطبقة فضله لم يضره طعن من طعن بعدها عليه .

قال صاحب البحترى : فابن الاعرابي واحمد بن يحيى الشيباني وقبلهما دعبل بن علي الخزاعي قد كانوا علماء بالشعر وبكلام العرب وقد عرفتم مذاهبهم في ابي تمام وارذالهم لشعره وطعن دعبل عليه .

وهكذا يستمر الحجاج والمناظرة في المفاضلة والرد والطعن والدفع لتقدم بعد هذا كله مثالا بديعا في اصول النقد الادبي عند العرب وكيفية اخراجه

اخراجا نثرياً فنيا يجمع بين علمية النقد واركانه وطرائق تناوله وفنية التعبير والصياغة من حيث بناء الجملة واعتماد الاساليب المعروفة .

سمات وخصائص

توسع النثر الفني الى حد كبير في موضوعاته فاخذ يزاحم الشعر في ابرز اغراضه مدحا وغزلا وهجاء ووصفا ورثاء وشكوى .

كما انه صور الحياة عامة : سياسية واجتماعية وعقلية وثقافية من خلال الرسائل بانواعها الادبية والاخوانية والرسمية (الديوانية) وآداب السمر والحكايات التي تمثل ضربا من الاتجاه الشعبي في هذه الجوانب من النثر وقد مال الكتاب في عصر ازدهاره الى اقتناص الصور البلاغية والاخيلة المبتدعة والمعاني المبتكرة والعناية بالالفاظ الادبية من حيث فصاحتها واداؤها لمعانيها كما اجادوا تضمين الانواع النثرية ما يتناسب ومعانيها ومراميها من الآيات الكريمة والاحاديث الشريفة واطايب الشعر والامثال فضلا عن اعتماد الاتجاهات الاسلوبية المختلفة ترسلا وازدواجا وسجعا وكان ذلك الاعتماد يتباين سعة وضيقا بين مرحلة واخرى ومن كاتب لآخر الى جانب تميز اسلوبه بشكل عام بالطبع والمرونة بحكم البيئة المتحضرة التي نشأ فيها الكتاب والمتلقون لهذه الكتابات غير اننا نجد في جانب آخر منه اضرابا من التكلف والتقصير كما في بعض كتابات الحريري والحصكفي ، كما توسع الكتاب في استخدام الاسلوب الساخر للاعراب عما يعتمل في نفوسهم من نقد وازدراء لكثير من مظاهر الحياة وللافراد كذلك ، فلقد اصبح التيار المتهكم عمودا من اعمدة الاسلوب النثري في العصر العباسي واتجاها بارزا وواسعا يتمثل بشكل

واضح في كتابات الجاحظ وابي حيان . واخيرا فان النثر عموما اعتمد اللغة الرصينة والفصيحة في التعبير عن مختلف المقاصد والمرامي التي يرومها الكتاب وفي مختلف الوانهم النثرية ولكن هذه اللغة لم تكن واحدة فللمناظرة الفاظها وللخطابة تعابيرها وللمقامة جملها وهي في كل ذلك تختط لنفسها وسطا في تناول الموضوعات يبتعد عن المعاظلة والاغراب من جهة وعن الابتذال والعامية والركاكة من جهة اخرى .

وبعد ، فهذا الذي تقدم بعض من بعض ما يمكن ان يقال في أدب مرحلة زمنية طويلة ، تمتد من عصر ما قبل الاسلام حتى الغزو المغولي ، اذ كان هناك كمّ هائل من الشعراء والنثار ، فضلا عن التراث الادبي الكبير الذي ضم موضوعات وفنونا متشعبة .ومن هنا كان على الباحث ان يعنى بالملامح العامة والسمات الاصيلة دون الدخول في تحليلات ادبية طويلة تخرج الموضوع عن الغاية التي درس من اجلها ، والحد الذي وضع له .

المصـــادر والمراجـــع

الآمدي ابو القاسم الحسن بن بشر ـ الموازنة ط . دار المعارف /١٩٧٢

ابن الاثير علي بن محمد ـ الكامل في التاريخ . ط صادر

ابن الاحنف ، العباس ـ ديوانه ط . دار الكتب المصرية / ١٩٥٤ .

الاصبهاني ابو الفرج علي بن الحسين ـ الاغاني ط . دار الكتب

الاعشى ، ميمون بن قيس ـ ديوانه المطبعة النموذجية .

الصبح المنير في شعر ابي بصير ط . دلف هلـز هوسن / ١٩٢٧ .

بسيوني ، ابراهيم ـ نشاة التصوف الاسلامي ط . دار المعارف / ١٩٦٩

البصير ، محمد مهدي ـ عصر القرآن . مطبعة العاني

ابو تمـام حبيب بـن اوس ـ ديوانــه ط . دار المعارف بمصر .

الحماسة منشورات وزارة الاعلام ١٩٨٠ .

الجاحظ ابو عثمان عمرو بن بحر ـ البيان والتبيين . نشـر مكتبة الخانجي .

الحيوان ط . دار الكتاب العربي .

الجمحي ، محمد بن سلام ـ طبقات الشعراء ط . دار النهضة العربية

بن الجهم علي ـ ديوانه ط . لجنة التراث العربي

الجواري ، احمد عبدالستار ـ الشعر في بغداد ط . دار الكشاف ١٩٥٦

الحريري ابو محمد القاسم بن علي ـ مقامات الحريري المطبعة الادبية بيروت ١٨٨٦

الحصري ابو اسحق ابراهيم بن علي ـ زهر الادب ط . البابي الحلبي

الحموي ، شهاب الدين ياقوت بن عبدالله ـ معجم الادباء مطبعة هندية بالموسكي .

ابن خلكان ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد ـ وفيات الاعيان ط . السعادة

الدينوري ، ابو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ــ الشعر والشعراء ط . دار الثقافـــة .
ابن رشيق القيرواني ــ العمدة . ط . السعادة
الرضي ابو الحسن محمد بن الحسين ــ نهج البلاغة ط . الاستقامة
السجستاني ، سهل بن محمد ــ كتاب المعمرين من العرب . المطبعة المحمدية .
الضبى المفضل بن محمد ــ المفضليات ط . دار المعارف بمصر
ضيف ، شوقي ــ العصر الجاهلي ــ ط . دار المعارف بمصر
الطبري محمد بن جرير ــ تاريخ الرسل والملوك ط . دار المعارف بمصر
ابن عبدربه ، ابو عمر احمد بن محمد ــ العقــد الفريــد ط . لجنــة التأليف والترجمــة والنشـــر .
العبدى ، المثقب ــ ديوانه ط . صادر
ابو العتاهية اسماعيل بن القاسم ــ ديوانه ط . صادر
مبارك ، زكي ــ النثر الفني في القرن الرابع ــ ط . السعادة بمصر
المتنبي احمد بن الحسين ــ ديوانه ط . الاستقامة
ابن المعتز ، عبدالله ــ ديوانه ط . دار الحرية للطباعة .
المقدسي ، انيس ــ تطور الاساليب النثرية ط . دار العلم للملايين ١٩٦٠
النابغة الذبياني ــ ديوانه . ط . صادر ،

المحتـوى

